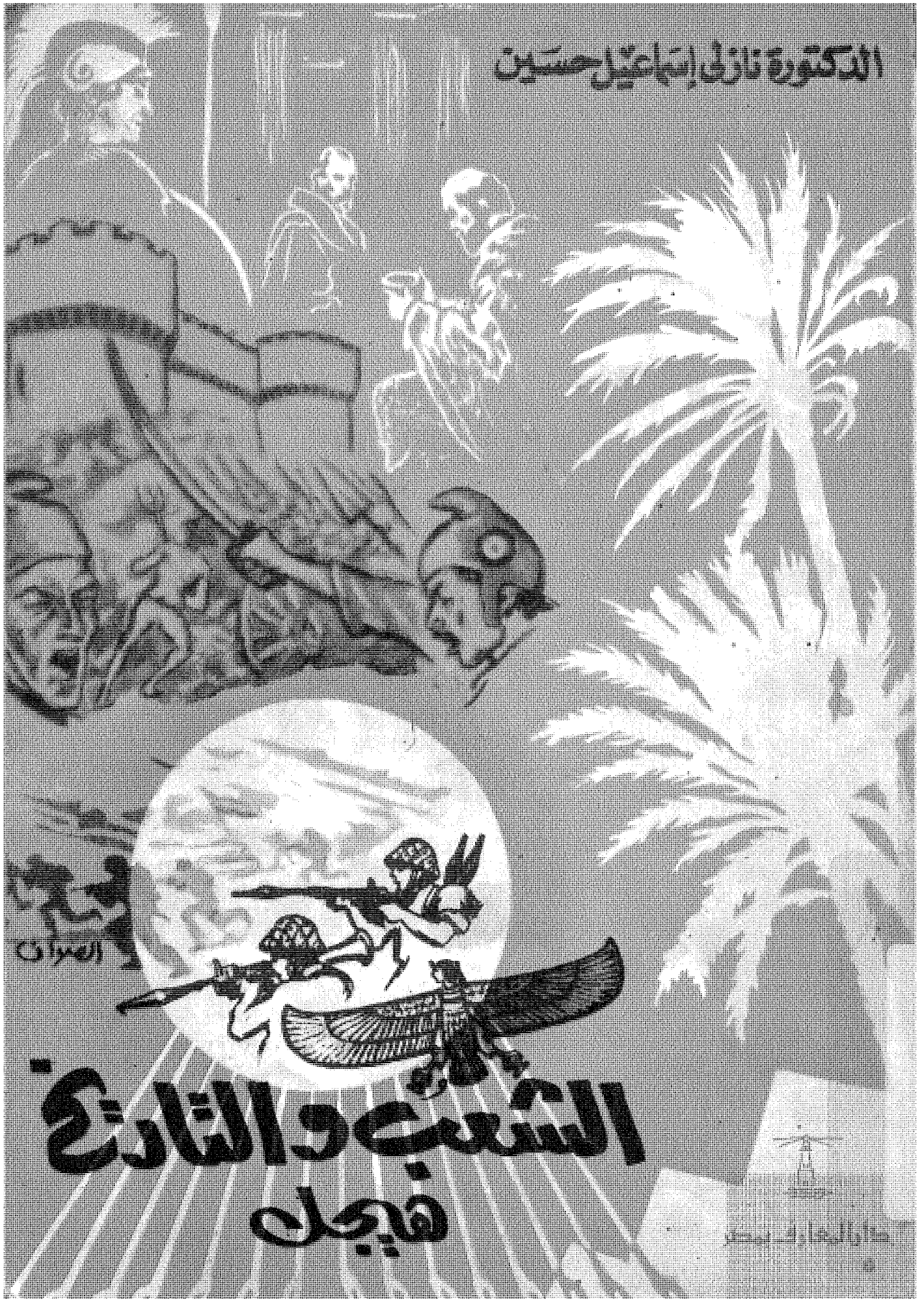


الدكتورة نازكي إسماعيل حسين



الشعب والثورة
في جيل

السرمان

طبعة الأولى ١٩٦٥

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة أ / سيد أحمد متولى الجوهري
طنطا

الشَّعْبُ وَالنَّارِخ

هيجل

بقلم

الدكتورة نازكي إسماعيل حسين

دبلوم الدراسات العليا

ودكتوراه الدولة في الفلسفة من السوربون

أستاذة الفلسفة بكلية الآداب - جامعة عين شمس



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ٢٠٠٢.ع.

Le Peuple et l'Histoire

Hegel

par

Nazli Ismail Hussein

Diplômée d'études supérieures

et Docteur ès Lettres en Philosophie

de la Sorbonne

Professeur de Philosophie à l'Université Ain Chams.

Tous droits réservés à l'auteur

هذه الأفكار نبتت في أرض مصر .
خضراء مثل زرعها ،
صافية مثل سمائها ،
عذبة مثل نيلها .

المؤلفة

مقدمة

نحو آفاق أوسع للفلسفة

هل يمكن أن يعيش المفكر بعيداً عن روح العصر وأحداثه؟

هل يمكن أن يخلق قلبه وفكره ، عن حقيقة عصره وزمنه ؟

إذا استطاع البعض بدعوى أو بأخرى ، فالبعض الآخر قد لا يستطيع . وأنا مع البعض الآخر الذى يضع قلبه وفكره فى ميزان عصره . ولست بحاجة هنا إلى أن أستشهد بأقوال كبار المفكرين والكتاب ، الذين كانوا فى الماضى لسان عصرهم ، وفكره نابض ، وضميره الحى . ذلك لأن هذه المسألة قد أصبحت فى وقتنا الحاضر ، أكبر من عملية استشهاد بالأقوال ونقل للكلمات . إنها مسألة التزام وواجب يتحدد بالزمان والمكان .

وقد يفضل البعض الخروج من إطار الزمان والمكان المحددين والمحدودين . ولكنهم بذلك يفقدون حقيقة الفكرة وصدق الكلمة . وأريد أن أؤكد هنا ما أكده الفيلسوف الألمانى « كنت » عن أهمية الزمان والمكان ، فى الإدراك الصحيح للعالم ، وفى وحدة النظرة الموضوعية إليه . فلقد تأسس العلم الإنسانى على قاعدتى المكان والزمان ، محققاً لذاته وبالدرجة الأولى الموضوعية العلمية . وكان السؤال الذى يتردد عند هذا الفيلسوف ، وظل يتردد من بعده هو : هل يستطيع العقل الإنسانى أن يخرج عن حدود الزمان والمكان فى مجال المعرفة؟ والإجابة عن هذا السؤال هى أنه عندما يكون العقل الإنسانى صريحاً مع نفسه ، فإنه يعرف بأنه لا يستطيع أن يخرج من حدود المكان والزمان ، وهذا بالتأكيد فى إطار العلم والمعرفة^(١) .

إن الانطلاق من قاعدتى المكان والزمان ، يحقق للفكر المكاسب الآتية :

أولاً : التأكد من صدق المقدمات .

ثانياً : التوصل إلى منهج سليم لتنظيم الحقائق وترتيبها فى هذا الإطار (المكان والزمان) .

ثالثاً : إثبات موضوعية الحقيقة .

(١) يقول الإمام الغزالي فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد (نشرة أفرقة ١٩٦٢) : كيف يتولى

الصواب من اقتنى محض العقل واقتصر ، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر ؟

وإذا كان العالم الطبيعي أو الرياضى يستطيع أن يترجم الزمان والمكان إلى معادلات حسابية وإلى « كم » ، فإن المفكر يحاول أن يجعل منهما إطاراً حياً للحقيقة .

من المفكرين من حاول أن يفصل بين المكان والزمان ، ومثال ذلك برجونون الذى أفاض فى وصف الزمان الحى فى الشعور الإنسانى . إن فلسفة برجونون التى فتحت أبوابها للزمان ، قد أغلقت نوافذها فى وجه المكان . وتصبح الذات المفكرة عند برجونون ، ذاتاً منغلقة على نفسها ، تحيا بوجودها وشعورها ، كما كانت الذات عند ديكارت تحيا بفكرها . لكن لماذا هذا الإصرار فى الفصل بين الزمان والمكان ؟ بين الذات والعالم الخارجى ؟ وكيف يمكن أن تكون الذات ، ذاتاً واعية ولا تحي مكانها فى هذا العالم ؟

من الممكن أن يطول الحوار بين الفلاسفة الذين يطالبون باستقلال الذات وبالتالي الفكر ، بعيداً عن العالم . وربما كان فى هذا المطلب راحة للفكر والبال ، إذ يكفى أن يتأمل الفرد فى ذاته (ديكارت) ليستخرج منها ما يشاء من الأفكار الفطرية والضرورية .

لكن الحق ، لم يعد الفكر يطمع فى الراحة ، فى عصر يسوده القلق والصراع أكثر من أى عصر مضى . حتى إن التزام المفكر بالزمان والمكان معاً ، أصبح حقاً وواجباً لا يصح التفریط فيهما . وهناك فلسفات عظيمة لا يمكن تفسيرها وفهمها إلا فى إطار العصر الذى نبعت فيه ، مثل فلسفة أفلاطون وكنت وهيجل . حتى العلم الموضوعى نفسه ، هو صورة ومرآة للعصر ، ولا يمكن أن يكون علم إقليدس فى القرن العشرين ، وعلم أينشتاين فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد صورة واحدة !

إن الفلسفة أياً كانت صورها ، هى أولاً وقبلأً أيديولوجية العصر ، بكل ما فيه من مقومات حضارية تشمل النواحي العلمية والثقافية ، والسياسية والاجتماعية . إنها بمحض تعريفها ، يجب أن تكون فلسفة للعصر ، قبل أن تكون فلسفة لكل العصور ، وبهذا المفهوم نستطيع أن نقدم تصويراً جديداً للفلسفة ، بعيداً عن كل الصراعات والخلافات النظرية والمذهبية .

هل حقاً يجب أن تكون الفلسفة أرض المشاحنات والأحقاد التى لا تنتهى بين أصحاب المذاهب والنظريات المختلفة ؟ ولماذا لا تفسر بأنها مرآة للعصور والحضارات المختلفة ؟ وإذا كانت الفلسفة تلبى ضوءاً على العصر ، فإنها كذلك تعكس أضواء العصر .

هذه مجرد محاولة للكشف عن أبعاد جديدة وواسعة للفلسفة ، أبعاد العصر من زمان ومكان . ولا أعتقد أننى استوحيت هذه الفكرة من قراءة فلسفة أفلاطون ، أو كنت ، أو هيجل ... إلخ . إذ مهما كانت قوة النظريات الفكرية فى الإقناع ، فإنها لا تساوى شيئاً بجانب الواقع نفسه . والحقيقة ذاتها فى عصرنا ، أى فى زمانى ومكانى ، ... لقد عاشت مصر أحداثاً عظيمة فى هذا

العصر ، وكان لا بد من أن نعيش معها ، أفراحها وأحزانها ... وبلدت الحقيقة أعظم من الكلمات وأروع من الصور ...

من مصر ، من أرضها ومن ترابها ، من حاضرها وماضيها ومستقبلها ... استوحيت هذه الأفكار ، لا من أفلاطون أو كنت أو هيجل ...

وهذا الكتاب ينقسم إلى خمسة أبواب هي :

الباب الأول : شعب بلا تاريخ : ولقد تناولت فيه بالبحث والتحليل فلسفة أفلاطون من خلال عصره . ولم يفتنى أن أبين بقدر ما استطعت المؤثرات المصرية في هذه الفلسفة .

الباب الثاني : هيجل في عصر الثورة : ولقد أوضحت فيه ملامح كثيرة ، وحقائق عديدة ، عن هذا العصر ، وعن مدى تأثير هيجل بها . وبينت أن أكثر المعلومات لم تظهر لدى المؤرخين الغربيين ، إلا في السنوات الأخيرة .

الباب الثالث : أصالة الحضارة والتاريخ : وفيه عرض واف لخرجه التاريخ عند هيجل ، ومقوماتها الروحية والحضارية ، وذلك من خلال كتاب « ظاهريات الروح » . ولقد أكدت فكرة الأصالة ، كما جاءت عنده ، وقارنت بين آرائه وآراء المؤرخين والمفكرين العرب . فالبحث عن الأصالة يجب أن يكون ، نقطة الانطلاق لكل فلسفة صادقة وحقيقية .

الباب الرابع : فلسفة لكل الشعوب : إن فلسفة هيجل للتاريخ ، تريد أن تكون فلسفة لكل الشعوب ، أى فلسفة تحدد المسار التاريخي للأمم والشعوب ، على نحو جليل وكلمى واحد لا يمكن أن يكون معياراً صادقاً وكاملاً لكل الشعوب .

ولقد اتبع ماركس نفس منهج هيجل ، وإن كان قد اختلف معه في المبادئ . ولكن مثل هذا التاريخ الفلسفى يفسد جوانب كثيرة من صدق التاريخ وأصالته ، ولقد ذكرنا نماذج من النقد الذى وجه إلى هيجل ، وإلى كل فلسفة للتاريخ .

الباب الخامس : مصر الشعب والتاريخ : هذا هو الجانب التطبيقي لكل هذه النظريات والآراء . وهو يعتبر مدخلاً إلى الفلسفة القومية عامة ، وإلى الفلسفة المصرية خاصة .

لقد استخدمت في هذا الكتاب المحاضرات التى ألقيتها على طلبة الدراسات العليا في كلية الآداب ، وكلية البنات بجامعة عين شمس ، طوال عامين ٧١-١٩٧٢ ، ٧٢-١٩٧٣ ؛ وكانت تشمل ترجمة « الدروس في فلسفة التاريخ » لهيجل من النص الفرنسى Gibelin مع الشرح والتعليق عليها .

البَابُ الْأَوَّلُ

أفلاطون

شعب بلا تاريخ

إلى متى يظل تفسيرنا للفلسفة الأفلاطونية تفسيراً نظرياً بحتاً ؟
 إلى متى تظل هذه الفلسفة مجموعة من النظريات الخالصة التي نتلوها الواحدة تلو الأخرى ؟
 هذا المفكر الذي أعطى الحياة للفكر ، لماذا لا نعطي الحياة لفكره ؟
 في هذا الباب محاولة لإحياء فكر أفلاطون في إطار الأحداث الحية في عصره . ولا كان هذا
 العصر يتميز بمقوماته السياسية والاجتماعية والفكرية ، فلقد حاولنا أن نرسم صورة له بقدر ما اتضح
 لنا ، من خلال الدراسة والبحث .

وهذا الباب ينقسم إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : صراع في المدينة .

الفصل الثاني : الكلمة والشعب .

الفصل الثالث : مأساة الحكيم .

الفصل الرابع : الدولة - المدينة .

الفصل الخامس : الفيلسوف المتوج .

الفصل الأول

صراع في المدينة

كانت بلاد اليونان قديماً مقسمة إلى مدن مستقلة استقلالاً ذاتياً . وكان الشعب الذي استوطن واستقر في هذه المدن يرجع أصله إلى قبائل هاجرت من شمال البلقان في القرن العشرين قبل الميلاد . ويبدو أن هذا الشعب الذي اختار لنفسه مثل هذا التقسيم السياسي للبلاد ، ظل يحفظ بعصبية وبروحه القبلية .

وكان من نتيجة هذا الانقسام بين المدن ، أن اختلفت النظم السياسية فيها ، فاختلفت كل مدينة لنفسها نظاماً سياسياً خاصاً . ونحن إذ نتكلم عن السياسة التي تدبر شؤون كل مدينة ، إنما نتكلم عن المحور الرئيسي الذي تدور حوله حياة الأفراد والجماعة في هذه البلاد . فلم تكن السياسة عند الإغريق ، مجرد احتراف أو ممارسة ، بل كانت تعني في الحقيقة شيئاً أكبر وأعمق . . كانت تعني المشاركة في الحكم بصورة أو بأخرى ، والإحساس بأن المواطن هو في نهاية الأمر الحاكم لا المحكوم .

لذلك ، مهما اختلفت النظم السياسية في المدن اليونانية ، فإنها كانت كلها تحاول أن تحقق للإغريق هذه المشاركة في الحكم . وبفضل هذا المفهوم ، استطاعت القبائل المهاجرة أن تبنى وتشيد حضارة من أرق الحضارات التي عرفها التاريخ .

كان اليوناني يريد أن يحكم نفسه بنفسه . حتى وإن دعت الأمور إلى أن يحكم على نحو غير مباشر ، فلا بد وأن يكون أولاً وأخيراً هو صاحب الرأي وصاحب الاختيار . لا فرق في هذا بين الأرستقراطية الملكية التي اختارتها أسبرطة والجمهورية الديمقراطية التي اختارتها أثينا . لا فرق كبير طالما أن الشعب هو الذي يختار الملك هنا والرئيس هناك

لكن ما الشعب ؟

كلمة الشعب « ديموس » Demos كانت لها دلالة خاصة عند الإغريق . كانت هذه الكلمة لا تشير في بداية الأمر إلى الطبقة الثالثة كما ظهرت في المجتمع الحديث ، وإلى الفقراء دون الأغنياء ، أو إلى رجل الشارع في المجتمع الذي يفرض على نفسه التفرقة بين الطبقات . إنما كلمة الشعب كانت تشير في المدلول الأصلي للكلمة إلى جميع المواطنين الذين يشاركون في الحياة السياسية للمدينة .

ومع الزمن ، كان كل شيء يتغير . تغيرت الأوضاع السياسية ، فتغير المفهوم والمردول ، وأصبح من الضروري تحديد المفهوم الجديد لهذه الكلمات .

ولا أحد يستطيع أن يفهم شيئاً من فلسفة أفلاطون ، إلا بعد أن يتعرف على الجانب السياسي الهام في الحياة الإغريقية . فهذا هو الواقع الذي سبق تفكيره . وقد يعتقد البعض أن هذه الفلسفة المثالية يجب أن تبدأ بالمثل والصور . لكن هذه الفلسفات المثالية قد تكون أكثر حاجة من غيرها إلى ربطها بالواقع لمعرفة البواعث والدوافع الحقيقية التي دفعت إلى رفض هذا الواقع وتجاوزه . أن تبدأ الفلسفة الأفلاطونية وتنتهي بالمثل معناه أنه قد عاش حياته في عالم المثل ، وأنه لم يعيش يوماً واحداً في عصره وفي وطنه .

كانت في بلاد اليونان مدينتان كبيرتان هما أسبرطة وأثينا . كل واحدة اختارت لنفسها نظاماً سياسياً مختلفاً ، وارتقت بفضل هذا النظام ، إلى أعلى درجة ومكانة . كانت أسبرطة مدينة ملكية أرسقراطية ، يحكمها ملك يختاره الشعب ، ويساعده في الحكم خمسة من النبلاء ، هم المراقبون الخمسة الذين يختارهم الشعب أيضاً . فلم يكن الملك مفروضاً على الشعب ، ولم يكن أفراد الشعب يشعرون بأنهم رعايا أو موالى لهذا الملك . بل على العكس ، كان الشعب هو الذي يعين الملك ويختاره . شعوره بأنه يختار حاكمه كان وحده كافياً لكي يحس كل فرد من أفرادها بأنه حاكم لا محكوم . ولا نعتقد أن اختيار المراقبين الخمسة من بين النبلاء كان يحمل في حد ذاته تفرقة طبقية بين النبلاء وغير النبلاء من سائر أفراد الشعب . ذلك لأن المجتمع الأسبرطي كان مجتمعاً زراعياً . وكانت الحياة الزراعية لا تعطى للمواطنين وقتاً كافياً للانشغال الدائم بأمور السياسة . فاختاروا من بينهم لشئون السياسة هذا العدد القليل من النبلاء الذين يملكون الأرض ولا يعملون فيها .

شيء آخر يؤكد عدم التمييز والتفرقة بين الطبقات ، هو الاشتراكية التي كانت سائدة في هذا المجتمع الزراعي . إذ كانت الدولة (الدولة - المدينة) هي التي توزع الأراضي على المواطنين ، كما تتولى شئون تعليمهم وتدريبهم . فعندما كان يبلغ الطفل السابعة من عمره كانت تسلمه أسرته إلى الدولة . وهكذا كان يتساوى معاً في شئون التربية والتعليم ، أبناء النبلاء وغير النبلاء .

وكان من الممكن في هذا المجتمع الزراعي أن يتفرغ فيه كل فرد للعناية بأرضه . لكن النظام العسكري الذي نظمته الدولة لأبنائها وحد الحياة بينهم . كان الأسبرطيون يهتمون بالتربية الرياضية ويعنون بالتربية العسكرية . وكان ذلك يتلاءم مع طبيعتهم وميولهم ، ويتفق مع مصالحهم السياسية أيضاً . فالمجتمع الزراعي الذي يكفل لأهله الاستقلال الاقتصادي ، يثير في الوقت نفسه أطماع الطامعين . والنظام العسكري وحده هو الضامن للاستقلال السياسي للمدينة حتى لا يطمع فيها طامع ولا غاصب ، والأسبرطيون كانوا جميعاً جنوداً في خدمة الوطن ، يعتزون بهذا الشرف ويفخرون به . ومن هنا كانت لهذه المدينة مكانة مهيبة بين المدن اليونانية الأخرى .

وكان لابد وأن يعكس النظام الاشتراكي العسكري على طبيعة المجتمع ، فكان المجتمع الأسبرطي مجتمعاً محافظاً من الطراز الأول ، يتمسك بعاداته وتقاليده ويرفض كل فكرة للتجديد . ويحكي لنا هوميروس ، أن هذه المدينة قد طردت من أسوارها الشعراء والفنانين . لأن الشاعر في رأيهم ، يعيش بالخيال لا بالواقع ، يحلو له أن يصور صوراً أخرى جديدة للحياة والمجتمع . والشعوب عادة تتأثر بالخيال ، لكنها إن سارت وراء هضمت وخسرت .

هذه أسبرطة ، وقد استقرت فيها الأوضاع السياسية والاجتماعية ، فكانت الأرستقراطية في هذه المدينة ، اشتراكية عسكرية . أما أثينا فكانت جمهورية من طراز خاص . كان الشعب يختار أعضاء الجمعية الشعبية أو مجلس الشعب ، وكانت هذه الجمعية تختار بدورها رئيساً لها بطريق القرعة لمدة يوم واحد فقط . كان رئيس الجمعية لساعات معدودات ، رئيساً يتغير مع مطلع كل شمس .

كان الشعب الأثيني كله يريد أن يشارك في الحكم ، وكان الحكم الديمقراطي هو حكم الشعب لنفسه وب نفسه . وإذا كانت الجمعية الشعبية المختارة بالانتخاب قد أعفت الغالبية العظمى من الشعب من السلطة التنفيذية ، فإن الشعب كله وبلا تفرقة ، كان يريد أن يشارك في السلطة التشريعية . الأثينيون سواسية في الحقوق والواجبات . وليس أقل من الاشتراك من جانب الجميع في وضع القوانين التي تحدد هذه الحقوق وهذه الواجبات . القانون يحدد العدالة والمساواة بين الأفراد ، ويجب أن يساهم الجميع في وضع هذا القانون لتأييده واحترامه ، ولضمان عدلته .

كان الشعب كله يشارك في شئون القضاء ، يختار القضاة (بالقرعة) ويحاسبهم ، يصوغ القوانين ويناقشها ، يشارك في القضايا المدنية والخاصة . كان الشعب هو الرقيب على الشئون السياسية والقضائية في بلاده . ماذا يحدث لو انفردت مجموعة معينة بالسلطة السياسية فحكمت لمصالحها ونسيت مصالح الشعب ؟ ماذا يحدث لو انفرد القانونيون بالتشريع ، فوضعوا القوانين التي تحافظ على مصالحهم ومصالح من يقربون إليهم ، ونسوا في غمرة هذا وذلك مصالح الشعب ؟ كان الشعب الأثيني ديمقراطياً في دمه ، يعمل حساباً لكافة حقوقه السياسية والاجتماعية ، لا يفرط فيها ولا يتنازل عنها .

لم تكن السياسة وفقاً على ناس دون ناس ، إنما كانت السياسة مفتوحة لكل الناس ، حقاً وواجباً على كل مواطن . كان الأسبرطيون حكاماً بالتقويض ، أما الأثينيون فكانوا حكاماً بالفعل .

وجدير بالذكر أن النظام الديمقراطي في أثينا لم يكن يفخر بعدد أفراد الشعب الذين يشاركون في الحياة السياسية بقدر ما كان يفخر بالوعي السياسي الذي يتمتع به أفراد هذا الشعب . وكانت

الحياة الثقافية تنمو وتفتح مع زيادة الوعي السياسي في البلاد كما كان الوعي السياسي يزداد مع تقدم وازدهار الحياة الثقافية . واشتهرت أثينا بحياتها الثقافية البراقة ، وأعطت لليونان أكبر العلماء والفلاسفة ، وبقدر ما كانت أسبرطة تتمسك بالثراث والتقليد ، كانت أثينا تتمسك بالتجديد ، وبعبارة أدق ساعدت كل مفكر على التجديد والابتكار .

هذه كانت أثينا ، المدينة التي ذاع صيتها وارتفعت كلمتها بين المدن اليونانية الأخرى . هذه كانت مدينة الفكر والمفكرين ، مدينة الثقافة والمثقفين .

لم تستمر الأيام طويلاً على هذه الحالة من الاستقرار والسلام، إذ نشبت حروب دامية بين المدن اليونانية والفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ، واستمرت من سنة ٤٩٠ ق. م إلى ٤٥٠ ق. م وتساقط عدد كبير من الجرحى والقتلى ، وعانت المدن اليونانية كلها من قسوة الحرب ووحشتها . واهتر الوجدان الإغريقي كله ، وكان لا بد وأن يهتز أكثر وأكثر في مدينة الوعي والفكر .

أخذت أثينا في هذه الحروب دورها القيادي تحت زعامة بريكليس ، ونهضت للدفاع عن الأرض اليونانية كلها . وفي الوقت الذي كانت فيه أسبرطة المدينة الحربية العسكرية تدافع أولاً عن نفسها ، عن جيشها ، عن حدودها، كانت أثينا تدافع عن اليونان كلها . كان الفرس الأعداء يخضعون تحت نفوذهم الجزر اليونانية في بحر « ليجه » ومدن ساحل آسيا الصغرى ، حتى بعد انتصار اليونانيين عليهم . فتولت أسبرطة في بداية الأمر مسئولية هذه العملية العسكرية وأرسلت قائدها بوزانياس Pausanias ، على رأس الجيش ، لتحرير هذه البقعة من الأرض . لكن يبدو أنه كان يبحث عن نفوذ شخصي له ، كما يبحث جنوده عن مصالحهم الشخصية ، فأخفقوا في مهمتهم . فتولت أثينا مهمة تنظيم الدفاع ، واستطاع بريكليس أن ينتصر انتصاراً تاماً على الفرس .

أصبحت أثينا بهذا الانتصار سيدة المدن اليونانية كلها . وليس غريباً بعد ذلك أن يحاول بريكليس الذي آمن بمدنيته وبلورها القيادي أن يسط نفوذها على المدن اليونانية الأخرى . ويذكر المؤرخ اليوناني ثوكيديلس ، أن فكرة التوسع والسيطرة أخذت تزداد في أثينا وقد خلقت الخوف والبغضاء بينها وبين المدن اليونانية الأخرى .

وعندما تبادت أثينا في غرورها ، وجهت أسبرطة إليها إنذاراً بالحرب . ونشبت بينهما حرب طويلة مريرة ، بدأت في سنة ٤٣١ ق. م واستمرت سبعة وعشرين عاماً . حتى انتهت بهزيمة أثينا أمام أسبرطه ، وبلحول الجيش الأسبرطي تحت قيادة ليساندر Lysandre ؛ فهدم أسوارها وقلاعها ، واستولى على الأكربول .

أية هزيمة منكرة هذه ! أثينا التي قهرت الفرس أصبحت اليوم تجر أذيال الهزيمة . فكيف

يمكن أن يتقبل الأثينيون تلك الهزيمة ، وكيف يمكن لهم أن يفسرونها ؟
امتز النظام الديمقراطي من الأعماق ، خاصة وقد مات بريكليس في سنة ٤٢٩ ق. م ،
أى بعد نشوب الحرب مع أسبرطة بعامين . وكان من الطبيعي أن تفرض أسبرطة على الجمعية
الشعبية مجلساً من النبلاء والأرستقراطيين ، يكون موالياً لها ولنظامها الأرستقراطى .

هذا المجلس كان يعرف باسم مجلس الثلاثين ، أو مجلس الطغاة كما لقبوا بعد ذلك . ووجد
الأرستقراطيون الأثينيون الفرصة سانحة أمامهم لتولى مقاليد الحكم . وتزعم الحركة اثنان من أقرباء
أفلاطون هما أكرتيتاس Critias ، وخرميدس Charmide .

ظهر الصراع فى المدينة بين أنصار الديمقراطية وأتباع الأرستقراطية . وكان الصراع يتسم
بالعنف بعد حربين طويلتين دامتين . وكان لا يمكن أن يقتصر على مجرد التنازع بين نظامين
أو حزبين سياسيين على الحكم . بل امتد إلى النظم الاجتماعية نفسها . الديمقراطية تلغى الفروق
الطبقية بين أفراد الشعب ، بالرغم من أن الأغنياء وحدهم هم الذين تحملوا كل الأعباء الاقتصادية
للحرب . أخذ الفقراء كل حقوقهم بالرغم من قلة الواجبات التى كانت تلغى على عاتقهم . وإذا
سألنا : من الذين كانوا أكثر تضحية فى هذه الحروب ، الأغنياء أم الفقراء ؟ فالجواب ،
لا شك أنهم كانوا الأغنياء . لذلك حاول الأرستقراطيون الجدد أن يكونوا وحدهم الحكام الشرعيين
للبلاد .

هذه تجارب مرت على الديمقراطية وما أقسى هذه التجارب .

ماذا كان يفعل الشعب بمدينته ، ماذا كان يفعل فى مدينته ، حتى انهزمت وانكسرت ؟
وهل هذه الهزيمة كانت نتيجة الحرية والديمقراطية ؟ هكذا عرفت المدينة نظامين للحكم ،
جربتهما ، عانتها ، اختبرتهما . عرفت الديمقراطية فى أوج عزتها وعنفوانها وقوتها ، وعرفتها
أيضاً فى هزيمتها ونكستها . وعرفت الأرستقراطية فى جبروتها وطغيانها ، ولكنها عرفت أيضاً فى
انتصارها وسيادتها . والشعب ماذا يريد ، ديمقراطية مع الهزيمة أم أرستقراطية مع السيادة
والاستقلال ؟

كانت أثينا فى مقترق الطرق ، والصراع فى الداخل على أشده . وكاد ينعكس على وجودها
وسلامتها . من كان يدرى ، ماذا يمكن أن تفعله أسبرطة بعد ذلك ؟

الذين كانوا يناصرون الديمقراطية ، كانوا يناصرون شيئاً « كان » ، لكن من الممكن أن
يعود بصورة أخرى . والذين كانوا يناصرون الأرستقراطية كانوا يناصرون الحاضر القائم كما هو .

عرفت أثينا بعد موت بريكليس حكماً مغامرين مثل أكليون ، وألقبيادس . وكان
الأرستقراطيون فى أيامهم لا يخدمون إلا مصالحهم الشخصية ، ويعتمدون على مساعدة الأعداء

لهم . ولا شك أن هذا التحالف بينهم وبين الأعداء قد زاد من كراهية الشعب لهم .
مهما كانت الأرستقراطية في أثينا فهي صورة للضعف والهزيمة ، وإن كانت في أسبرطة
صورة للسيادة والقوة . والشعب في أثينا كان يتمنى عودة الديمقراطية ويتظاهرها . واستطاع أحد
الديموقراطيين وهو ترازيبولس Trasybule ، أن يهزم مجلس الثلاثين وأن يعيدها إلى أثينا .
ولكنها عادت ضعيفة ذليلة بعد الهزيمة ، منهكة من الصراع والنزاع ، حانية رأسها أمام الأخطاء
التي ارتكبتها من قبل .
في هذا العصر المشحون بالصراع والحرب ، بالدم والبأس ، عاش سقراط وعاش أفلاطون .

الفصل الثاني الكلمة والشعب

هذا هو دور الكلمة في هذا الصراع وفي هذا العصر ، الكلمة التي يقوفا الشعب والكلمة التي يستمع إليها .

الأثينيون في الشوارع ، في الأسواق ، في الأماكن العامة ، في ساحات القضاء ، يتكلمون ، يتناقشون ، يتحاورون . كل شيء في الحياة الخاصة والعامة ، العلاقات والروابط ، الأخلاق والقانون ، كانت تصنعها الكلمة في أثنائها .

يذكر لويون في تحليله لسيكولوجية الحشود⁽¹⁾ أن الكلمات لها تأثير مثل تأثير السحر على تقسية الجماعات والحشود . ولعل هذا السحر يزداد إذا صدرت هذه الكلمات من أفواه الشعب نفسه .

كانت الحياة السياسية في المدينة تصنعها الكلمة ، كلمات مثل الديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة والقانون ، كان لها فعل السحر على النفوس . كل ما كان يطمع فيه الأثينيون ، هو أن يشارك كل فرد بالرأى والفعل في نظام الحكم . وكان الخوف من الاستبداد بالرأى أو بالحكم .

كانت حرية الرأي وحرية الكلمة مكفولة للجميع . لكن يجب أولاً أن نحدد معنى الحرية في هذا العصر ، وفي هذا المجتمع . فهي ليست حرية التقيد والتفتيد ، لأن المبادئ الأساسية ، الاجتماعية والأخلاقية والدينية كان متفقاً عليها . أما عن الديمقراطية فكانت فوق كل كلمة وكل رأى .

ربما تكلم الأثينيون في هذا العصر أكثر مما يجب ، واستمعوا إلى الكلام حلوه ومعهوله أكثر مما يجب . حتى حلت بهم الهزيمة ، فوضعوا الأصول والمبادئ موضع السؤال والاستفهام .

كان الكلام فناً ، وكان فن الكلام يحتل مكانة هامة بين سائر الفنون الأخرى . وضعت له أصول وقواعد ، وظهر فن البلاغة وانتشر . وظهرت جماعة من المثقفين يعلمون الناس أصول البيان بأجر معلوم ، هؤلاء المثقفون المعلمون هم السوفسطائيون .

Le Bon (Gustave) : Psychologie des foules ; P.U.F. 1947. p. 68.

(1)

١ - السوفسطائيون

الحق أن السوفسطائية كان لها دورها التاريخي في المجتمع الديمقراطي الأثيني . كان الشعب يريد أن يتعلم ولكن لم تكن هناك اشتراكية في التعليم كما كان الحال في أسبرطة . فظهر هؤلاء المعلمون الذين تولوا مهمة تثقيف العقول وتعليمها ، في مقابل الأجر الذي يطلبونه .

لكن هل كان من الممكن أن يظفر الشعب الأثيني كله بهذه الثقافة وبهذا التعليم ؟ لقد أدخلت السوفسطائية المزايمة في مجال الثقافة والتعليم ، من يدفع أكثر ، يتعلم أكثر ويتثقف أكثر . لم تكن المسألة مسألة تعليم وتثقيف ، إنما كانت المسألة خاصة بمدى تأثير الأوضاع السياسية والاجتماعية بعملية التعليم هذه . القادرون وحدهم ، الأغنياء أكثر من الفقراء ، هم الذين سيظفرون بالثقافة والتعليم . وبالتالي سوف يحتلون المراكز السياسية والاجتماعية الهامة . وبالتدرج ، وبدون أن يشعر ، سوف يتحول المجتمع من الديمقراطية إلى الأرستقراطية ، وعلى أقل تقدير يتحول إلى الأرستقراطية الفكرية .

إن مجرد ظهور السوفسطائية والإقبال على تعاليمها ، دليل على التغير الواضح في المجتمع الأثيني . هل حقاً مع التعليم والثقافة المكفولة للبعض دون البعض الآخر ، يمكن أن يكون المجتمع ديمقراطياً بالمعنى الصحيح ؟ الحق أن السوفسطائية التي انتشرت في ظل الديمقراطية والحكم الشعبي ، قد أسهمت بتصيب وافر في فساد هذا النظام وفي تشجيع الأفراد على السعى وراء مصالحهم الشخصية ومنفعتهم الخاصة .

ويبدو أن السوفسطائية ليست في حد ذاتها فلسفة ، إذ تنقصها وحدة المبادئ والمنهج . إنما السوفسطائية ظاهرة ثقافية ، ظهرت أول ما ظهرت في صقلية ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى أثينا . لا أظن أنها ظهرت كثورة فكرية كما يظن البعض ، ذلك لأن الثورة بالمعنى الحديث هي التي تجعل الفقراء يحكمون الأغنياء . أما هؤلاء السوفسطائيون فكانوا يعتمدون في وجودهم على الأغنياء لا الفقراء . أكثر من ذلك ، كانوا يريدون أن ينتموا إلى طبقة الأغنياء لا الفقراء ، فجمعوا المادة وسعوا وراءها (١) .

ماذا كان يريد السوفسطائيون ؟ هل كانوا يريدون مصلحة الدولة أم مصالحهم ؟ مصلحة الأفراد أم مصلحة الدولة ؟ يبدو أن مصلحة الدولة لم تكن في الاعتبار . والدليل على ذلك أنهم كانوا ينتقلون من مدينة لأخرى دون التزام بوحدة دون الأخرى . ولم تكن لهم مدرسة يأتي إليها

(١) جمع بروتاغوراس من الثروة أضعاف ما جمعه فيدياس المثال اليوناني المشهور .

طلاب العلم وهواته مثل غيرهم من المعلمين . إنما كانوا يذهبون إلى الطلبة ويلقون عليهم دروس عامة وبخاصة ، ويقبضون أجورهم على ذلك . ومهما قيل عن أهمية آرائهم ، فقد كانت موجهة إلى مصلحتهم الشخصية قبل كل شيء . كانوا يعلنون عن أنفسهم ، عن فهم وثقافتهم . وكانت هذه الدعاية السافرة تظهر بصورة خاصة في الاحتفالات والاجتماعات العامة .

هل كانوا حقاً ذوي ثقافة موسوعية كما يدعون ؟ كانوا في الحقيقة يتكلمون عن كل شيء وفي كل شيء ، يتكلمون في القانون والسياسة والأخلاق والأدب والبلاغة والنحو . . . إلخ . ولكننا لم نسمع أن واحداً منهم وضع أصول وأرسي قواعد أى علم من هذه العلوم .

كان السوفسطائيون يعلمون فن الجدال والمناقشة . كانوا يضعون لكل رأى رأياً مضاداً ، وبعد ذلك يقدمون الحجج التي يستند إليها هذا الرأى أو ذاك . فحين يتكلمون عن الحق يتكلمون عن الكذب ، وحين يتكلمون عن الخير يتكلمون أيضاً عن الشر . . . إلخ . أية براعة فكرية في هذا ؟ إن هذه التعاليم تشبه تمارين التلاميذ في المدارس لا أكثر ولا أقل . إنها مجرد عملية آلية لا تكلف نفسها في البحث عن ماهية الأشياء وحقيقتها .

كان المهم أن يقتنع الناس بهذا الكلام ، بكلامهم وبكلام تلاميذهم .

لكن هل كان هذا هو مطلب الديمقراطية ؟ بالتأكيد لا . كانت الديمقراطية تضع أصولاً ومبادئ لكل شيء ، للسياسة والأخلاق والدين والقانون . . . إلخ ، ولا ترى مبرراً لمناقشة هذه الآراء ، أو مقارنتها بالآراء والمبادئ المضادة .

هل كان الأمر إذاً مجرد تلاعب بالألفاظ : الموجود غير موجود ، واللاموجود موجود ؟ أغلب الظن أنه كان تلاعباً بفن وبراعة . فلم تكن لهم مبادئ ونظريات يتمسكون بها ويدافعون عنها . ولا أميل في الحقيقة إلى الدفاع عن السوفسطائية ، وكل مجتمع قد يظهر فيه سوفسطائيون كل همهم لفت الأنظار إليهم ، لتحقيق مصالحهم الشخصية .

ومن بين الآراء التي عملوا على نشرها ، رأيهم في الطبيعة ، والعرف والقانون . الطبيعة وحدها هي الثابتة ، أما العرف فهو يتغير دائماً : والقانون قد ينبنى على الطبيعة أو العرف ، قد يكون طبيعياً ينبنى على حق طبيعي للأفراد ، أو عرفياً ينبنى على الاتفاق الاجتماعي . وكان هذا معناه أن يناقش الناس في طبيعة القوانين ، وبالتالي أن لا يعملوا بها دائماً حتى وإن كانت من وضعهم .

إن كان المقصود هو تغيير القوانين وتطوير المجتمع ، فعلى الأقل يجب أن يكون ذلك ، نحو الأفضل لا الأسوأ . ما من شخص إلا ويرحب بالتطور والتقدم ، لكن لا أحد يقبل التدهور والانحلال . والحق أننا لا نجد أية أصالة حقيقية في آراء السوفسطائيين الاجتماعية والسياسية

واللاهوتية ، فإذا سئلوا مثلاً ما الفضيلة ؟ أجابوا بمجموعة من الآراء المتنوعة التي لا تخرج منها بأية فكرة واضحة .

ومن الأسماء اللامعة التي اشتهرت في الجليل الأول من السوفسطائيين : بروتاغوراس وجورجياس وهيباس . وأشهرهم كان بروتاغوراس صاحب العبارة المحفوظة : الإنسان هو معيار كل شيء . وقد تفسر هذه العبارة بأنها دعوة إلى النزعة الفردية ، وإلى إنكار كل قيمة للعادات الاجتماعية . وربما تفسر بأنها دعوة إلى أن يقف الفرد في مواجهة الدولة ، وأن تكون بالتالي الأخلاق فردية لا أخلاق اجتماعية .

وكان تفسير الجليل الثاني من السوفسطائيين من أمثال أنطيفون وأكريتياس وديزيموخوس^(١) ، هو الدعوة إلى النفعية الأخلاقية . كل إنسان يفعل ما هو نافع له ، والنفعية الشخصية هي التي تحدد قيمة الأشياء .

هل هذه النفعية الأخلاقية يمكن أن تطبق في المجتمع الديمقراطي ؟ وماذا تجر وراءها في هذه الدولة ؟ لا اعتمد أن الديمقراطية قد ترضى عن هذه النفعية الشخصية . وهل من الممكن أن يشرع كل فرد أخلاقاً له طبقاً لمنفعته الشخصية ؟ إن حدث ذلك ، فلن يحدث إلا في المجتمع الضعيف الذي يصبح الفرد فيه أقوى من الدولة ، والذي يتصارع فيه الأفراد وراء منافعهم الشخصية .

تكلم السوفسطائيون كثيراً عن اللذة ، والقوة ، والشهرة ، والمجد ، باعتبارها المطالب الأساسية لكل حياة إنسانية . ووجدوا بطبيعة الحال من يصغي إليهم ويقتنع بكلامهم . لكن هل يمكن أن ترد كل القيم الإنسانية إلى أهواء وغرائز فردية ؟

كانت السياسة في المجتمع الديمقراطي ترتبط وترتكز على الأخلاق ، وكانت هذه الأخلاق تكفل التعاون والتضامن الاجتماعي . لذلك كان يجب أن تدخل السلوك الفردي في إطار التنظيم الاجتماعي والسياسي . أما الفردية المتطرفة ، والنفعية الفردية ، فلا مبرر لهما في المجتمع الديمقراطي .

هل عملت السوفسطائية على فساد أخلاق الشعب ؟ هل غيرت من مفهوم الفضائل السياسية والأخلاقية ؟ يبدو أن السوفسطائية قد أظهرت العيوب التي كانت كامنة في المجتمع المهزوز ، الضعيف ، المهزوم . كان من الممكن أن يكون هناك حداً لهذا التطرف ، لهذه الفوضى ، ولهذا الفساد . لكن المسائل كانت أكثر تعقيداً ، إذ ظهرت قضية أخرى لها خطورتها والتصقت باسم بروتاغوراس وجورجياس ، هي قضية الدين وإنكار الآلهة . وينقل المؤرخون عن بروتاغوراس أنه قال : إننا لا ندري ما إذا كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة ، وأنه بذلك إنما ينكر الآلهة

ويتقد الدين ويتشكك في العقيدة .

وقبل أن نناقش هذا الرأي ، يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن آلهة الإغريق وطبيعة الديانة اليونانية . كانت آلهة الإغريق كثيرة ومتعددة تملأ السماوات والأرض ، وعالم ما تحت الأرض . كانت لهم آلهة للأفلاك والكواكب للشمس والقمر ، للبحار والأنهار ، للأمطار والرياح ، للمحبة والكراهية ، للعدالة والحكمة والجمال والفضيلة ... إلخ . كانوا يؤمنون بزيوس ^(١) ، وهيرا ^(٢) ، وديكة ^(٣) ، وأثينا ^(٤) ، وأورفيوس ^(٥) ... إلخ . كانت لهم آلهة للشعر والوحى . ولم يكن من الممكن أن يختص كل إله باختصاصه ، فالأمطار تمطر على الأرض ، والرياح تعصف على البحار ، والجمال يؤثر على العدالة ، والكراهية تؤثر على الحكمة ... إلخ . كانت هناك قصص وأساطير بين الآلهة ، مغامرات ومشاجرات . وكان اليونانيون يعرفون جيداً أن هذه الأساطير من خلق وإبداع الشعراء ، ومع ذلك كانوا يسلمون بها ويتوجهون إليها . لذلك فالقضية الحقيقية كانت قضية الشعر والأسطورة كما تصورها شعراء اليونان . الدين اليوناني اختلط مع الأسطورة والخيال ، وكل دعوة إلى العقل لا بد وأن تبدأ بنقد الأسطورة والخيال .

٢ - الفلاسفة

لم تكن السوفسطائية أول من دعت إلى نقد الأسطورة . بل منذ ظهر الفلاسفة في أرض اليونان ، وهم يحاولون أن يجرّدوا الآلهة من قوتهم وسلطتهم على الطبيعة والإنسان . قال الطبيعيون الأوائل أن الكون يرجع أصله إلى عناصر طبيعية وأن الآلهة لا تسكن الأرض ولا البحار والجيال ... إلخ ، قالوا إن كل الظواهر الطبيعية من مطر وورق ورعد وزلازل ... إلخ كلها ترجع إلى أسباب طبيعية محضة . قال أنكسمندريس وهو من الطبيعيين الأوائل : إن اللاهائي « الأبيرن » يحيط بالعالم من كل جانب ، ومعنى ذلك أن الآلهة لا مكان لها في عالم المكان ، فوق الأرض أو تحته أو عليها . وبلغ أكسينوفان ^(٦) في نقده للأسطورة درجة عالية من السمو الفكري ، فقال إن الإنسان قد صور الآلهة على صورته ، وجعلهم على شاكلته ، ونسب إليها من أخلاقه

(١) كبير الآلهة قتل أباه كرونوس . ابنته الإله ديونيوس إله الخمر .

(٢) الأرض .

(٣) العدالة .

(٤) الحكمة .

(٥) إله الموسيقى .

(٦) الأب الروحي للمدرسة الإيلية التي أسسها برمتيدس .

وزواته ، وكل ذلك لا يتناسب مع طبيعة وماهية الألوهية . هل حقاً هذه الأخلاق التي ترونها الأساطير يمكن أن تكون أخلاقاً لآلهة ؟ إنها حتى بالنسبة إلى الإنسان تكشف عن كثير من جوانب الضعف والاسهتار بالقيم . ويعتبر هذا المفكر أول من نادى بوحدة الألوهية ونفى التعدد بين الآلهة . حقاً كما يقول أرسطو ، لا نستطيع أن نحكم ما إذا كان الله في نظره يتصف بالنهاية أو باللانهاية ؟ ما إذا كان صورة أم مادة ؟ ولكننا نستطيع أن نؤكد عند أكسينوفان أن الواحد هو الله .

أنكر الفلاسفة من قبل هذا العدد الغفير من الآلهة الذين تركوا شئونهم الخاصة ليتصارعوا ويتشاجروا فيما بينهم؛ ونهم من طالب بإله واحد أحد . لكن المجتمع الإغريقي كان يقبل راضياً هذا التعدد وهذه الكثرة . كان يرى فيها صورة للكثرة التي يعشقها ويحبها . كانت الكثرة تملأ حياته وتملأ روحه . فلم البحث عن الوحدة ؟ أليست بلاد اليونان صورة حية لهذه الكثرة ، والديموقراطية تمجيداً لحكم الكثرة ؟

ولم تكن أخلاق الآلهة التي نقر منها أكسينوفان ، تغضب الناس . كانت في مستوى البشر . فإذا أراد إنسان أن يرتفع فوق مستوى البشرية والألوهية ، فله ما يريد . لكن ذلك لن يقصر بالآلهة والناس .

لكن أخطر ما فرضته الديانة الأسطورية على العقلية اليونانية هو فكرة القدر وتدخل الآلهة في شئون البشر . كان القدر معناه أن إرادة الآلهة تفرض نفسها على البشر وتشل إرادتهم . كان معناه أن الوجود الإنساني هو وجود لا تاريخي ، لأن التاريخ تسطره إرادة الإنسان بصورة أو بأخرى . كان القدر يجعل الأمور والأحداث التي تحدث خارجة عن إرادة البشر . الآلهة كانت تكسب قصة التاريخ ، وعلى البشر تمثيلها على مسرح الحياة .

لذلك فإن كلمة بروتاغوراس عن الآلهة لم تكن جديدة في مجال الفكر والفلسفة . ولكنها في الحقيقة جاءت في وقتها . من ينقذ الديمقراطية ، الناس أم الآلهة ؟ آثار بروتاغوراس بكلمته الرأي العام ، ولا شك أنه في المجتمع الضعيف يتواكل الناس ويلقون بهمومهم ومسئولياتهم على عاتق الآلهة . فأنهم بإنكار الآلهة ومن بعده جورجياس .

تعلم الأثينيون من السوفسطائية شيئاً واحداً هو أساليب الكلام والمناقشة . وانتشرت دائرة النقاش وتوسعت . وأصبح كل شيء يناقش على الطريقة السوفسطائية ، أي بعرض الأضداد واستعراض الحجج المتناقضة . وأصبح لكل شيء ضده ، وأصبحت لكل حجة نقيضها . ما الذي يمكن إذاً أن يفرق بين رأي وآخر ؟ وهل تتساوى الآراء كما يتساوى الأفراد في الحقوق والواجبات في المجتمع الديموقراطي ؟ وعلى فرض أننا نبحث عن الحقيقى والصحيح ، فهل يمكن أن تكون

الآراء كلها صحيحة و يقينية ؟ هل يمكن أن يصبح الرأي وتقيضه ، كلاهما صحيحاً و يقينياً ؟
لقد جعلت السوفسطائية المجتمع اليونانى والحياة الثقافية والفكرية فى أثنينا فى حالة شديدة من
الشك والارتياب .

حتى قولهم إننا لا ندرى ما إذا كانت الآلهة موجودة أم غير موجودة ، كان لا يعبر عن فكرة
جديدة بقدر ما كان يعبر عن الشك والارتياب .
وازداد هذا الشك عنفاً مع النكسة والهزيمة . فالشك يسمح بالجهل والظلم وانهاك الحقوق
والقوانين ، وهو أبشع من الجهل والظلم نفسه .

٣ - سقراط

عاش سقراط^(١) فى عصر الصراعات العنيفة بين الطبقات والأفراد . عاش الأثنينى فى مجتمع
تمزقه الكلمة وتفترقه . ولا أعتقد أن أحداً يستطيع أن يرسم فى صفحات قليلة صورة لهذا الفيلسوف
العظيم الذى سقط شهيداً فى سبيل الكلمة . ولكن سوف أحاول أن أكشف عن بعض الجوانب
الهامة لهذه الشخصية .

فى وقت الحرب الذى يصبح فيه واجب الدفاع عن الوطن هو الواجب الأول على كل مواطن ،
وفى الوقت الذى يجب أن يسبق فيه العمل الكلمة ، اشترك سقراط فى معركتين عسكريتين :
بوتيدة (٤٣٢ - ٤٢٩ ق. م) ، وأمفيبوليس (٤٢٢ ق. م)^(٢) ، وضرب فيها أروغ المثل
فى التضحية والشجاعة . واليوم وقد خضنا المعارك وعرفنا النصر بعد الهزيمة ، وعرفنا معنى الشجاعة
والتضحية بالنفس فى سبيل الوطن ، نرى لزاماً علينا أن نعطي هذه الشخصية كل قدرها من
الشجاعة والوطنية . لا تذكر كتب تاريخ الفلسفة شيئاً مؤكداً عن دراساته واهتماماته العلمية فى
شبابه . أكثر من ذلك ، فهو لم يترك لنا فى حياته نصاً مكتوباً يمكن أن نستند إليه فى تفسير آرائه
ومواقفه . ولكن كل الكتب تذكر له شجاعته وتضحيته .

عرف سقراط الجندي ، و عرف بالتالى الحياة الحربية والأخلاق العسكرية . خاض تجربة
الحرب ضد جيش أسبرطة الذى اشتهر بقوته ونظامه . وكما خاض التجربة العسكرية ، خاض
أيضاً التجربة السياسية ، فعندما أصبح عضواً (بالقرعة) فى مجلس الخمسة أرادت الجمعية
الشعبية أن تصدر حكمها بإعدام قادة الجيش الذين تسببوا فى هزيمة أثينا فى جزر « أرجنوس »

(١) مات سقراط وقد تجاوز السبعين من عمره فى سنة ٣٩٩ ق. م .

Potidéc - Amphipolis.

(٢)

أثناء الحملة على صقلية . إذ مات عدد كبير من الأثينيين ، ولم يتمكن الجيش من انتشار الجرحى من أرض المعركة وإرجاعهم إلى بلادهم وذويهم . ولكن سقراط رفض أن يوقع على هذا القرار ، وقد نلت أثينا والديمقراطية بعد ذلك على ما فعلته ، وراجعت نفسها وطالبت بتخليد ذكرى الذين أعدمتهم .

إن التجربة وحدها هي التي علمت سقراط قبل كل شيء . علمته كيف جرّ الكلام الأثينيين إلى درجة نسيان الواقع والحقيقة . كانت أسبرطة تعيش من أجل الواقع ، وتجند نفسها لحماية الواقع ، ولذلك هزمت أثينا وانتصرت عليها . كذلك عرف كيف تحطّي الديمقراطية ، وعرّف النتائج التي يمكن أن تصيب البلاد من جراء هذا الخطأ .

خاض سقراط هذه التجارب الحربية والسياسية بوصفه مثقفاً ومفكراً . ولا شك أنه درس العلوم التقليدية في ذلك الوقت من رياضيات طبيعيات . ومهما قال المؤرخون في عصره من أمثال أرسطو ؛ وغيرهم من المؤرخين المحدثين والمعاصرين عن اهتمام سقراط بالطبيعيات أو عدم اهتمامه بها ، فمن المؤكد أنه درسها وعرفها ولم بها . كذلك لا بد وأن يكون قد درس الفلسفات السابقة وعرّف مدارسها . ولم يكن ذلك بالشيء الكثير أو البعيد . لذلك فنحن حين نتكلم عن سقراط في الفلسفة لا نتكلم عنه بوصفه معاصراً للحركة السوفسطائية فحسب ، بل وبوصفه لاحقاً على المدارس الفلسفية السابقة . ومن التجني على سقراط أن يكون تفسيرنا له في إطار السوفسطائية وحدها .

كان يجب على هذه الشخصية المفكرة أن تتكلم ، فالأثينيون كلهم يتكلمون بحق وبغير حق . حتى ساحات القضاء امتلأت بالشعب الذي جاء ليتكلم لا يستمع . لكن هل من بقاء للديموقراطية مع هذا الكلام ؟ يقولون كل فرد يتكلم ليعبر عن رأيه ويدافع عن حقه ؛ وكلهم يستخدمون نفس الأساليب في الكلام التي تعلموها عن السوفسطائيين . دفعوا الأجور وتعلموا ليشاركوا جميعاً في الحوار السياسي . ونحن نتصور مثلاً أن القانون له رجاله المتخصصون لكن هذا التخصص الذي يبدو بديهيّاً ، لم يكن له وجود في المجتمع الديمقراطي الأثيني . الحدادون ، النجارون ، المهنيون كلهم يترافعون في ساحات القضاء ، ويشرعون القوانين . ربما كان القانون مبسطاً ، والإجراءات القانونية ميسرة في ذلك الوقت ، فلا غضاضة في أن يترافع كل فرد عن نفسه ، ويدافع ويطلب بحقه . لكن الخطورة كلها كانت في أن يفسر كل فرد القانون على النحو الذي يتفق مع مصالحه الشخصية لا مع مصالح الغير . الخطورة هي في أن يسمح المجتمع الديمقراطي لكل فرد أن يشرع بنفسه ولنفسه . خاصة وأن ظروف الحرب التي أحاطت بالمدينة قد جعلت كل فرد يبحث أولاً عن مصلحته الشخصية وكانت النفعية هي السائدة في هذا المجتمع . شجع على ذلك الصراع والمزينة والسوفسطائية . وكان من نتيجة المجادلة في القانون ، في الحقوق والواجبات أن اضطربت الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية في المدينة .

الحياة الفكرية كان يسودها الشك والارتياب وتصارعت فيها الآراء المتضادة والمتناقضة .
والحياة السياسية كانت تتخبط بين الديمقراطية والأرستقراطية والحياة الاجتماعية كانت تعاني من
الصراع بين الطبقات .

واتجه سقراط بحاسته الدقيقة وبحكمته العميقة إلى المسائل الفكرية ، وترك الحياة السياسية
والاجتماعية . إنه مفكر يريد أن يعيش بالفكر وللفكر . ولكن هذا الموقف الفكرى ذاته كان نقضاً
لميثاق الديمقراطية الأثينية ، التي كانت تجعل الاشتغال بالسياسة أمراً سابقاً على كل شئ ، وواجباً
على كل مواطن .

يذكر توكيديدس أن بركليس قال في خطبة له إلى الأثينيين : نحن وحدنا الذين ننظر إلى
الرجل الذى لا يشارك في شئون السياسة على أنه رجل عديم الفائدة^(١) . كانت المشاركة السياسية
تأتى في المرتبة الأولى في المجتمع الأثينى . وكانت هذه من أصول الديمقراطية . أما من يتجنب
السياسة ولا يشارك فيها ، فهو يعتبر خارجاً على أصول المجتمع ، منعزلاً عنه .

كيف يترك سقراط السياسة ، هو الذى كان عضواً في مجلس الخمسمائة (بوليه Boulé) ؟
كيف لا يؤمن بضرورة السياسة في هذا المجتمع وفي هذا الوقت بالذات ، هو الذى خاض غمار
الحرب وعرف الصراع الذى يلاحق الديمقراطية في الخارج والداخل ؟ وهل من المعقول أن يكون
إصلاح الحال في الديمقراطية بترك السياسة والاشتغال بالحكمة والفلسفة ؟ كان المجتمع والشعب
الأثينى لا يرى أن الحكمة والفلسفة من مقتضيات الحياة الديمقراطية كما أصبح يراها سقراط .

وأريد أن ألفت الأنظار إلى الموقف الغريب الذى وقفه سقراط من المجتمع الديمقراطي الأثينى .
كان هذا الموقف نفسه كافياً لكي ينظر الشعب إليه على أنه الرجل الذى رفض أن يشاركه في
ديمقراطية ، لينشغل بأمور الحكمة والفلسفة . هذا الموقف وحده يلقي الكثير من الضوء على موقف
الشعب من سقراط ومن الفلسفة عامة ، قبل المحاكمة وأثنائها . وكان من الخطأ كل الخطأ ، أن
تفسر هذه المحاكمة على أساس الآراء الفلسفية وحدها لا على أساس المفهوم الديمقراطي للحياة
السياسية في أثينا . هكذا كانت تملى الديمقراطية إرادتها على جميع أفراد الشعب ، مثقفين وغير
مثقفين ، الحكماء وغير الحكماء .

منذ بداية التفلسف ، وقيل أن يتعرف الشعب الأثينى على آراء سقراط ، وهو لا يرتاح إلى
وجود الفلاسفة ولا إلى آرائهم . وقصة الخلاف بين الشعب والفلاسفة قصة طويلة . وإذا كانت
الفلسفة هي نتاج الحضارة اليونانية ، فالحقيقة أن هذه الحضارة لم تقبل وجود الفلاسفة والحكماء .

(١) نقلا عن كتاب فيلد : أفلاطون والمعاصرون له . (ص ٨٢)

لم يكن انقلاب الشعب على سقراط ومحاكمته له ، إلا نتيجة لهذا الخلاف الحاد الطويل . ولم يكن موت سقراط سوى نتيجة لا بداية لهذا الخلاف .

كم أرقنا من مداد على الورق لمعرفة الأسباب الفلسفية التي أدت إلى محاكمة سقراط . ونسينا أو تناسينا الجانب الاجتماعي والسياسي والحضاري . كانت الحضارة قائمة على المعتقدات الأسطورية والخيال الشعري . وكانت السياسة في النظام الديمقراطي تعطي للجميع حرية الرأي دون إعلاء لكلمة على أخرى أو لرأى على آخر إلا بالافتتاح العام . فإذا لم يقتنع الجميع ، فقد الرأي قيمته والكلمة صدقها . وكان المجتمع يعتز بمعتقداته ولا يسمح لأحد بتسفيهاها .

جاء سقراط بعد الطبيعيين الأوائل ، وفيثاغورث ، وهيرقليطس وبرميندس وديموقريطس وأنكساغوراس ... إلخ . عاش الطبيعيون الأوائل في أيونيا ، في مدينة مليطة ، وأسس طاليس أول مدرسة فلسفية ، أو بعبارة أصح أول مركز للدراسة والبحوث (مدرسة مليطة) .

وجدير بالذكر أن طاليس أول فيلسوف ليونان كان رجل سياسة ساهم بنصيب كبير في توحيد المدن الأيونية في حربها ضد فارس . ولا يعنينا نشاطه في التجارة ، الذي أشار إليه أرسطو ، لكن يعنينا اهتمامه بالعلم والمعرفة منذ أواخر القرن السابع قبل الميلاد . ولم يكن طاليس يميل إلى الدراسة النظرية البحتة بقدر ما كان يميل إلى التطبيقات العملية التي تعود بالنفع على الناس . أوجد الخريطة البحرية التي تساعد البحارة والملاحين . كما تنبأ بكسوف الشمس في ٢٨ مايو سنة ٥٨٤ ق. م . وحين قال إن أصل الموجودات يرجع إلى مبدأ واحد هو الماء ، لم يكن في هذا القول ما يسمى مباشرة إلى المعتقدات والمشاعر الشعبية . وظل طاليس في نظر الشعب هو الرجل الذي أوجد الخريطة البحرية وتنبأ بكسوف الشمس .

ومع الزمن أخذت الأمور تتغير حتى وجد الفلاسفة أنه من الأفضل والأسلم أن يعيشوا بعيداً عن المدن اليونانية ، فعاشوا في شمال في إيطاليا^(١) حيث كانت الحياة الثقافية تنعم بقدر أكبر من الحرية . ونشأت المدرسة الفيثاغورية في أكروتون التي اشتهرت من قبل بفنون الطب ، أما مؤسسها فيثاغورس فهو يوناني الأصل والمولد . ولد في مدينة ساموس وهاجر منها إلى إيطاليا وهو في الأربعين من عمره . ومهما كانت تعاليم فيثاغورس الفلسفية عن الأعداد ، وأن أصل العالم عدد ، ومهما كانت المراسم شبه السحرية التي كانت تحيط بالعلم الفيثاغوري عن المثلثات والأعداد ، فإن هذه المدرسة قد اشتغلت بالسياسة لا علناً بل سرّاً . فكونت جمعية سياسية سرية مناهضة للديمقراطية ، وجعلت من شخصية فيثاغورث شخصية فوق طبيعية مما يتنافى تماماً مع طبيعة الحكمة والعقل . زادت على ذلك أنها تمادت في طقوسها الدينية التي أخذتها عن النحلة

(١) هذه المنطقة أطلق عليها الرومان اسم اليونان الكبرى .

الأورفية والتي اختلطت بكثير من السحر والشعوذة . وكان المصير الحتمي لهذه المدرسة هو أن تثار الناس عليها ، فحاصرتها جماعة من أهل المدينة (أكروتون)^(١) ، وأحرقوا بيت ميلون الذي كانت تجتمع فيه ، واحترق جميع أعضائها وأفرادها الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت^(٢) . وعمت الثورة على الفيثاغورية والفيثاغوريين أرجاء اليونان ، وتعقبوهم في كل مكان . وما حدث لهؤلاء الفلاسفة والحكماء إنما ذكرته على سبيل المثال لا الحصر . ذلك لأن أنكساغوراس الذي ولد في قلازومين وأسس مدرسته الفلسفية في أثينا ، لم يكن أيضاً سعيد الحظ في هذه المدينة . وعلى الرغم من صداقته لبريكليس ، إلا أنه آثم بالإلحاد واضطر إلى الهرب إلى آسيا^(٣) خوفاً على حياته .

لكن ماذا قال أنكساغوراس حتى يهيمه الشعب بالإلحاد والكفر ؟ قال إن الأشياء كلها والعناصر كلها كانت مختلطة ، ولكن الروح أو العقل (نوس) هو الذي فرقها وأخرجها من حالة السكون إلى الحركة ، فصدرت الجزئيات والبذور (الهوميوموريات) التي تختلف في كفياتها والتي هي أصل الأشياء كلها . وإذا كان هيرقليطس قد قال من قبل أن اللوغوس أو العقل كامن ومباطن في الوجود ، وأنه هو أصل الحركة والتغير في الكون ، فإن أنكساغوراس جعل الروح مفارقاً للموجودات تماماً مثل الهواء عند أنكسيمينس .

اختلف الفلاسفة فيما بينهم وكان الحقيقة اختلطت على الحكماء . هذا يقول بالوحدة والثبات (برمنيدس) ، وذلك يقول بالصيرورة والحركة (هيرقليطس) . هذا يقول بالعناصر (أمباذقليدس) كأصل للأشياء ، وذلك يقول بالذرات (ديموقريطس) . أين الحقيقة إذاً ، وما الفرق بين الحكماء وغير الحكماء ؟

واختار سقراط لنفسه طريق الفلسفة والحكمة ، ولم يتردد في السير في طريق محضوف بالمخاطر والصعاب . لكنه أراد أيضاً أن يتقرب إلى الشعب وأن يعيد إليه الثقة بالفلسفة والحكمة . خرج إلى الشوارع والأسواق ، وبدأ في الحوار والمناقشة معهم وكان الموقف صعباً للغاية ! هذا الشعب الأثيني الذي كان يكثر من الكلام ، وتعلم أن يتكلم بنفسه ، ماذا كان يريد سقراط منه ؟ الحكيم الفيلسوف الذي ترك السياسة وشؤونها ماذا كان يريد بعد ذلك من الشعب ؟

عندما نتكلم عن الحوار بين المفكر والشعب ، لا بد وأن نشير إلى أمرين : أولاً أسلوب الحوار وثانياً موضوع الحوار .

(١) قاد هذه الجماعة Cylon

(٢) يذكر بعض المؤرخين أن فيثاغورث لم يكن موجوداً في ذلك الوقت ولكنه اضطر إلى الهرب ، ومات بعد هذه الحادثة بقليل حزناً على مدرسته وتلاميذه .

(٣) أقام في مدينة لمبسيك .

اختر سقراط أسلوب الحوار المفتوح بينه وبين الشعب . لم يشأ أن ينشئ مدرسة مثل الفلاسفة الآخرين الذين قصروا تعليمهم على الخاصة دون العامة . إنما أراد أن يكون الفكر خارج الأسوار والأبواب ، يتسمه الجميع مثل الهواء ، ويراه الجميع مثل النور . وربما اعتقد أن الفكر حين ينطلق في ظل الحرية ، يمكن أن يأمن على نفسه من شر المكابذ والأحقاد ، وأن هذه هي ديمقراطية الفكر التي تتناسب تماماً مع ديمقراطية الحكم . فإذا كان الناس يحسنون الكلام في السياسة فلا بد وأن يحسنوا الكلام في كل شيء .

خرج سقراط إلى الشعب يحاوره ويجادله . وقد يكون في هذا متشبيهاً بالسوفسطائيين لا بالفلاسفة . فالفيلسوف كان يعتكف عن الناس عامة ، ويفكر بين أصدقائه وتلاميذه . أما السوفسطائيون فكانوا هم الذين يخرجون إلى الناس والشعب . لكن سقراط لم يكن سوفسطائياً لسبيين ، الأول : أنه لم يكن يتاجر بالكلمة ويأخذ عليها أجراً ، والثاني أنه كان ينادى بمبادئ جديدة لم تعرفها السوفسطائية من قبل .

كان المجتمع الأثيني فيه دائماً ، الذين يتعلمون والذين لا يتعلمون ، المثقفون وغير المثقفين . لكن كان سقراط يريد أن يتعلم الجميع ويشتق الجميع . لكن ماذا كان يريد سقراط أن يتعلمه الجميع ؟ هذا هو السؤال الرئيسي الذي يمكن أن نوجهه إليه .

رأى سقراط كيف أقبل الناس على السوفسطائيين ليتعلموا منهم ما يفيدهم في حياتهم السياسية والاجتماعية . إذاً الفائدة والمنفعة هي التي يجري الناس وراءها . ولم يكن سقراط نفعياً بطبيعته ، وأتى له أن يكون نفعياً وهو الذي رفض الجاه والمال . ولكنه اضطر أن يقول بالمنفعة والفائدة لإقناع الشعب بأرائه وجذبه إليه .

ونحن لا نجد نصاً أو كتاباً سطره وكتبه سقراط طوال حياته . فهو لم يكتب شيئاً لأنه لم يكن يريد للكلمة أن تنام وتخمد بين السطور والأوراق إنما بلغ لإيمانه بالكلمة أنه اعتقد أن الكلمة الصادقة التي يؤمن بها الشعب ، تتحول إلى عمل صالح يخلد ويبقى على مر الأيام . لم يكن سقراط يريد أن يضيف إلى التراث اليوناني المكتوب شيئاً جديداً . إنما أراد أن يضيف إلى روح الحضارة الإغريقية شيئاً جديداً . كان سقراط فيلسوف الكلمة ، لا الأوراق والكتب . فليس المهم أن يخلد اسم سقراط بكتاب أو مقال . إنما المهم أن نخلد أثينا والأثينيين .

لا أعتقد أن سقراط كان يريد أن ينقل إلى الأثينيين الأفكار والمذاهب والنظريات التي تعلمها من الفلاسفة السابقين . ولو حاول أن يفعل ذلك لما استمع إليه الشعب الأثيني لحظة واحدة . ولم يكن يريد أن يدافع أمام الجميع عن آراء مدرسة بعينها لأن الفكر الإنساني في نظره أكبر من المدارس كلها . كان المعلم الذي لا يعلم الناس نصراً محفوظاً وأقوالاً موروثاً كما يحدث

في المدارس . إنما كان معلماً للشعب ، يعلمه كيف يكشف عن حقيقته وجوهره . كان حقاً معلماً من طراز خاص لم يعرفه الشعب الأثيني ولا الأمة اليونانية من قبل . لذلك يجب أن نعتقد أن شخصية سقراط كانت أكبر من كل ما كتبه أفلاطون وغيره عنها .

لم يكن سقراط إذاً تلميذاً في مدرسة علمية وفلسفية لينقل إلى الناس تعاليمها . حقاً لقد درس مع « أرخيلائوس » تلميذ أنكساغوراس ، لكنه منذ بدأ يفكر بذاته أصبح أستاذاً ومعلماً .

لكن قبل أن نتكلم عن فلسفة سقراط ونهجه ، يحق لنا أن نسأل هذا السؤال : هل حقاً التف الشعب حول سقراط ؟ هل حقاً أراد الشعب الأثيني أن يتعلم ويتتقن ؟ يبدو أن الذين أحاطوا بسقراط كانوا قلة من المثقفين المثقفين ، ويتضح لنا ذلك من محاورات أفلاطون نفسها ، في كل من الفيبيادس ، خرميدس ، أكرتوتون ، لاختيس ، أوطيفرون ، مينون ، أقراتيليس ... إلخ . كلهم من الشخصيات البارزة والمعروفة في المجتمع الأثيني . وكان نفوذه على المثقفين أقوى من غيرهم . يحكى أن أريستيبس^(١) القيرواني كان من أغنياء مدينته ، فقابل يوماً صديقاً لسقراط فسأله كيف استطاع هذا الأخير أن يكون له تأثير قوي على الشباب . فأخبره شيئاً من تعاليمه . فترك أريستيبس ما له وأهله وذهب إلى أثينا ليتعلم من المعلم أصول الحكمة والفلسفة . أما أكسينوفون الذي كتب عن سقراط في مذكراته *Mémorabilia* ، فكان يسير يوماً في رواق ضيق لشراء بعض الحاجيات فقابله سقراط وسأله : هل تعلم أين يمكن أن يقتني الناس النبل والفضيلة ؟ فلم يجر جواباً . فقال له سقراط : اتبعني وتعلم ذلك . ومنذ هذه اللحظة أصبح أكسينوفون تلميذاً مخلصاً لسقراط . وفيدون كان في الأصل من مدينة « إيليس » ، أسره الأثينيون أثناء الحرب ، وبيع في سوق الرقيق . فلما وجد سقراط استعداداً للتفكير والتفلسف ، أصبح تلميذاً له . أما أفلاطون فكان شاباً من أسرة نبيلة يهوى كتابة المسرحيات الشعرية ، فلما قابل سقراط أحرق مسرحياته واهتم بالحكمة والفلسفة .

كل هذا دليل على أن المثقفين الذين كانوا يبحثون عن العلم والمعرفة ، هم الذين تبعوا سقراط وأصبحوا تلاميذ له . أما الشعب فظل على حاله يقف موقف المتفرج الذي يتعجب من أمر هؤلاء جميعاً . ولا أعتقد أن الشعب الأثيني مهما قيل عن درجة ثقافته العامة كان يفهم الفلسفة ويقبل عليها . كان من الممكن أن يحب الشعر والشعراء ، شأنه في ذلك شأن كل الشعوب . كان من الممكن أن يقبل وجود العلماء في مجتمعه ، لأنه يعرف أن للعلم فوائد عملية كثيرة . أما الفلاسفة فكان الشعب يخشاهم ، ولا يعرف عم يتكلمون وكيف يتكلمون . وكان الحوار السقراطي — كما ينقله أفلاطون — عبارة عن حوار بين الآراء المختلفة . كل واحد من المتحاورين يقدم رأيه ويفسره بقدر

(١) Aristippe الذي أسس مدرسة سقراطية في قير وان .

الإمكان . وسقراط يدبر الحوار ولا يفرض رأياً معيناً . وكان يردد أنه مثل سائر الناس يبحث عن الحقيقة ولا يمتلكها .

والحق أن برمنيدس^(١) هو الذى أوجد التفرقة بين الرأى والحقيقة . وهو الذى ذكر فى قصيدته المشهورة أن الشاعر ركب يوماً عربة تجرها بنات الشمس ، ووصل إلى حيث يلتقى النهار بالليل ، وطرق الباب الذى تحرسه إلهة العدالة ديكة ، فأدخلته وقادته إلى حيث تجلس إلهة الحكمة . فثقل بين يديها وقالت له : يجب أيها الشاعر أن تتعلم معرفة كل شىء ، قلب الحقيقة وآراء البشر الفانين . ويفهم من ذلك ومن فلسفة برمنيدس كلها ، أن آراء البشر لا تحمل فى ذاتها الحقيقة واليقين . ولكن لا بد من معرفتها لمعرفة الحقيقة . ولعل السؤال الذى يطرح نفسه بنفسه هو : ما الحقيقة وأين هى ؟ كانت الحقيقة عند برمنيدس ملكاً للآلهة ، مصدرها للمنى لا إنسانى . وكان من حق الشعراء أن يتقربوا إلى الآلهة لتروى بهم إلى الحقيقة . كان برمنيدس شاعراً كتب قصيدته بأسلوب شعرى جميل ظناً منه أن الكلمة التى تنقل الحقيقة عن الآلهة يجب أن تكون شعراً لا نثراً^(٢) . وهذا سقراط يبحث عن الحقيقة بعيداً عن الآلهة ، ويتكلم عنها بأسلوب العامة لا بأسلوب الأشعار الذهبية التى كان يتكلم به برمنيدس . كان يسأل « الناس » عن الحقيقة ، وهذا السؤال كان يثير دهشتهم من سقراط نفسه . كانوا يتعجبون من أمره وتكاد عقولهم لا تصدق أن الحقيقة أصبحت اليوم عند البشر .

كان سقراط لا يسأل الناس عن حقيقة الآلهة ، فهذه مسألة لا يعرفها غير إله مثلهم . ولكنه كان يسألهم عن حقيقتهم هم أنفسهم . وعندما اتخذ لحكمته شعار معبد دلف : إعرف نفسك بنفسك ، كان يعتقد أن الآلهة هى التى تدعو الإنسان إلى هذه المعرفة .

ماذا يريد سقراط أن نعرفه ؟ يريد أن يعرف الناس حقيقة النفس البشرية ، طبيعة الإنسان ، فطرته . كان يبحث عن « ماهية » الإنسان . ولاشك أن الفضائل الإنسانية قد احتلت مكان الصدارة فى بحث سقراط وهو يعتبر بحق مؤسس علم الأخلاق . إذ كانت الأخلاق من قبله مجرد نصائح طيبة (eubolia) تؤدى إلى السعادة والنجاح فى الحياة . أما هو فكان يبحث عن تأسيس لهذا العلم على معرفة الطبيعة الإنسانية .

كان الأثينيون فى ذلك الوقت يبحثون عن اللذة والمنفعة والمصلحة الشخصية ، وشجع على على ذلك التعاليم السوفسطائية . فأراد سقراط أن يعرفوا حقيقة الفضيلة ليعملوا بها . الفضيلة علم والعلم فضيلة . هذه هى كلمته التى اشتهر بها وإلى تعنى أنه إذا عرف الناس الفضيلة والفضائل

(١) مؤسس المدرسة الإيلية فى أواخر القرن السادس ق . م .

(٢) مثل أشعار هوميروس عن الآلهة .

معرفة حقيقية صحيحة ، لأصبحت أعمالهم وأفعالهم طيبة خيرة .

لكن هل كان من الممكن تعليم الفضيلة عن طريق الحوار ؟ الشباب يتعلم بالقذوة الحسنة والنصائح الطيبة ، بالوعظ والإرشاد . أما أن يتعلم بالسؤال والحوار ، فهذا حقاً أمر جديد . من قال إن مجرد السؤال والاستفهام عن حقيقة الفضائل يصلح الشباب ؟ لذلك ظن الأثينيون أن سقراط كان لا ينبغي إصلاح الشباب ، بقدر ما يعمل على إفساده . كانوا عندما يستمعون إليه لا يجدون إجابة صريحة وتعريفاً عاماً للفضيلة ، إنما يجدون تفصيلاً وتقدماً وتسفيهاً للأراء التي كانت تتردد على لسان آبائهم وآجدادهم .

سقراط : هيا يا لايخيس ، حاول أن تجيب عن سؤالي : ما هي الشجاعة ؟

لايخيس : بحق زيوس يا سقراط ليس من الصعب الإجابة عنه . عندما تقبل في الحرب أن نبقى في الصف وتدفع العدو أمامنا بدلاً من الفرار أمامه ، اعلم أن الإنسان في هذه الحالة لا تنقصه الشجاعة .

سقراط : حسناً ما تقول يا لايخيس . لكني قد أكون السبب في أن إجابتك لا ترتسم مع ما في ذهني ، لأنني لم أكن واضحاً عندما وضعت لك هذا السؤال .

لايخيس : ماذا تعني بذلك يا سقراط ؟

سقراط : سوف أشرح لك ذلك بشرط أن تكون قادراً على فهمه . أفكر أن الإنسان الشجاع الذي تتكلم عنه هو الذي يبقى في الصف محارباً الأعداء .
لايخيس : هذا في القليل ما أعلنه .

سقراط : وأنا أيضاً . لكن ما قولك هذه المرة في الذي يفر ولا يبقى في الصف ويحارب الأعداء أثناء فراره ؟

لايخيس : هل يكون شجاعاً وهو يفر أمام الأعداء ؟

سقراط : هذا ما قاله هوميروس عندما امتدح خيول إينه Eneé لأنها كانت تعرف الكر والفر بسرعة شديدة

لايخيس : كان محقاً يا سقراط لأنه يتكلم عن الخيول التي تجر العربات

وقص سقراط على أسماع لايخيس قصة اليونانيين الذين حاربوا الفرس بعد أن أوقعوا في وهمهم أنهم يفرّون من أمامهم ، واستطاعوا بذلك أن يتصرفوا عليهم في المعركة . وضع سقراط في حوار أن تعريف الشجاعة لا يصح أن ينطبق فقط على المشاة في الحرب بل أيضاً على سائر الفرق الحربية من الفرسان وغيرهم . كذلك فإن الشجاعة أيضاً هي شجاعة الذين يواجهون المخاطر في

البحر ، والذين يتحملون آلام المرض وشدائد الفقر ومفاسد الحياة العامة . إنها أيضاً شجاعة الذين يجارون أهواءهم ولذاتهم ، سواء بقوا في مكانهم أم فروا منه .

وهكذا . ينتقل سقراط في حوار من مجال الآراء إلى مجال النفس والطبيعة الإنسانية . ونفهم بعد ذلك أن الشجاعة هي في قوة الطبع ، وصلابة النفس . يعود فيسأل لاخيس : أليست الشجاعة من بين الأشياء الحميلة تماماً ؟ فيجيبه : يقيناً إنها كذلك . ولكنه يتأدى في حوار ويبين له أن قوة الطبع والنفس قد ترتبط أحياناً بالتهور فتصبح الشجاعة شيئاً ضاراً وعندئذ تفقد جمالها . ثم يحاول سقراط أن يعرف متى تكون الشجاعة متأية لا متهورة ، ويختلط الأمر عليه ، وينتهي بتفكيره إلى أن قوة النفس المتهورة هي التي نطلق عادة عليها اسم الشجاعة ، وبذلك لا تصبح الشجاعة من بين الأشياء الحميلة أو حتى المشرقة .

ويعترف لاخيس بأنه أخفق في الرد على سقراط الذي يعطى بعد ذلك الكلمة لنياس (أحد المتحاورين) فيخبره أن الشجاع يجب أن يتحلى بالمعرفة . فيسأله سقراط أية معرفة هذه وما موضوعها ؟ فيجيبه : إنها معرفة الأشياء التي تستحق إما أن نخشأها أو نتق فيها ، سواء في وقت الحرب ، أو في سائر الأوقات الأخرى بلا استثناء .

ويعترض لاخيس على هذا الكلام ، فالشجاعة في نظره على طرفي تقيض مع المعرفة ... وهل يمكن أن يكون العارف شجاعاً ؟ إن نياس إذا يتكلم كلاماً فارغاً من كل معنى .

ولا يسلم سقراط برأى لاخيس فيقول له : إن نياس يعلم جيداً قيمة ما يقول ، وهو لا يتكلم من أجل لذة الكلام فقط ... وإن الحيوانات لا يمكن أن تتصف بالشجاعة ، حتى وإن اتفق الناس على أن الحيوانات المفترسة هي حيوانات عندها شجاعة . إذ لا يمكن أن يكون لها علم يفوق علم الإنسان .

والشجاعة يجب أن تختلف عن الاستبداد والعناد في الحكم . وهذا الأمر ربما يختلط في أذهان الحشود والجموع . ويؤكد سقراط أن الرجل الذي تكون في يده الأمور الكبرى ، يجب أن يكون له نصيب موفور من الحكمة العالية .

ويزعم سقراط أن إجابة نياس إنما كانت عن ثلث مفهوم الشجاعة ، بينما الأسئلة كانت تدور حول الطبيعة الكاملة للشجاعة . وأن الشجاعة ليست فقط معرفة الأشياء التي تستحق الخشية منها أو الثقة فيها ، ولكنها معرفة جميع الخيرات وجميع الشرور ، في كل وقت من الزمان .

فهل يوجد مثل هذا الرجل الذي يمكن أن يتحلى بالفضائل كلها مثل الاعتدال والعدالة والتقوى ؟ أليس هذا من شيم الآلهة وحدهم ؟ وينتهي سقراط بقوله : النتيجة إذاً يا نياس أننا لم نكتشف بعد طبيعة الفضيلة . فيجيبه : بالبداهة لا .

هذا دليل على أن الحوار السقراطي كان لا ينتهي بنتيجة ومعرفة إيجابية ، بل بنتيجة ومعرفة

سلبية ؟ فهل في هذه السلبية ما يمكن أن يصلح الناس والشباب ؟

من الخطأ أن نظن أن سقراط هو المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى به المفكرون في مواجهة الناس والشعب في كل عصر من العصور . فالشعب لا يقبل ولا يرضى بهذه السلبية الفكرية . ولاشك أن موقف سقراط كان نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي كانت تمر بها بلاد اليونان بعامه ، وأثينا بخاصة في هذه الأوقات . ولما كانت هذه الظروف تتغير وتتبدل من عصر إلى آخر ، ومن بلد إلى آخر ، فلا أعتقد أن أحداً يمكن له أن يدعى في أي وقت أنه سقراط آخر جاء ليعلم بالسلبيات الفكرية لا بالإيجابيات .

أما اهتمام سقراط بالطبيعة الإنسانية وبسبر أغوار النفس البشرية ، فهو في نظري يرجع إلى أسباب عديدة . أول هذه الأسباب : يرجع إلى عناية العلماء والمفكرين اليونانيين بدراسة الأجناس البشرية في القرن الخامس قبل الميلاد . يذكر جيغون في كتابه « المشاكل الكبرى في الفلسفة القديمة »^(١) ، أن القرن الخامس ق. م. قد شهد مولد علم الأجناس في بلاد اليونان . فكتبوا عن شعوب مصر ، وآسيا الصغرى والعراق ... إلخ . وعرف الناس بطريقة علمية أن الأشياء التي تكون ممنوعة عند اليونانيين ، تكون مناسبة ومقبولة عند غيرهم ، والعكس صحيح ، واستتج اليونانيون من ذلك أن اختلاف العادات والتقاليد عند الشعوب إنما يرجع إلى اختلاف وتنوع الحياة الإنسانية . ظهرت مشكلة الأخلاق الحقيقية : هل يمكن أن توجد أخلاق مطلقة ، أم أن الأخلاق دائماً نسبية ؟

والسبب الثاني الذي دفع المفكرين والمثقفين إلى العناية بدراسة الطبيعة الإنسانية هو انفصال العلوم عن الفلسفة . فانفصلت العلوم الرياضية ، وتخصص فيها المتخصصون^(٢) ، واستقل علم الفلك^(٣) ، وتأسس علم الطب في مدينة قوة^(٤) . وأصبح التاريخ علماً مع هيردوت وثوكيديدس تلميذ السوفسطائيين . وهذا التخصص قد جعل الفلاسفة والحكماء يبحثون عن مجال آخر للبحث وللدراسة ، فاهتموا بالإنسان وبالطبيعة الإنسانية .

والسبب الثالث والأخير : هو وجود السوفسطائيين وعنايتهم بالمسائل السياسية والأخلاقية التي تهم الفرد . وكان هدف السوفسطائية هو تعليم الفرد الوسائل التي تحقق له السعادة والجاه في مواجهة الدولة والمجتمع .

(١) Gigon (Olof) : Les grands Problèmes de la Philosophie antique. Paris,

Payot 1961, p.38.

Oenopide et Hippocrate de Chio

Meton

Hippocrate de Cos.

الشعب والتاريخ

(٢)

(٣)

(٤)

كانت النزعة الإنسانية هي السائدة في مجال الفكر والفلسفة في القرن الخامس ق. م. وعندما اهتم سقراط والسوفسطائيون من قبل بمعرفة الإنسان وتوجيه الإنسان . كان ذلك نتيجة للظروف العلمية والاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في ذلك العصر . فلم يخرج السوفسطائيون عن عصرهم ، ولا سقراط ، لكنهما اختلفا في تعريف ومفهوم الإنسان . كان الإنسان في نظر السوفسطائيين هو الفرد الذي تغلب مصالحه على مصالح الدولة والمجموع . أما سقراط فكان يبحث عن مفهوم جديد للإنسان .

الفصل الثالث

مأساة الحكيم

هل يمكن أن يكون البحث عن مفهوم جديد للإنسان هو الذى أدى إلى مأساة سقراط ؟ هل يمكن أن يكون ونص الشعب لكلمة سقراط وحكمته عنيفاً إلى الحد الذى تنهى معه حياة الفيلسوف الحكيم ؟ لا شك أن العنف الذى كان سائداً في المجتمع اليونانى والأثينى في هذا العصر كان من أقوى الأسباب . وما كان يمكن أن تنهى مأساة سقراط إلا في مجتمع يسوده العنف بعد الحروب الطاحنة التى استمرت طويلاً بين اليونان وفارس ، بين أثينا وإسبرطه . كان المجتمع اليونانى قبل الحرب وكما يقول جورج سوريل في كتابه «أفكار عن العنف»^(١) مجتمعاً يغلب عليه التفاؤل لا التشاؤم . كان يعيش في ظروف اقتصادية طيبة ، وكان جانب كبير من أفراد الشعب من التجار الأغنياء ، ورأى اليونانيون العالم في صورة متجرجر كبير تملؤه الأشياء البديعة الجميلة . فلما نشبت الحروب انتشر العنف والصراع بين الأفراد والطبقات . وكان الصراع السياسى أقوى هذه الصراعات كلها وأقوى من كل صراع اقتصادى نشده اليوم في المجتمعات الحديثة .

قال أرسطو في كتاب السياسة^(٢) ، إنه في النظم الديمقراطية ، التى يضع فيها الشعب القانون ، يحاول أصدقاء الشعب بمحلاتهم المستمرة ضد الأغنياء ، أن يقسموا المدينة إلى فريقين ويبدو أن الفقراء في أثينا كانوا هم الذين يسيئون معاملة الأغنياء ، فكانوا يختلقون المنازعات والقضايا للاستيلاء على أموالهم وثوراتهم . وكان الشعب في النظام الديمقراطي يثقل على الأغنياء بكافة الأعباء الاقتصادية ، الأمر الذى شجع على العداوة والإساءة بينهم وبين الفقراء . حتى إذا ما تغيرت الأوضاع السياسية ، وجاء حكم الأقلية الأرستقراطية ، وأخذ الأغنياء والنبلاء مكانهم ، حاولوا بالعنف أن يحكموا الشعب ويتحكموا فيه . كان حكم الثلاثين حكماً طاعياً مستبداً ، وبعد زواله كان له دائماً أنصار وأتباع . في هذا العصر وقعت مأساة سقراط ، وكانت مأساة إغريقية حقاً ، سيرتها الأقدار ، ووقف الشعب منها موقف المتفرج . وكان المثلون هم مليتيوس الشاعر ، وأيتيوس رجل السياسة ، وليقون الخطيب . وكان البطل هو سقراط .

أما الأقدار فقد شاءت أن يجيء سقراط بعد تاريخ مريير للفلسفة والفلاسفة . جاء ليحمل

Georges Sorel : Réflexions sur la violence Paris 1936, 8 Ed. p. 12.

(١)

(٢) نفس المرجع ص ٧٣

أخطاء الماضي وليكفر عنها، حتى وإن كان هو لم يقترف الإثم ولا الجرم . ومات سقراط في سبيل قضيتين لا قضية واحدة : قضية سياسية وقضية فكرية فلسفية .

لكن من هو سقراط ؟

كلنا نعرف أن أباه كان^(١) يدعى سوفرونسك، وربما كان يعمل نجاراً، وأمه تدعى فيناريت وكانت قابلة. درس الفلسفة مع أرخيلوس تلميذ أنكساغوراس . خدم في الجيش الأثيني واشترك في الحروب ، وأصبح يوماً عضواً في مجلس الخمسمائة، ولكنه سئم السياسة وتركها، واتجه إلى تعليم الشعب دون أن يتقاضى أية مكافأة مادية على ذلك . هذا هو سقراط كما يذكره التاريخ لنا. ولكننا نعلم من محاورات أفلاطون، أنه الحكيم الذي ذاعت شهرته في القرن الخامس ق. م. وتوجه أحد أصلقاته وهو خيروفون ، إلى عرافة معبد دلف ليسألها، هل هناك من هو أحكم من سقراط؟ فأجابته بالنفي. ووجد سقراط في هذه النبوءة دعوة من الآلهة (الإله أبولون) إلى الاشتغال بأمور الحكمة والفلسفة ، واعتقد أنه صاحب رسالة ، ولا أعتقد أن هذه النبوءة هي وحدها التي شجعت سقراط على الاشتغال بالحكمة والفلسفة ، ولكنها أعطت لدعوته طابعاً سماوياً . واختار الحكمة شعار معبد دلف : اعرف نفسك بنفسك .

والحق أن الصورة التي ينقلها لنا أفلاطون عن أستاذه سقراط يجب أن تكون في نظرنا صورة نسبية حتى وإن كانت صادقة . فأفلاطون كان يكتب عنه بعد الاتهام وبعد الموت ، وكان أقل ما ينبغي نحو هذه الذكرى الخالدة ، أن يردّ عنه الاتهام والافتراء . يريد أفلاطون أن يقول : إن أفعال سقراط كانت أكبر من أن يحكم عليها البشر ، لأنها كانت توحى إليه من الآلهة^(٢) ، وأن من يتلقى الوحي من الآلهة لا يمكن أن ينكرها أو أن يكفر بها .

وكان منهج سقراط في البحث يتمل على توليد الآراء والأفكار من ذهن الآخرين (Maieutique) ولكنه كما يعرف في نهاية محاوره تيتانوس Theétète ، كان يجد الأذهان والعقول فارغة قد أصابها العقم . وكما أخفق في الوصول إلى الحقيقة عند الآخرين ، أخفق أيضاً في الوصول إليها في نفسه . حاول أن يجد عنده علماً للفضيلة والأخلاق ، ولكنه لم ينته إلى تعريف واحد شامل لكلمتي الحقيقة والفضيلة .

Mélètos, Anytos, Lycon.

(١)

(٢) كان سقراط يقول إنه يستمع إلى صوت الوحي أو الـ ديمون daimon . وهذه الكلمة كانت تشير عند اليونانيين إلى الآلهة ثم تطور مفهومها ، فأصبح يشير إلى كائنات فوق بشرية لا هي من الآلهة ، ولا هي من أبطال البشر . وكان سقراط يعتقد أن الـ ديمون هم أبناء الآلهة . ويذكر جيجون أن كلمة السعادة eudaimonía مشتقة من daimon . وبذلك يكون الوحي الذي يجلب للإنسان السعادة . (المشاكل الكبرى . . . ص ٢٦٧)

ويذكر أرسطوكسين الطارتي أن أباه الذي عرف سقراط جيداً كان يقول عنه إنه كان سيئاً،
عنيف الطبع ، أحمق لا هو بالمتقف ولا هو بالعالم^(١) .

والحق أنه ليس بالبعيد أن سقراط كان يبدو في نظر بعض الأثينيين قليل الثقافة والعلم . حتى
محاورات أفلاطون لا تكشف لنا عن شخصية واسعة الثقافة ، راسخة العلم . أين هو من هوميروس؟
أين هو من طاليس ومن علماء الفلك والمهندسة والطب ؟ لم يكن العصر الذي عاش فيه سقراط
هو عصر الثقافة العالية والابتكارات العلمية العظيمة ، كان عصر الصراعات والحروب ، عصر
السياسة والنضال السياسي .

أما أرسطوفان ، شاعر الملهاة اليوناني والذي كتب « السحب » و « العصافير » و « الضفادع »
فقد صور سقراط في صورة الرجل الذي يعيش مع الخيال ، هناك في السحب . ويذكر عنه أنه
كان صاحب مدرسة ومصنع للفكر Pensoir ، يعيش فيه التلاميذ حياة زهد وتشف ،
ويتعلمون فيه الهندسة والطبيعة وعلم الفلك والجغرافيا ... الخ . كما يذكر أنه كان ملماً بعلم الخطابة
شأنه في ذلك شأن السوفسطائيين . وقد توقع أرسطوفان في رواياته نهاية أليمة له ولدرسته^(٢) .

ومهما كان أرسطوفان مبالغاً في تصويره لسقراط ، فلا شك أنه كان في نظر كثير من
الأثينيين يبحث عن شيء بعيد لا مكان له على الأرض ، بل في السماء . كان سقراط يتكلم
بلغة الفلسفة ، إلى غير الفلاسفة ، فلم يكن كلامه مفهوماً ولا واضحاً . وأن يسخر منه شاعر الملهاة
أرسطوفان ، فهذا يبدو أمراً طبيعياً . أما أكسينوفون فلم يذكر لنا غير بعض معلومات تاريخية
عن سقراط . امتدح شجاعته في الحرب ، وحبه للعلم والمعركة . ولكن كلام أكسينوفون القليل عن
سقراط ، برغم معرفته الشديدة به ، ورغبته في عدم الإفصاح عن الحقائق ، يدل على أن هناك شكوكاً
سياسية كانت تحوم حول سقراط . فمن الواضح أن الأغنياء من أمثال أفلاطون وأقربائه ألقبيادس .
وخرميدس كانوا يحيطون بسقراط . من كان ينفق على سقراط وأبنائه وهو يتجول ليل نهار في أثينا؟
لا شك أنهم الأغنياء .

هذا هو سقراط الذي سار وراءه الشباب والشيوخ يتكلمون ويتناقشون ويتحاورون . وكان
موقفه اختياراً دقيقاً للحرية الديمقراطية في المجتمع الأثيني . كان المجتمع مثقلاً بالقضايا والمشاكل
بالصراعات والتزاعات . وما أثقل العبء عليه كلام السوفسطائيين وكلام سقراط . وهل يمكن أن
يجل الكلام وحده كل هذه القضايا وكل هذه المشاكل ؟

(١) Aristoxène de Tarente كان تلميذاً لأرسطو وعرف آراء الفيثاغوريين - واشتهر

بحبه للموسيقى .

(٢) توقع حرقه وحرق مدرسته وتلاميذه ، تماماً كما حدث لفيثاغورس ومدرسته .

كان المسرح السياسي والاجتماعي معداً لهذه المأساة ، وكان المتفرجون يقفون في انتظار نهايتها . وتقدم مليتوس الشاعر بعريضة شكرى ضد سقراط إلى المجلس الشعبى ، ومجلس الخمسةائة . ووقع على هذه الشكوى أنيتوس رجل السياسة ، وليقون الخطيب . وكانت التهمة الموجهة إلى سقراط هى أنه كان ينكر الآلهة ، ويفسد أخلاق الشباب . ولا غرابة في أن يتقدم أحد الشعراء بالشكوى ضد سقراط . فهو يدعى وحى الشعراء وليس بواحد منهم . ولا عجب أيضاً من أن يتقدم أحد رجاء السياسة ليوقع على الشكوى . فسقراط هو رجل السياسة الذى تركها وترك شؤونها لينشغل بالحكمة والفلسفة .

أما ليقون فأراد أن يعرف هل هذا الرجل الذى يتكلم أمام الناس ، عالم بأصول الخطابة والبلاغة ؟ وإذا كان لا يعلم الناس أصول اللغة والكلام ، فإذا يعلمهم إذا ؟

إن محاكمة سقراط في هذا العصر ، تؤكد لنا مرة أخرى أن هذا العصر لم يكن عصر تنوير وثورة فكرية كما يخلو للبعض أن يردده . إنها في الحقيقة تعبر عن أزمة الديمقراطية الأثينية ، وعن أزمة الحضارة اليونانية نفسها . كانت هذه الحضارة تعطى المفكرين والفلاسفة ، ولكنها في الوقت ذاته ، كانت تعمل على اضطهادهم وطردهم ، وقتلهم . وكأنهم كانوا نبأ غير شرعى لها .

هل كان سقراط يستطيع أن يدافع عن نفسه ؟ قلت إن كل شيء كان معداً للمأساة . لقد سبقه تاريخ طويل لكفر الفلاسفة والحادهم . كما أنه يتف اليريم على مسرح العنف والحقد والكراهية . وكان موقف سقراط من التهمين والقضاة ساخراً أكثر من أقواله .

لماذا لم يتفوق بروحيه على الشعراء والأدباء ؟

لماذا لم بأسر الحاضرين بخطابته وبلاغته ؟

لماذا لم يؤكد للديمقراطيين أنه معهم وليس عليهم ؟

كان دفاع سقراط عن نفسه دفاعاً ضعيفاً . كل ما قاله أنه يتلقى الوحى من الآلهة . لكن ما الدليل على حكمته ، وعلى علمه ومعرفته ؟ كل أمر في هذا العصر كان يدعو إلى الشك . ومهما قال سقراط عن نفسه ، فإن كلامه كان يثير الشك أيضاً .

ما من أحد يعتقد أن مليتوس وصديقه كانوا يرغبون في موت سقراط . فكيف أنكر الفلاسفة من قبل وجود الآلهة عند اليونان ! ولا أعتقد أنه قد أضاع من وقت الشباب أكثر مما أضاعه السوفسطائيون . وما كان سقراط الحكيم يستحق الموت . لكن سخرية سقراط من السياسيين والشعراء والخطباء ، هى التى عجبت بهذه النهاية . كان سقراط لا عمل له إلا الكلام ، فهل يحق له بعد ذلك أن يسخر من رجال السياسة والأدب ؟

لقد تقبل سقراط الحكم عليه بشجاعة فائقة ، هى شجاعة الأبطال . وعندما ذهب إليه

صديقه وتلميذه أكريتون ليخرجه من السجن ، وكانت الفرصة سانحة تماماً ، رفض سقراط بكل إباء .

سقراط : ماذا جئت تفعل هنا (في السجن) في الصباح الباكر .

أكريتون : جئت أحمل إليك نأ أليماً ومضنياً ، لا بالنسبة لك وحلك بل بالنسبة لي ولكل أصدقائك الأوفياء .

سقراط : أى نأ هذا ؟ هل وصلت السفينة من ديلوس ، ليتحدد موعد مرقي بقدموها ؟
أكريتون : كلام لم تصل بعد ، ولكنها سوف تصل غداً .

ويتابع أكريتون الحزين كلامه مع سقراط . فيقول له إنه بموته سوف يفقد صديقاً عزيزاً لن يصادف مثله أبداً . ولكن كيف يمكن له أن يواجه الناس الذين سيقولون إنه قد ضنّ بماله على صديقه فلم يخرجه من السجن ، ولم يساعده على الهرب . كان الهروب من السجن ميسراً في حالة وجود المال اللازم ، وكان أكريتون على استعداد لأن يقتدى سقراط بماله كله .

فيرفض سقراط لسببين : الأول أنه بذلك إنما يعطى فرصة للأثنيين لكي يظنوا أنه كان يتكلم لمجرد لذة الكلام ، وأنه قضى حياته في التسلية بالغبوغ الفارغ . . والسبب الثاني أنه لن يردّ على الظلم بالظلم :

سقراط : تصور يا أكريتون أننا في اللحظة التي نستعد فيها للهرب ، نرى أمامنا القوانين وجمهورية أثينا تسألنا : ماذا يدور برأسك يا سقراط ؟ هل تريد أن تهدم القوانين والدولة بأكملها ؟ هل هذا ولاؤك للدولة وللعدالة ؟ وماذا تلوم علينا ؟ لقد ولدت في هذه الدولة ، وتربيت فيها ، فلماذا تغدر اليوم بالقوانين والوطن ؟ لقد أعطتك المدينة الحرية ، فهل تذهب اليوم إلى مدينة أخرى لا تعطى الحرية للمواطنين ؟ لقد اقترح عليك القضاة أن تغادر الوطن إلى المنفى ، ولكنك فضلت الموت هنا على الحياة هناك . إن حبك لمدينتك يفرض عليك احترام قوانينها ، لأن المدينة هي هذه القوانين .

هل تريد أن تذهب إلى طيبة أو ميغار ؟ سوف ينظرون إليك هناك على أنك مفسد للقوانين وللشباب . وهل بعد ذلك تطيب الحياة ؟

هذا هو الموقف التاريخي الذي عاشه سقراط . وحتى لا يتجدد التاريخ ، أو يعيد نفسه ، وحتى لا يموت سقراط مرة أخرى ، أراد أفلاطون أن يوقف سير التاريخ ، وأن يضع أصول المجتمع والمدينة التي تنف على هامش التاريخ ، بل وخارج التاريخ .

الفصل الرابع

الدولة - المدينة

أين كان أفلاطون يرمي محاكمة سقراط ؟ أين كان ساعة موت الحكيم ؟ يذكر فيدون^(١) أن ساعة موت سقراط حضر بعض المواطنين^(٢) ، وبعض الغرباء من طيبة (سيمياس وكليس) ومن ميغارا (إقليدس وتربسيون) واعتقد أن أفلاطون كان مريضاً . هذه العبارة البسيطة التي يذكرها أفلاطون عن نفسه على لسان فيدون لا تكفي في الحقيقة لتبرير عدم وجوده بجانب أستاذه وصديقه في مثل هذه الأيام والساعات . ولا أعتقد أن أحداً كان يستطيع أن يبرر هذا الموقف أكثر من أفلاطون نفسه . ولكنه لم يفعل متعمداً أو مجبراً . وإذا كان الأستاذ رويان^(٣) يقول في شرحه وتعليقه على كلام فيدون ، إنه لا توجد أى أسباب وجيهة تجعلنا نعتقد أن أفلاطون قد تغيب بعلّة أخرى ، فنحن حقاً أن نحاول أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التي جعلت أفلاطون بعيداً عن سقراط في مثل هذه الأوقات الحرجة والعصيبة . كان من الممكن ، بل ومن الواجب أن يتحامل على نفسه وعلى مرضه لكي يقف بجانبه . ولا أعتقد أن رقة مشاعر أفلاطون كانت تحول بينه وبين رؤية سقراط ، والاستماع إلى آخر حديث له . ولقد حضرت أكستيت زوجة سقراط وطفلها ؛ بكت وولولت ولكنها على الأقل حضرت .

وما من شك في أن المبرر الذي حجب أفلاطون عن سقراط كان أكبر وأقوى من المرض وشدته ، ومن المشاعر ورقتها . هذا السبب في رأيي ، سبب سياسي ، جعل سقراط قبل أفلاطون يرغب في عدم حضوره وظهوره على مسرح المحاكمة حرصاً على سلامة نفسه وحياته . كانت الشبهات السياسية في محاكمة سقراط واضحة إلى الحد الذي كان يمكن أن تجر وراءه ، غيره من الضحايا وبخاصة أفلاطون . والخير كل الخير في أن سقراط لم يتكلم في دفاعه عن السياسة ، ووجه كلامه نحو الفلسفة والحكمة ودورها في إرشاد الناس وتعليم الشباب ، وأنه في كل هذا إنما كان يتلبي حياً من الآلهة .

(١) في محاورة فيدون التي تحمل نفس اسمه .

(٢) عد ستة رجال من أثينا ومن أشهرهم أبو لودورس وأنتستينيز .

(٣) Platon : Oeuvres complètes. Ed La Pléiade Gallimard 1950. Traduction et notes par Léon Robin.

أما أفلاطون فكان يحقّ رجل سياسة من الطراز الأول . وهو يؤكد في الرسالة السابعة من الرسائل أنه في الأيام الأولى والبعيدة من شبابه ، أحس بنفس الشعور الذي يحس به الكثيرون ، وهو أن يتوجه نحو الأمور السياسية عندما يصبح حراً في أمره . كانت آمال أفلاطون^(١) السياسية هي نفس آمال أبناء الأسر النبيلة من أمثال خرميدس وأكرتياس ، وآمال إخوته الكبار أدامنتيس وأغلقون . كان أفلاطون يظن أن السياسة هي التي يمكن أن تصلح أحوال المدينة وتنتشر العدل بين المواطنين . وعندما سقطت أثينا تحت سيوف إسبرطه ، وأصبح الحكم السياسي للمدينة في أيدي الثلاثين ، دعى أفلاطون إلى المشاركة العلانية في هذا الحكم . ولكنه سرعان ما تكشفت له الأمور ، واتضح له أن حكم الأخيار^(٢) هو في الحقيقة حكم المستبدن الطغاة . فقطع كل صلته بهذه الأقلية الحاكمة سنة ٤٠٠ ق . م . أي قبل قيام ثورة الديمقراطيين بعام واحد . ويبدو أن أفلاطون كان متأثراً في موقفه السياسي بموقف سقراط الذي كان قد رفض من جانبه أن يتعاون مع هؤلاء . فلما طلب منه أن يُحضر بعض القادة الذين تسيبوا في هزيمة أثينا لحاكمهم ، رفض بشدة ، وعارض بقوة قراراتهم الظالمة . لكن بسرعة ، وبعد ثلاثة شهور^(٣) عادت الديمقراطية إلى أثينا . ويتابع أفلاطون حديثه في الرسالة السابعة فيقول : إنه بعد تغيير نظام الحكم ، كان يجد نفسه مشدوداً برغبة قوية للاشتغال بأمور السياسة وإدارة أعمال الدولة . ولكن في مثل هذه الأيام المضطربة كما كانت ، حدثت أحداث كثيرة كان لا يمكن التسامح فيها . ولا غرابة أنه في وقت الثورة يتشرداء بعض الأفراد للبعض الآخر بغرض الانتقام القاسي منهم . صحيح أن الديمقراطيين أثبتوا في مواقف كثيرة اعتدالم في معالجة الأمور ، ولكن أية ظروف سيئة هي التي جعلت بعض الرجال من ذوى النفوذ أن يهيموا صديقي سقراط — هذا الشيخ الذي كنت أحبه ، والذي لا أتحجل أبداً من القول عنه ، أنه كان أعذل الرجال في عصره — بأبشع التهم وهي عدم الإيمان بالآلهة . وحاكوه ثم حكموا عليه بالموت ؛ وأدخلوه في السجن ، ومات سقراط بعد أن صوت ضده أولئك الذين كان قد رفض محاكمة صديقهم من قبل^(٤) . وكلما أمعنت النظر في هذه الأحداث وفي الرجال الذين يديرون دفة الأمور في الدولة ، كلما عمل عقلي على التعمق في فهم القوانين . وبلدت أسمى الأمور صعبة في إدارة الدولة التي لم يعد حكمها الآن كما كان في أيام آبائنا . ولم يكن من الممكن الاعتماد على الأصدقاء القدامى لأن الحكم في الدولة قد تغير ، ولم يكن من الممكن اكتساب صداقات جديدة بسهولة . وهكذا وجدت نفسي بعيداً عن السياسة ،

(١) من أسرة أرستقراطية نبيلة . ينتمى من جهة أبيه إلى الملك كودروس ومن جهة أمه إلى سولون

الحكيم .

(٢) يجب تأريخ رومان

(٢) les meilleurs .

(٤) كان سقراط له مواقف نبيلة من الديمقراطيين أثناء محنتهم ولكنه لم يقابل بالمثل ..

ولكني كنت لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير فيها وفحص الوسائل التي يمكن أن تؤدي إلى إصلاح شئونها سواء في الظروف الحاضرة ، أو في أى نظام سياسى بعامة . ولقد انتهى بي الأمر إلى الاعتقاد بأن جميع الدول الموجودة في الوقت الحاضر تخضع لنظام سياسى فاسد . لأن هذه النظم لم تقم على أسس ثابتة ، ولأن الفلسفة المستقيمة (لا المعوجة) هي الوسيلة التي تمكننا من معرفة كيف تكون العدالة في الشئون العامة والخاصة .

من هذه الأقوال ومن غيرها نستطيع أن نفهم أن التفكير في السياسة وشئونها كان مرصداً من مراصد الفلسفة . وأن كل فرد في المجتمع تقع عليه مسئولية وواجب التفكير والعمل السياسى . ولقد جعل أفلاطون واجب التفكير ، سابقاً على واجب العمل .

لكن ، هل سبق أفلاطون أحد في التفكير السياسى وفي الفلسفة السياسية ؟ هل سبقه في ذلك السوفسطائين وسقراط ؟ .

كل التيارات الثقافية والفكرية التي كانت تموج بها أثينا في هذا العصر ، تكشف عن حالة الانحلال والتدهور التي كانت تعيشها هذه المدينة من أثر الحروب عليها . هذا التدهور قد شمل الحضارة نفسها بكل مقوماتها السياسية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية . كانت الحرب بين الفرس واليونان حرباً بين نظم سياسية مختلفة ، وكانت الحرب بين أسبرطه وأثينا حرباً بين الأرستقراطية والأغريقية من جانب والديموقراطية من جانب آخر . وجدير بالذكر أن الأرستقراطية لم تكن كاملة الصورة ، ولا الديموقراطية كاملة في هذا العصر . بل كانت هذه النظم السياسية غامضة غير واضحة . فالديموقراطية لم تكن تخلو في عصر الانحلال من جوانب أرستقراطية ، والأرستقراطية في أسبرطه لم تكن تخلو من جوانب اشتراكية عديدة . وكان المجتمع الأثينى يعيش في صراع بين الأغنياء من أصحاب الأسر النبيلة والتجار الذين اكتسبوا من الحروب مكاسب كثيرة ، والفقراء الذين لا يملكون شيئاً وفي الوقت نفسه ، لا ينقصهم شيء . واعتقد أن ظهور طبقة جديدة من التجار الأثرياء الذين استفادوا من مصائب الحرب ، قد ساعد على انحلال الأخلاق في المجتمع الأثينى . فحاول كل فرد أن يثرى ويغتنى ، وأن يبحث عن مصلحته الشخصية ومنفعته الخاصة بدون التفكير في مصلحة الآخرين . لذلك فإن كل المقومات الأخلاقية التي كانت تستند إليها الديموقراطية في أثينا ، قد تزعزعت وأصبحت مصلحة الفرد تملو على مصلحة المجموع .

وكان من نتيجة تدهور الحالة السياسية والاجتماعية والأخلاقية أن تدهورت الحالة الثقافية والفكرية . فانتشر مع السوفسطائين هذا النوع الشعبى من الخطابة السياسية . وهذه الخطابة لم تكن في الحقيقة فناً رفيعاً أو علماً أدبياً ، ولكنها كانت مجرد كلام كل الغرض منه هو التأثير على مشاعر الناس وعقولهم : وظهرت العقلانية اليونانية في أضعف صورها عند السوفسطائين . فأخذ العقل يتشكك في كل أمر ، وأصبح كل شيء موضع استفهام وتساؤل ، الدولة والقانون

والأخلاق ، والقيم . ولم تكن هذه العقلانية خالصة رغم ضعفها ، بل كانت مشوبة بخيال القصص والأساطير . حتى عقلانية سقراط ، لم تبلغ درجة الإقناع الذي يسمح بوضع أصول جديدة للحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية . كل ذلك يبين لنا أن الصورة كانت قائمة عندما جاء أفلاطون ، فأراد أن ينتقل بفكره من مرحلة النقد إلى مرحلة البناء والتأسيس^(١) . ولكن لن يكون بناء أفلاطون بناءً جذرياً جديداً ، بقدر ما هو دعوة إلى النظم والقيم التقليدية القديمة . نظر أفلاطون إلى الماضي أكثر من المستقبل ، ولم يرتفع بخياله أبعد من الحاضر .

يقول شيلنج في كتابه «تاريخ الأفكار الاجتماعية»^(٢) إن الكلمة اليونانية Polis كان معناها في الأصل قلعة الرجال الأحرار القادرين على الدفاع عن أنفسهم . وكان المواطن Polites يتمتع بجميع حقوقه السياسية ، ويمتلك الأرض وسائر الدفاع عنها . وكانت كلمة ناموس Namos تشير إلى البناء الاجتماعي الباطن للوحدة السياسية . ومع مرور الزمن أصبحت هذه الكلمة اليونانية تشير إلى الدولة وبعبارة أدق الدولة - المدينة . ويبدو أن الدولة ظلت في الضمير الإغريقي ترتبط بالحق والناموس الطبيعي . ومع تقدم الحضارة وبخاصة مع سولون المشرع اليوناني العظيم ، ارتبط مفهوم الدولة بالقانون . وفي القرن الخامس ق. م ، كانت الدولة اليونانية - الدولة المدينة - تتأسس على القانون والعادات والتقاليد . ذلك لأن القانون اليوناني كان يشرع لسلوك الأفراد ، وأصبحت الأخلاق في مفهوم الدولة والناس ، هي احترام القانون والعمل به . وبمعنى آخر ، كان قانون الدولة ، قانوناً أخلاقياً لا مدنياً فقط ، وفرضت الدولة اليونانية عقداً اجتماعياً بين أفراد المجتمع بعضهم وبعض .

كان القانون في المدينة اليونانية هو أساس الدولة في صورتها السياسية والاجتماعية والأخلاقية . النظام السياسي يحدده الدستور ، أي مجموعة القوانين ، والنظام الاجتماعي بين الأفراد والطبقات والفتات المهنية يخضع خضوعاً تاماً للقانون . أما الأخلاق وكل ما تفرضه من عادات وتقاليد ، فكانت في حماية القانون . هذه الأوضاع تجعل مفهوم القانون في الدولة اليونانية مختلفاً تماماً عن مفهومه في أيامنا هذه . كانت الوحدة بين القانون والدولة وحدة طبيعية ، ومعنى ذلك أن الفرد لا يمكن أن يستقل عن الدولة ، ولا يمكن أن تستقل الدولة عن الأفراد . هذه كانت حالة المدينة أيام عصورها الذهبية ، أما في عصر أفلاطون فلقد تغيرت الأوضاع على النحو الآتي :

١ - اضطربت الأحوال السياسية نتيجة للحروب ، وتلقى النظام السياسي ضربات قوية من

(١) يذكر جيجون في كتابه « المسائل الكبرى في الفلسفة القديمة ، » محاولة لبعض السوفسطائيين يذكرها لهم هيرودوت وثوكيديدس ، وهي عبارة عن محاولة تصورها بين ثلاثة أمراء من الفرس يتناقشون حول الديمقراطية والأستقراطية والملكية . ص ٣٢٥ .

الداخل والخارج ، مما أثر في ثقة الناس في هذا النظام .

٢- فقد الفرد ثقته في الدولة ، وقد ثقته في القانون ، إذ أصبح في نظره قانوناً عرفياً يتغير طبقاً لمصالح الأفراد .

٣- عندما فقد الإنسان اليوناني ثقته في القانون ، فقد ثقته في الأخلاق بكل ما تفرضه من عادات وتقاليد .

٤- إن ضعف الأخلاق في أي مجتمع ، وفي أي دولة ، لا بد وأن يؤدي إلى كارثة محققة مثل موت سقراط .

هذه سلسلة مرتبطة من الحقائق يراها أفلاطون أمام عينيه ، وكانت النتيجة المؤسفة والحزنة هي موت أستاذه وصديقه سقراط . لذلك أراد أفلاطون أن يعيد للمجتمع الأثيني ثقته في نفسه وفي وحدته ، يعيد إليه العدالة الاجتماعية مع الحرية السياسية .

كان المجتمع الأثيني يتمتع بجزرية واسعة ، بلغت في أحيان كثيرة حد القوضى . فعندما تتعلم الثقة في القانون ، وتتعلم الصلة الأخلاقية - لا المدنية - بين الفرد والدولة ، تنقلب الحرية إلى قوضى . كل فرد يكون حرّاً في ذاته ، يعمل من أجل ذاته ، ويعبر عن رأيه الشخصي والذاتي . هذه الحرية المطلقة تكون أشبه ما تكون بالفراغ الذي تنوء فيه كل القيم الإنسانية والاجتماعية .

أراد أفلاطون أن يقدم لنا صورة للمدينة الكاملة Calipolis ، أو للمدينة الفاضلة كما اعتدنا أن نسميها . ووضع لها أصولاً سياسية واجتماعية وفلسفية . ولعله من الأفضل لنا أن نبدأ بالجانب السياسي والاجتماعي قبل الجانب الفلسفي ، لكي نبين بوضوح دور الفلسفة في هذه المدينة .

١- الجانب السياسي :

إن النظم السياسية في نظر أفلاطون يمكن أن تتطور على النحو الآتي :

(أ) النظام الطيموقراطي : الذي يحكم فيه النبلاء الأشراف .

(ب) النظام الأوليغوقري : الذي يحكم فيه الأغنياء .

(جـ) النظام الديموقراطي : الذي يحكم فيه الشعب .

ومن الممكن أن نعتقد أن النظام الديموقراطي هو أفضل النظم السياسية كلها . ولكن الديموقراطية كما عرفها أفلاطون يمكن أن تنحل إلى الطغيان والاستبداد . من أجل ذلك يريد أفلاطون نظاماً جمهورياً يكون الحكم فيه للمثقفين المتعلمين .

أما عن النظم السياسية الأربعة التي يذكورها أفلاطون في الجمهورية (الكتاب الثامن) ،

فكلها كانت معروفة لدى الإغريق وفي داخل اليونان نفسها كان النظام الأول هو نظام كريت ولقدونيا ، والنظام الأوليغورقي كان في أسبرطه ، والديموقراطي في أثينا ، الذي تطور بدوره إلى الطغيان والاستبداد . لاجديد إذاً في هذه النظم اللهم إلا نقد أفلاطون لها وكان ذلك النقد أيضاً مستمداً من واقع .

ومن الممكن رد هذه النظم السياسية الأربعة إلى نظامين أساسيين هما الأرستقراطية والديموقراطية . وبذلك يمكن اعتبار النظامين (١) ، (ب) تدهوراً للأرستقراطية والنظام (ج) حالة تدهور وانحلال للديموقراطية . هذه النظم كلها يختلط فيها الخير مع الشر ، فإذا ظهر الخير في بادئ الأمر ، سرعان ما تغلب عليه الشر ، فتمتلئ النفوس بالكرامية والضغينة ، ويتشتر الصراع العنيف بين الأفراد . وكل ما يقوله أفلاطون عن هذه النظم السياسية إنما أراد به تذكير اليونانيين بمساوي هذه النظم في الماضي والحاضر .

ويرى أفلاطون بثاقب فكره أن مساوي الحكم كلها تنشأ من نوعين من التفرقة بين الناس : الأولى تفرقة شبه عنصرية بين النبلاء وغير النبلاء في النظم الأرستقراطية ، وتفرقة ثانية اقتصادية بين الفقراء والأغنياء . وأفلاطون يكون دائماً على حق حين يتكلم عن نفوذ الأسر النبيلة وعن أخلاقياتها ، فهو الأرستقراطي المنشأ والمنبت . وهو صادق دائماً حين يتكلم عن الصراع الاقتصادي بين الفقراء والأغنياء .

يقول أفلاطون^(١) : أينا ترى الشحاذين ، فإنك سوف تجد في هذا المكان من يتخفى من اللصوص والنشالين والنهابين للمعابد ، وكل من يقوم بأعمال الخيثة والنقالة . هذا ما يحدث في نظر أفلاطون في النظم الأرستقراطية في حالة فسادها وانحلالها . أما في النظم الديمقراطية ، فهما قيل عن الحرية والمساواة فيها ، فإن الفقراء ينظرون إلى الأغنياء نظرة عدم ارتياح وخوف . وعندما يقف الفقير بجانب الغني في خط القتال ، فإن المسكين الذي يكسو الجلد عظمه يقول لنفسه حين يرى الغني الذي يكتظ جسمه باللحم والشحم وهو يجري لاهتاً ، فاقداً لأعصابه : إن جيتنا ونلالتنا نحن الفقراء ، هي التي جعلت مثل هؤلاء الرجال من الأغنياء^(٢) .

ويؤكد أفلاطون أن الديمقراطية تبدأ عندما ينتصر الفقراء على الأغنياء فيقتلون عدداً منهم ، ويشردون عدداً آخر ، ثم يقسمون عليهم بعد ذلك بالتساوي مهام الحكم والوظائف العامة وذلك عن طريق القرعة .

ويتضح من هذا الكلام ، أن أفلاطون لا يستحسن الثراء وتكديس الثروات في المجتمع .

(١) الجمهورية : الكتاب ٧ - ٥٥٢ د .

(١) الجمهورية ٨ - ٥٥٦ د .

كما أن وجود طبقة من الفقراء في أي مجتمع يسبب صراعاً عنيفاً بين الطبقات . وهو يقرر أن الفقراء سوف يقومون حتماً بثورة على الأغنياء . ويعتقد كارل بوبر في كتابه « المجتمع المفتوح »^(١) أن أفلاطون قد سبق ماركس في فكرة الجدل المادى ، وفي الصراع بين الفقراء والأغنياء .

هذه الديمقراطية التي سادت في العصور الذهبية للحضارة في أثينا ، انقلبت في عصر الانحلال إلى نظام الاستبداد السياسى . ولقد عرف أفلاطون ديونوسوس الطاغية ملك صقلية عندما سافر إلى سيراقوزا في سنة ٣٨٨ ق. م. كان يريد أن يقوم بدوره السياسى في هذه المدينة الغريبة ، فصادق ديون^(٢) الذى كان يتمتع بنفوذ سياسى كبير . وعندما فشل أفلاطون في هذه المرة في الوصول إلى منصب سياسى كبير ، واتكشف أمره وطرد من المدينة^(٣) ، عاود الكرة مرة أخرى في عهد ديونيسوس الصغير . ولكنه لم يكن أسعد حظاً في هذه المرة ، فوضع في السجن هو وصديقه ديون . وبعد فترة عاد أفلاطون إلى أثينا . ولكن ديونيسوس الصغير طالب بعودة أفلاطون مرة ثالثة للإفراج عن ديون . وكان السن قد تقدم به ، ولكنه خرساً على مصلحة صديقه سافر الشيخ في سنة ٣٦١ ق. م. إلى سيراقوزا . ولم يتقده في هذه المرة غير إرختياس الطارنى .

كان طموح أفلاطون السياسى قوياً وشديداً . نفس الطموح الذى يلفت الأنظار عند الشباب الأرستقراطى اليونانى . كانوا يحسون في أعماق نفوسهم أنهم أسياد القوم وأسياد الحياة . هذا الطموح السياسى هو الذى دفع أفلاطون إلى التفكير في النظام الذى يكفل له أعلى المناصب السياسية وأرقاها . ومن المصادفة أن يكون هذا السياسى فيلسوفاً ، فجعل للفلسفة أى لنفسه ، أعلى المناصب في الدولة . وسوف يكون الفيلسوف أو الحكيم – أى أفلاطون – هو الرأس المدبر للدولة ، سوف يكون عقلها المفكر الذى يمسك بيده صولجان الحقيقة . كل الآراء الأخرى مهما تعددت أو اختلفت لن تكون لها أدنى قيمة ، أو أى قدر .

هذا الموقف السياسى مهما كان في صالح الفلسفة والفلسفة يجب ألا يخفى عنا حقيقة هامة . وهى أن جمهورية أفلاطون سوف تكون على نحو أو آخر ، صورة جديدة للأرستقراطية اليونانية القديمة . لذلك فكل المبررات التى سوف يقدمها أفلاطون في جمهوريته عن طبيعة الفيلسوف وحكمته ووظيفته في الجمهورية الجديدة ، سوف تكون ذاتية أكثر مما يجب .

يعتقد بعض علماء السياسة والاجتماع أن جمهورية أفلاطون هى مجرد طوييا Utopia^(٤)

(١) Karl Popper : The open society and its enemies London 1966, Vol. I; p. 38.

(٢) niuD – كان صهرأ لديونيسوس

(٣) نقل أفلاطون على سفينة إسبرطية إلى إيجينه ، حليفة أسبرطه ضد أثينا . فوقع في الأسر . ثم أطلق سراحه بعد أن دفع مواطن قيراوانى فدية له ، وعاد إلى أثينا .

(٤) هذه الكلمة اليونانية تتألف من مقطعين ؛ وهو سرف النى topos ومعناه المكان أو المحل .

خيالية لا مكان لها على الأرض . لكننا نؤكد أن العناصر السياسية والاجتماعية التي تتألف منها هذه المدينة الكاملة كانت موجودة على الأرض .

لكن كيف يمكن أن تترجم جمهورية للمثقفين وللمتعلمين بحيث يكون على رأسها الفيلسوف الحكيم ؟ الحق أننا نخطئ كل الخطأ حين نظن أن أفلاطون يدعو إلى وجود ملكة جديدة للمثقفين وللمتعلمين ، والحق أنه يجعل التعليم والتربية مسألة تتولاها المدينة وتفرضها على الناس فيها . هنا في هذه الجمهورية لاجرية للصحافة ولا للتعليم ، إنما نظام اشتراكي للتربية والتعليم مثل نظام الاشتراكي الذي كانت تفرضه أسبرطه على المواطنين مع تعديلات طفيفة سوف نراها فيما بعد .

٢ - الجانب الاجتماعي :

(١) شيوعية المجتمع :

كان الهدف الأول من البرنامج السياسي والاجتماعي للجمهورية الأفلاطونية هو القضاء على خلية الأسرة في المجتمع . ومنذ البداية يريد أفلاطون أن يلغى تفرقة الدم وآثارها السيئة في المجتمع . فالطبيعة قد جعلت الناس إخوة في الدم ، ولا مانع من أن تختلط اللماء كلها فتذوب الفروق بين نبي البشر . وينادي أفلاطون بشيوعية النساء والأطفال في الكتاب الخامس من الجمهورية . وهو يقول إنه من حيث المنفعة ، لا يمكن أن نشك في أن شيوعية النساء والأطفال تعود بالخير الكبير إن أمكن تحقيقها .

لقد أراد أفلاطون أن يمزج البذور كلها ، فيبدو المجتمع خليطاً منها . ولكن هذا الخليط يظهر في صورة بشعة ومنفرة حتى بالنسبة إلى العقل والحيال الإغريقي . فلقد تصور أنكساغوراس الوجود في صورة خليط في حالة الفوضى ، ولكنه افترض بعد ذلك وجود الروح أو العقل ليفرق البذور وينظمها . إن هذه الشيوعية التي يمكن أن يمتدحها البعض تتعارض في نظري مع النظام البيولوجي للوجود الإنساني . كل شيء في الحياة ومظاهرها يدل على النظام في الوجود ، أجناس وأنواع ، ميلاد وموت ؛ فكيف يمكن أن تنحدر الحياة الإنسانية إلى هذا المستوى من الفوضى والشيوعية ؟ بعيداً عن كل الاعتبارات الأخلاقية والدينية ، ومن وجهة النظر الطبيعية والحوية ، تكون شيوعية أفلاطون مسخاً للمجتمع الإنساني .

ولا أعتقد أن أفلاطون كان أول من نادى بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات والعمل . فهذه المساواة كانت قد ظهرت بوادرها وعلاماتها في القرن الخامس قبل الميلاد . ويذكر فيلد Field^(١) أن المرأة في أسبرطة كانت تتمتع بحريتها . وكانت المرأة في أثينا تطالب بالمساواة

مع الرجل. وكان أرسطوفان يسخر من هذه المطالب في رواياته الهزلية. أما سقراط فكان ينفي عدم المساواة بين المرأة والرجل. وكانت «أسباسيا»^(١) تلميذته نموذجاً للمرأة المتعلمة والمتحررة في هذا العصر. ومن المؤكد أنه قد حدث تطور كبير في نظرة المجتمع الأثيني إلى المرأة في أواخر العصر. حتى إن أفلاطون قد وافق على قبول طالبتين في الأكاديمية^(٢).

(ب) التربية والتعليم :

وضع أفلاطون في الجمهورية أصولاً للتربية والتعليم، وتشمل هذه الأصول العلوم بالنسبة إلى التعليم، والفنون بالنسبة إلى التربية. وهو يؤكد أن التربية يجب أن تشمل الجسم والنفس معا، وأن التربية الرياضية تعنى بالبدن، كما تعنى الثقافة بالنفس. ويميز أفلاطون بين نوعين من الإنتاج الأدبي، إنتاج يعتمد على الصدق في القول وإنتاج آخر يعتمد على الكذب. والدولة إذا أرادت أن ترقى بمستوى المواطنين، يجب عليها أن تقدم لهم زاداً ثقافياً من النوع الأول لا الثاني ويحاول أفلاطون أن يفصل بين الدين أو اللاهوت الذي يقوم على الصدق، والأساطير والروايات التي تقوم على خيال الشعراء الذين يتسبون في بلبلة الأفكار وخداع الناس. وتلى الثقافة الأدبية، الثقافة الموسيقية. ويجب أن نضع نوعاً من التعادل بين التربية البدنية والثقافة الموسيقية حتى لا تظني واحدة على الأخرى. وبجانب الثقافة في المجتمع، يجب أن يكون هناك نظام ما لتعليم العلوم، وإذا كانت الثقافة تمنحها الدولة للجميع، فإن التعليم لا يحظى به غير الذين يبدون استعداداً له. الثقافة فن يحتاج إليه الناس جميعاً، أما العلم فهو للبعض دون البعض الآخر. وهذه العلوم هي الرياضيات أي علم الحساب والعدد، وعلم الهندسة، ثم علم الفلك، ثم علم الجدل أو الفلسفة.

(ج) تقسيم العمل في المجتمع :

بهذه الفكرة يريد أفلاطون أن يلغى نظام الطبقات في المجتمع. فالنظام الطبقي يفترض دائماً أن تعمل كل طبقة من أجل مصالحها، حتى وإن تعارضت هذه المصالح مع مصالح الطبقات الأخرى في المجتمع. أما تقسيم العمل فهو يفترض أن تعمل كل فئة من أجل المصلحة العامة المشتركة.

ويقسم العمل الاجتماعي بين الفنيين والصناع والتجار والمقاولين الذين يوفرون الحاجات

(١) Aspasia.

(٢) نفس المرجع. يذكر أحد تلاميذ أرسطو أنه كان يعلم أن إحداها كانت ترتدى زي الرجال.

الاقتصادية للدولة ؛ والحراس الذين يتولون الدفاع عن المدينة ، والحكام المستنيرين الذين يشعرون القوانين في الجمهورية . ويرى أفلاطون في تقسيم العمل على هذا النحو ، أى على أساس الاستعداد الفطرى والطبيعى للإنسان نموذجاً للعدالة الاجتماعية .

والحق أن توزيع العمل على أساس التربية والتعليم ، أى على أساس التخصص يمكن أن يحقق جانبا من العدالة الاجتماعية لا كلها . إذ تظهر الطبقات الكادحة في المجتمع في أسهل السلم الاجتماعى . بينما ينعم غيرهم بالراحة وصناء الببال .

هذه المدينة الأفلاطونية مدينة لا تاريخ لها ، يتوقف فيها كل شىء عن التطور والتغير ، ويسكن في طبيعته . أراد أفلاطون أن يضع نظاما اجتماعيا يماثل النظام الطبيعى في الكون والعالم الخارجى . فالشجرة لا يمكن أن تكون إلا شجرة ، والطائر لا يمكن أن يكون إلا طائراً ؛ كذلك فالصانع لا يمكن أن يكون إلا صانعا ، والحارس لا يمكن أن يكون إلا حارسا . هذا الجمود الأفلاطونى في تصوره للحياة الاجتماعية ، يوقف كل وثبة ونهضة وحركة في المجتمع . إنه جمود الطبيعة كما تصوره بعض فلاسفة الإغريق ومن بينهم أفلاطون . ويقول كارل بوبر : إن تصور أفلاطون للمجتمع كأنه لا يتغير مثل الشمس والقمر وفصول السنة هو تصور للمجتمع المقفول المنغلق على ذاته^(١) .

هل هذه المدينة الأفلاطونية مدينة فاضلة ؟ هل يقبل الأحرار الحياة في هذه الدولة ؟ وهل كانت جمهورية الحكيم مثالية حقاً ؟ أعتقد أن هذه التسمية قد نشأت من المزج الذى أوجده أفلاطون بين السياسة والفلسفة .

(١) ص ٥٧ (المجتمع المفتوح ...)

الفصل الخامس

الفيلسوف المتوج

سنحاول أن نكشف عن جانب جديد تماماً في الفلسفة الأفلاطونية ، وسنين إلى أى مدى قد تأثر أفلاطون بالحضارة المصرية والواقع المصرى . لقد كانت الحضارة المصرية القديمة حضارة عظيمة شامخة مثل الأهرامات ، ولكنها في الوقت نفسه كانت صامتة مثل أبى الهول .

والحق أن الصمت الذى أحاط بالحضارة المصرية كان صمتاً رهيباً ، فلم نعرف غير القليل من أسماء علمائهم وكتابهم وفنانيهم ، في الوقت الذى كانت فيه الحضارة اليونانية تملأ أسياع الدنيا بأسماء رجالها . وبقينا أن هنا الصمت لا يدل على عجز أو نقص في هذه الحضارة ، بقدر ما هو يدل على الطبيعة والشخصية المصرية، التى تختلف من جوانب كثيرة عن الطبيعة والشخصية الإغريقية^(١) .

كان اليونانيون يقدون إلى مصر في زيارات قد تقتصر مدتها أو تطول ، وكان يحرص على هذه الزيارة العلماء والفلاسفة والمؤرخون^(٢) . وبعد موت سقراط انتقل أفلاطون إلى مصر ، حيث مكث قرابة الثلاثة أعوام ، تعرف فيها على مظاهر حضارتها . ولقد تحدث عن مصر في محاوره الطيلاس بأسلوب يكشف عن إعجاب شديد بهذه الحضارة وبأهلها .

ينقل أكرتيتاس في محاوره طيلاس حديثاً جرى على لسان سولون الحكيم ، يتحدث فيه عن زيارته لمصر فقال : هناك في مكان ما في مصر ، وفي الدلتا التى يتفرع على رأسها مجرى النيل ، توجد مقاطعة (محافظة) الصعيد ، وكانت مدينة سايس أكبر المدن التى نشأ فيها الملك أمازيس . وكان أهلها يعبدون إلهة اسمها « نث » باللغة المصرية ، وأثينا باللغة اليونانية ؛ وكانوا يكونون قديراً كبيراً من المحبة للأثينيين ، ويزعمون أنهم على صلة قرابة بهم . هنا أقام سولون ، واكتسب تقديراً كبيراً بين رجال البلدة . ولكنه عندما سأل يوماً بعض الكهنة عن الحضارة القديمة والتاريخ القديم تبين له ، أنه لا هو ولا اليونانيين ، يعرفون شيئاً عنها . وبعد أن عرض معلوماته في هذا الصدد صاح أحد الكهنة وقال : سولون يا سولون ، أنتم أيها اليونانيون ، أطفال على الدوام ! أيها الشيخ ، لا يوجد يوناني واحد ليس طفلاً . ويسأله سولون : ماذا تعنى هنا ؟ فيجيبه الكاهن : أنتم شباب

(١) انظر الباب الأخير من الكتاب .

(٢) طاليس ، أفلاطون ، هيردوت .

بروحكم ، ولأن روحكم ليس بها أى أثر من الآراء القديمة ، ولا التراث البعيد ، ولا العلم الذى شاخ مع الزمن ، ولقد حدثت فى التاريخ أحداث كثيرة ، دمرت الرجال ، وسوف يحدث مثلها ؛ إن أكبر الكوارث أحدثتها النار والماء ، وهناك مئات من الأسباب الأخرى التى تحدثها . لذلك فما تحكونه عن ابن الشمس « فايثون » الذى ركب عربة أبيه ، وضل طريقه فأحرق كل شىء على الأرض ، ومات مصعوقاً ، إنما هى مجرد أسطورة ؛ أما فى الحقيقة ، فإن حركات الأجسام السماوية حول الأرض قد ينحرف مجراها ، فتحل الكارثة على أهل الأرض . وعندئذ تصيب هذه الكارثة أولئك الذين يقطنون فى الجبال والأماكن العالية أكثر مما تصيب سكان الوديان والسواحل . أما نحن ، فالنيل هو متقذنا ، الذى يقينا من هذا الشر بفيضانه . لكن عندما تشاء الآلهة أن تغرق الأرض بمن عليها ، فيأتى الطوفان ، ولا يسلم منه غير سكان الجبال والأماكن العالية . أما بلادنا فلا تغرقها مياه السماء . لذلك تكون مصر هى البلد الذى يحفظ التقاليد منذ أقدم العصور لذلك فكل ما حدث عندكم أو عندنا ، أو فى أى مكان آخر ، مسطر عندنا منذ القدم . كل ما تم فى العالم من أشياء جميلة وعظيمة ومشهورة قد دوناه هنا وحفظناه فى معابدنا خوفاً من النسيان . إن الكتابة عندكم وعند الشعوب الأخرى ، تكون من تركيب حديث ، وكذلك كل المقومات الأخرى للحضارة وذلك لأنه على فترات منتظمة ينصب عليكم عباب السماء ، فلا يبقى منكم غير الأميين وغير المثقنين ؛ لذلك تبدأون دائماً من جديد ، كشباب جديد ، لا يعرف شيئاً ، ما حدث فى بلادكم أو فى بلادنا فى الأزمنة القديمة . إن ما تذكره يا سولون عن أصل الإنسان والعالم لا يختلف إلا فى القليل عن حكايات الأطفال . فأنتم لا تذكرون غير طوفان واحد ، ولكن كم حدث غيره من قبل ؛ وأنتم لا تعلمون أن أشرف وأشجع سلالة للرجال قد نشأت فى بلادكم ... ثم يقص عليه الكاهن المصرى كيف كانت شجاعة أثينا والأثينيين ، وكيف كانوا أشجع الجنود فى الحرب ، وكيف كان نظامهم السياسى أفضل النظم . فقد استطاعوا فى سالف العصر أن يقضوا على بعض الطغاة والمستعمرين الذين عاشوا فى قارة الأطلنتيد التى زالت من الوجود بعد أن أغرقتها السماء ...

وبرغم الجانب الأسطورى الواضح فى هذه المحاوره الذى يتمثل فى تمجيد الأثينيين والقول بأنهم أشرف وأشجع الرجال ، وبالرغم من قصة الأطلنتيد التى يمكن أن تكون فى ذهن أفلاطون مجرد أسطورة تحكى عن نهاية الطغاة إلا أننا نستطيع أن نستخلص بعض العناصر الهامة والجديدة التى أشرت فى تفكير أفلاطون . إن اعترافه بقدم الحضارة والعلم المصرى ، وبأن اليونانيين والأثينيين ما زالوا فى دور الطفولة من العلم ؛ وبقينه بأن الأساطير اليونانية إنما هى فى نظر العلماء المصريين مجرد قصص أطفال ؛ واعترافه بأن الكتابة التى عرفها المصريون قد حفظت للإنسانية تاريخ الحضارة والعلم ؛ كل هذا يدل على مدى إعجابهم وتقديره للحكمة المصرية . كما أن الصلة التى يراها واضحة

بين آلهة مصر وآلهة اليونان (أثينا) وبين النظام السياسي الذي كان سائداً في أثينا من قبل والذي ما زال سائداً في مصر العريقة حتى هذا الوقت ، كل هذا يدل على أنه ليس هناك ما يمنع أفلاطون من نقل بعض مقومات الحضارة المصرية إلى اليونان بحيث يعود في نظره كل شيء إلى أصله الأول ، قال الكاهن المصري : يرجع التنظيم السياسي لمدينتكم (أثينا) إلى تسعة آلاف سنة كما هو مسجل في كتاباتنا المقدسة . وسوف أكشف لك عن هذه القوانين باختصار الآن ، وسأثبتك بما أدته من أعمال كبيرة ، وأجمل ما أنجزته ؛ أما من حيث التفاصيل ، فسوف أخبرك بها على مهل في مرة أخرى والكتب والنصوص بين أيدينا . وفيما يختص بهذه القوانين ، فما عليك إلا أن تنظر إلى قوانيننا هنا . وسوف تجد عندنا اليوم أمثلة كثيرة من تلك التي كانت موجودة عندكم : أولاً فإن طبقة الكهنة هي هنا متميزة عن كل طبقة أخرى ؛ ثم يأتي بعد ذلك الصناع حيث تستقل كل حرفة عن الأخرى ولا تختلط الواحدة بالأخرى ، ثم تأتي طبقة الرعاة والصيادين والزراع . أما طبقة الحجارين ، فهي كما لاحظت تنفصل عن كل الطبقات الأخرى ، ولقد نهى القانون أن ينشغلوا بأى شيء آخر غير الحرب . أما زينا وسلاحنا^(١) فإن الآلهة هي التي علمتنا استعماله . كذلك علمتنا فن التنبؤ والطب .

هذا في الجملة كان نظامكم السياسي والاجتماعي الذي أسسته الآلهة في مدينتكم فلقد اختارت هي المكان الذي تولدون فيه ، واختارته في المناخ المناسب الذي يجعل الرجال أذكيا ؛ وبطبيعتها الحكيمة والحاربة^(٢) اختارت الرجال الذين يمكن أن يكونوا مماثلين لها . فهل يمكن أن نشك بعد ذلك في كل ما يمكن أن ينقله أفلاطون عن مصر في مجال الحكمة والسياسة ؟ إننا لذلك سوف نقسم الكلام في موضوع الفلسفة والسياسة إلى قسمين ؛ قسم خاص بالمؤثرات اليونانية وقسم آخر خاص بالمؤثرات المصرية .

١ - المؤثرات الإغريقية في الفلسفة الأفلاطونية

من الممكن أن نستنتج من محاورات أفلاطون أن الذين كانوا يشتغلون بالمسائل السياسية في أثينا ، إنما ينتمون إلى فئات ثلاثة: فئة الشعراء والسياسيين والخطباء . ولا أدرى في الحقيقة هل يريد أن يواصل دفاعه عن سقراط فيرد على الشعراء (مليتوس) والسياسيين (أنتيوس) والخطباء (ليقون) ؛ أم أن واقع الحياة السياسية في اليونان هو الذي كان يفرض على أفلاطون وعلى غيره

(١) الدرع والرمح .

(٢) أي ميولها الفلسفية والحربية .

هذه الفئات الثلاثة . ويبدو أن هذا الواقع قد ارتسم في أذهاننا من محاكمة سقراط . ويبدو أيضاً أن هذه المحاكمة قد ظلت في نفس أفلاطون ، الحقيقة الأليمة المرة التي لم ينسها طوال حياته . لذلك فكل نقده للشعراء والسياسيين والخطباء ، إنما استوحاه من هذه المحاكمة .

(١) نقد الشعراء :

نذكر على سبيل المثال نقد أفلاطون للشعر والشعراء في محاوره الجمهورية (الكتاب الثاني) ، حيث يدور الحوار بين أدامنتيس وسقراط .

أدامنتيس : إنني لا أفهم ما هي القصص الكبيرة التي تتكلم عنها .

سقراط : إنها القصص التي رواها هيزيود وهوميروس وباقي الشعراء ، فهم الذين قد اختلقوا للناس هذه الحكايات الكاذبة وروجوها وأذاعوها .

— لكن ما هي هذه الحكايات ، وما هي عيوبها ؟

— إنها نفس العيوب التي يجب أن نوجهها أولاً وبالدرجة العالية ، إلى كل من تسول له نفسه أن يقول الأكاذيب غير الجميلة .

فثلاً ، عندما يعطون صورة كاذبة عن الآلهة والأبطال ، مثل الرسام الذي يرسم صوراً لا تشبه النموذج الأصلي . وأعطيك مثلاً عن أعمال الانتقام التي قام بها أورانوس ، ومن بعده كرونوس^(١) — التي يذكرها هزيود — . أما ما يذكره الشاعر عن أفعال ابن كرونوس — أي جويتر — فإني أعتقد أنه كان من الأفضل السكوت عنها بدلا من سردها على أسماع الناس السذج ؛ وإذا كانت هناك ضرورة لذكرها ، فليكن ذلك في أقوال^(٢) سرية عن الأسرار الإلهية *Mystères* ، تذكر أمام قلة ضئيلة من المستمعين بعد مراسم الضحية .

— أعترف لك أن هذه الحكايات جارية للنفس .

— ولا يجب أن يستمع إليها الناس في مدينتنا . فالشباب الساذج قد يحاول أن يقلد أفعال الآلهة القديمة والكبيرة . وقد يتقاتل حراس المدينة ، كما يتقاتل الآلهة ... ولو كانت حكايات هوميروس حكايات رمزية ، فالشباب لا يعرف كيف يميز بين ما هو رمزي وما هو غير رمزي . والآراء التي يكونها الشباب في هذه السن المبكرة من هذه الحكايات قد لا تتمحى ولا تتزعزع .

(١) كان أورانوس يقتل أبناءه ليظل هو ملك الآلهة. حتى وجد كرونوس الذي تحايل وقتل

آباءه .

(٢) صيغ أو عبارات .

من ذاكرته . لذلك فإن ما يجب أن يسمعه الشباب في سنه ، هو الروايات التي تحكى عن الفضيلة .

ومهما كان جمال الشعر من الناحية اللغوية ، فإن المعاني التي أنشدتها شعراء اليونان كانت في نظر أفلاطون لا تبعث في النفس الفضيلة والشجاعة^(١) . لذلك فإن الحكام الذين يعتمدون في حكمهم على خداع الناس والأعداء ، يشجعون الشعراء . أما الذين لا يرضون بالكذب والخدعة ، فإنهم يمنعون الشعراء من الكلام ، أو لا يسمحون للمعلمين من استخدام الشعر في تربية الشباب . والحق أننا نفهم من نقد أفلاطون لمهمة الشعر في الدولة ، ولدور الشعراء فيها ، أنه لا يرضى عن وجودهم في جمهوريته الجديدة . وإذا كانت أثينا قد فتحت لهم أبوابها ، فذلك لأنها كانت تبغى خداع الناس بأكاذيبهم وخيالاتهم . ترى ألم يكن مليتوس واحداً منهم !؟

(ب) نقد السياسيين الأثينيين :

في محاورة جورخياس ، يسأل كاليكليس سقراط عن رأيه في بريكليس فيقول :

— قل لي يا سقراط ، هل أصبح الأثينيون بتفضيل بريكليس أفضل مما كانوا ؟ أم هل أصبحوا أسوأ مما كانوا ؟ لأنني قد سمعت أنه عندما قرر دفع مكافأة لأصحاب الوظائف العامة ، قد جعل الأثينيين كسالى وجبناء وكثيرى الكلام وجشعين .

— لقد رأيت مثلى كيف أن الأثينيين قد وقفوا ضد بريكليس وهو في آخر أيامه ، ورفضوا انتخابه . فهل كان ذا قدر كرجل دولة ؟

— نعم كان كذلك .

— ولكنه من المؤكد أنه قد جعل الناس أكثر وحشية ، ولذلك انقلب الأمر عليه .

لأنه لم تكن له في الحقيقة أية قيمة كرجل دولة .

ويواصل سقراط الحوار ، ويبين كيف أن غير بريكليس من رجال الدولة لم يحققوا للشعب شيئاً . هؤلاء لم يهتموا بروح الشعب وأخلاقه وإن كانوا قد عملوا على تحقيق رغباته . لقد أشبعوا المدينة

(١) يعيب أفلاطون على "شراء المبالغة في التعبير عن العواطف والانفعالات حتى الألفاظ التي يستخدمونها لا تتناسب مع طبيعة الأبطال والآلهة وهل يمكن أن يوصف أخيل ابن الإلهة كما وصفه هوميروس وغيره من الشعراء : إنه أحياناً يستلق على جانبه وأحياناً أخرى على ظهره وقد يمتد بجمده إلى الأمام ثم يهب واقفاً ، ويجرى على شاطئ البحر أما بريام فكان يتوسل إلى الآلهة ، ويتسرخ في الوحل ، وينادى على كل رجل باسمه . . . (الكتاب الثالث من الجمهورية) .

بالمواثيق والقلاع ، ولكن بعيداً عن الحكمة والعدالة . وهو يعتقد أنه لا فرق كبير بين رجال الدولة والسوفسطائيين الذين يدعون بأنهم معلمو الفضيلة ، وفي الوقت نفسه يوجهون اللوم إلى تلاميذهم عندما يخفزون أو يقللون من أجرهم . كذلك فإن رجال الدولة كانوا يمتدحون الشعب وهم على رأس الدولة ، وعندما يصبحون بعيدين عن الحكم ، ينعتونه بالخبث والفساد .

(٣) نقد الخطابة والخطباء :

نحن نعلم مدى انتشار فن الخطابة في بلاد اليونان . ويعتقد أفلاطون أن فساد السياسة والسياسيين إنما يرجع إلى استخدامهم لهذا الفن في التأثير على الجماهير^(١) . والخطابة هي فن الإقناع بالرأى ، وهو لذلك يختلف تماماً عن الفلسفة التي تهدف إلى تعليم الحقيقة .

ويعتقد أفلاطون أن السوفسطائيين قد لعبوا دوراً كبيراً في إفساد هذا الفن ، إذ جعلوا الهدف منه الدفاع عن الآراء التي لا تستند إلى مقدمات يقينية ، بل إلى بعض الأمثلة الدارجة من الأساطير والأدب والحياة اليومية . لذلك فهو يؤدي إلى الظن والاعتماد ، لا إلى المعرفة والعلم .

لكن يجب أن نؤكد هنا مدى اتصال الخطابة بجماهير الشعب . فالخطيب يتكلم أمام الناس وفي حضرة الحشود والجماهير ، وهو قادر على التأثير عليهم وإقناعهم بما يريد . ويتساءل سقراط : هل يستطيع الرجل القادر على الكلام أن يتكلم عن العادل والظالم ، والقبيح والجميل ، والخير والشر كما يتكلم عن الصحة والمرض ؟ وهل يكون بحاجة إلى معرفة مسبقة بهذه المسائل قبل أن يتعلم فن الخطابة ؟ وبمعنى آخر : هل يجب أن يتعلم أولاً الحقيقة قبل أن يتعلم هذا الفن ؟ إن الخطابة تعتمد على المهارة^(٢) والإطراء والتملق . وهذا الفن هو بالنسبة إلى النفس الإنسانية ، كفن الطهي^(٣) بالنسبة إلى الجسد .

إن الخطابة قد ساعدت على وضع الطغاة في كراسي الحكم . لكن الظلم لن يجعلهم سعداء في حياتهم . وأن أرخلاوس الذي اعتلى عرش مقدونيا بلا وجه لحق ، لن يشعر بالسعادة أبداً سيظل في حياته تعيساً بائساً ، هذا الملك الكبير ؛ وكل أثيني قد يقبل أن يكون مقدونياً ، ولكنه لن يقبل أن يكون أرخلاوس . لذلك يقرر أفلاطون أن الخطابة لم تستخدم حتى اليوم إلا من أجل الدفاع عن الظلم لا عن العدل .

(١) يقول جورجياس في المحاورة التي تحمل اسمه (٤٥٤ ب) : هذا الفن مكانه في المحاكم والأماكن الأخرى التي يتجمع ويتجمهر فيها الناس . . .

Savoir - faire.

(٢)

(٣) جورجياس ٤٦٥ .

(د) علم الفلسفة :

من الواضح إذاً أن النقد الذى وجهه أفلاطون إلى الشعر والسياسة والخطابة ، لم يكن الغرض منه التجديد أو التغيير فى أصول ومناهج هذه الفنون ، بقدر ما كان الغرض هو إصلاح الحياة فى أثينا بكل مظاهرها السياسية والاجتماعية والفكرية . وتبدو مقولة « الحياة » هنا ، مقولة أساسية وجوهرية فى نهج التفلسف عند أفلاطون . التفلسف حياة ، والحياة الإنسانية تجد معناها الحقيقى فى التفلسف . لقد عمل الشعراء والسياسة والخطباء فى أثينا على إفساد الحياة فيها ، وسواء بقصد أو بغير قصد . كان حبهم للفن وللمهارة الفنية أكبر وأقوى من حبهم للحقيقة والعدالة . وما هو ذا أفلاطون يدعو الإنسان أن يحيا من أجل الحق والخير والجمال . ولا غرابة أن تترج الفلسفة بكل مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية .

ولما كانت الفلسفة هى حب الحكمة^(١) ، فإنها عند أفلاطون تكون نظرية وعملية فى الوقت ذاته . وكل محاولة للفصل بين الجانبين إنما تؤدى إلى العجز فى فهم أسمى الأهداف وأعلامها فى هذه الفلسفة . فلم تكتب هذه الفلسفة من أجل الذين يعيشون فى الأبراج العالية ، بل من أجل الذين قبلوا الحياة مع الناس ومن أجلهم .

تهدف الحكمة النظرية إلى معرفة الحقيقة ، وتهدف الحكمة العملية إلى تحقيق العدالة . والأخلاق هى التى تجمع بين معرفة الحقيقة وتحقيق العدالة ، وهى أساس الحياة النظرية والحياة العملية . والحق أن الحياة النظرية والعملية ، تأخذ عند أفلاطون أفقا إنسانياً واسعاً ، إنها ليست حياة الفرد وحده ، بل حياة الجماعة كلها . ويصبح التفلسف حواراً ، لا حديثاً للذات ويجرد لغو لا يفهمه غير قائله . لكن الحوار الأفلاطونى لا يريد أن ينقلب إلى مشاحنات وتضارب بين الآراء المختلفة . إنه يرتفع إلى مرتبة « الجدل » الذى ينقل العقل من عالم الأشياء إلى المعانى ، ومن المحسوس إلى عالم الأفكار والصور والقيم .

والجدل (ديالكتيك) هو علم الفلسفة بالأصالة ، أما سائر المعارف الأخرى فهى مجرد مقدمات لعلم الفلسفة والجدل . ويرى أفلاطون أن المعرفة بصفة عامة تنقسم إلى قسمين : قسم خاص للمهن ، وقسم خاص بالتعليم والثقافة . والفنون كلها تنتمى إلى القسم الأول مثل الموسيقى والطب والزراعة والصيد والصيد والصيد ، مع ملاحظة أن الفنون التى تتصل بالموسيقى تكون أقل دقة من الفنون التى تتصل بالبناء لما تشمله هذه من فنون العد والقياس والوزن . أما العلوم إذا أخذنا بالتسمية الشائعة عنها ، فهى تنقسم إلى أربعة : علوم العدد (الحساب) وعلم الهندسة

(١) بحسب التعريف اللفظى للكلمة اليونانية : فيلو أى الحب وصوفيا أى الحكمة .

(المساحة) وعلم الهيئة (الفنك) ، ورابعاً وأخيراً هندسة الأجسام الصلبة^(١) .

ولكن أفلاطون يريد في كتاب الجمهورية أن يقتصر استخدام كلمة العلم ، على علم الجدل وحده ، ويرى أنه من الأفضل أن نبحث للعلوم الأخرى عن كلمة تكون أكثر وضوحاً من الرأي ، وأكثر عمومية من العلم . فالننون التي تندرج تحت ما يسميه أفلاطون بالمعرفة الظنية ، تقوم على ملكة الاعتقاد وملكة التقليد . أما علم الجدل فهو وحده الذي يقوم على ملكة التعقل . ذلك لأن العلوم التمهيدية الأخرى إنما تقوم على ملكة الاستدلال .

وكان من الممكن أن يكون علم الجدل مجرد علم عقلي ، يكشف عن خصائص العقلية الإغريقية ؛ مجرد علم يقوم على ملاحظة وفحص المعطيات الحسية من أجل استخلاص ماهياتها . تماماً كما فعل أرسطو من بعد ، حين أقام فلسفته على أساس النشاط العقلي ، أو الفاعلية العقلية . لكن العقلانية الإغريقية التي كانت لا تخرج عن حدود العقل ومنهج العقل الدقيق ، قد تعالت على نفسها وتجاوزت الحدود التقليدية المرسومة .

والآن تسأل : ما الجدل ؟ ما هو منهجه ؟ ما هي غايته ؟

إن الطريق الجدل للبحث ، أو المنهج الجدل ، هو وحده في نظر أفلاطون الذي يجعلنا ندرك « ماهية » كل شيء . على عكس الفنون الأخرى التي تتعلق بآراء الناس ورغباتهم ، أو المنتجات الطبيعية والصناعية ؛ وعلم الهندسة الذي تظل فروضه^(٢) بعيدة عن الواقع ، وضوراً من الأحلام ، عندما لا يبررها الواقع نفسه . إن علم الهندسة لا يمكن أن يكون علماً حقيقياً إذا كان يبدأ بالقضايا التي لا نعرف مدى انطباقها على الواقع ، ولا ترتبط القضايا فيما بينها وسائل يبررها الواقع . أما ما يختص به السير في الطريق الجدل ، فهو دفع الفروض بشدة ومتابعة السير في الطريق حتى نصل إلى المبدأ ذاته .

لكن السير في الطريق الجدل ليس كالسير على الأرض المنبسطة ، بل هو صعود إلى أعلى . فلكرة الجدل « تصعد بأفضل ما في النفس ، لتأمل أفضل ما في الواقع »^(٣) . هذا الأفضل هو الخير Bien ؛ وقد يكون في حكم العامة من الناس اللذة ، بينما هو في حكم أناس أكثر دقة الفكر^(٤) . وهو المبدأ الذي يعطي موضوعات المعرفة حقيقتها ، ويعطي الذات العارفة القدرة على المعرفة . أو هو واهب العلوم وجوده وماهيته ، مع أنه أسمى من الماهية ويفوقها مرتبة وقدرة . ويقول

(١) يمكن أن نضيف إليها علم الأنغام الذي يتميز عن فن الموسيقى

(٢) أو فرضياته Hypothèses

(٣) الجمهورية ٧ ، ٥٣٢ .

(٤) الجمهورية ٦ ، ٥٠٥ .

أفلاطون إن الخير الأسمى هو الموجود من حيث طبيعته الأزلية الساكنة^(١) . والخير أيضاً هو شمس العالم العقول ، وما الشمس المحسوسة إلا صورة مقلدة من الشمس المعقولة ، وكما تشرق شمس العقول على المثل أو الصورة (أيدوس) فتهبها الوجود والماهية ، كذلك تشرق الشمس المحسوسة على الكائنات فتهبها الحياة في الأرض .

إن علم الجدل يستلزم إذاً العلم بالخير ، كما أنه يستلزم العلم بالمثل . فالمثال أو الصورة المعقولة ، هو حقيقة الشيء في ذاته ، وعلم المثل هو عالم الحقائق والمهايات ، بينما العالم المحسوس هو عالم الصور الزائفة الخداعة . والمثال عام من حيث مفهومه ، ولكنه خاص من حيث عدده . فهو واحد بسيط لا كثرة فيه . ونستنتج من هذا أن الموضوعية كما يريد عالم الجدل هي موضوعية « الشيء في ذاته » ، أو « الواقع في ذاته » ، أو « الحقيقة في ذاتها » . لكن هذه الموضوعية المطلقة عند أفلاطون ، هي موضوعية منازرة ، فعالم المثل مفارق للمحسوس ، فهل استطاع أفلاطون أن يأتي لنا حقاً بالوسائل التي تساعدنا على معرفة الحقيقة المفارقة في ذاتها ؟

إننا نجد عنده عدة وسائل ، ونستطيع أن نقسم منهجه للجدل إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول قوامه العقل البحت الذي ينتقل من المحسوس أي المشروط Conditionné ، إذ الشرط بواسطة الفرضية العقلية Hypothèse . هذا الجدل العقلي ينقلنا إلى عالم الأشياء في ذاتها ، والحقائق في ذاتها لأننا لا نستطيع أن نتدرج في سلسلة الشروط أو الفروض إلى مالا نهاية ، بل لا بد وأن ينتهي العقل إلى اللامشروط Inconditionné أو الخير .

والقسم الثاني من الجدل يقوم على وسيلتين نفسيتين ، أولاهما : التذكر ، وثانيهما : الحب ، باعتبار أن الفلسفة هي محبة الحكمة . ويشرح لنا أفلاطون نظرية التذكر Réminiscence في محاوره «منون» ، فيسأل سقراط العبد الأمي بعض الأسئلة الرياضية ، فيجيبه ببعض نظريات الهندسة الإقليدية . ويعجب منون من أمر هذا العبد الذي لم يكن قد تعلم شيئاً من المبادئ . ولكن سقراط يشرح له عملية التذكر ويقول له إن النفس الإنسانية كانت قبل هبوطها على الأرض تعيش في عالم المثل حيث شاهدت الحقائق في ذاتها . وملكة التذكر هي التي تجعل النفس تتذكر هذه الحقائق وهي في عالمنا الأرضي .

أما عن الحب ، فهو مصدر الفضائل ، وهو في محاوره المأدبة حب الجمال ، وله صور مختلفة ودرجات مختلفة . فهناك حب للصور الجميلة وللنفس الجميلة ، والأفعال والقوانين الجميلة ، كما أن هناك حباً للعلوم الجميلة . والجمال في كل هذه الأشياء واحد ولكنه على أوجه مختلفة تدرج من المحسوس إلى المعقول حتى تنتهي في نهاية الأمر إلى الجمال في ذاته أو في مثال

الجمال ، وهو واحد ، ثابت ، ومستقل في وجوده عن سائر الأشياء الجميلة .
والحق أننا بجانب القسامين السالفين ، لا نستطيع أن نفعل القسم الثالث من الجدل الأفلاطوني الذي طبع هذه التلسفة بالروحانية والصوفية . وهذا القسم يقوم على الإلهام الإلهي الذي يكشف للنفس عن نور الخير والمثل . والنفس التي تتلقى هذا الإلهام نفس تخلصت من شوائب الجسد ، نفس صفت فدفقت ملكاتها . ذلك لأن العالم الذي نعيش فيه هو عبارة عن كهف مظلم لا نرى فيه إلا ظلال الأشياء التي تمر وراءنا . والنفس سجينة في هذا الكهف ، أي في البدن ، فعليها أن تنك قيودها لتنتقل إلى عالم النور والحقيقة .

هذه الفلسفة الأفلاطونية ترتبط بنظرية أنطولوجية خاصة بالوجود وحقيقته وطبيعته . فإذا كان عالم المثل هو عالم الموجودات الحقيقية ، فإن عالم الأشياء المحسوسة يشاركه في الوجود . وهذه المشاركة الأنطولوجية تضع حلا لمشكلة الوحدة والكثرة ، والسكون والحركة ، والمحسوس والمعقول (١) . وربما تكون هذه الحلول صحيحة في نظر أفلاطون ، ولكن المشاركة نفسها تظل في غيره منظر من الفلاسفة ، مجرد فرضية لا يمكن التسليم بها ، ولقد أثارَت من المشاكل الفلسفية والأنطولوجية أكثر مما أثارته أية نظرية أخرى .

إننا يجب أن نكرر مرات ومرات : أن الفلسفة عند أفلاطون ، ليست مجرد علم للجدل ، أو منهج جدلي يصعد بنا (الحب) من المحسوس إلى المعقول ، ويهبط بنا (التذكر) من المعقول إلى المحسوس ، ولكنها أكبر من العلم والمنهج ؛ إنها حياة مجاهدة للنفس من أجل معرفة الخير الأسمى وتحقيق العدالة بين الناس .

يعتقد أفلاطون أن النفس يجب أن تتحرر من قيود الجسد ، وأن تغلب على الأهواء والرغبات والشهوات . الجسد سجن للنفس ، إذا أظعناه صرنا عبيداً له . يقول إننا نشغل به في حياتنا بألف وسيلة ، من حيث ضرورة العناية به ، عدا الأمراض التي تحمل بنا ، وتحويل بيننا وبين اقتناص الواقع . ويزن الحروب والمنازعات (التهن) والمعارك تكون بسبب الجسد ورغباته ؛ ذلك لأن الحروب تنشأ بسبب امتلاك الثروات ؛ وإذا دعوتنا الضرورة لامتلاكها فذلك بسبب الجسد فنحن عبيد مستعدون لخلمته (٢) . وهو يؤكد بعد ذلك أنه إذا أردنا أن نعرف أي شيء معرفة تخالصة فيجب أن تنفصل النفس عن الجسد ، وأن تتأمل في ذاتها ، الأشياء في ذاتها ، ولكن النفس لن تنفصل تماماً عن الجسد إلا بعد الموت ، لذلك كان من الواجب عليها في هذه الحياة أن تكون علاقتها بالجسد في أضيق الحدود الممكنة ، وأن لا تشاركه حياته إلا عند الضرورة اللازمة ،

(١) الوحدة والسكون والمعقول في عالم المثل ، والكثرة والحركة والمحسوس في العالم الحسي .

(٢) الفيديون ٦٦ .

وأن لا تفسدها طبيعة الجسد، بل على العكس أن تتطهر منه، حتى يأذن الإله لها يوماً بالخلاص. هكذا نصبح أطهاراً أتقياء متخلصين من حماقة الجسد، ومن المحتمل أن نكون في صحة موجودات مماثلة، وبذاتها وحدها نستطيع أن نعرف ما هو غير مزوج^(١).

إذا هل من الممكن أن تكون حياة الفيلسوف في ظروف تماثل الحياة بعد الموت؟ هذا صحيح في نظر أفلاطون، ومن أجل ذلك لا يحزن الفيلسوف من الموت. إن حياته تطهير للنفس بواسطة الفضائل، أي بواسطة الاعتدال والشجاعة والعدالة والفكر أيضاً.

وحدير بالذكر أن حياة التفلسف لا ينبغي أن تبعد الفيلسوف عن الناس والمجتمع. فإذا انعزل الفيلسوف عن المجتمع، فإنه يفقد خبرته بالقوانين في المدينة، ويفقد أسلوب التخاطب مع الناس سواء في المناسبات العامة أو الخاصة. وبعبارة أخرى، إنه يفقد كل صلته الإنسانية، وكل خبرته بالعادات والتقاليد. لذلك يجب عليه أن يشارك الناس في حياتهم. وكَم هو جميل أن نشارك في الفلسفة إذا كان ذلك من أجل التثقيف، فهذا كما يقول جورجياس يليق بالشباب، أما الرجال، فهل تظل حياتهم من أجل التثقيف والتعلم فقط؟ إذا أردنا أن يكون العلم نافعا، والثقافة نافعة، فيجب أن يتجه نحو المجتمع والناس. ويقول سقراط في محاوره «جورجياس» يقينا إن الرجل الحكيم هو الذي يأتي بالأعمال التي تناسب الآلهة والناس، وهو يفهم حكمته إذا أتى بغير ذلك^(٢). إن الرجل الحكيم هو الذي يحقق السعادة لنفسه وللآخرين؛ ومثل هذا الحكيم يكون عزيزاً لدى الآلهة والناس. ويضيف سقراط إلى ذلك قوله بأن السماء والأرض، والآلهة والناس، كلها ترتبط بأواصر الجماعة التي تتألف من الصداقة وحسن التدبير والحكمة وروح العدالة، ولهذا السبب سمي العالم «كوزموس» Cosmos بمعنى الترتيب والنظام.

إن الإنسان في الحقيقة لا يكون سعيداً بامتلاكه العدالة والحكمة، ولكنه يكون سعيداً بتحقيق العدالة والمساواة بين الناس. أما أعمال الظلم كلها فهي تسمى أكثر إلى قاعها.

هل يريد الفيلسوف أن يكون صديقا للشعب وصاحب نفوذ وسلطة في الدولة؟ هل يبغى هذا الإنسان الإلهي أن يكون رجلاً حاذقاً في إدارة شئون الدولة، وماهراً في الكلام؟ كلا! إن الرجل الحكيم لا يبغى إلا خلاص نفسه وخلاص الآخرين. إنه «يعمل» في المدينة من أجل أن يصبح المواطنون أخياراً وصالحين. قد يهتم رجل الدولة بالبناء والتشييد، ولكن أليس بناء الروح والنفس بأفضل من بناء الجسد؟ وقد يسأل سقراط كاليكليس إذا ما أصبح يوماً رجل دولة: «هل جعلت شخصاً في المدينة أفضل مما كان؟ هل جعلت أى شخص، غريباً أو مواطناً،

(١) الفيديون ٦٧.

(٢) جورجياس - ٥٠٧.

عبداً أم حراً ، رجلاً كاملاً ، بعد أن كان فاسداً وظالماً وفاجراً ، ومحتوها (١) ؟ هكذا يجب أن يكون حكم الدولة عندنا !

إن من طبيعة الفيلسوف حب العلم والمعرفة . ولما كان هذا العلم يكشف له عن حقيقة الأشياء ، وواقعها الحقيقي الذى لا يطرأ عليه الفساد ، فإن هذا الحب يمنعه من الكذب ويعصمه من الخطأ . إنه معتدل بطبيعته ، غير متعطش إلى المال والثروة . ليس فى طبيعته خسة ولا ضعة ، ولا يعرف الخبث واللؤم . ولكنه يحب للعدالة والناس . ومن الخصائص الهامة للفيلسوف التى يوضحها أفلاطون فى الجمهورية ، قوة الذاكرة التى يتمتع بها ، فالنسيان ليس من شيم العلماء والفلاسفة . كذلك فهو يتحلى بالذوق الرفيع ، وبجبه للأناقة الفكرية والانسجام العقلى .

هذا هو الفيلسوف ، الرجل الحكيم والإنسان الإلهى الذى يدعو أفلاطون أن يكون حراً حاكماً فى مدينته ، محققاً للعدالة بين المواطنين ، محبباً للخير ، من أجل سعادة الناس والمجتمع .

(هـ) الأخلاق والسياسة :

إن العناية بالأخلاق والسياسة ، وجعل الأخلاق أساساً تتأسس عليه السياسة ، من المقومات الرئيسية فى الفلسفة الأفلاطونية . ويجمع المؤرخون والباحثون بأن نظرية النفس عند أفلاطون هى العمود الثمورى لفلسفته الأخلاقية والسياسية . وكانت النفس عند اليونانيين تشير إلى المبدأ الحيوى فى الإنسان Psyché ، الذى ارتبط فى نظرهم بعملية التنفس ، وكأن النفس مشتقة من التنفس . وقبل أن نتكلم عن خلود النفس الذى اشتهرت به الأفلاطونية ، يجب أن نتكلم أولاً عن ملكات النفس وقواها .

يقسم أفلاطون قوى النفس إلى ثلاثة (٢) :

١ - العقل Logistikon

لا يشير العقل هنا إلى المهارة العقلية التى تبحث عن الوسائل لتحقيق الأهداف ، ولا يشير إلى العلم التقنى (الفنى) والعمل والنظرى ، ومن الممكن أن تترجم الكلمة اليونانية بالحكمة أو النهن .

٢ - الشجاعة Thymoeides

وهذه الشجاعة لا تعنى التغلب على الخطر بل أيضاً محاربة أهواء النفس وانفعالاتها .

(١) جورجياس - ٥١٥ .

(٢) Kurt Schilling : Histoire des idées sociales trad. fr. Payot 1962, p. 69.

٣- الاعتدال Epithymetikon

الاعتدال في إشباع حاجات النفس الإنسانية .

ولقد اعتدنا أن نقسم النفس عند أفلاطون إلى النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية ، والنفس العاقلة . وقد تميزت كل نفس بفضائلها ، فالاعتدال هو فضيلة النفس الشهوانية ، والشجاعة فضيلة النفس الغضبية ، والحكمة هي فضيلة النفس العاقلة . من أجل ذلك كان الارتباط الوثيق بين النفس والفضيلة ، بين معرفة النفس والأخلاق . ويبني أفلاطون المجتمع ، ويؤسس الدولة على أساس الأخلاق والفضائل . فالحكام المستترون يجب أن يتصفوا بالحكمة والعقل . وحراس المدينة (رجال الجيش) يجب أن يتصفوا بالشجاعة . أما الزراع والصناع والتجار فيكن أن يتحلوا بالاعتدال في إشباع رغباتهم . وهكذا تقوم القوة الاقتصادية في المدينة على الطبقة التي تعتدل في رغباتها ، وتقوم القوة العسكرية على الطبقة التي تتحمل بشجاعة أمانة الدفاع عن حرية الوطن وسلامة أراضيه . أما الطبقة الثالثة فهي أساس القوة السياسية في المدينة، تلك القوة التي أصبحت لا تهدف إلا إلى تحقيق العدالة في المجتمع . إن المهمة السياسية ، تصبح في المجتمع الأفلاطوني ، مهمة التربية والتثقيف والتعليم .

ويعتقد أفلاطون ، أن التربية والتعليم لا يدعان مجالاً للثفرقة العنصرية بين أصحاب الطبقات المختلفة . لأن هذه الثفرقة التي تقوم على أساس قوى النفس واستعدادها الفطري ، لا تقوم في الحقيقة على أسس زائفة ، بل على أسس طبيعية سليمة . فالصناع لا يمكن أن يكونوا بطرقتهم غير صناع ، ولم أن يمتنعوا مجالمهم ويرضوا به ، إن هذه الفئات الثلاثة التي يتألف منها المجتمع ، تتحد في دولة العدالة كما تتحد قوى النفس ، في النفس الواحدة . وهذه الوحدة هي الضمان الأساسي للحياة السعيدة الهانئة في المدينة . لقد ألغى أفلاطون نظام الأسرة والملكية الفردية ، تدعيماً لهذه الوحدة وضماناً لبقائها .

والحق أن النقد الذي يمكن أن يوجه إلى فلسفة أفلاطون السياسية ، إنما يجب أن يوجه أولاً إلى فلسفته التربوية . هل هذه الفلسفة التربوية هي فلسفة إنسانية بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ؟ لماذا لا يتعلم الزراع والصناع والتجار علوماً وفنوناً أخرى غير الفنون الضعيفة التي يفرضها المجتمع الأفلاطوني عليهم ؟

لقد أراد أفلاطون أن يجعل النظام في المجتمع شبيهاً بالنظام في الكون ، فهذا التماثل بين الإنسان والكون، وبين المدينة والعالم هو من الأصول العميقة في الفلسفة الأفلاطونية. ويرى كارل بوبر

أن أفلاطون قد وضع في مدينته برنامجاً كلياً للحياة فيها ، وضع أصولاً ثابتة لنظم التربية والتشريع ، والدستور والدين والأخلاق . وهذا البرنامج الثابت لا يعطى فرصة أمام المجتمع لتغيير وللتطور . وكأن كل ما فعله أفلاطون هو العودة إلى الفطرة الطبيعية للإنسان . هذا المجتمع الأفلاطوني هو المجتمع المقبول بكل معنى هذه الكلمة . إنه لا يسمح للفرد بالتحرك والتقدم والانطلاق والانفتاح .

إذا كان النظام ، والنظام وحده هو الذى يفرض على الإنسان هذا المجتمع المقبول ، فإن الحرية وحدها هي التى يجب أن تدفعه إلى الخروج منه . إن الثقافة في هذه الجمهورية قد لا تكون في الحقيقة غير رداء مزركش يرتديه البعض دون البعض الآخر . وهل يمكن أن يعيش الإنسان سعيداً في هذا المجتمع ؟ مهما كانت الحلول العقلية التى يقدمها أفلاطون عن السعادة في مدينته ، فإنها في الواقع ليست حلولاً إنسانية بالمعنى الصحيح .

لا يدعى أفلاطون أى مجال للتطور أو للتغير ؛ فكل تطور في نظره سوف يكون حتماً تراجعاً إلى الوراء . فهل صدق كارل بوبر حين قال إنه « مهما كانت النوايا الطيبة في جعل السماء على الأرض ، فإن أفلاطون لم ينجح إلا في جعل الجحيم على الأرض »^(١) ، لذلك نقول إن مدينة أفلاطون رفضت أن تصنع تاريخها ، أو تعيش تاريخها . وارتضت هذه المثالية الجاملة بعيداً عن التاريخ وخارجاً عنه .

٢ - المورثات المصرية في الفلسفة الأفلاطونية

كل الجوانب الروحية والإشراقية في الفلسفة الأفلاطونية التي أثارت إعجابنا على مر العصور إنما هي جوانب شرقية مصرية . كل ما قاله أفلاطون عن العالم الخير (شمس العقول) وخلود النفس ، إنما يرجع إلى أصول مصرية قديمة . لقد تجاوزت الفلسفة الأفلاطونية حدود العقلانية الإغريقية ، وافتتحت على الروحانية الشرقية ، وكان هذا هو سر قوتها وجمالها وخلودها .

ماذا يتبقى من الأفلاطونية إذا ما جردناها من نظرية الخير الأسمى الذى يفوق الوجود مرتبة وقدرة ، ومن نظرية خلود النفس التي هبطت من عالم المثل لتعود إليه ؟ إننا لن نجد في هذه الفلسفة غير آراء متناثرة هنا وهناك ، عن بعض المشاكل السياسية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية ، التي كانت تمس المجتمع الأثيني في ذلك الوقت .

(١) كارل بوبر : المجتمع المفتوح وأعدائه . . ص ١٦٨ الجزء الأول .

في مجال السياسة ، كانت الأسئلة تدور حول طبيعة النظم السياسية المختلفة التي كانت سائدة في بلاد اليونان ، أو في البلاد المحيطة بها . ما هي الديمقراطية ، ما الفرق بينها وبين الأرستقراطية والأوليغرافية ؟ ما هو مصير الدولة التي يحكمها الطغاة والمستبدون ؟ وهل نجح رجال السياسة في أثينا في إصلاح أحوال المدينة ؟

ويجد مثل هذه الأسئلة المحلية ، في المجال الاجتماعي والأخلاقي والفكري . مثلاً ما دور الأسرة في المجتمع ؟ ما هو دور الأغنياء ؟ ما هو دور الفقراء ؟ ماذا عن نظام الطبقات ؟ ولا يخفى علينا أن هذه المشاكل كلها كانت نابعة من المجتمع الأثيني المحلي . كما أن الموقف السقراطي الأفلاطوني من الأخلاق كان إغريقياً أصيلاً . كان تحليل الأخلاق والنفس مثل بحسب طبيعة النفس الإنسانية ، «ويولها ورغباتها وغايتها - السعادة - يسير على المناهج والأصول الإغريقية المعروفة . هل الفضيلة واحدة أم متعددة ؟ هل السعادة في اللذة أم في المعرفة ؟ ما هي العدالة ؟

وكانت المناقشات الفكرية بين الفلاسفة وغيرهم من رجال الشعر والخطابة أو السوفسطائيين تدور كلها حول الرأي Doxa والحقيقة Aletheia . فالرأي يبني على الظن والحقيقة تبنى على اليقين . وكانت النظرية الإغريقية عن الحقيقة تستند إلى نظرية أنطولوجية عن الوجود . فالحقيقة تكشف عن الكينونة أو الوجود être ، والرأي يكشف عن عدم الوجود non-être .

حتى الجدل الأفلاطوني كان من الممكن أن يتوقف عند العليمة التي تغلنا من الشروط إلى الشرط . ذلك لأن « صعود النفس إلى المثل ، والرؤية الحافظة لها ، وتذكرها للحقائق التي عرفها قبل هبوطها إلى الأرض ، كان لا يمكن أن يتحقق بدون تصور أفلاطون لطبيعة النفس الأزلية والأبدية .

تقول إن نظرية الخير الأسمى ، ونظرية خلود النفس ، قد أضافا إلى الأفلاطونية أبعادها الميتافيزيقية والروحانية العالية . ويقدر ما كانت هاتان النظريتان بعيدتين عن العقلانية الإغريقية كانتا قريبين من العقلية المصرية الشرقية . بل إن الحضارة المصرية العريقة قد قامت على أساس عقيدتين أساسيتين هما : عبادة الشمس (الخير) - وخلود النفس الإنسانية (عقيدة البعث)

١ - عبادة الشمس :

يقول المؤرخ المصري الكبير والعالم القدير ، الأستاذ الدكتور أحمد بدوي ، في موكب الشمس^(١) « إن عبادة الشمس في مصر عريقة ، يرجع تاريخها إلى أيام انتظام وسائل الحياة

(١) الجزء الأول (١٩٤٦) ؛ والثاني (١٩٥٠) قنة تأليف والترجمة والنشر .*

الإنسانية في هذا الوادي . نظر المصريون فيها ، وعابنوا ما لها من أثر واضح في حياة الكائنات فقدروها ورصدوا سيرها في عالم السماء . ثم عبدوها ، وجعلوا لها صوراً مختلفة ورسموا لها أشكالاً متعددة (١) .

فإذا ما كان عام ٢٥٦٠ قبل مولد المسيح ، استطاع أصحاب الشمس أن يصلوا إلى العرش ، زاعمين أنهم من أبناء الشمس ورسلها ، وهنالك فرضوا مذهبهم على الناس فرضاً . وتنافس أتباع الشمس في التقرب من معبودها ، يبنون لها الهياكل على نحو ما كانت له من قبل في هليوبوليس (٢) ويؤكد مؤرخو التاريخ المصري القديم ، أن المصريين القدماء قد وحدوا بين عبادة الشمس وعبادة «أوزيريس» ، وجعلوا من المعبودين إلهاً واحداً وروحاً واحدة .

وأطلق المصريون على الشمس أسماء كثيرة . فاسمها المجرد هو «رع» وهو اسمها في رابعة النهار ، واسمها «رع خبري» عند الصباح ، «وأتوم» عند الغروب . وكانوا يسندون إلى «رع» خلق كل شيء ، فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ، خلق الإنسان والحيوان والطير والنبات ، ومن أجله يجرى النيل كريماً طيباً يحمل بين يديه الخير لأبناء الحياة . ويبدو أن عبادة الشمس قد ملأت قلوب المصريين وروحهم . فكانوا يسبحون بحمدها ويصلون لها :

«للك الحمد يا شمس كل نهار ، يا من تشرق في غير فتور عند كل صباح ، فوق جمال أشعتك بريق الذهب الوهاج ، أيها الفنان سوى بناته ، أيها الباري لم يبرأ ، يامن تفرد بذاته وصفاته . . . خالق الخلق وأرزاقهم ، وأبر الأمهات بالآلهة والناس ، أيها الصانع المبدع ، راعي الخلق وحاميهم . . . أيها الملك الفرد ، فاتح الكون في كل يوم ، يدعى كل مافيه من دابة . . أنت يا من نوره الشمس في السماء . . . (٣) ومهما كان الارتباط بين عبادة الشمس والحياة السياسية في مصر ، فالحقيقة أن هذه العبادة قد انتشرت انتشاراً واسعاً حتى أصبحت مصر كلها تدين بعبادة الشمس ، تهتف باسمها وتسبح بحمدها . (٤) وكان أهل مصر يتقربون إلى الشمس في دنياهم ، ويسعون إلى لقاءها في الحياة الأخرى .

ولا شك أن الشمس التي ارتفعت عند المصريين القلماء إلى درجة الألوهية ، لم تكن مجرد رمز يخفى من ورائه حقيقة أخرى ، بل كانت هي الحقيقة ذاتها ، وهي الوجود الواضح الصريح الذي لا نمحوض فيه ولا التباس . كانت الشمس بأشعتها الذاهية هي خير الوجود والحياة .

(١) نفس المرجع الجزء الثاني ص ٥٨٣ .

(٢) ص ٨٠١ - أكثر الأقاليم كانت تحمل اسم الشمس ، ولم يبرأ من ذلك غير منف (بتاح) .

(٣) نفس المرجع ص ٨٠٥ .

(٤) نفس المرجع ص ٨٠٦ .

وفي عهد أمينوفيس الرابع (أختاتون) ، أصبح إله الشمس إلهاً عالياً ليس مقصوراً على مصر وحدها ، بل يمتد ملكه على العالم كله . ولقب إله الشمس باسم « آتون » للدلالة على عقيدة التوحيد الجديدة التي أخذ ينادى بها . « وآتون » كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على الشمس المحيصة (قرص الشمس) ، ولقد استخدمها أختاتون ليشر بالتوحيد الجديد بعيداً عن خطر الشرك في مذهب اللاهوت الشمسي القديم .

ولا يمكننا إلا أن نذكر بعض ما ورد في الأناشيد التي قالها المصريون في مدح « آتون » وتمجيده .

أنت تبرز بجمالك في أفق السماء .

أنت يا آتون الحى الذى كنت في أزلية الحياة .

فحينما كنت تشرق في الأفق الشرقى .

كنت تملأ بلاد الكون بجمالك .

أنت جميل وتعالى ومشرق فوق كل أرض الكون^(١)

والحق أن العقائد المصرية القديمة كان فيها من عمق الحقيقة وعلوها وجمالها ، ما يفوق الأساطير اليونانية القديمة التي سخر منها حكماء الإغريق أنفسهم . لقد تمثلت مصر الألوهية في أرفع صورة (الشمس) وتمثلت الوجود في أروع وأزهى صورة . أما الحياة فكانت الخير والعطاء . العالم كله من صنع آتون :

أنت خلقت السموات العلى لتشرق فيها ولتشاهد كل ما صنعت حينما كنت لا تزال وحيداً (لا شيء غيرك) هذا هو آتون ، شمس النهار فوق العالم ، ساطع وقوى وجميل ، خالق كل أرض ، وبارئ كل من عليها . وعندما تغيب الشمس في أفق السماء الغربى ، ينام الناس كأنهم أموات حتى تشرق من جديد في الصباح ، في أفق السماء الشرقى .

وكان الناس والموجودات لم تخلق إلا لترى آتون وتتعبده له . فإذا ما غابت الشمس نامت عيونهم التي كانت لا ترى إلا بنوره .

لم تكن الشمس عند المصريين القدماء مجرد علة مادية للموجودات ، بل كانت هي حقيقة الوجود وجماله . كان إله الشمس هو خالق الأرض والسماء ، « صانع مبدع » . والحياة تجلج لآيات هذا الإله المشرق البهى ، البعيد القريب^(٢)

(١) سليم حسن : الأدب المصري القديم . الجزء الثانى ص ١١١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ .

(٢) موكب الشمس . الجزء الثانى ص ٨٢٢ .

خلق الإنسان ليرى نور الخير والحقيقة والجمال ، لأن إله الشمس هو آية الحياة ، ولا حياة إلا به . وما أن تغيب الشمس عن مسرح الحياة ، إلا ويسكن كل شيء في الظلام . لذلك كانت الحياة في مصر فرحة وصلابة لهذا النور ، فيها كل مظاهر التهليل والإبهال . فكيف لم يتأثر أفلاطون روحاً وفكراً بهذه العقائد؟ . كان من الممكن أن تكون المعتقدات المصرية مجرد أقوال مكتوبة ومدونة ، أو مجرد مراسم وطقوس يؤديها الناس بلا اقتناع أو إيمان، ولكنها كانت في مصر إشراقية الحياة الروحية ، كما تجلت في نفوس المصريين جميعهم . وكانت التعبير الصادق عن أسمى وأعلى معاني الوجود والخير والجمال .

٢ - عقيدة البعث وخلود النفس :

بجانب عبادة الشمس ، كانت هناك عقيدة أساسية ارتبطت بها الحضارة المصرية القديمة ارتباطاً وثيقاً ، ونعني بها عقيدة البعث وخلود النفس . كانت نظرة المصريين إلى الحياة نظرة جادة عميقة ، ففكروا في الآخرة باعتبارها الحياة الخالدة التي لا موت ولا فناء فيها . واعتقدوا أن الموت إنما ينقلهم من الحياة الدنيا ، إلى الحياة الأخرى . ومهما قيل من أنهم لم يتصوروا الحياة الأخرى تصوراً روحياً خالصاً ، وأنهم لم يتجردوا تماماً عن ماديتهم ، فإن هناك شواهد كثيرة تؤكد أن المصريين قد تمتعوا بجانب كبير من الروحانية .

وتجلت عقيدة البعث عند المصريين بصورة قوية أمام العالم ، في الآثار التي تركها ملوكهم ليحفظوا فيها أجسادهم إلى يوم البعث . فقد ظن المصريون القدماء ، « أن أرواح الموتى تستطيع أن تغادر القبر وتعود إليه في هيئة طير . وأرواح المؤمنين قد كانت تستقر بين أنجم السماء الزهر ثم تهبط منها في هيئة طير ، لتزور الجسد من أسفل الأرض ، فالملك في عالم السماء روح إلهي خالص ، يحكم الدنيا من عرش السماء ، وهو في الآخرة يحكم الموتى من فوق عرش أوزيريس وجاء في رثاء الملك أوناس : ألا أيها الملك الراحل لقد غادرتنا حياً ، ولم تذهب ميتاً . وإن لك لسلطاناً إلهياً خالداً . . . وأولئك أهل الخلود قد جاءوا يقبلون الأرض بين قدميك - لقد فتحت لك أبواب السماء . هنالك وقف « رع » ليلقاك ، وليأخذ بيدك إلى قصور الآلهة ، وليجلسك على عرش أوزيريس . . . »^(١) ومهما كانت التفسيرات السياسية والاجتماعية التي أحاطت بتشديد الأهرامات من حيث نظام الحكم في البلاد ، ونظرة الحاكم إلى الشعب ، والشعب إلى الحاكم ، فلاشك أن عظمة هذا البناء وشموخه تدل على مكانة البعث في الضمير المصري لدى الحاكم والشعب على السواء .

كان الخلود في نظر المصريين ، هو خلود الفرد ، خلود روحه في الآخرة ، وخلود اسمه

(١) موكب الشمس - الجزء الأول ص ١٣٠ .

وذكره في الحياة الدنيا . ومن هنا كان اهتمام كل مصري بمصير نفسه في الحياة الدنيا والآخرة . ولا شك أن عقيدة الخلود قد قامت على مبدأ النفس الفردية لا النفس الكلية . وكانت هذه النظرة الفردية إلى الإنسان الذي يواجه بمفرده مصيره في الدنيا والآخرة ، هي أساس اخلاقهم وآدابهم .

كانت النفس المصرية تؤمن بالخلود ، وتؤمن أيضاً بأن الفضيلة والخلق الكريم هما اللذان يحققان للإنسان السعادة في الدنيا والآخرة . وإذا كنا نردد اليوم أقوال سقراط وأفلاطون عن الفضيلة بكل إعجاب وتقدير ، فإنه يصبح من الواجب علينا أن نذكر أن المصريين قد سجلوا الفضائل ومكارم الأخلاق في كتاب ديني^(١) يبين للناس طريق النفس إلى الخلود . بلغ الضمير الأخلاقي في مصر درجة عظيمة وعالية من الوعي الإنساني . كان المصري يتحلى بالفضائل والأخلاق ، لا من أجل الوصول إلى هذا المنصب أو ذلك ، بل من أجل أن يظفر لنفسه بالسعادة في الخلود . ولذلك ارتبطت الأخلاق بالدين برباط مقدس . وكان آمون هو إله الخير والقاضي العادل والمخلص والمنجي .

أنت يا « آمون » الذي يعرف الخير^(٢) . . .

أنت يا « آمون » - رع يا أول من كان ملكاً ! يا أيها الإله الأزل . يا وزير الفقراء الذي لا يأخذ مكافأة من غير حق ، ولا يتحدث إلى من لا يأتي بشاهد . . .
يا « آمون » أعر أذنك إلى فرد واقف وحده في المحكمة فقير ، وخصمه غني ، المحكمة تظلمه بالفضة والذهب إلى كتاب الحساب .

ما أطيبك ، ما أطيبك ! يا « آمون » ما أطيبك إنك طيب لكل إنسان ، أنت أيها الراعي الذي يههم الرحمة، والسامع لصياح كل من ينادى من يستحيل القلب، وجاعل نفس الحياة يأتي .
ما أجملك ! إنك في سلام لأنك أتيت بكل بني الإنسان إلى الوجود، والدنيا هي جزيرتك الجميلة ، والشر والعنف قد سقطا . ما أشجعك ، ما أشجعك ! يا إلهنا يا « رع » ، ما أشجعك ، بإسرافك في الصباح أنرت المحيط ، لقد أيقظت كل الأشياء التي أتت إلى الوجود ولقد بعثتها إلى الحياة مرة ثانية لأنك حاميمهم .

إن أملك يا « آمون » هي الصدق . . .

ما أقنسك في الغرب يا « رع » يارب السلام ! لقد فتحت أبواب الأفق « مسكت » بينا أصبح « حور » متصراً ، و « نفر » أو زير مفعم بالفرح، وأرباب العالم السفلي في عيد، والأرض الصامتة في حبور بأشعتك الجميلة .

(١) تنقسم النصوص الدينية المصرية القديمة إلى ثلاث مجموعات : متون الأهرام ، ومتون الأكفان ، وتلك التي أسماها « علماء خطأ » . « كتاب الموتى » . موكب الشمس ص ٧٢ الجزء الثاني .
(٢) الأدب المصري القديم : مقتطفات صفحة ١٣٨ . وما يليها .

لقد ملأت الروحانية قلب مصر كما ملأ نور الشمس سماءها . وبلغت هذه الروحانية أسى درجة من العقلانية عندما نادى بالتوحيد . الآلهة كلهم ثلاثة : « آمون » و « رع » و « بتاح » ولا مثيل لهم . خفى اسمه بوصفه آمون . ورع وجهه ، وبتاح جسمه . مدتهم طيبة وعين الشمس ومنف ، باقية على الأرض إلى الأبد .

إن آمون هو إله واحد ، وهو الذى أخفى نفسه وجبأها من الآلهة ، وجوهه ليس معروفاً ، وقد رفع نفسه إلى السماء ، ولا يوجد إله يعرف صورته الحقيقية ، وصورته ليست منشورة فى كتب . . . (١) إنه خفى أكثر مما يجب حتى يكشف عن بهائه ، وعظمته أكبر من كل عظمة حتى يتساءل الناس عنه ، وقوته أكبر مما يجب حتى يعرف هذا الإله المدهش ، خفى الشكل ، لألاء الصورة . نوره يملأ السماوات والأرض ، وهو خالق الوجود والحياة . وكانت مصر تحيا بنوره الذى يشرف عليها فى كل صباح ، وكانت القلوب والأرواح تبهج به ، وتسبح له بالحمد والشكر . وكانت الشمس هى أعظم مظهر لهذا النور .

ونحن نجد فى أنشودة ليدن (٢) ما يؤكد فكرة التوحيد فى مصر القديمة . « قامون » (٣) و « رع » ، و « أتوم » ، و « حور أختى » ليست إلا مجرد مسميات لإله واحد ، وقد سمي هذا الإله « بتاح » عندما نعت بأنه الصانع العظيم . . .

والحق أنه كلما أمعنا النظر فى دراسة هذه النصوص المصرية القديمة . كلما اكتشفنا الأبعاد الروحية والأخلاقية فى النفس المصرية . هذه النفس التى آمنت بالله وبالخلود ، وآمنت بالحق والخير والصدق .

كان المصرى يحرص على أن تكون حياته مجاهدة للنفس من أجل تحقيق العدالة والخير . وبلغ إيمان المصرى بقيمة العدالة والخير فى الحياة حداً فائقاً ، فهذا الخير هو الذى يصحبه إلى دار الخلود ليحقق له السعادة الأبدية . ولا أجد هنا مجالاً للحديث عن تصور المصريين للدار الأخيرة وللحساب فيها . ولكننا نكتفى بالقول بأن المصرى القديم كان يؤمن بيوم الحساب أمام إله الصدق والعدل : ليت الإله « تحوت » تكون ورأى غداً (يوم الحساب) حيناً أدخل أمام أرباب الصدق (محكمة العدل) وبذا سأخرج بريئاً . أنت يا « تحوت » أيها البئر العذبة للظلمان فى وسط الصحراء ! فهو مغلق لمن يجد كلاماً يقوله (الرثار) ، ومفتوح لمن يلزم الصمت ، وإن الرجل الصامت يأتى ويمجد البئر ، والأحمق يأتى والبئر مملوءة بالأحجار (٤) .

كان آمون هو إله الصمت ، يقضى فى الأرض بإصبعه ، ويتكلم إلى القلب ويجعل

(١) نفس المرجع ص ١٣٤ .

(٢) نسبة إلى ورقة البردى المحفوظة فى ليدن الأدب المصرى القديم ص ١٤١ .

(٣) سوفى نتكلم تفصيلاً فى الباب الأخير من الكتاب عن هذه المانى .

(٤) نفس المرجع ص ١٤٦ .

مصير المذنب النار ، والحقى الغرب (١) :

أنت يا «أمون» يارب الصامت ، ومن يلبي صوت الفقير ، وإذا ما ناديتك وأنا في بؤس
خلصتى . . . إنك تنجيني أنا الذى فى الأغلال . . .
كانت الحياة فى مصر تنطوى على حكمة عظيمة عالية ، تفوق فى عظمتها وعلوها ،
عظمة الأهرامات وعلو المسلات . كانت هذه الآثار تعبيراً عن قوة الروح لا قوة الجسد .
كانت رمزاً لخلود النفس المصرية لا رمزاً للموت والقناء .

عود إلى أفلاطون

حضر أفلاطون إلى مصر حزين النفس ، جريح القلب على موت استاذة وصديقه سقراط
وقضى فيها ما يقرب من الثلاثة أعوام وهو يحاول أن يروح عن نفسه من أثر المأساة ووقعها .
ولا شك أنه قد وجد نقي روح مصر ، فى حضارتها وديانها ، ما أراح نفسه واستراح إليه .
ووجد الحكيم ، فى حكمة مصر ، ما يعيط اللثام عن كثير من المسائل والمشاكل التى كان
الفكر الإغريق يعانى منها .

كانت الحكمة فى مصر من أجل الدنيا والآخرة . وكانت الحياة فى المفهوم المصرى ،
هى سبيل إلى الخلود والأبدية . وكانت هذه النظرة إلى «الأعلى» ، وهذا التجاوز لكل ما هو
ذنى ، من المقومات الأصلية فى الوعى المصرى القديم . ولقد اهتدى أفلاطون فى فلسفته ،
بهدى الحكمة المصرية والوعى المصرى .

لنأخذ مثلا هذه الحادثة التاريخية التى كان لها أعمق الأثر فى نفس أفلاطون ونعنى بها
موت سقراط . ماذا كان يعنى الموت بالنسبة إلى كل إغريقى ؟ وماذا كان يعنى الموت بالنسبة
إلى كل مصرى ؟

كانت الروح أو النفس فى نظر الإغريق القدماء هى مبدأ الحركة والحياة فى الجسم ،
وكان الموت يعنى فناء الإنسان . وكل ما يمكن أن يتبقى من النفس فى نظر أكثر المفكرين
تفاوتاً ، هو مجرد شبح أو طيف لا نستطيع أن نتمسك به . لم يتصور الإغريقون أن هناك
حياة أخرى بعد الموت ، وظنوا أن الموت هو نهاية الحياة الإنسانية .

ويذكر «جيجون» فى كتابه (٢) أن فكرة البقاء بعد الموت هى فكرة خاصة بالأفلاطونية .
وقد نجد لها بعد ذلك عند بعض المشائين (٣) ، وبصورة مهمة عند الرواقين ، ولكنها مرفوضة
أصلاً من «أبيقور» وأتباعه .

(١) نفس المرجع ص ١٥٠ .

(٢) المشاكل الكبرى فى الفلسفة القديمة ص ٢٤١ .

(٣) أتباع أرسطو .

والحق أننا حين نسلم بأن نظرية خلود النفس قد ظهرت في الفكر الإغريقي مع أفلاطون ، إنما نسلم في الوقت ذاته بأصولها الشرقية المصرية . لقد استطاع أفلاطون أن يتعالى بروحانيته الشرقية المصرية على النظريات البيولوجية التي كانت ترد النفس إلى مبدأ الهواء وعملية التنفس ولا غرابة بعد ذلك أن نرى من اليونانيين من يسخر بعنف من خيالات أفلاطون وأقرانه عن العالم الآخر ومحكمة الموتى (١) .

يقول سقراط في محاوره جورجياس :

— هذه يا كاليكليس هي الرواية التي سمعتها والتي أومن بصدقها . إن الموت في رأيي هو انفصام للوحدة التي تربط بين شيئين هما الجسم والنفس . وعندما تنفك الصلة بينهما يحتفظ كلاهما بحال الوجود الذي كان عليه وقت حياة الإنسان فالجسم يحتفظ بحاله من حيث طوله وهيبته ، وبكل العلامات المميزة فيه التي تبقّى على حالها بعد الموت لفترة ما . وهذا هو أيضاً حال النفس ، فعندما تتجرد من الجسد تبقّى فيها كل آثار الأعمال والمعركة التي حصل عليها الإنسان في حياته ، وتبقّى فيها آثار انفعالاته . وعندما تحضر نفوس الموتى أمام القاضي (٢) الذي ينظر إليها ، دون أن يعرف لمن كانت هذه النفس ، للملك الكبير أم لفرد من الرعايا ، ويحاسبها على أفعالها وأعمالها ، ثم تلتى جزاءها . فالنفس الظالمة تلتى في الآخرة عذاباً أليماً ، هناك في سجن هاديس Hades حيث تكون عبرة للنفس الظالمة الأخرى . وإني أعتقد أن نفوس الطغاة والمستبدين ، نفوس الملوك والأمراء والحكام ، والذين اشتغلوا بأعمال الدولة يكون مصيرها هنا ، لأنهم نظراً لسلطتهم المطلقة ، كانوا يرتكبون أخطر الأخطاء وأبشعها . وهذا بالتالي ما شهد به هوميروس عندما ذكر أن الملوك والأمراء والحكام من أمثال نتال ، وسيزيف وتيتيوس (٣) ، يلقون في هاديس (عالم الموتى) عذاباً أبدياً . ولا أجد من بين الحكام الذين حكموا بالعدل إلا أرسطيد Aristide ابن ليزيماك الذي فاقت شهرته كل حد . وقد توجد نفس تقية قضت حياتها في الصدق والعدل ، وهذه النفس يا كاليكليس هي نفس الفيلسوف التي يرسلها القاضي العادل إلى جزيرة السعداء . وإني لأصدق هذه الحكاية ، ولأعمل ساهراً على أن تكون نفسى في أفضل حالة من الصحة ، عندما أمثل بين يدي القاضي بعد موتى . لقدودعت كل ما هو موضع تشريف من الناس ، وأحاول أن أواجه الحقيقة وأن أكون فاضلاً في حياتي وفي مماتي .

من الممكن أن يظن البعض أن هذه الرواية قد نقلها أفلاطون عن أصحاب النحلة الأورفية فالإله أورفيوس هو إله الموتى ، وملك عالم ما تحت الأرض ، وهو القاضي العادل الذي يحاسب

(١) نفس المرجع ص ٢٤٥

(٢) في هذه الرواية يتكلم سقراط عن نفوس الأسيويين التي تحضر أمام إلههم رادامنت .

(٣) Tantalé, Sisyphé, Tityos وكانوا ملوكاً على سيبيلوس كورنثوس ، وأوبيه .

الموتى على أعمالهم ، فيلقى الشرير عنده جزاء شره ، والخير جزاء خيره . ولكن الحق أن أفلاطون قد أضاف الكثير إلى هذه العقيدة الأورفية . فارتباط النفس بعالم المثل والخير الأسمى ، ومناشدة النفس الإنسانية للعدالة في السماء والأرض ، من المقومات الأساسية للعقائد المصرية القديمة التي تأثر بها أفلاطون تأثراً شديداً . فعالم الموتى عند أورفيوس ، هو عالم الظلام والعدم أما عبادة الشمس عند المصريين القدماء فكانت هي عبادة النور والحق والخير والحياة . لذلك فإذا كانت العقيدة الأورفية هي عقيدة الموت ، فإن عقيدة الشمس هي عقيدة الحق والحياة .

والصلة التي يفرضها أفلاطون بين النفس الإنسانية وعالم المثل ، صلة التأمل^(١) ، وهي نفس الصلة التي كانت يفرضها العقائد المصرية بين إله الشمس والبشر . إن النفس لا تتكلم في حضرة الواحد القدوس ، والخير الذي يملأ الدنيا والآخرة ، والعدل الذي يحكم بالعدل بين الفقير والغني ، والخالق ، والنور الذي يفوق جماله كل شيء . و« الصمت » الذي أشار إليه المصريون هو نفس « التأمل » الذي أشار إليه أفلاطون . فالتأمل ، حيث يكون تأملاً لعالم المثل وللخير الأسمى ، لا يسمح بالنطق والكلام . هنا تسكت النفس وتصمت لتأمل نور الخير والحق . والنفس حين تتصل بعالم المثل ، لا تجرد مجالاً للمناجاة أو للحوار ، إنما تتأمل في صمت وخشوع .

والفلسفة الأفلاطونية هي حياة النفس التي تجاهد من أجل الارتقاء من العالم المحوس ، إلى عالم المثل والخير . ويقول أحد المفكرين المعاصرين^(٢) فيها : « إن بين الفلسفة والنفس علاقة طبيعية . فمن يتجاهل الفلسفة ، يتجاهل النفس . والذي يحيا بدون تفلسف ، يحيا بدون نفس » . والفلسفة هي في نهاية الأمر حنين النفس إلى المثل والخير . وغاية النفس وسعادتها هي في تأمل المثل والخير .

وكما كانت النفس المصرية تشناق دائماً إلى النور ، وتجهد سعادتها وهيجتها في تأمل جماله وخيره ، كذلك كانت النفس الأفلاطونية تشناق إلى عالم المثل والخير . والموت كان في نظر المصريين القدماء « صعود » النفس إلى أعلى :

إن الصاعد يصعد ، وكذلك « الملك » . . .

في ذلك اليوم الذي يعرج فيه « الملك » إلى المكان الذي فيه « رع » ولقد ضرب لنفسه شعاع « رع » (بمثابة مصعد) ليصعد فيه . كسليم تحت قدميه^(٣) .

Contemplation.

(١)

Groethuysen : Anthropologie philosophique, Paris, n, r, f, 1952. p. 25.

(٢)

(٣) الأدب المصرى القديم : ص ٧٣ وما يليها .

ونقرأ كذلك في متون الأهرام :

إن من يطير يطير ، وهكذا يطير الملك بعيداً عنكم بأيها الناس .
إنه ليس من أهل الأرض ، بل هو من أهل السماء .

إننا نجد « الصعود » في فلسفة أفلاطون لفظاً ومعنى . وفي أسطورة الكهف التي يذكرها أفلاطون في الكتاب السابع من الجمهورية ، نجد توضيحاً لهذا « الصعود » الروحي Ascension إلى الأعلى^(١) : إن الصعود إلى أعلى ، وتأمل ما هو في الأعلى ، يمثلان طريق النفس إلى العالم المعقول . وهكذا يبدو بداية كل ما في هذا العالم . هناك في الطرف البعيد ، وفي منطقة المعلوم ، تبدو طبيعة « الخير » الذي تشق علينا رؤيته ، بالنسبة للاستدلال العقلي ، والعلة الكلية لكل استقامة^(٢) وجمال ، في العالم المرئي ، يتولد منه النور وملاك النور ، لأنه هو ملك العالم المعقول ، الذي يهب الحقيقة والذكاء (العقل) . ويضيف أفلاطون إلى ذلك أنه إذا أردنا أن نتصدر أفعالنا عن حكمة سواء في الحياة الخاصة أو العامة ، فيجب أن نلمح الخير . إن النفس يجب أن تهتدي Conversion برؤية الخير . ولا يتسنى لها ذلك ، إلا بالتغلب على أهواء الجسد والتخلص من قيودها وأغلالها . كذلك تصبح الفلسفة حياة وممارسة ولا اعتقد أن الفلسفة الأفلاطونية يمكن اعتبارها كمجموعة من النظريات والتعاليم التي يمكن تدريسها وتلقيها ، ولكنها وظيفة للنفس التي يجب أن تؤديها في الحياة لتسعد في الآخرة . هذه الفلسفة هي شهادة النفس التي أشرفت بنور الخير الأسمى .

والفيلسوف هو نموذج الإنسان الكامل ، المكتمل الصفات والأوصاف الإنسان المثالي الواعي ، الذي يجيأ من أجل تأمل الخير وتحقيق العدالة بين الناس . الفلاسفة هم حراس المدينة الذين يتصفون بدرجة عالية من اليقظة والدقة . ولأنهم يمتازون « بسهولة الحفظ ، وقوة الذاكرة ويقظة الفكر ، وسرعة البديهة ، وغير ذلك من سائر الصفات التي تواجها^(٣) هؤلاء يواجهون الحرب بنفس الشجاعة التي يواجهون بها العلم ، ويتحلون بأجمل الفضائل : « العدالة » والاعتدال والشجاعة والحكمة^(٤) .

لأبالغ حين أقول أن الفضائل التي كانت موضوع نقاش وجدال بين الأثينيين في القرن الخامس قبل الميلاد ، والتي شكك فيها السوفسطائيون ، كانت هي القيم الراسخة في الحضارة

(١) الجمهورية : ٥١٧ ، ٧ .

(٢) استقامة الرأي هي الحقيقة .

(٣) الجمهورية ٥٠٣ ، ٤٦ .

(٤) نفس المربع ٥٠٤ ، ٤٦ .

المصرية وجدها أفلاطون هنا بلا زيف أو رياء. واقتنع أنها هي القيم الأخلاقية الخالدة بالنسبة لكل نفس إنسانية .

وإذا كان الشعب المصري قد جعل من الأخلاق وسيلة فعالة لتحقيق السعادة الأبدية ، فإن أفلاطون لن يختلف معه في هذا الرأي . فالعدالة في الآخرة توجب العدالة في الحياة الدنيا ، لا فرق في هذا بين الفقير والغني ، بين الحاكم والمحكوم . لقد كانت الحضارة المصرية تقوم على أساس العدالة وعلى الأقل ، المطالبة بها في الدنيا ، كما هي في الآخرة . تماماً كما يريد أفلاطون أن تتحقق عدالة الخير على الأرض .

ولا ينبغي أن ننظر أن اهتمام أفلاطون بالمعرفة والحقيقة ، يغير من المعالم المصرية في روحانيته لقد كان حكماء مصر في ذلك الوقت ، هم رجال العلم والمعرفة . كل العلوم والفنون كانت محفوظة لدى هؤلاء في المعابد . ولقد ذكر أفلاطون صراحة أن كهنة مصر كانوا على علم واسع ، وعلى درجة عالية من المعرفة بأسرار العلوم والفنون . ولا غرابة في أن ينادى أفلاطون ، بأن يكون الحكماء أصحاب العلم والمعرفة بالخير والمثل ، هم الذين يسهرون على تحقيق العدالة في المجتمع ، وإعطاء كل ذي حق حقه . أما الشعب الذي لم يظفر بالتعليم — لنقص في استعداده الفطري — فسوف يعمل بالزراعة والصناعة والتجارة وسائر المهن الحرة . ويجانب الحكماء والشعب العامل ، يوجد جيش قوى يحمي البلاد ، ويدافع عن سلامة أراضيها .

هذا هو البناء السياسي للدولة في مصر . ولقد كان أفلاطون صادقاً حين قال على لسان الكاهن المصري في محاورة طهاوس ، إن النظام السياسي في مصر قد فرضته الآلهة ، وهو يشبه تماماً النظام الذي كان سائداً هناك في أثينا منذ أقدم العصور .

هذه الأفكار الميتافيزيقية والأخلاقية والسياسية ، كان ينقلها أفلاطون أحياناً في صورة أسطورة ، وأحياناً أخرى في صورة أدلة وبراهين عقلية . وإذا كانت الأسطورة تبدو لنا اليوم خيالية وبعيدة عن الواقع ، فإنها كانت في ذلك الوقت تعبيراً صادقاً عن المعتقدات التي كانت سائدة في بلاد اليونان ومصر . إن فلسفة أفلاطون قد سجلت في مواضع كثيرة هذه المعتقدات ، تماماً كما سجلتها من قبل أشعار هوميروس ^(١) . أما عن الأدلة والبراهين التي كان يعرضها في فلسفته ، فكانت كلها ذات طابع إغريقي خالص مثل الشبيه يدرك الشبيه ، وتتابع الأضداد ، والارتقاء من المحسوس إلى المعقول ، والبسيط والمركب ، والثابت والمتغير ، والواحد والكثير ، والسبب والمسبب والسكون والحركة . ولكن وراء هذه المعقولة والعقلانية

(١) يوجد نوعان من الخيلة : المبدعة للصور ، والمحافظة للصور . ويبدو أن تخيلة أفلاطون

كانت بالنسبة إلى عصرها من النوع الثاني .

الإغريقية ، كانت هناك الروحانية المصرية الشرقية . لذلك لا أجد في ختام الحديث عن أفلاطون غير كلماته الخالدة والرائعة عن الخير الأسمى ، والفيلسوف الذى ينظر إلى أعلى ، متعالياً على التاريخية والزمنية : « إن للخير جمالا يفوق جمال الواقع وجمال المعرفة ، جمالا لا يمكن أن يتصوره الإنسان ، وكذا أن الشمس المحسوسة لا تسمح فقط برؤية المرئيات ولكنها تهبها وجودها ونموها وبقائها ، كذلك ، فالخير يهب العقولات وجودها وماهيتها ، وإن لم يكن ذاته ماهية ، إنما يفوق الماهية جلالا وقدرة »

أما الفيلسوف الحكيم فيجب أن يخرج من « الكهف » المظلم ليرى نور الخير والحقيقة . ولا يكون ذلك إلا بتطهير النفس Purification أى بالمجاهدة الروحية . يقول أفلاطون فى أسطورة الكهف الشهيرة (الكتاب السابع من الجمهورية) : تخيل ناساً يعيشون فى كهف تحت الأرض ، له مدخل ينهى بفتحة واسعة ناحية النور . هؤلاء عاشوا منذ طفولتهم ، وهم مكلون بالأغلال التى تقيد أرجلهم وأعناقهم . إنهم لا يبصرون غير ما يقع أمامهم ، ولا يستطيعون تحريك رؤوسهم لرؤية ما يقع خلفهم . أما النور فيأتيهم من النار المشتعلة خلفهم . هناك بعيداً فى مكان عال . وتخيل بين النار والسجناء طريقاً صاعداً إلى أعلى ، وأمامه جدار ، مثل الحاجز الذى يضعه المخرجون فى مسرح العرائس أمام الرجال الذين يحركونها وعلى طول هذا الجدار ، يحمل رجال مختلف الأشياء المصنوعة ، والتماثيل للناس وللحيوان ، من الحجر والخشب ومن كل مادة أخرى . بحيث تعلق كل هذه الأشياء على الجدار نفسه .

ماذا يمكن أن يرى الناس فى هذا الكهف ، سوى الظلال التى تسقطها النار على جدار الكهف المقابل لهم ؟ إنهم يظنون أن هذه الظلال هى الأشياء الحقيقية ، وأن صدى الأصوات التى يسمعونها إن هى إلا أصوات حقيقية . وماذا يحدث إذا تخلصوا من أغلالهم ، وشفقت عقولهم من غيها ؟ لاشك أن الذى يستدير بوجهه نحو النور لن يستطيع رؤيته ، إذ تمتلأ عيناه بالضوء الشديد ، فلا يرى الأشياء الحقيقية . لذلك يجب على الإنسان أن يتدرج على رؤية النور والأشياء . فيبدأ أولاً برؤيتها وهى تنعكس على سطح الماء ، ثم يتأمل السماء ليلاً بنجومها وقمرها ، حتى ينتهى به الأمر إلى رؤية الشمس فى وضوح النهار . ومن خلال التأمل ، يستدل الإنسان بعقله على أن الشمس هى أصل الفصول والسنين ، وأنها تحكم الأشياء المرئية ، وأنها علها

وقد يعود السجين مرة أخرى إلى الكهف فتظهر له الظلال والظلمة على حقيقتها ، فيسارع بالخروج منها ، لأنه اعتاد على الرؤية فى النور

إن الفلسفة الأفلاطونية هى ملحمة الفكر عن النور الذى يملأ العالم المحسوس والعالم المعقول

إن نور الخير - شمس المثل - ليفوق بجماله نور الشمس المحسوسة ، وغاية الحياة الإنسانية هي تأمل هذا النور الإلهي . وهكذا تنتقل الفلسفة الأفلاطونية من الزمنية التاريخية التي تخضع للواقع والأحداث ، إلى الخلود والأبدية اللاتاريخية (١) .

(٢) لقد عانى أفلاطون كثيراً من الأحداث التاريخية في عصره عانى من أثر الحروب الطويلة و عانى من أثر الأحداث السياسية في أثينا وما فيها من صراعات واضطرابات . وشق عليه موت سقراط نتيجة للأوضاع السياسية والاجتماعية . كذلك لم ينجح في مغامراته السياسية في صقلية مع ملكها الطاغين (ديونيسيوس الكبير والصغير) . فلا غرابة أن يحاول في فلسفته أن ينسى أو يقتضى هذه التاريخية .

البَابُ الثَّانِي

هيجل

فِي عَصْرِ الثَّوْرَةِ

الثورة ثورتان : ثورة سياسية وثورة فكرية . وإذا كان هيجل قد عاش بعيداً عن الأحداث السياسية للثورة الفرنسية ، فقد استطاع وهو في ألمانيا ، أن يعايش الثورة الفكرية وأن يتابعها بكل دقة المفكر والفيلسوف .

عرف هيجل ما للفكر من أثر كبير على تغيير التاريخ ، وأيقن الدور الذي يمكن أن يكون للفكر في تاريخ الإنسانية . ولقد ارتبطت فلسفة هيجل بعصره تاريخياً وفكرياً .

وهذا الباب ينقسم إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : رأى هيجل في الثورة .

الفصل الثاني : الثورة الفكرية في فرنسا .

الفصل الثالث : هيجل مع الثوار .

الفصل الرابع : هيجل والتنوير .

الفصل الأول

رأى هيجل في الثورة

إن الأسباب الفكرية للثورة الفرنسية تأتي عند هيجل في المرتبة الأولى. وهو يؤكد في الصفحات الأخيرة من « الدروس في فلسفة التاريخ »^(١)، بأن الثورة الفرنسية قد خرجت من الفلسفة، ذلك لأن الفلسفة التي نطلق عليها بحق اسم « الحكمة الكلية »، ليست فقط الحقيقة في ذاتها ولذاتها بوصفها ماهية خالصة، ولكنها « الحقيقة الحية في العالم الواقعي ». ولا ينبغي لأحد أن يعترض على القول بأن الثورة قد وجدت الاندفاعات الأولى في الفلسفة. والمبدأ الفكري^(٢) الأساسي الذي قامت عليه الثورة في فرنسا، هو مبدأ « حرية الإرادة » في مقابل الحقوق التي كانت سائدة. وهذه الحقوق قد تمثلت في الامتيازات التي كانت تتمتع بها طبقة الإكليروس وطبقة الأغنياء الكبار. حتى النبلاء الذين قضى « ريشليو » على نفوذهم، ظلوا يحتفظون بكل حقوقهم. وكان الشعب وحده هو الذي يرضخ تحت قيود اللذ والاستغلال.

كانت الامتيازات الموجودة في فرنسا قبل الثورة، تتعارض تماماً مع فكرة العدالة ومنطق العقل. وكانت الأوضاع السائدة تجمع بين فساد الأخلاق وفساد العقل والروح. وكانت السلطة الحاكمة تجد حرجاً في توفير وسائل اللهو والبلذخ لرجال البلاط الملكي، الأمر الذي تسبب عنه سخط الشعب على هذه السلطة. ولقد وجد أفراد الشعب أن كل جهودهم، وكل شقاؤهم وعرقهم، لم يكن من أجل مصلحة عامة للدولة، بل من أجل تحقيق الترف الجنوني لأصحاب الامتيازات. ولذلك بدأ نظام الدولة في نظرهم، كظلم فادح في حقهم. وكان من الضروري أن يحدث تغيير لنظام الحكم بهذه الصورة العنيفة، لأنه لم ينشأ من رجال الحكم نفسه. فلقد كان رجال البلاط، والإكليروس، والنبلاء، والبرلمانيون، يحافظون على امتيازاتهم وثوراتهم، ولم يفكروا في بؤس الشعب، وحقوق الطبقات الفقيرة. ويعتقد هيجل أن الكاثوليكية التي كانت تدين بها الدولة الفرنسية، لم تسمح بإحداث أي تغيير في نظام الحكم، لأنها تفصل بطبيعتها بين الإرادة المقدسة والإرادة الفردية. فالمقدس لا يمكن للإنسان الفردى

Hegel : Leçons sur la philosophie de l'histoire Trd. fr. par. J. Gibelin. Nouvelle (١)

édition p. 400.

gedankenprinzip .

(٢)

المساس به ، ولا مجال للحرية الفردية فيه . وكان الملك هو الذى يمثل الإرادة المقدسة ، ويعاونه فى ذلك رجال البلاط والإكليروس .

و « فجأة » ، تبين للشعب الفرنسى أن الفكر قادر على تغيير الواقع ، وتقويض نظام الظلم الفاسد . فأخذ يبحث فى معنى « الحق » و « الدستور » ، ليقم على أساسها دولة العدالة والحق . ويقول هيجل : لقد كان أنكساغوراس يعتقد بأن العقل « نوس » هو الذى يحكم العالم . ولكن الآن فقط ، يعترف الإنسان بأن الفكر يجب أن يحكم الواقع . كانت هناك إشراقة رائعة واحتفلت جميع الكائنات العاقلة بهذا العصر (١)

ويتساءل هيجل : كيف كانت حركة الثورة فى فرنسا ؟ وكيف أصبحت ذات أهمية تاريخية عالمية ؟

١- ويوجب عن السؤال الأول بقوله إن الحرية فى ذاتها يمكن أن تتحدد بمضمونها وموضوعيتها ، أو بشكلها وذاتيتها ؛ ذلك لأن الحرية تستلزم أن تكون الذات واعية بأنها تفعل بإرادتها .

وهذه الإجابة توضح لنا بأن حرية الملكية، والحرية الشخصية يجب أن تكونا خاضعتين لقوانين العقل ، والحق فى ذاته ، والحرية الموضوعية أو الواقعية . لذلك فكل القوانين التى تصدر عن حقوق الإقطاع تسقط بالتالى . إن حرية العمل فى عصر الصناعة ترتبط بالحرية الواقعية حتى يكون من حق الإنسان أن يستخدم قواه من أجل الوصول إلى الوظائف العامة . وهكذا تصبح المرحلة الصناعية فى نظر هيجل ، أرقى من مرحلة الإقطاع التى تسمح بالرق والعبودية . فحرية الصناعة هى لحظة من لحظات الحرية الواقعية لأنها تستند إلى فكر الإنسان ووعيه بكيانه الروحى .

أما الحكومة أو السلطة الإدارية ، فهى الفاعلية التى تحقق القوانين . فهى أولا السلطة التى تمارس القوانين وتبقى عليها فى داخل البلاد . وثانياً ، فهى السلطة التى تدافع عن استقلال الأمة ، فى مواجهة الدول الأخرى . ويجب أن تسهر الحكومة على تحقيق الرفاهية للدولة ولكل الطبقات فيها . فلا يكفى أن يؤدى كل مواطن وظيفة معينة ، أو تكون لديه مهنة خاصة ، إنما يجب أن يخرج منها بريح وفائدة . لكن من الذى يحدد القوانين فى الدولة ؟ أية إرادة هى التى تقرها ؟ كانت فى فرنسا ، وفى هذا العصر ، الإرادة هى أولا إرادة الملك الحاكم بأمره وبأمر أقلية من أعوانه ، تعمل على سحق الشعب وحرمانه من حقوقه .

ويحدث بعد ذلك ، كما يبين هيجل ، أن يتولد إحساس *Gesinnung* داخلى لدى الأفراد بالحاجة إلى القوانين . وهذه الإرادة الداخلية لا تقنع بممارسة القوانين بل إنها تسعى إلى إخضاع القوانين لها . ويصبح الواجب الأسمى لدى الأفراد هو فرض إرادتهم الخاصة على

هذه القوانين . وكان الناس قبل الثورة يضعون إرادتهم تحت إرادة الدولة وجوهرها . وكان الدين الكاثوليكي في فرنسا لا يعارض قوانين الدولة ولا يقف في مواجهتها . ومن هنا كان لا يصح لإرادة الشعب أن تقف ضد الدولة وقوانينها . ولقد أكد هيجل ، أن الدين الكاثوليكي لا يسمح بوجود أى دستور عقلي (١) ، يشارك فيه الناس بإرادتهم الحرة .

كانت السلطة التنفيذية (٢) في فرنسا - قبل الثورة - يمثلها الملك والوزراء ، وكانت السلطة التشريعية (٣) تتولى مهام عديدة في الدولة . فبجانب التشريع ، كانت لها السلطة الإدارية على الخزنة وال جيش (القوة الحربية) . ولذلك كانت تعاني من التناقض الداخلى في نظامها ، لأن ميزانية الدولة لا تدخل في مفهوم القانون وتصوره . كذلك ، لم يكن من حق السلطة التشريعية أن تتدخل في تعيين الوزراء ، ورجال الوظائف العامة .

كان لابد إذاً وأن يثور الشعب على الأوضاع المتناقضة والظالمة . فالثورة ، هي استرجاع الشعب لحقوقه المفقودة . لكن هل استطاع الشعب فعلاً في ظل الثورة الفرنسية أن يتقلد هو مقاليد الحكم ؟ يرى هيجل ، أننا إذا نظرنا إلى هذه المسألة من الناحية النظرية ، لوجدنا أن الشعب الذى قلب النظم والأوضاع أصبح هو الحاكم . أما إذا نظرنا إلى هذه المسألة من الناحية العملية ، فإننا نجد أن الحكم أصبح في أيدي هيئات حكومية جديدة . والحق أن المبادئ المجردة للثورة الفرنسية يمكن ردها إلى إثنين :

١ - الحرية .

٢ - الفضيلة .

يجب أن تسود الحرية الفردية ، وفي الوقت ذاته ، يجب أن تسود الفضيلة بمناهضة أولئك الذين يدافعون بحيث عن مصالحهم القديمة ، والذين يجعلهم انفعالاتهم وتهورهم غير أوفياء للحرية والفضيلة . وكلمة الفضيلة هنا تشير إلى مبدأ بسيط يميز بين الذين يؤمنون بالثورة والذين لا يؤمنون بها . ولقد جعل روبسبير من الفضيلة المبدأ الأسمى للثورة ، ولكنه ترك الفضيلة ترتبط بالرعب Terreur والاستبداد . وهنا تمثل إرادة روبسبير ، إرادة ذاتية ، تماماً كما كانت إرادة الملك التى قضت عليها الثورة باعتبارها أيضاً ، رمزاً للوعى الدينى الكاثوليكي . ولقد كان عصر الرعب عنيفاً إلى أقصى حد . فكانت الأحكام تصدر بصفة شخصية ، لا بصفة قضائية ، ولا نجد أمامها غير عقوبة واحدة ، هي عقوبة الموت . لذلك كان يجب

(١) يشير هيجل إلى أن أفلاطون قد جعل الدولة في « الجمهورية » هي التي تسن القوانين لا الأفراد .

Pouvoir législatif. (٢)

الشعب والتاريخ

Pouvoir exécutif. (٢)

أن ينعدم هذا الطغيان ، وأن ينهى حكم روبيسيير . ويظهر حكم جديد هو قيادة الثورة (١) الذى يتألف من خمسة أفراد . واستطاع نابليون أن يعطى لهذه القيادة صبغة عسكرية ، وبعد فترة وجيزة أصبح على رأس الدولة الجديدة ، يمثل الإرادة الفردية . وكان حكم نابليون يتميز فى نظر هيجل بالخوف من السلطة واحترامها . وبعد أن اطمأن على استقرار الأمور الداخلية ، وجه عنايته إلى الخارج ، وفرض سلطته وقوته على أوروبا ، ونشر فيها المؤسسات الليبرالية (٢) وحقق هذا القائد أعظم الانتصارات التى لم يشهد التاريخ أروع منها . ولكن هذه العبقرية فشلت فى نهاية الأمر ، وأصبحت الانتصارات غير قادرة على بقاءه فى الحكم . واستطاعت « مشاعر الشعب الدينية والقومية » أن تهدم هذا الصنم وأن تعيد لفرنسا الملكية الدستورية القائمة على الميثاق la Charte .

ولكن يبدو فى نظر هيجل أن هذه الملكية الجديدة فى فرنسا ، كانت مجرد أكلوبة ، وكان ولاء الفرنسيين لها مجرد مظهر كاذب . ولقد استمرت هذه الرواية المزلية (الفارص) خمسة عشر عاماً .

كان الميثاق يعبر عن ولاء الشعب للحاكم ، ورعاية الحاكم للشعب . ولكن هذا الشعور بالولاء كان بتعبير هيجل ، « شعوراً كاثوليكياً » يقضى على المؤسسات الشعبية التى أسستها الثورة ، ويقلق الرعى القوى . لذلك انفصل الشعب عن الحكومة ، وانتهى هذا الحكم كما سبق أن انتهى غيره . وأصبحت القضية الأساسية هى أن تصير الإرادة العامة ، إرادة تجريبية لا إرادة مجردة ، بمعنى أن يحكم الأفراد بوصفهم كذلك ، وأن يشاركوا بالفعل فى الحكم ، وأن يتحقق كل شيء بإرادتهم ومصادقتهم ، فيسقطون الحكم ويقيمونه .

٢- أما السؤال الثانى عن أهمية الثورة بالنسبة للتاريخ العالمى ، فإن هيجل يحاول الإجابة عنه على النحو التالى : إن الحروب التى خاضها نابليون قد ساعدت على نشر الليبرالية الثورية فى الدول الحديثة فى أوروبا ، وخاصة البلاد اللاتينية التى كانت تشكل العالم الكاثوليكى الرومانى القديم ، (فرنسا ؛ إيطاليا ؛ إسبانيا) . ولكنها فشلت بعد ذلك فى إيطاليا وإسبانيا ، كما فشلت فى فرنسا . ويعتقد هيجل أن فشل الثورة فى هذه البلاد ، إنما نشأ عن عدم وجود حركة للإصلاح الدينى Reforme ، سابقة على الثورة . لذلك عادت هذه البلاد إلى حالتها البدائية الأولى ، مع بعض التغيرات البسيطة فى وضعها السياسى الخارجى ، ومهما كانت قدرة نابليون ، فإنه لم يستطع أن يعطى الحرية لإيطاليا أو أسبانيا .

(١) Le Directoire

(٢) التى لا تخضع لتنفيذ الدولة .

وفي مقابل الأمم اللاتينية ، يجب أن نذكر الأمم البروتستانتية ، وهي النمسا وإنجلترا . أما النمسا ، فلم تكن مملكة ، بل إمبراطورية تجمع نظاماً سياسية كثيرة ، وكلها لا تمت بصلة إلى « الماهية الجرمانية » . أما إنجلترا فقد بقيت على تقاليد القديمة ، وبقي دستورها وبرلمانها بعيداً عن كل المؤثرات الفكرية للثورة الفرنسية . هذا بالرغم من أن حرية الصحافة كانت تجعل من السهل نشر المبادئ الفرنسية عن الحرية والمساواة . لكن ربما كانت إنجلترا هي بلد الفكر الحر ، الذي ناقش أهله بحرية كاملة ، فكرة الحرية . فلقد أعلنت الأمة الإنجليزية تأييدها للثورة الفرنسية ، وتحرير الفرنسيين ، ولكنها في الوقت ذاته كانت تفخر بحرية الرأي عندها فلم تحاول أن تتابع تقليد الثورة الفرنسية ، واحتفظت بكل تقاليدها الدستورية والفكرية .

كان الدستور الإنجليزي يتألف من حقوق خاصة للأفراد ، وامتيازات خاصة . أما الحكومة فقد كانت إدارية ، تعرى مصالح الأفراد والطبقات . بينما الكنيسة ، والمقاطعات والمحافظات والجمعيات ، تتولى كلها إدارة شئونها بنفسها . وكانت هذه هي الحرية في نظر الإنجليز ، التي تختلف تماماً عن المركزية الإدارية في فرنسا . كانت الحرية في إنجلترا ، حرية تجريبية وشخصية ، بينما كانت في فرنسا تجريدية وعامة . وكانت الأمة الإنجليزية لها من الحكمة والفضة ، ما يجعلها تتقبل الوظيفة الإدارية للحكومة ، وتضع ثقها في مجموعة من الخبراء في الشؤون السياسية .

فقد كانت الحياة الاقتصادية في هذه البلاد ، تعتمد على الخبرة في التجارة والصناعة ، وكان الإنجليز يجوبون البحار والبلدان بحثاً عن أسواق تجارية ومراكز جديدة للصناعة ، الأمر الذي جعلهم أصحاب خبرة ودراية بالشعوب الأخرى . وكانوا يعتقدون أنهم وصل حضارة ينقلونها إلى البلاد الأخرى ، كما ينقلون إليها تجارهم .

أما ألمانيا التي خطت على أرضها جيوش فرنسا ، فقد استطاعت بفضل القومية الألمانية ، أن تلحق بها الهزيمة بعد النصر . حقاً لقد كشف هذا الغزو عن عيوب المؤسسات القديمة في ألمانيا ، وانقسمت الإمبراطورية إلى دويلات مستقلة . ولكنه قد تم إلغاء النظام الإقطاعي ، ليحل محله نظام يكفل حرية الملكية والحرية الشخصية . إذ أن قوة الدولة كانت تكمن في « عقلها » السياسي ، وكان من حق العقلاء الذين يحسنون إدارة شئون الدولة ، أن يكونوا على رأس هذه الدولة .

ولقد أكد هيجل أن الكنيسة البروتستانتية في ألمانيا ، قد استطاعت أن توفق بين الدين والقانون ، ولم يعد هناك أى تعارض أو تناقض بينهما . وكانت الحرية في ألمانيا تحقيقاً للحرية الفردية في إطار الحرية العامة ، وكان وعى الفرد بحريته لا يكتمل ، إلا بوعى الجميع بهذه

الحرية . وكانت فلسفة « كنت » في نظر هيجل ، تمجيداً لحرية الإرادة الإنسانية . وقد يتساءل البعض ، لماذا حاول الفرنسيون لا الألمان تحقيق هذه الحرية تحقيقاً فعلياً ؟ لماذا انتقلت عندهم حرية الإرادة من المجال النظري إلى المجال العملي ؟ قد يعتقد البعض أن الفرنسيين « رؤوسهم ساخنة » (١) ، ولكن الحقيقة أن هناك أسباباً أخرى أبعد وأعمق . ذلك لأن العالم البروتستانتي قد حقق الوعي الكامل والمطلق بالشعور بالذات ، كما حقق يقين الذات بالأخلاق والقانون والدين . ولذلك كان التنوير في ألمانيا يقف بجانب اللاهوت ، أما في فرنسا فقد اتخذ موقفاً معادياً للكنيسة . ولا كان الدين هو الصورة العامة التي تظهر فيها الحقيقة بالنسبة للشعور العيني ، فإن البروتستانتية كانت لا تسمح بازدواج الوعي والشعور بين حقيقة الدين الموضوعية والذاتية . أما الكاثوليكية فكانت تفصل بينهما ، فتجعل الإرادة العامة في ناحية ، والإرادة الفردية في ناحية أخرى .

يبدو لنا أن هيجل قد نظر إلى الثورة الفرنسية ، نظرة ألمانية خالصة فيها الكثير من التجني وعدم الإنصاف . وكأن لسانه يقول ، إن حركة الإصلاح الديني في ألمانيا مع مارتن لوتر ، قد أعفت الألمان من القيام بمثل هذه الثورة ، وجنبها ضرورها . كذلك يبدو أنه الجرمانى المتعصب للبروتستانتية ضد الكاثوليكية . ولا أتعجب حين أرى الفرحة تملأ وجهه وهو يسجل نهاية الثورة مع روبسيير وحركة الرعب . ولا شك أن تفكير هيجل النظري البحث ، الذي يخضع كل شيء لمقولة الوعي بالذات وللذات ، للموضوعية وللذاتية ، قد أبعده عن كثير من الجوانب الإنسانية الرائعة في الثورة الفرنسية .

ومن الممكن أن نظن أن هيجل قد احتفظ لنفسه بإعجابيه الشديد ، وتقديره العظيم للثورة ؛ لمفكرها ولرجالها . وربما لم يشأ أن يعبر عنهما صراحة وعلناً ، حتى لا يفهم من كلامه أنه يدفع الشعب الألماني إلى الثورة ويشجعه عليها . ولكن من الممكن أيضاً أن يكون هيجل قد احتفظ بروحه الألمانية وبطابعه الجرمانى الأصيل ، الذي يضع ألمانيا بنظامها ودينها وذولتها « فوق الجميع » . لذلك نرى من الواجب علينا ، أن نعطي صورة أوضح عن الأصول الفكرية للثورة الفرنسية .

(١) يرد التعبير عند هيجل باللغة الفرنسية .

الفصل الثاني

الأصول الفكرية للثورة الفرنسية^(١)

هل كان الفكر هو نقطة البداية للثورة الفرنسية ؟ نعم . ومن دواعي الفخر لهذه الثورة ، أن تكون هناك حركة فكرية عامة وشاملة ، قد عمت أرجاء البلاد ، وهيأت الأذهان لها . وكانت فلسفة ديكارت التي تدعو إلى استقلال العقل ، هي نقطة البداية لهذه الحركة ، وانتشرت هذه الفلسفة خارج أسوار الجامعات ، التي كانت معقلا للسكولائية القديمة . وبما هو جدير بالذكر ، أن رجال الدين كانوا يتولون التدريس في الجامعات الفرنسية ، ويعارضون فيها فلسفة ديكارت التي تقوم على البداهة العقلية ، ونور العقل القطري . كانت الجامعات في فرنسا تبشر بالكاثوليكية ، وتؤيد فلاسفة العصور الوسطى ، وتنادى بخضوع العقل للسلطة الدينية والتقليدية . وفي سنة ١٦٨٠ ، أعفت جامعة « كان » Caen ، الأب « كايي » Cailly من التدريس ، لأنه كان يدرس فلسفة ديكارت . كذلك اعترضت جامعة باريس في سنة ١٦٩٥ على تدريس الأب . بورشوه « Pourchot » لحجج ديكارت في إثبات وجود الله ، بدلا من الحجج المدرسية التقليدية .

أما في الأوساط البعيدة عن الجامعات ، فكان « المقال في المنهج » Discours de la méthode ، هو منهج الفكر . كان العلماء - علماء الفيزياء والكيمياء - يستخدمون البدايات العقلية ، والاستدلالات الهندسية في الكشف عن أسرار المادة . وتوسع الناس في استخدام منهج ديكارت ، فطبقوه على المشاكل الدينية والسياسية . قال بييل Bayle : إن العقل هو المحكمة العليا التي تحكم في النهاية . وهذا العقل السليم هو العقل الديكارتي ، الذي يستند في حكمه إلى المبادئ البدئية ، لا إلى سلطة النقل والأحكام المسبقة . وكان العقل في نظر « بييل » هو العقل الناقد ، الذي يتخذ النصوص والأفكار . فإذا رجعنا إلى قاموس « الفلسفي » ، لوجدنا أنه يجهد في فحص النصوص بغرض اكتشاف ما يمكن أن تنطوي عليه ، من التناقض والخطأ . وقد تناول بالفحص النقدي ، الكثير من المسائل الدينية^(٢) ، الأمر الذي دعا إلى التشكك في العقيدة الدينية .

(١) لو أصدرت هذا الكتاب باللغة الفرنسية ، ما فكرت قط في كتابة هذا الفصل أما وهو يصدر بلغتنا العربية ، فإني أعتقد أن القارئ العربي في حاجة إلى معرفة هذه الأصول .
(٢) يمكن أن نقول أن « بييل » قد استخدم منهج النقد التاريخي في دراسة النصوص الدينية .

وإذا كان «بييل» قد كتب من أجل المتخصصين من المفكرين ، فإن «فونتيل» Fontenelle ، قد كتب من أجل العامة من الناس . وهو أيضاً من المدرسة الديكارتية . وصاحب حس تقدي ، يقف في مواجهة التقليد والعقيدة . لقد كان القدياء في نظره يؤمنون بمعرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل . حتى الفلاسفة في نظره لم يستثنوا من هذه القاعدة . ولقد كان «العهد القديم» Bible يذخر بالنبؤات والمعجزات التي لا يصدقها العقل ، والتي لا فرق بينها وبين نبؤات «دلف» Delphes عند الإغريق . وهو يدعو الناس إلى تحكيم عقولهم في هذه المسائل ، تعني ، في هذه الأساطير وهذه الخرافات ؛ وأن يستخدموا منهج البدهة والوضوح واليقين ، بدلاً من الاعتقاد الساذج في هذه الأمور .

وأسمم الفكر الإنجليزي في نشر الوعي العلمي في فرنسا ، وكان «بسكال» Pascael ، و«جاسندي» Gassendi ، وغيرها من المعجبين بفلسفة بيكون Bacon والعلم الإنجليزي . واحتلت المراجع الإنجليزية مكاناً هاماً في كتاب «تاريخ أعمال العلماء» (١) الذي ظهر في هذا العصر وكان «لوك» Locke الفيلسوف الإنجليزي ، صاحب تأثير قوى على المفكرين الفرنسيين الذين يرفضون الاستدلالات الميتافيزيقية .

وكان من الممكن أن تكون هذه الحركة الفكرية ، مجرد حركة فلسفية خالصة ، لا تعني ولا تهتم بها القاعدة الشعبية . إلا أن الشعب كان يشعر بحالة من القلق العميق تجاه الأوضاع السياسية السائدة . فنذ أيام الملك لويس الرابع عشر ، والشعب يتحمل أعباء الضرائب الفادحة ، في الوقت الذي كان فيه الأغنياء ينعمون بالامتيازات والحياة اللاهية . فإذا كان ملك فرنسا هو راعي البلاد ، فلا بد وأن يكون هناك شيئاً خاطئاً في حكمه . ولم يفكر الفرنسيون في بادئ الأمر في نقد مبدأ السلطة المطلقة ، في النظام الملكي الفرنسي ، ولكنهم أخذوا يفكرون في أفضل الوسائل التي يمكن أن تستخدمها هذه السلطة من أجل تحقيق العدالة في الحقوق بين المواطنين ، ومن أجل إصلاح النظم الاقتصادية في البلاد . فكان «فوبون» Vauban و«بواجيبر» Boisguilbert من الذين واجهوا الأوضاع السياسية من الناحية النظرية ، لا من الناحية العملية . ولقد ظهرت مجموعة من السياسيين النظريين في ألمانيا وإنجلترا ، من أمثال «جروتوريوس» Grotius ، و«بوفندورف» Pufen dorff ، و«لوك» ، وترجم لهم الفرنسيون «حق الحرب والسلام» (١٦٨٧ ، للأول) ، و«حق الطبيعة والناس» (١٧٠٦ ، للثاني) و«الحكومة المدنية» (١٦٩١ ، للثالث) ، وكل هؤلاء المفكرين ، كانوا من أنصار العقل ، وظنوا أن العقل يمكن أن يقيم علماً مجرداً في السياسة والأخلاق . ويمكن أن نقول أن من الفرنسيين من أمثال «فنونل» Fénelon و«سان

«Histoire des ouvrages des savants par De Beauval».

سيمون « Saint Simon ، ولولا بورور « Le Laboureur ، من تأثر بهؤلاء السياسيين النظريين ، لكنهم جميعاً لم يطالبوا بتغيير النظام السياسي ، واستبدال الملكية بالجمهورية . إنما حاولوا أن ينقدوا مساوئ السلطة المطلقة . ها هو « فنلون » يطالب بأن يكون من حق الأمة إقرار الضرائب . وغيره يطالب بتوزيع السلطة السياسية ، بين الملك ومجلس الشيوخ^(١) . ومهما كانت قيمة هذا النقد ، فهي تدل على أن الفكر الفرنسي بدأ يناقش المسائل السياسية ، بصورة لم تكن مألوفة من قبل . وبدأت « السلطة » Autorité تتزعزع أمام الفكر ، سلطة الكنيسة وسلطة الملك .

١ - انتشار الأفكار الجديدة

من المسلم به بين السياسيين ، أنه لا تكفى براعة الموهبة وقوة الفكرة ، لنشر الآراء السياسية بين الناس . بل لابد من تطور بطيء وطويل يهيئ الأذهان لتقبل هذه الآراء . هذا التطور في المناخ الفكرى ، هو مثل محاولة استصلاح الأراضي ، وتحويل الصحراء الجرداء إلى أرض زراعية خصبة . ويجب أن نذكر أن مذكرات « سان سيمون » التي نعرفها جيداً اليوم ، لم تكن معروفة ولا منشورة في ذلك الوقت . وكذلك الحال بالنسبة إلى أعمال « لولا بورور » و « بولانتييه » ، التي عرفت في صورة مخطوطات تداولها بعض المثقفين فيما بينهم . أما كتابات « فنلون » السياسية فلم تكن معروفة إلا للقليلين . وعلى العكس ، فقد كانت مؤلفات « لوك » و « جروفيسوس » و « بوفندورف » منشورة ومنتشرة في كل مكان . ولكنها كانت على كل حال ، للمتخصصين الذين يقوون على متابعة الاستدلالات العقلية الدقيقة أحياناً ، والمعقدة أحياناً أخرى . ولذلك كانت كتابات « لا برويير » La Bruyère^(٢) هي التي تسهوى العامة من الناس ، فيقبل الشعب على قراءتها ، بهم وشغف . ولم يكن هذا المفكر الفرنسي ثورياً بالمعنى المعروف ، ولكنه كان ناقداً ثاقب الفكر ، نافذ البصيرة ، وجه كل نقده إلى الأشخاص لا إلى المبادئ .

وانتشرت في هذه الفترة موجة من الروايات الطوباوية Utopies ، مثل روايات « توماس مورس » Thomas Morus و « دى فوائى » Gabriel de Foigny و « كلود جليير » Claude Gilbert و « تيسو دى باتو » Tyssot de Patot . وكانت

(١) كان الأرستقراطيون هم الذين يحتلون المقاعد في مجلس الشيوخ لذلك كانت هذه الدعوة (سان سيمون) تميل إلى الأرستقراطية أكثر من الشعب .

(٢) Les Caractères .

كلها تدور في بلاد خيالية تخضع لنظم سياسية غريبة . ومن الأفكار الجديدة التي انتشرت في هذه الروايات ، فكرة الملكية الشائعة ، وعدم الاعتراف بالملكية الشخصية ، أو فكرة تحديد هذه الملكية . ولكن هذه الأفكار قد ظهرت في صورة الأحلام ، لا في صورة الحقائق ، ونظر الشعب إليها على أنها مجرد لعبة للفكر بعيدة عن الحياة والواقع . لذلك كان تأثيرها ضعيفاً من الناحية السياسية ، وإن كان قوياً من الناحية الثقافية العامة .

كانت أفكار الفلاسفة الإنجليز تدعو إلى التسامح في مجال الدين والأخلاق والسياسة . فكان نقد الدين يفسح المجال للتأليه الطبيعي ، وكان نقد الأخلاق يرتبط بالطبيعة الإنسانية لا بأصول الدين . كما كان نقد السياسة لا يدعو إلى العنف في تغيير نظام الحكم . أما أفكار المفكرين الفرنسيين ، فكانت تدعو إلى شيء من العنف والمغلاة في النقد . فكان نقد الدين في نظرهم ، دعوة إلى الإلحاد الصريح . وكان نقد الأخلاق دعوة إلى أخلاق جديدة للذة والاستمتاع بالحياة ، وتأثر شعراؤهم بالأيبيقورية^(١) . أما نقد السياسة ، فكان موجهاً ضد الملك باعتباره ممثلاً للسلطة الإلهية ، تمثيلاً دنيوياً وزمناً . وت خلاصة القول ، أن الذين كان في نظر الفرنسيين ، وراء مفاسد الحكم السياسية والأخلاقية . ولذلك كانت الثورة الفكرية على الدين ، هي أساس الثورة السياسية .

ومن بين الكتب التي انتشرت في ذلك الوقت ، ترجمات^(٢) « لوكريسيوس » التي طبعت أكثر من ست طبعات ، كما كانت هناك بعض الكتب المخطوطة التي تداولها الناس بطريقة سرية ، والتي كان لها رواجاً واسعاً ، مثل « المحارب الفيلسوف » و « وصية القس مسليه » ، و « رسالة سرازيبولس إلى لوقيوس »^(٣) . . . وكانت كلها تنقد بشدة رجال الدين ، وتكشف عن أخطائهم ؟

وربما تكون هذه المؤلفات التي نذكرها من الدرجة الثانية أو الثالثة ، ولكنها كانت هي المؤلفات الرائدة للحركة الفكرية التي مهدت لظهور الثورة الفرنسية . ففي سنة ١٧٣٤ ، ظهر للأب « ديوبو » Dubos ، كتاب « التاريخ التقدي لقيام الملكية الفرنسية » ، وظهر « البحث في الرأي » « لسانت أوبان » Sant-Aubin و « الموازنة بين الرومان والفرنسيين » « لمابلي » Mably (١٧٤٠) ، وكلها كانت تهاجم السلطة المطلقة للملك فرنسا .

(١) كان أشهرهم St. Evremond

(٢) ترجمها Goutures

(٣) يبدو أن P. Guppée . هو صاحب المؤلف الأول Freret الثاني ، أما المؤلف

الثالث فظل مؤلفه مجهولاً .

٢ - فولتير

ومن أشهر المفكرين الذين أسهموا بتصويب وافر في نشر الأفكار الثورية الجديدة ، الكاتب والفيلسوف الكبير فولتير . بدأ فولتير حياته الأدبية كاتباً وشاعراً درامياً ، وظهرت ميوله الفلسفية من خلال كتاباته الأدبية . وظهر فولتير أمام الشعب ، كشاعر مسرحي مثل كورنيل وراسين^(١) ، وأقبل الناس على قراءته بشغف شديد ، ومن أشهر مؤلفاته التي انتشرت في الأساطير الأدبية ، وبين طلبة الجامعات والمدارس ، « تاريخ الملك شارل الثاني عشر » (١٧٣١) و « ملحمة هنري الرابع »^(٢) (١٧٢٨) . أما الفيلسوف فلقد نشر « الرسائل الفلسفية » في سنة ١٧٣٤ ، و « المقال بالشعر عن الإنسان » . وكانت هذه الكتابات الفلسفية الأولى ، تدعو إلى استخدام سلطة العقل في الحكم على الدين ، وتتصف بالتسامح ، وتنادى بحقيقة التأليه ، دون أن تشير إلى الإلحاد . وكان النقد الذي يوجهه فولتير ضد رجال الدين ، هو عن التعصب ؛ وكان فيه سخيرية لاذعة وتشاؤم بالنسبة لمعرفة الغيبيات . ويذهب بعض المفكرين إلى القول بأن فولتير لم تكن له اهتمامات سياسية في بداية حياته الفكرية . فلحمة هنري الرابع ، فيها مدح للملك الخبير والمتسامح ، ولم تكن فيها أية إشارة من بعيد أو من قريب عن مساوئ النظام الملكي في فرنسا . حتى الخطابات السياسية في « الرسائل الفلسفية » ، كانت مجرد دراسة وعرض للنظام السياسي للحكومة الإنجليزية ومراقبة السلطات فيها . وامتنح المفكر الفرنسي النظام الاقتصادي في إنجلترا الذي لا يتقل على عاتق الفلاح بالضرية والحزبة . وأظهر إعجابيه بالنظم الاجتماعية التي كانت سائدة ، والتي كانت تجعل مكانة الرجل بالنسبة لعمله لا بالنسبة لأصله وفصله . فكان العلماء والشعراء يصلون إلى أعلى المناصب في الدولة . ومن بين أن فولتير لم يحاول أن يجعل من الدستور الإنجليزي مثلاً أعلى يحتزبه الدستور الفرنسي ، ولكن من الواضح أيضاً أنه كان صاحب فكر جرىء في عرضه لهذه الأفكار والآراء .

كان فولتير مثل سائر المفكرين والأدباء في عصره ، يدعو إلى الأخلاق المتحررة . وطالما أن الأخلاق أصبحت تنفصل عن الدين ، فيجب أن يستمتع الإنسان بكل لذة الحياة وبهجتها . إن الكاثوليكية تدعو الناس إلى نوع من التقشف والزهد في الحياة ، لكن فولتير

(١) Corneille; Racine ؛ ونشر فولتير أكثر من خمسين مسرحية .

(٢) يذهب النقاد إلى أن هذه الملحمة هي « مثل الأبياد بالنسبة للشعر اليوناني ، و « الجنة المفقودة »

بالنسبة للأدب الإنجليزي .

لم يجد في الحياة ما يدعو إلى مزيد من الزهد والتقصف . كانت حياة الفقراء والغالبية العظمى من الشعب هي التقشف بعينه ، في الوقت الذي كانت فيه حياة الأغنياء مزيداً من الترف والبلذخ :

إن الحكمة الحقيقية

هي الهروب من الأحزان

في أحضان اللذة . . .

ولكن الدعوة إلى البحث عن اللذة في الحياة لم تستمر طويلاً عند فولتير . فعندما حدث زلزال لشبونة^(١) ، أخذ يتساءل عن معنى الخير والشر . إن الشر الأخلاقي ملازم للطبيعة الإنسانية ، مثل الشر الذي يلزم الطبيعة الخارجية . فالزلازل والبراكين هي شرور الطبيعة الملازمة لها ، والغرائز والبدول والاتصالات هي علة الشرور الإنسانية . وكما أن الإنسان لا يستطيع أن يغير شيئاً من الطبيعة الخارجية ، فكذلك هو لا يستطيع أن يغير شيئاً من طبيعته . وعلينا أن نقبل الشر في العالم وفي الإنسان ، في الطبيعة وفي الأخلاق .

وفي سنة ١٧٥١ نشر فولتير في برلين^(٢) كتاباً تاريخياً عن « عصر لويس الرابع عشر » ، أراد به أن يبين تاريخ الأمة الفرنسية في هذا العصر . وعندما صدرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب في جنيف سنة ١٧٦٣ ، كان قد أضاف إليها بحثاً ملحقاً عن « التقاليد وروح الأمم » . ولقد قدم فيه عرضاً شيقاً ومتنوعاً عن تقاليد الأمم المختلفة ، ولكنه لم يقدم لنا تفسيراً فلسفياً عميقاً لأسباب تنوع وتطور هذه التقاليد في مختلف البلاد . وعلى مرّ العصور . ولقد أشار فولتير في هذا البحث إلى التقاليد العربية والإسلامية باعتبارها « معقولة » وصادرة عن العقل . أما الحروب الصليبية فكانت في نظره ضرباً من الحماسة من جانب الغربيين . وقد تناول المفكر الفرنسي في قصيدة شعرية ، حياة « جان دارك » ، أو عذراء أورليانز^(٣) ، بكثير من التجريح ، وبأسلوب حاد عنيف . وهذه القصيدة تحقّق حقيقة هامة ، لم يستطع فولتير أن يعلنها على الملأ ، وهي حقه وكراهيته الشديدة للمسيحية . لقد وقعت الإنسانية في نظره فريسة لتحالف الحبيث بين استبداد الملوك وطغيان القساوسة . وكانت المسيحية مستولة عن كثير من الشرور والكوارث والحروب والمذابح ، التي قاست منها الإنسانية في تاريخها المرير .

(١) نشر فولتير قصيدته عن هذه الكارثة في سنة ١٧٥٦ .

(٢) كان الملك فريدريك الثاني قد وجه إلى فولتير دعوة بزيارة بروسيا . فلباها في سنة ١٧٥٠

وأضى هناك أربعة أعوام .

(٣) La Pucelle .

كيف يمكن إذاً أن يواجه الإنسان الحاضر؟ ولماذا كان يؤمن حتى اليوم، بالخرافات والحماقات التي تتناها تعاليم المدرسين واللاهوتيين؟ هذا الإيمان لم يحقق للإنسانية سعادتها، بل تسبب في شقاها و تعاستها. يقول فولتير: «إن هناك ثلاثة وسائل لحكم الناس: اقتراح القوانين، واستخدام الدين لتأييدها، وذبح رقاب بعض الناس من أجل حكم البعض الآخر؛ وليس لي علم بوسيلة رابعة» ولعل أفضل وسيلة هي الأولى، تلك التي تدعو إلى اقتراح القوانين المعقولة التي تحكم بها الدولة. وهذه القوانين يجب اقتراحها، لا فرضها على الشعب وإلزامه بها. ولكن ليس معنى ذلك أن ندعو الشعب نفسه إلى تشريع هذه القوانين ووضع مقرحاتها. ذلك لأن فولتير لم تكن له أية نزعة ديمقراطية واضحة^(١)، وكان الشعب في نظره، وسوف يظل مجرد قطيع جبان تظهر عليه مظاهر الغضب أحياناً، ومظاهر الخجل أحياناً أخرى.

لم يكن العالم الذي يعيش فيه فولتير، هو في نظره «أفضل العوالم الممكنة» كما كان يظن لبيتنس. بل كان كل ما فيه يدعو إلى الشك والتشاؤم. لكن العقل وحده، بعيداً عن أهواء القلب وانفعالات النفس، هو الذي يمكن أن يخلص الإنسان من هذا الشك، وهذا التشاؤم. ومن أجل ذلك، فهو ينادى بحرية الفكر، باعتبارها أولى الحريات التي يجب أن يدافع المفكر عنها.

وظهر «القاموس الفلسفي» في سنة ١٧٦٤، وهو يحاول أن يبين فيه مدى التخبط والتناقض في الكتب المقدسة. كذلك فهو يصرح بأن هناك صعوبات كثيرة لا يمكن تذليلها، وتقف حائلاً بيننا وبين الإيمان بالحرية وخلود النفس الإنسانية. ولا يظهر الإلحاد صريحاً في هذا القاموس الفلسفي، وإن كنا نشعر أنه يحتوي وراء الكلمات والسطور. فمن عبارات فولتير المشهورة: «اعلموا أن الفيلسوف يجب أن يعلن وجود الله، إذا أراد أن يكون نافعاً للمجتمع الإنساني»، و«إذا كان الله غير موجود، فيجب أن نتخرب وجوده». ومع وجود الله، يعلن الفيلسوف وجود الحرية وخلود النفس.

ونحن لا نستطيع أن نكشف عن ثمة مبادئ سياسية في هذا القاموس الفلسفي الذي يحيط به الغموض من كل جانب. فإذا كان فولتير يخفي أفكاره الدينية، أكثر مما يعلنها، فكذلك هو يخفي أفكاره السياسية. حقاً إنه يقف ضد الاستبداد في مجال السياسة، كما يقف ضد التعصب في مجال الدين. ولكنه لا يقدم لنا نظرية فلسفية متكاملة في الدين أو في السياسة. فهو مثلاً لا يطالب بالجمهورية، ولا يطالب بالديمقراطية، والشعب في نظره يمثل «الغواص»

(١) انظر البحث في «تقاليد وروح الأمم».

« والرعا » الذين لا يمكن أن يتقلدوا مقاليد الحكم . إنه من جانب مع الملكية ، ومع الأستقراطية الفكرية ، في الوقت ذاته لا يقترح حلولاً جذرية لمسأوى النظام الملكى التى كشف عنها في مؤلفاته وكتاباتة ، بصورة ساخرة لاذعة .

ومن الممكن أن نقول إن فولتير كان ناقداً سياسياً واجتماعياً ، أكثر منه فيلسوفاً للمجتمع وللسياسة (١) .

٣ - مونتسكيو

من ألمع الأسماء التى ظهرت في القرن الثامن عشر . نشر في سنة ١٧٣٤ كتاباً عن « أسباب عظمة الرومان وانحلالهم » ، ولكنه لم يصادف إقبالاً كبيراً من الجمهور الفرنسى ، الذى لم يكن يعنيه أمر روما وإسبرطة ، أو حكم « تيبير » و « نيرون » ، بقدر ما كان يعنيه حال الحكم في فرنسا أيام لويس الرابع عشر أو الخامس عشر . ثم كثر في سنة ١٧٤٨ « الرسائل الفارسية » التى تأثر بها الرأى العام الفرنسى تأثراً كبيراً . وكانت هذه الرسائل تتناول بالنقد المعتقدات الدينية المسيحية على لسان اثنين من القروس هما : « ريكا » و « يربك » . وكان من الواضح أن هذا النقد هو من وجهة نظر القروس ، الذين لا يدينون بالمسيحية . ولكنه كان من البدهى أيضاً ، أن هذه الآراء المعروضة ، هى آراء مونتسكيو أولاً وآخرأ .

والنقد الذى نصادفه في هذه الرسائل لا يختلف في مضمونه عن النقد الذى كنا نجده عند فولتير . فكلاهما يقف ضد التعصب في الدين ، وينكر حقيقة المعجزات ، ويسخر من سلطة رجال الدين . كذلك نرى مونتسكيو يطالب بأخلاق الشعب ، تنادى بالنعبة ولا تتكلم باسم الله والدين .

وكان ظهور « روح القوانين » في سنة ١٧٤٨ ، من الأحداث الفكرية الهامة . فقد طبع هذا الكتاب في الخارج (في جنيف) ، وحرمت الرقابة دخوله في فرنسا . ولكن سرعان ما أعلن الإفراج عنه ، أعضب رجال الدين و علماء السوربون ففكروا في كتابة رد عليه ، ولكنهم تخلوا عن هذه الفكرة بعد أن تبين لهم ، أن مونتسكيو لم يوجه سهام النقد إلى سلطة الدين أو سلطة الحكم . وأن كل ما أثاره عن النظام الجمهورى وفضائله ، إنما كان معروفاً على نحو آخر في مؤلفات كثيرة أخرى .

تكلم المؤلف في هذا الكتاب عن إسبرطة ، وأثينا وروما ، عن أفلاطون وأسطو وشيشرون ،

(١) يظهر ذلك بصررة واضحة في « زاديج » ١٧٤٧ و « كانديد » و « زائير » . الخ .

ولكنهم يتكلم عن النظم الديمقراطية الحديثة التي كانت سائدة في هولندا وسويسرا. وتكلم عن النظام السياسي في إنجلترا بوصفها بلداً مجاوراً لفرنسا، بصورة عامة ومختصرة. فالسلطة الملكية فيها هي سلطة دستورية، ويساعد النظام الانتخابي في اختيار أعضاء البرلمان. ولكن مونتسكيو لم يبد إعجاباً بهذا النظام السياسي، لأنه كان يعلم، مثل غيره من الفرنسيين، أن الأمور في إنجلترا لم تكن أفضل في شيء من الأمور في فرنسا. ولم يناد بإنشاء برلمان في فرنسا على شاكله البرلمان الإنجليزي. وربما كان ذلك لاعتقاده بأن النظام السياسي الذي يصلح في بلدهما، قد لا يصلح في بلد آخر، وكان الفيلسوف في أعماق فكره يطالب بإلغاء العنف والقوة في الحكم السياسي، وإلغاء محاكم التفتيش التي تقضي على حرية العقيدة في الدين. وإلغاء الرق في المجتمع الإنساني. وهذه كانت في الحقيقة الأهداف البعيدة. والغايات السامية التي يسعى إليها هذا المفكر.

نظر إلى القوانين باعتبارها صادرة من مبادئ عقلية عامة، بحيث يمكن استنباطها بواسطة منهج الاستدلال الديكارتي. كان من شروط هذه المبادئ العامة، أن تتصف بالبدهة العقلية والوضوح والتميز. إن المبادئ البدئية هي وحدها التي يمكن أن تحصل على التصديق العام من الناس.

وغير ذلك، فتبقى القوانين نسبية ومتغيرة وغير ضرورية

ويميز مونتسكيو بين ثلاثة أنواع من الحكم السياسي:

- ١ - الجمهورية، وهو النظام الذي يوافق فيه الشعب على القوانين. وتخضع فيها الحياة السياسية لمبدأ النضيلة.
- ٢ - الملكية التي تكون القوانين فيها من وضع الملك، وعليه احترامها. وتخضع فيها الحياة السياسية لمبدأ الشرف.
- ٣ - الاستبدادية التي تعطى لإرادة الحاكم سلطة القانون. وتخضع فيها الحياة السياسية لمبدأ الخوف.

وهو يتابع دراسة القوانين في هذه النظم السياسية الثلاثة بالطريقة الديكارتيّة أي بالطريقة النظرية البحتة. ويحاول أن يبين ضرورة القوانين بحيث تصبح كالقوانين الرياضية، والمنطقية. ولكنه لا يضع معياراً لعدالة وصحة القوانين. إنه يعترف فقط بنجاحها، بغض النظر عن معقوليتها أو عدم معقوليتها. هذا النجاح وحده، هو الذي يحقق سعادة الذين يطبقون هذه القوانين.

كان من الممكن أن تكون هذه القوانين واحدة شاملة وكلية، إلا أن هناك أوجه اختلاف كبيرة بين البلاد بعضها وبعض، بين أرضها ومناخها، بين رجالها وعاداتها وتقاليدها. لذلك

اختلفت هذه القوانين من بلد إلى آخر ومن شعب إلى آخر . والنتيجة التي يستخلصها مونتسكيو من هذه الدراسة ، هي أن القوانين التي كان يظن الفرنسيون أنها قوانين تابعة من من الإرادة الإلهية ، قد ظهرت على حقيقتها ، بوصفها قوانين إنسانية ، متغيرة ومتنوعة . ونحن لا نستطيع أن نحكم عليها من وجهة نظرنا الخاصة ، ومن منطقتنا الخاصة ، بل من وجهة نظر أصحابها . ولا توجد في نظر مونتسكيو مدينة كاملة وفاصلة يمكن أن تكون قوانينها هي المثل الأعلى للقوانين كلها ، كما كان الحال في جمهورية أفلاطون .

ولقد تأثر الرأي العام الفرنسي ، بروح القوانين . وأخذ الناس يتساءلون : هل استطاعت القوانين الفرنسية ، أن تحقق في ظل هذا النظام السياسي ، سعادة الفرنسيين ؟ وإذا كان الفرنسيون لا يشعرون بسعادتهم ، أفلا يحق لهم أن يقولوا أن هذه القوانين سيئة وغير عادلة ، أيًا كانت المبادئ التي تستند إليها ؟

٤ - ديدرو والانسيكلوبيديّة

ظهر الجزء الأول من دائرة المعارف الفرنسية في سنة ١٧٥١ ، والجزء الأخير في سنة ١٧٧٢ . وكان ظهورها دليلاً على انتصار عقل الفلاسفة في هذا العصر . ولقد اعترف بقيمة هذا العمل الموسوعي العظيم ، أنصارها وأعدائها . فلم تكن الموسوعة الفرنسية ، مجرد قاموس فلسفي ، أوسع تحليلاً وتفصيلاً ، من سائر القواميس الأخرى ، التي كانت قد ظهرت في فرنسا في ذلك الوقت . ونذكر منها قاموس « الفنون والعلوم » الذي نشره « توما كورني (١) » في جزئين ، سنة ١٧٥٨ ، وقاموس « سافاري (٢) » ، والقواميس الكبيرة والضحمة في التجارة والاقتصاد والقانون والعلوم . . . إلخ . كانت الانسيكلوبيديّة ، موسوعة فلسفية من الدرجة الأولى ، تبحث في الموضوعات المختلفة بطريقة عقلية . وتستدل على الحقائق بمنهج العقل وحده . وكان العقل بالنسبة للفرنسيين الذين عاشوا في العصور السابقة ، مجرد عقل عملي يكفل للإنسان النجاح في الحياة العملية ، ولا قيمة له من الناحية النظرية . ذلك لأن الدين في نظرهم ، قد نسق هذه المسائل النظرية ، على نحو لا يستطيع العقل أن يختلف معه فيها . ولكن ديكارت في الحقيقة ، هو الذي دعا إلى استخدام العقل في المسائل النظرية ، في العلوم وفي الفلسفة .

كانت الدراسات الدينية في فرنسا ، تدعو الإنسان إلى الاهتمام بالحياة الخالدة ، الحياة الآخرة ، أكثر من اهتمامه بالحياة الدنيا . هذه الحياة الإنسانية ، ما هي إلا سبيل من أجل سعادة الإنسان في الآخرة . ومع الموسوعيين ظهرت فكرة جديدة ، هي فكرة التقدم . وربما

Thomas Cornille. (١)

Savary Desbrulons. (٢)

كان النزاع بين القدماء والمحدثين ، هو الذى جعلهم يأخذون بفكرة التقدم والتجديد ، بدلاً من التقليد . ولكنهم أعطوا لهذه الفكرة معنًا جديدًا : إذ ربطوا بين « التقدم » و « العقل » الإنسانى .

اجتمع الانسيكلوبيديون وهم فوليتير ، ومونتسكيو ، وهلفيتيوس وهولباخ ، وجان جاك روسو ، وديكلو ، وبوفون ، وديمرسيه ، وعلى رأسهم ديدرو والميير ، من أجل وضع تقرير واف عن التقدم الذى أحرزته الإنسانية فى خلال تاريخها الطويل . كذلك رسموا الأهداف والغايات للتقدم الإنسانى فى المستقبل القريب والبعيد .

وما من أحد يستطيع أن يقول أن الموسوعيين قد تناولوا بالنقد الصريح والمباشر ، العقيدة الدينية المسيحية . ولم يكن فى أسلوبهم تجريحاً ورفضاً لهذه العقيدة . إنما هم قد وجهوا تقدم الساخر إلى الفلسفة المدرسية (السكولائية) ، بكل ما فيها فى نظريهم ، من أدلة معوجة ، واستدلالات باطلة ، وأحكام خاطئة ، وآراء تافهة ، وأفكار سطحية . وارتفعت أصواتهم ضد كل حقيقة تفرض على الإنسان ، بطريق السلطة الدينية ، ولا تستند إلى سلطة العقل . إن الأسباب التى أدت إلى تأخر العقل الإنسانى ، كانت فى نظريهم ، ترجع إلى سببين رئيسيين : هما السلطة التقليدية ، والأنساق الفلسفية . أما الفلسفة الحقيقية ، فهى التى تقوم أصلاً على الملاحظة العقلية ، والفحص الدقيق ، والتجربة والخبرة . وكانت هذه الفلسفة الحديثة ، يمثلها رجال مثل « لاموت » و « فونتنيل » ، و « بررو » و « تراسون » و « بوادان » ، وغيرهم من الذين اتبعوا منهجهم ، وحرية تفكيرهم . هذه الفلسفة تتقدم بخطى واسعة ، وهى تخضع لسلطانها (أى لسلطان العقل) ، كل الموضوعات التى يمكن أن يتناولها الفكر ، بعيداً عن كل سلطة تقليدية . وكانت الدعوة إلى « التنوير » هى التى تلازم الموسوعيين ؛ كانوا يسرون فى الطريق الذى يضيئه نور العقل وكانوا يدعون الناس إلى السير معهم فى هذا الطريق .

والحق أننا يجب أن نذكر شيئاً عن الظروف الفكرية التى أحاطت بظهور هذه الموسوعة العالمية فى فرنسا . كان لابد من العمل على ظهورها ، دون أن تثير عليها حرباً من جانب رجال الدين ، والأتقياء من الناس . لذلك ، كان يجب عليهم عرض الأفكار بصورة خفية ، وبالتلميح دون التصريح . بل إنهم استعانوا ببعض اللاهوتيين فى مراجعة بعض الموضوعات . وقبلوا هذه الرقابة عليهم من أجل نشر الأنسيكلوبيديا فى فرنسا لاخراجها^(١) . وكان « ديدرو » يبدى احترامه وخضوعه لهم . لكنه فى الوقت ذاته ، كان يبدى من السخرية فى كلماته ما يشجع

(١) إن طبع الأنسيكلوبيديا خارج فرنسا ، كان يعتبر فى حد ذاته أمراً مستحيلاً . إذ كان من المستحيل نقل هذه الأجزاء الكبيرة والكثيرة بطريقة سرية داخل فرنسا .

القارىء على اكتشاف أغراضه الخفية .

لم تكن الهدنة بين رجال الدين و« ديدرو » غير هدنة ظاهرة . وكانت الحرب بينهما قائمة بصورة خفية . وكان « دالمير » يشير إلى « الحرب الصماء » بينهما . ينادى بأن تعرض الآراء والمعتقدات القومية^(١) بكل الاحترام الواجب لها ، مع توضيح الأدلة التي تقوم عليها ، ومع الإشارة إلى المبادئ القوية ، والحقائق الراسخة ، التي يمكن أن تقوم عليها . كانت هذه المبادئ القوية ، وهذه الحقائق الراسخة هي المبادئ العقلية ، التي يجب أن تناقش على أساسها المسائل الدينية . وكان النقد العنقلى للعقائد الدينية ، يأتي عند مناقشة آراء بعض المنكرين المحجوبين من العصر الوسيط من أمثال « برامين » و« جونون » . . . (٢)

لقد أراد الموسويون أن يفصلوا تماماً بين الدين والأخلاق . وأن يبينوا أن الفضيلة لا ترتبط بالضرورة ، بالإيمان الدينى . فالأخلاق يمكن أن تستقيم بعيداً عن الدين والدين يمكن أن يعطى الحرية لتفساد الأخلاق . وهؤلاء المفكرون يطالبون بالأخلاق التي تحقق السعادة للإنسانية كلها . لا لنرد من الناس دين الآخر . إنهم يرفضون الأخلاق التي تدعو إلى الإثارة دون الإيثار . ويجعلون من الفيلسوف الإنسان الشريف الذى يبحث عن المصلحة العامة للجنس البشرى .

كانت الآراء السياسية لا تعلن صراحة عن فضل النظام الجمهورى . على النظم السياسية الأخرى . وكانوا يكتبون : إن المساواة المطلقة هي فكرة خيالية ، لا يمكن تصورها إلا في الجمهورية المثالية ، وإن سلطة الملك يجب أن تحدّها قوانين الطبيعة ، والدولة والحاكم يتلقى سلطته من الشعب ، وليس من حقه أن يسحق الشعب بأقدامه . وكانوا يطالبون باستخدام العقل في وضع القوانين ، وتحقيق العدالة في المجتمع : « سعيد هذا البلد ، الذى يكون فيه الملك فيلسوفاً ، والذى يصير فيه الفيلسوف ملكاً ! ولا يعترض ديدرو على الامتيازات التي يتمتع بها الأغنياء ورجال الدين . ولكنه يقول « إنه من الأفضل مكافأة النبلاء بالألقاب والنياشين بدلاً من الامتيازات وفي المبحث الخاص عن « الضرائب » ، لم يعترض على جبي الضرائب من أفراد الشعب ، وإعفاء البعض منها ، بقدر ما اعترض على سوء توزيعها ، وعدم تحديدّها بصورة عادلة . ديدرو : وإذا كان ديدرو هو مدير هيئة تحرير الانسيسكلو بيدي ، فهو أيضاً صاحب مؤلفات خاصة ، ومنها « رب الأسرة » و « الابن الطبيعى » ، و « أفكار في تفسير الطبيعة » ولكنه بدون العمل الموسوعي العظيم ، يظل من بين كتاب الدرجة الثانية أو الثالثة .

كان فيلسوفاً ، مثل فلاسفة القرن الثامن عشر ، الذين يؤمنون بالتأليه . ويتقبلون المادية .

(١) كانت هناك فصول في الموسوعة عن . الإنجيل « والعهد القديم » « المعجزات » « الأسرار »

و« الصوم » . . . الخ .

(٢) Bramines; Junon.

واستطاع بثقافته الواسعة أن يستشف النظريات النفسية ، التي تؤكد التوازي بين الظواهر الفيزيائية والكياوية ، والحيوية ، من جانب ، والظواهر النفسية والروحية من جانب آخر . ويذهب البعض إلى أنه أول من تنبأ بالتطور الطبيعي للكائنات الحية .

ويجب أن نشير إلى قوة أسلوب هذا الفيلسوف وما كان له من أثر فعال على الرأي العام . إن عشرات الحجج العقلية والمنطقية التي كان يعول بها فرايزر أو مونتسكيو ، كانت أقل تأثيراً من عبارات « ديدرو » . ولكن أفضل مؤلفاته ظلت مجهولة ، ولم تنشر إلا بعد وفاته ، وبعد قيام الثورة الفرنسية . وكانت « الأفكار الفلسفية » هي أوسع كتاباته انتشاراً ، فطبعت ست طبعات ، في الوقت الذي ظهرت فيه « الرسالة » عن العميان « في طبعتين ، و« الأفكار في تفسير الطبيعة » في ثلاث طبعات . ويمكن تلخيص الأفكار الفلسفية الأساسية على النحو الآتي :

١ - محاربة التعصب ، وتصديق الخرافات : « ضللت طريق في الغابة الواسعة ، وأقبل الليل ينشر ظلامه . وكانت معي شمعة صغيرة ، أهدى بنورها في هذا الظلام فأقبل على غرب لم يسمي لي معرفته ، وقال لي : يا صديقي ، أطفئ شمعتك لتجد طريقك . . . وكان الغريب لاهوتياً . . . هذا هو رأي « ديدرو » في رجال اللاهوت . إنهم يطالبون بإطفاء نور العقل بأفواههم .

٢ - الدعوى إلى تصديق العقل ، لأن صوت العقل هو صوت السماء :

« إن العقل قد أتى إلى من السماء . صوت السماء ليحدثني من خلال العقل . لذلك يجب علي أن أستمع إليه » . . .

وقد تساءل : إلى أي مدى كان يؤمن ديدرو بالسماء ؟ إنه على الأقل كان لا يؤمن بكل ما جاء في الكتب السماوية . وربما لم يستطع أن يعلن صراحة أنه ينكر السماء . وقد نجد في كتابات هذا المتكبر ، دعوة صادقة إلى الفضيلة والأخلاق :

« إنني أرى الحقيقة والفضيلة ، كتمثالين كبيرين ، يرتفعان فوق الأرض ساكنين في وسط الحراب والدمار . . . » . ويذكر ديدرو ، « أنه أحياناً تكسو السحب هذين التمثالين ، وعندئذ ، يتحرك الناس في الظلام . وتلك هي عصور الجهل والجريمة ، والتعصب والحروب » . حاول ديدرو أن يجعل السحب تنقش من حول الحقيقة والفضيلة ، وأراد أن تشرق على عصره ، شمس الخير والفضيلة . هذه الفضيلة في نظره ، كامنة في النفس الإنسانية . ولقد أخطأ رجال الدين حين ظنوا أن الخطيئة الأولى قد أفسدت طبيعة الإنسان . إن الفطرة الإنسانية ، هي فطرة سليمة ، وعلى الأقل ، فهي ليست فاسدة . وكان ديدرو يريد أن يقيم ديانة جديدة على الفضيلة ، أساسها محبة الناس والعطف عليهم .

الشمب والتاريخ

٥ - جان جاك روسو

كانت أفكار روسو الفلسفية ، تختلف وتعارض مع أفكار فولتير ودالمبير وديدرو . فإذا كان هؤلاء يبشرون بالتقدم الإنساني في المجال الاجتماعي والعلمي ، فإن روسو كان يبشر بعودة الإنسان إلى حالة الطبيعة والقطرة الأولى . فالتقدم المادي والعلمي الذي أحرزته الإنسانية في خلال تاريخها الطويل ، لم يحقق للإنسان سعادته ، بل أحال حياته عذاباً وشقاءً . عاش الإنسان سعيداً عندما كان يجتمع في جماعات صغيرة مستقلة ، تسودها روح الأسرة . وكانت حياته البسيطة ، بلا جشع أو خوف أو كراهية .

ولكن إذا كان هناك اختلاف في بعض المبادئ بين روسو والأنسيكلوبيديين ، فإن النتائج كانت متشابهة في أغلب الأحيان . فنظرية روسو عن سعادة الإنسان في الحالة الطبيعية الأولى ، كانت في نظره ، مجرد نظرية لا تستوجب عملياً إلغاء الحضارة الإنسانية ، والعودة إلى البدائية والبربرية . إنما جميعهم يدعون إلى توجيه الحضارة الإنسانية ، نحو غاية عليا ، يمكن أن تحقق للإنسان سعادته .

كان الموسوعيون يدعون إلى العقلانية ؛ وكان روسو يرفض العقلانية المتطرفة والمتشككة ، ويدعو إلى السعادة الحقيقية في التعاطف والتحاب بين الناس . إن السعادة هي في الزهد في مباحج ورفاهة الحياة العصرية ، التي فيها من المفاسد أكثر من المحاسن . السعادة هي في أن يتعاون الناس في السراء والضراء ، وأن يتخلى الفرد عن أنانيته في سبيل سعادة المجتمع والإنسانية . تلك هي السعادة الحقيقية التي يجب أن تدعو إليها الأخلاق الإنسانية .

ظن الفلاسفة الموسوعيون أن السعادة الإنسانية لا تتحقق إلا في المجتمع الذي يحكمه الفلاسفة ، فينشئون الناس تنشئة حسنة على الأخلاق والعادات السليمة . ومنهج الفلاسفة ، هو منهج الإقناع العقلي ، الذي يقيم الأخلاق على أساس المبادئ العقلية . ولكن ، حتى يصل الفلاسفة إلى مقاعد الحكم ، وحتى يقتنع الناس بمبادئ الفلاسفة ، واستدلالاتهم العقلية ، سوف تعاني الإنسانية كثيراً من مفاسد الأخلاق وتدهورها . لذلك يبادر «روسو» بالحل السريع ، وهو التأثير على الضمير والمشاعر الإنسانية .

أحب «روسو» الفضيلة بشغف وبساطة شديدتين ، وعبر عنها بقوة وصراحة كبيرة . ووجه نداءاته إلى القلب والعواطف الإنسانية ، فلك على الناس مشاعرهم . وتحمس قراؤه لدعوته الجديدة إلى العاطفة الأخلاقية ، وكان أثرها عميقاً في نفوس الفرنسيين وغيرهم . ويبدو أن الناس كانوا قد بدأوا ينفضون من حول صنم العقل المجرد ، ويرفضون مزاعم العقل المتكبر والمتعجرف . وكانت فرنسا تعيش في الأيام السابقة على الثورة ، وهي «تؤمن - بنفس

إيمان « روستو » - بأن الإنسان خير بطبيعته ، وأن فيه من العواطف النبيلة ما يجعله قادراً على التغلب على قوى الشر والأناية .

كل شيء كان ينبغي به بحركة إصلاح اجتماعية وسياسية ، تقضى على الفساد والبؤس . لذلك كان روستو يدعو إلى الإخاء والمساواة بين الناس . وكتب « العقد الاجتماعي »^(١) والمقال في « اللامساواة بين البشر »^(٢) على أساس أن الإرادة الجماعية يمكن أن تصبح إرادة أخلاقية . والإرادة الأخلاقية هي جوهر الإنسان ، والمواطن الصالح هو الذى يحقق الخير المشترك العام .

ويميز « روستو » بين نوعين من الإرادة : الإرادة العامة ، وإرادة الجميع . أما الإرادة العامة ، فهي الإرادة التى تتمثل في المجتمع والدولة ، أى الإرادة الأخلاقية للمجموع . وإرادة الجميع تمثل إرادة الفرد الأناية التى فقدت حقيقتها الأخلاقية بحق الملكية الخاصة . ولما كانت الإرادة العامة ، قد قامت على أساس الاتفاق الحر بين الأفراد ، فإن « سلطة الدولة » تتمثل في « إرادة الشعب » . ويذهب بعض النقاد إلى أن روستو قد اقتبس هذه الفكرة من بعض المفكرين الآخرين من أمثال « بودان » و« الثوزن » وهو بيز^(٣) . فكان هوبز مثلاً يعتقد أن الحاكم يستمد سلطته من الشعب ، وأكد « روستو » أن الحاكم سواء كان أميراً أو حكومة ، يحكم بتفويض من الشعب . ويتخذ المفكر الاجتماعي الفرنسى ، نظام الانتخاب في إنجلترا الذى لا يعطى الحرية للمواطنين ، إلا في فترة وجيزة ، هي فترة الانتخابات . وكان يرى أنه من الأفضل أن يكون للشعب على الدوام حق التعبير الحر عن آرائه ، في كافة الموضوعات السياسية الهامة بإرادة الشعب هي السلطة الحقيقية ، التى من حتمها أن تقرر كل ما يتعلق بمصير الدولة ، وحياتها السياسية .

وكان « الثوزن » المفكر الألماني (١٥٥٧ - ١٦٣٨) ، من المفكرين الذين سبقوا روستو في الدعوة إلى « العقد » الاجتماعي بين جميع المواطنين من أجل تحقيق وحدة الدولة القانونية . وقال إنه يجب أن يكون هناك إجماعاً عاماً Consensus على هذا العقد الجماعي ، الذى يعطى للبعض حق السلطة ، وللآخر واجب الخضوع لهذه السلطة ، وحق مراجعة أحكامها . فكان الإمبراطور الرومانى مسئولاً في نهاية الأمر أمام الشعب ، وبعبارة أخرى الجمعية الحرة للشعب الرومانى ، وكانت السيادة الحقيقية هي سيادة الشعب .

ولكن إذا كان الغرض من سيادة الشعب ، هو الحد من سلطة الحاكم ، فإن المفكر

(١) Contrat social ويعتبر جزءاً من كتاب آخر كان ينوى كتابته عن المؤسسات السياسية .

(٢) Discours sur l'inégalité des hommes.

(٣) Bodin, Althusen, Hobbes.

الألماني كان على وعي صادق ، بأن الشعب نفسه يمكن أن يصير طاغياً في وقت من الأوقات .
لذلك أراد روسو أن تكون إرادة الشعب ، إرادة أخلاقية ، تعصمها الفضيلة من الاستبداد
والطغيان .

ولعلّ المسألة الرئيسية ، هي في الواقع مسألة عملية لا نظرية ، فكيف تصبح إرادة الشعب
عملياً ، إرادة أخلاقية ؟ لقد أثبتت دراسة التاريخ ، أن إرادة الأغلبية ، لم تكن في كل وقت تبغى
الصالح العام ، أو الخير المشترك . لذلك أراد « روسو » أن يعمل كل فرد بباعث من ضميره
الأخلاقي ، وأن يتجرد من أنانيته ومصالحته الشخصية ، وعندئذ تصبح مصلحة الفرد ، هي
مصلحة الجماعة . وكان الأخلاق التي ينادى بها المفكر الفرنسي ، هي نفس الأخلاق التي
ينادى بها كُنتُ ، الفيلسوف الألماني ، وهو يقول : افعل ، بحيث يصبح عملك
قاعدة قاعدة أخلاقية كلية . وهذا الأمر الأخلاقي المطلق ، لا يفرضه على الإنسان
غير ضميره الذاتي ، وإرادته الطيبة . لكن ، هل حقاً يعمل كل إنسان على أداء واجبه ،
وإرضاء ضميره ؟ لا شك أن الحياة العملية قد أثبتت لرجال الفكر ، أن الإنسان كثيراً ما يعمل
بدافع من أهوائه الشخصية . ولقد تعقدت ظروف الحياة ، الحضارية والسياسية والاجتماعية ،
بحيث أصبحت هناك وسائل إعلامية كثيرة ، تؤثر على تشكيل الرأي العام ، وتكون قادرة
على إفساد كل قرار أخلاقي للفرد ، أو لأغلبية الأفراد ، أو للأقلية الممثلة لها .

هذه المؤثرات الإعلامية في الحضارة الحديثة ، قد أهدت الإنسان عن صوت الضمير
والواجب ، عن صوت الحق والخير . وكانت دعوة « روسو » بعودة الإنسان إلى الحالة الطبيعية
الأولى ، هي في الحقيقة دعوة أخلاقية ، قبل أن تكون دعوة حضارية بالعودة إلى عصور ما قبل
التاريخ .

٦ - كتاب معمورون

لم تكن الثورة الفكرية في فرنسا من صنع كبار الفلاسفة وحدهم ، بل كانت أيضاً من
صنع عدد كبير من الكتاب المعمورين الذين لا نذكرهم اليوم إلا قليلاً . هؤلاء ساعدوا على
نشر هذه الأفكار في الأوساط والبيئات المختلفة ، وبعدها وسائل ، بالكيب والمذكرات ،
بالجرائد والمجلات . نذكر مثلاً « ماتيو ماريه » و « برييه » المحامي والماركيز « دارجنسون »
وهؤلاء لم يناصروا فولتير ، أو مونتسكيو ، بل ناصروا في الحقيقة « بييل » .
كذلك نذكر « هو لباخ » ، صاحب كتاب « سفور المسيحية » و « نظام الطبيعة » .

وكان مهاجماً عنيفاً للدين ، يعتمد في هجومه على حجج الماديين من الفرنسيين والإنجليز . وكانت التوراة في نظره نسيجاً من الخرافات والأكاذيب المنقولة عن الكلدانيين والمصريين القدماء والفينيقيين والإغريق والرومان . كذلك كان يدعو في مجال السياسة إلى سيادة الشعب : « إن المجتمع هو صاحب السيادة . والحاكم يجب أن يستمع إلى صوت الأمة » . وهو يقول أيضاً : « إن الحاكم يستمد سلطته من ممثلي الشعب ، وهؤلاء يستمدون سلطتهم من إرادة الشعب » . وكان يعترف بأنه لا يوجد حتى اليوم نظام كامل للحكم ، وأن نفس النظام لا يصلح لكل الشعوب . فالديموقراطية مثلاً لا ينبغي أن توجد إلا في البلدان الصغيرة . وكلمة الشعب يجب أن تختلف عن كلمة الجمهور . وفي فرنسا كما يقول نجد جمهوراً ، ولا نجد شعباً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . ويبدو أن هولباخ كان من أنصار النظام الدستوري والحكم الملكي .

وهناك بعض رجال الدين الذين ناصروا الفكر الثوري الجديد . نذكر من بينهم الأب « دو ديو » ، والأب « فرتو » ، ودعوتهم الصريحة إلى دين العقل لا النقل . وفي مجال السياسة كان الأب « بونافوس » والأب « سوري » يهاجمون بشدة الحكم الاستبدادي .

٧ - هجوم على الفلاسفة

لم تكن مقاومة الفلاسفة وآرائهم المتحررة من جانب السلطة الدينية والسياسية وحدها ، ولكنها كانت أيضاً من جانب المفكرين الذين كانوا يدافعون عن التقاليد الدينية والكيان السياسي لفرنسا . ونستطيع أن نقول ، إن هذه المقاومة كانت أشد وأعنف بكثير من مقاومة السلطة ، التي كانت تتمثل في الرقابة الرسمية على الكتب والمجلات ، وفي سجون « البستيل » و« فنسين »^(١) . وانضمت أعداد غفيرة من الشعب الفرنسي في المقاطعات والمدن الأخرى ، إلى حركة المقاومة الفكرية ، التي كانت تدافع عن تقاليدها العريقة ومعتقداتها الراسخة .

كانت الفلسفة عميقة الأثر في الأوساط الثقافية في باريس ، في الجمعيات والمنتديات والصالونات . فقد كانت تعبر عن صحوة العقل ونهضته ، وعن وقفة المثقفين في مواجهة الظلم والاستبداد . ولكن هذه الأفكار الفلسفية ، لم تكن تنتشر في البلاد ، كما تنتشر مياه النهر في الوادي الأمين . ولقد وجدت أمامها مقاومة عنيدة من كل جانب ، من جانب المفكرين ومن جانب الشعب . وليس أدل على ذلك ، من عودة الملكية والكاثوليكية إلى فرنسا بعد الثورة .

بلغ عدد الكتب التي ظهرت في مقاومة الفلسفة الجديدة ، أو في فلسفة المقاومة ،

أكثر من تسعمائة كتاب ، كما جاء ذكرهم في بعض الدراسات^(١) . وكان من بينها مئات من الكتب الغرض منها هو تنفيذ المؤلفات الفلسفية الجديدة ، وبخاصة مؤلفات كبار الفلاسفة من أمثال ديدرو وفولتير وروسو .

وجدير بالذكر أن هؤلاء المدافعين عن الكنيسة لم يكونوا فقط من أصحاب القوى ، أو الإرادة الطيبة ، ولكنهم كانوا كتاباً وفلاسفة بالمعنى السليم لهذه الكلمة . نذكر مثلاً « فريرون » Fréron صاحب « حولية الآداب » ، والذي كان يخشاه الفلاسفة لحدته ذكائه وبراعة قلمه . كذلك « باليسو » Palissot الذي كتب الكوميديا المشهورة عن « الفلاسفة » سنة ١٧٦٠ ، « ونيكر » Necker الذي نشر سنة ١٧٨٨ كتاباً « في أهمية الآراء الدينية » ، و « هينو » Hénault الذي قال عن فولتير « إن كتاباته الملحدة قد قضت على كل معاني الواجب في المجتمع » . أما « كولاردو » Colardeau فكان يردد : أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نحترم المعتقدات النافعة للمجتمع ، حتى وإن كانت من العرف الإنساني . وغيرهم وغيرهم من أمثال « مورو » Moreau ، والأب « فيلر » Feller والأب « جيرار » Gérard و « بارويل » Barruel .

وظهر القاموس المعارض للقاموس الفلسفي في سبع طبعات^(٢) ، وظهرت « الرسائل الربوية الفلسفية » في خمس طبعات^(٣) . وكانت هذه المؤلفات لا تقل شهرتها عن مؤلفات الفلاسفة الثوريين في ذلك الوقت .

وكانت المعركة بين أصحاب الإيمان وأصحاب الفكر الحرّ ، معركة بين اللاهوت والعقلانية ، تتعارض فيها الحجج والتفسيرات والتأويلات .

ومن الواضح أن الشعب كان لا يفهم كثيراً في مثل هذه المسائل الدقيقة والمتخصصة . لذلك حاول الكتاب والفلاسفة من الطرفين ، أن يتسطوا في حججهم ، وأن يستميلوا مشاعر الشعب وعواطفه . ولم يكن الصراع بين الفريقين ، هو في كيفية تطبيق قواعد القياس ، وفي كيفية تعريف الحقائق اللاهوتية والفلسفية ، بقدر ما كان في كيفية التأثير على الرأي العام بالكلمة والفعل .

كان الفلاسفة الثوريون في نظر غيرهم « جنائز وشريرين » « يلفظون السم من ألسنتهم » ؛ وآراؤهم كانت « جرائم » نقلت من العقاب . وكان الهجوم على الماديين والمحلدين من الفلاسفة ،

A. Monod: Les défenseurs français du christianisme. de 1950 à 1852. Paris, (١)
Alcan. 1916.

L'abbé Mayeul Chaudon : Dictionnaire anti philosophique (1767). (٢)

Barruel (abbé) : Lettres provinciales philosophiques (1781). (٣)

أكثر عنفاً من الهجوم على أصحاب التأليه والدين الطبيعي مثل روسو ، وكان من الممكن التوفيق بين هذه الدعوة والمسيحية . وكانت الكتب الجديدة تتحدث عن « ضلالات العقل » و « مباحج الدين » و « العاطفة المسيحية » . . . إلخ وكانت هذه الكتابات ذات روح ساخرة طريفة منها مثلاً ما جاء في الرسائل الريفية عن « مولد الحمار » : كان ذلك في عصور بلا سنين أو شهور ، وكانت مياه المحيط ما زالت عذبة ؛ وكانت نصف القواقع التي يعيش فيها الحمار تعيش في النهار الدائم ، جهة الشمس . وكان النصف الآخر يعيش في القاع ، في ظلام الليل الدامس . . . ومنها أيضاً الحوار بين القس والفيلسوف . كان القس يبدي خوفه من الجحيم ، عندما تقابل عند البارونة العجوز مع الفيلسوف الذي قال له : ليس هناك جحيم ، فإذا كان الله هو خالقنا ، فلن يتركنا في عذاب أبدي . أما إذا كنا من خلق الطبيعة مثل النبات ، فسوف نندعم ونفضى ، كما يتحلل النبات . فإذا يخيفك إذا ؟ ولكن الحوار ينتهى بدفاع رجل الدين عن العقيدة بقوة وحرارة ، ويقول إننا لسنا في حاجة نحن العقلاء إلى مثل هذه الفلسفة . ولقد كتب « دييوا » « المغامرات الفلسفية »^(١) ليتهاكم فيها على المذاهب الفلسفية التي وضعها دييرو ، ومونتسكيو ، وروسو .

كانت الآراء السياسية المحافظة ، تدعو إلى بقاء الملكية^(٢) ، ولا تمتلح الديمقراطية التي تؤدي في نظرهم إلى الفوضى السياسية . وكانوا يرفضون الحرية السياسية أو الدستورية . وكان بعضهم يصرح بأن نظام الحكم في فرنسا ، هو من حيث قوانينه الأساسية ، أكمل النظم السياسية كلها . ومن الممكن أن نذكر قوائم طويلة من المؤلفات التي كان همها الدفاع بإصرار عن الماضي القديم . وكانت أحياناً ، تظهر هنا أو هناك ، فكرة إصلاح إدارية ، ولكنها لم تكن بذات أثر على الأوضاع السياسية القائمة والحق أن بعض الإنجليز كانوا لا يتصورون أى تغيير في الأوضاع السياسية في فرنسا ، في الأيام القليلة السابقة على الثورة . كانت فرنسا في نظرهم ، تعيش في حالة من « اللامبالاة » بالنسبة لحالتها السياسية والاقتصادية . فكانت الطبقة البورجوازية راضية تماماً عن هذه الأحوال ، وكان الشعب يتحمل بصبر هذا النظام السيئ باعتباره أفضل من غيره . . . هذا عرض موجز الأصول الفكرية للثورة الفرنسية . ولقد انتشرت هذه الآراء خارج البلاد ، وامتدت شهرتها واتسعت ، حتى شملت أوروبا كلها ثم انتقلت إلى أمريكا بعد ذلك . وكان هيجل على صلة وثيقة بالفكر الفرنسي ، وتعرف على آراء كبار الكتاب والمفكرين ، ولكنه كان أكثر تأثراً بكتابات « فولني » Volney و « رابودي سان إتين » ، Rabaut de Saint Etienne و « لوى سبستيان مرسيه » .
Louis-Sébastien Mercier

Dubois-Fontonelle : Aventures philosophiques.

(١)

Lefevre de Beauvray : Dictionnaire social et patriotique

(٢)

الفصل الثالث

هيجل والفكر الفرنسي

من الحقائق التاريخية المعروفة ، أن الملك فريدريك الثاني ، كان قد دعا إلى ألمانيا بعض علماء الانسيكولو ييدية الفرنسيين ، لتوثيق العلاقات الفكرية والعلمية بينهم وبين علماء (١) ألمانيا . ولقد أقام في ألمانيا بعض الوقت دالمير ، وديدرو ، وفولتر ، وانتشرت أفكارهم في الأوساط العلمية والثقافية هناك . وبجانب آراء كبار الفلاسفة الفرنسيين ، تعرّف هيجل على آراء عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين الآخرين .

١ - هيجل وفولني

كان « فولني » Volney مؤرخاً وفيلسوفاً فرنسياً ، اشتغل بالسياسة أثناء الثورة فكان عضواً في « الجمعية الأهلية » ، واشتهر برحلاته العديدة إلى إيطاليا واليونان حيث اهتم بدراسة الآثار القديمة وتاريخها . ونشر كتاب « الأطلال » Les Ruines سنة ١٧٩١ (٢) ، الذي لقي تقديراً كبيراً في داخل فرنسا وخارجها . وهو يحاول في هذا الكتاب أن يعيد الصلة بين الماضي والحاضر ، وأن يعطينا عبرة وعظة من الماضي . فكم كان عظيمًا وجميلًا هذا الماضي الذي ذهب عنا واتقضى ، فلم يبق منه غير الآثار والأطلال التي تثير الأحزان والأشجان في النفس .

تكلم « فولني » عن آثار قرطاجنة وروما وبالميرا . . إلخ بعبارات رومانسية مؤثرة ، كان لها أعمق الأثر في نفس هيجل الذي لم يغادر في حياته حدود ألمانيا وأوروبا الوسطى . ولقد أشار هيجل إلى هذا الكتاب في الصفحات الأخيرة من « فلسفة الدين » ، وإن كنا نتمنى الإشارة إليه في « الدروس في فلسفة التاريخ » . ودون « فولني » رحلته إلى الشرق ، في كتاب آخر

(١) ونحنهم الحرية الكاملة في التعبير عن آرائهم .

(٢) هذا الكتاب التاريخي ، قدمه فولني إلى أعضاء « الجمعية الأهلية » في جلسة خاصة

أقظر : d'Hondt : Hegel Secret. p. 84.

بعنوان : « رحلة إلى مصر وسوريا »^(١) ، وهو يعتمد فيه على المقارنة بين ماضي الشرق وحاضره . فكل الآثار التي نشاهدها في « مصر » و « سوريا » إنما تدل على عظمة الحضارة الشرقية القديمة . أما حاضر الشرق ، فإنه قد فقد كل صلة بماضيه العريق .

كانت مؤلفات « فولبي » عن التاريخ القديم وصلته بالحاضر ، من المؤلفات التي كان يعتمد عليها المؤرخون في ذلك الوقت ، لأنه قدم فيها وصفاً صادقاً لرحلاته ومشاهداته وانهجته . وكانت الفكرة الأساسية التي تملأ نفسه وقلبه بالأسى ، هي أن كل شيء يموت ويفنى . وإذا كان من الماضي لا يتبقى غير هذه الأطلال ، فإذا سئبتى من حاضرننا ؟ كم من حضارة انقرضت وكم من دول وأمم فئيت ، فهل يكون هذا هو مصير كل حضارة ، وكل دولة وأمة ؟ كان « فولبي » يبحث عن حقيقة الحضارات القديمة ، وأصالة والشعوب القديمة ، فلم يجد غير آثار ضعيفة ، كأثار الأقدام على الرمال : « ها هو السكون يحيط بالقبور ، وها هي القصور تصبح مأوى للروحش ، وها هي المعابد خاوية . وهذا كل ما يتبقى من المجد القديم ! تغيث هذا الإنسان ، الذي تتلاعب بحياته الأقدار . . . كلا ، إنها ليست الأقدار ، ولكنها العدالة الإلهية التي نعجز عن فهم أسرارها وأحكامها . . . »^(٢) وهكذا كان يقف « فولبي » خاشعاً أمام الأطلال ، يتأمل في مصير الدول والإمبراطوريات .

لكن هيجل لا يعزو وجود هذه الأطلال إلى الإرادة الإلهية ، بل إلى الإرادة الإنسانية ، ولقد كان زوال هذه الحضارات بسبب الأهواء والأحقاد الإنسانية . فالحضارة الشرقية مثلاً قد غزتها الحضارة الغربية بدافع من الخبث والحشع ؛ والأوروبيون قد عملوا على تدهور الحضارة الشرقية بالحرب والاستعمار . لذلك ، فإن الإنسان هو وحده المسئول عن مصير حضارته ودولته .

وعلى هذا الأساس يضع هيجل أصول فلسفته العقلية التي تفسر تاريخ الحضارة الإنسانية . إذ لا يحق للإنسان أن يقف اليوم ناعياً وباكياً أمام الأطلال ، إنما من الواجب عليه أن يبحث عن الأسباب التي أدت به إلى هذا المصير .

إن نظرة واحدة إلى الآثار تبين لنا أنها ليست كلها من مرتبة واحدة وصلابة واحدة ، ففنها الآثار الخالدة الباقية ، التي تجاوزت الموت إلى الحياة ، وظلت حية في حضارة أخرى ، مثل آثار الحضارة اليونانية والرومانية . ومنها الآثار التي زالت حضارتها تماماً من الوجود . ولكن هذه الآثار وتلك ، إنما تفسر لنا مراحل التقدم الإنساني . فالحضارات التي زالت تمثل الجانب السلبي

(١) ترجم « إبرهارد » الجزء الثالث من هذا الكتاب إلى اللغة الألمانية ، وظهرت ترجمة ألمانية

للأطلال في سنة ١٧٩٢

انظر : « هونت » . المرجع السابق ص ١١١ .

d'Hondt (Jacques) : Hegel secret-p. 88.

(٢)

لهذا التقدم ، بينما الحضارات الحية الخالدة تمثل جانبه الإيجابي .

وليس بالبعيد أن يكون « فولتى » هو الذى أوحى إلى هيجل بالبحث فى التاريخ وآثاره . ولكن هيجل وجه بحثه بأسلوبه الخاص الذى يجعل « العقل هو الذى يحكم التاريخ » . فالعقل هو الذى يحدد نظام التاريخ ، ويفرض العلاقة بين المبادئ والنتائج والعلل والمعلولات . إن الأحداث التاريخية ، ليست سلسلة من الأحداث بلا رابطة بينها ، ولكنها تخضع لنظام عقل معين ، لا يتغير بحسب الأهواء والرغبات .

٢ - رابو دى سان إيتين

ينهب « د هونت » Jacques D'Hondt - وهو من أشهر المؤرخين المعاصرين لفلسفة هيجل فى فرنسا ، إلى أن هناك تشابهاً واضحاً بين بعض أفكار هيجل ، وأفكار الكاتب والفيلسوف الفرنسى رابو دى سان إيتين ، وهو يعتقد بأن هيجل قد أخذ بعض أفكاره من المنكر الفرنسى ، حتى وإن كان لم يشر إليها صراحة . وهو يؤكد من جهة أخرى ، بأن هيجل كان يطلع على آراء كتاب الثورة الفرنسين فى مجلة ثقافية ألمانية تسمى « مينرفا » Minerva ، دأبت على ترجمة وعرض أجزاء من مؤلفاتهم . ولقد نشرت هذه المجلة نصوصاً من كتاب « رابو » : ملاحظات عن حالة فرنسا تحت حكم الملكين لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر .

بذل المؤرخ الفرنسى جهوداً كبيرة من أجل التقريب بين نصوص هيجل فى فلسفة التاريخ ، ونصوص « رابو » التى نشرتها المجلة الألمانية . وبين أن « رابو » هو أول من بحث عن الأسباب الحقيقية للثورة الفرنسية ، وأنه قد أشار إلى سبب تدهور فرنسا فى عهد هذين الملكين ، وبالذات إلى فقدان الشعب الفرنسى لقدرته الخلاقة و تقليده للشعوب الأخرى . فالشعب الفرنسى كان قد وصل إلى حالة من « العلم السياسى » ، عندما ظن أنه حقق غاياته ؛ فتحجر فى عاداته وفقد روح التجديد والابتكار والاختراع . وهذا هو الموت الطبيعى للشعوب التى تفقد روح التقدم والحياة . وعندئذ نستطيع أن نقول إن الناس تنمو كما ينمو النبات ، ولكنهم لا يكوّنون « أمة » ذات روح وجود .

ويبدو أن هيجل قد أخذ عن « رابو » فكرة « العلم السياسى » الذى تصنف به الشعوب المتحضرة . فقد كان يقول : « إن النفوس الأبية التى أعلنت للثورة لا يمكن أن تنسى حالة العلم التى كان عليها الملك والحكومة والأمة » . (رابو) كان الملك ينيهب أموال الدولة ليحيا حياة البذخ واللهو ، كانت الحكومة لا تفكر إلا فى البقاء فى الحكم ، والوزراء يتآمرون على السلطة ، وكبار رجال الدولة يمرضون نفوذهم للنزول بالمناصب والمكاسب ، وكانوا جميعاً

لا يبحثون إلا عن مصلحتهم الشخصية ، ولا يعملون من أجل « مجد الدولة وقوتها » .

وإذا كان هيجل قد نقل عن المنكر الفرنسي فكرة « العلم السياسي » ، فإنه قد نقل عنه كل وصفه لحالة فرنسا قبل الثورة ، وربما بنسب العبارات^(١) حتى نقد « رابو » للكاثوليكية نقله هيجل عنه ، ولا غرابة في ذلك ، فلقد كان « رابو » قساً بروتستنتياً ، يرى كل عيوب الكاثوليكية في الأوضاع السياسية في فرنسا^(٢)

وإذا كان « رابو » هو صاحب فكرة « العلم السياسي » ، فإنه أيضاً صاحب فكرة « الوعي » السياسي ، هذا الوعي الذي يبدأ مع التفكير والتأمل والفحص للحالة السياسية للبلاد . فعندما يتبرم الشعب بالأوضاع السياسية ، يبدأ في التفكير فيها . ولقد كان الحكم الظالم في فرنسا قبل الثورة ، يحرم على الفرنسيين حرية الفكر ، مستعيناً في ذلك بسلطة الدين : « كانت الرعية مغلوبة على أمرها ، مع أن الطبيعة قد وهبت الشعب الفرنسي تلك الهبة العالية التي نسميها « الروح » ، كما منحتها في الأزمنة الأخيرة الأنوار » (رابو) . ولقد أدرك هيجل بعد ذلك ، أن اللحظة التي يعي الشعب فيها ذاته ، هي بدايه انحلال الحكم وتدهوره . ولقد حدث ذلك في اليونان عندما بدأ الشعب يفكر مع سقراط ، وحدث في فرنسا ، عندما بدأ الشعب يفكر مع الفلاسفة في الأيام السابقة على الثورة . ولكن « الوعي » السياسي هو « رسالة » كل شعب من الشعوب الحية .

وكما تنبأ « فولتى » بالثورة الفرنسية عندما قال : « إننا نعلن للمستقبل أن العصر العظيم قد بدأ . . . » ، كذلك تنبأ فلاسفة التنوير بالثورة ، وفي هذا يقول « رابو » : إن الثورة كانت نتيجة الأنوار . ولقد كان « رابو » يعتقد أن الثورة التي أعدها الفلاسفة كان الممكن أن تتحقق بدون العنف الذي اتسمت به ، ولقد أكد هيجل هذا الرأي في الدروس في فلسفة التاريخ . إن الفلاسفة الذين نادوا بضرورة التغيير ، لم يدعوا إلى استخدام العنف . فعندما انتشرت الأنوار تكوّن الرأي العام الذي كان يعبر عن الإرادة العامة . ولقد احتفظ الحكام بكبرياتهم وجشعهم ولم يتكروا في الإصلاح ، ولم يتخلوا أن السلطة المسلوبة يجب أن تنتهي . لذلك كان العنف الذي ساد إبان الثورة الفرنسية .

ولقد توصل هيجل إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها « رابو » وهي أن نظام الإقطاع يمكن أن ينتهي بدون الثورة وإذا كانت الثورة بدت ضرورية في فرنسا ، فذلك لأن النظام الملكي فيها ، كان يقوم على الاستبداد والسلطة المطلقة . أما في ألمانيا التي عرفت حركة الإصلاح الديني ،

(١) نفس المرجع ص ١١٨ .

(٢) وبخاصة التحالف بين رجال الدين الكاثوليكى والنبلاء .

فلم تكن في حاجة إلى الثورة . والحق أن الثورة قد أطاحت بحكم النبلاء والأغنياء ، لأنهم فقدوا المعاني الأخلاقية الأساسية التي قامت عليها هذه الطبقات . فكان « النبيل » يدل على « نبل » النفس « ونبل » الأصل . وعندما فقدت هذه الطبقات النبيل والشرف ، من أجل تحقيق المكاسب المادية ، فقدت بالتالي مكانتها الاجتماعية .

إن الثورة الفرنسية تمثل مرحلة هامة من تاريخ الحضارة الأوربية ، تم فيها القضاء على طبقة النبلاء ، وظهرت طبقة جديدة هي الطبقة البرجوازية . واعتقد هيجل أن مثل هذه الثورة لا تحدث غير مرة واحدة في تاريخ الشعب الفرنسى .

٣ - لوى سبستيان مرسيه

هل حقاً يمكن أن يكون هيجل قد قرأ كتابات وقصص « مرسيه » ، ذلك الكاتب الفرنسى المغمور الذى لا تذكره إلا قلة من المراجع الفرنسية ؟ كان « مرسيه » عضواً في مجلس الخمسة ، وعضواً بالمعهد الفرنسى Institut وقد نشر العديد من رواياته وقصصه قبل قيام الثورة في سنة ١٧٨٩ ، ثم كف عن الكتابة بعدها حتى وفاته في سنة ١٨١٤ . ومن أشهر رواياته « تابلوه أو صورة لباريس » Tableau de Paris (١٧٨١) ، و « سنة ٢٤٤٠ » An 2440 (١٧٧٠) ، وكان يوجه فيهما نقداً لاذعاً للتعصب الدينى والاستبداد السياسى . وكان يرى في النظام الملكى أسوأ مثل للنظام السياسى : هل تعلمون ما هي المبادئ التي يحكم بها الملك في الدول ؟ زيادة الضرائب من أجل الحصول على الأموال التي تصرف ببذخ في القصور . ولا كان الملك دائماً في حاجة إلى المال ، لذلك فلن يكون من حق الشعب الشكوى من الضرائب أما رجال البلاط أو النبلاء فهم أشرار ، قساء ، طغاة . . . ولن يبقى إذا أمام الشعب المستعبود المقهور إلا الثورة .

وعرف « مرسيه » بأنه كان من أشد المتحمسين للثورة ، ولكنه بعد اندلاع الثورة ، كان من أكثر الثوريين اعتدالاً ، وقد عاب على الثورة بعض مظاهر العنف فيها وكان من نتيجة تجربة الثورة أن تطورت آراؤه السياسية ، فحمل على الديمقراطية . وقال عنها : إن التجربة قد علمتنا أن النظم الشعبية تخضع للأهواء وفيها الكثير من الشرور ، والديموقراطية هي أسوأ النظم السياسية وبخاصة الديمقراطية الشيوعية . ذلك لأن الملكية الخاصة هي أساس كل نظام سياسى سليم . . . ولكنه كان يطالب بتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً بين الناس على أساس من الأخلاق السياسية ،

ويذكر مؤرخو فلسفة هيغل الفرنسيون ، أنه قد قرأ مسرحية « مرسية » : « مونتسكيو في « مرسليا » ، وأنه قد أشار إليها في « روح المسيحية » بصورة مبهمه ، عندما ذكر مونتسكيو . ويبدو أن مؤلفات « مرسية » كانت أكثر رواجاً في ألمانيا منها في فرنسا ، أو أنها كانت تترجم فور ظهورها^(١) . والحق أنه بالنسبة إلى عصر الثورة ، تعتبر هذه المؤلفات وثائق تاريخية وفكرية (أيديولوجية) عن هذا العصر .

تأثر هيغل بكل ما كتبه « مرسية » عن كرم النفس والأخلاق ، وعن حب الوطن والتضحية في سبيله ، وعن حب الإنسانية كلها . وكتب في « المخل إلى الدروس في فلسفة التاريخ » : إن الأفراد يسعون إلى الأهداف الكريمة ، وإلى الخير ، بحيث يتمثل هذا الخير في الحب النبيل للوطن . . .

هذا هو الرأي المعاصر في فلسفة هيغل ، الذي يبين إلى أي مدى قد تأثر بالثوار الفرنسيين من فلاسفة وكتاب . والآن ننتقل إلى بيان صلة هيغل بالتنوير والمنورين .

(١) هذه المؤلفات كانت تظهر أولاً في سويسرا التي عاش فيها المؤلف فترة من حياته قبل الثورة .

الفصل الرابع

هيجل والتنوير^(١)

إن حركة التنوير تعتبر في نظر هيجل « الثورة الفكرية » التي مهدت للثورة التاريخية في فرنسا . ولا شك أن إعجابه بالثورة قد قلّ وقرّر بعد أحداث العنف والرعب في سنة ١٧٩٣ . لذلك فإن رأى هيجل في الثورة يختلف في أيام « توبنجن » Tubingen الأولى، عن رأيه في سنة ١٨٠٧ الذي نشره في « ظاهريات الروح » Phénoménologie de l'Esprit

يقول هيجل في « ظاهريات الروح » ، إن الثورة الفرنسية تمثل انتصاراً « لروح العالم » P'esprit du monde على الأرض ، وقد أحدثت ثمة تغيير في العالم . « فنذ أن أشرقت الشمس في السماء ، ودارت الأفلاك والكواكب في الفضاء ، لم نر إنساناً يقف على رأسه ، ويبى الواقع على أساس الفكرة . وكان أنكسا غوراس هو أول من قال بأن العقل (نوس) يحكم العالم . ولكن اليوم ، واليوم فقط ، بدأ الإنسان يعترف بأن الفكر يجب أن يحكم الواقع الروحي Réalité Spirituelle^(٢)

لقد نبعت الثورة من الفكر ، وخرجت من فلسفة العالم التي نشأت في القرن الثامن عشر ، وأكدت سيادة الذات على الوجود . ولذلك كانت معرفة القوانين العلمية ، سبيلاً إلى تحرر الإنسان فكرياً ومادياً . وكما أكد الإنسان سيادته على العالم المادى بالعلم ، أكد بالتالي سيادته في « عالم الروح » بالعقل : بحيث تأسس القانون والأخلاق على العقلانية وحدها . ويقول هيجل : هكذا تحققت الثورة الأساسية في حياة الروح esprit . فالعقل الذي فرض قوانين الطبيعة : وحدد مضمون العدالة والخير هو الذي أطلق عليه مفكرو العصر اسم الأنوار . ولقد انتقلت الأنور من فرنسا إلى ألمانيا ، فظهر عالم جديد من الأفكار .

إن عقلانية التنوير هي السمة الأساسية لهذه الحركة الفلسفية التي انتشرت في المجتمع ، وبين جميع أفراد الشعب . وهي تكشف عن حقيقة تلك اللحظة التاريخية في حياة الذات ،

(١) عن حركة التنوير في القرن الثامن عشر : انظر : « النقد في عصر التنوير . فلسفة

كنت . تأليف د . نازلي إسماعيل حسين . النهضة العربية ١٩٧١ .

(٢) ظاهريات الروح : الترجمة الفرنسية لهيبوليت J. Hyppolite

التي تجاوزت غربة الروح^(١) وفقدان ذاتها . وهكذا يصبح « عالم الثقافة » Monde de la Culture في حالة وعي كامل بذاته .

ولكن « وعي » التنوير لا يبلغ في نظر هيجل درجة « العقل » الخاص للذات . إنه في الحقيقة « عصر النقد » الذي يتألق فيه الفكر البراق كما يلعب في مؤلفات مونتكيو وفولتير وديدرو .

إن المنورين قد تخلصوا من عالم الثقافة المزيف والصناعي ، ليحققوا عالمًا جديدًا للفكر التقدمي الواعي . إنهم قد ارتفعوا بتفكيرهم فوق مستوى الواقع الذي فقدوا إيمانهم به ، واستطاعوا أن يصدروا حكمًا عامًا وكليًا عليه . وهكذا لم تعد الأحكام في هذا العصر ، أحكامًا شخصية وفردية ، وخاصة ، بل أصبحت عامة وكونية .

وكان لابد وأن يواجه التنوير موقفًا تقليديًا من عالم الثقافة ، وهو موقف الإيمان والدين . إذ كان الإيمان دائمًا وفي كل عصر ، يعبر عن رغبة الروح في تجاوز الواقع والاتجاه نحو المطلق . وكانت الذات تجد في الإيمان خلاصًا من الغربة . ويشبه هيجل الصراع بين التنوير والإيمان ، بالصراع بين الأشقاء الأعداء ، لأنهما في الواقع يعبران عن حقيقة واحدة ، هي حقيقة الروح . لذلك فهو في الحق صراع بين الفكر والفكر ، بين الهوية والتناقض .

لقد أرادت حركة التنوير أن تسلب الفكر حرية التأمل في المطلق ، ولكن تأمل الفكر لذاته ، لا يترك له غير السلبية الخالصة . وكان خطأ الإيمان في نظر هؤلاء الفلاسفة هو الاعتقاد في وجود عالم آخر غريب على الوعي والضمير . أما العقلانية التي ينادون وبطلون بها ، فهي في نظراهم ، تحقق الحرية المطلقة للروح . وحركة الإصلاح الديني التي قام بها « لوثر » هي بداية طريق الحرية الروحية للإنسان . ولكن هذه الحرية كانت ما تزال في حركة الإصلاح الديني ، تفرض مضمونًا غريبًا أنزله الدين . وهذا هو ما يعيبه التنوير عليها . فإذا كانت الفلسفة الكنتية قد وضحت حدود المعرفة الإنسانية ، فإن العقل الإنساني يكون عاجزاً عن تعقل وفهم المقصود بالتنزيل والكشف . ونحن لا ننسى أن هيجل في مؤلفات الشباب ، وفي المرحلة الأولى من حياته الفكرية كان ينقد الدين الوضعي الذي يفرض على العقل مضمونًا غريبًا عنه . وكان هيجل في هذا النقد متأثرًا بالتنوير ، وبالذات بفلسفة فرنسا ، شأنه في ذلك شأن جميع الفلاسفة الألمان في ذلك الوقت ، وبخاصة « لسنج » الذي ذكر في كتابه « ناثان الحكيم » أن الدين المنزل ، هو مرحلة ضرورية في طهولة الإنسانية ، تؤدي حتماً إلى الديانة الأخلاقية التي تتناسب مع مرحلة النضج والعقل . وكان « روسو » هو أول من نادى بقيمة الدين الذاتي Religion Subjective ، الذي هو دين القلب ، في مقابل الدين الموضوعي أو اللاهوت المجرد . وإذا

كان الدين الذاتي هو دين خاص ، فإن الدين الموضوعي هو الدين العام أو دين الشعب ؛ لكن في المرحلة الثانية من حياته الفكرية ، بدأ هيغل ينقد التنوير ، وبدأ يؤكد الصلة بين الدين والروح ، باعتبار أن الدين هو لحظة من لحظات الروح التي تعبر عن وعي الروح بذاتها. لذلك فالتنوير كان مجرد نقد سلبي للدين ، لم يستطع أن يتعرف على المضمون الإيجابي للدين ليكتشف دلالاته ومعناه .

ويمكن اعتبار التنوير ، فلسفة شكافة ، تكشف عن الجدل الخفي في الوعي الذي يحاول إدراك ذاته وتعقلها . إن حقيقة الدين هي مظهر من مظاهر التجلي للروح المطلق ، الذي يكشف عن ذاته في عالم الثقافة . وإذا كان المنورون قد اعتقدوا بأن الدين أو الإيمان ، يعبر عن وعي خاطئ ، وعن عالم مظلم للثقافة ، فإنهم قد غالوا في تقديم . وربما كان الباعث إلى هذا النقد هو استفراق الإنسانية في مرحلة الطنولة ، والوعي الساذج لجموع الشعب .

إن الدين في نظر التنوير هو مرحلة لا عقلانية في حياة الروح . وبمحكم الجدل يجب أن تنتقل الإنسانية إلى مرحلة جديدة من العقلانية الخالصة (التنوير) ، يصبح فيها العلم وموضوع العلم (العقل) شيئاً واحداً . لكن لا بد من الانتقال إلى مرحلة ثالثة هي مرحلة الفعل والعمل . ذلك لأن الدين لا يقوم على التأمل وحده ، بل هو يقوم على العمل أصلاً . وفي هذه المرحلة يصبح الدين ضرورة ومثلاً أخلاقياً أعلى يحقق عدالة السماء على الأرض .

ويجب أن نميز بين موقف هيغل من التنوير ، وموقفه من حركة الكشف illumination التي أسسها في سنة ١٧٧٨ آدم فيسهوبت . ولقد قامت هذه الحركة ضد الآباء اليسوعيين ، وكانت حركة سرية بدأت في بافريا ، ثم انتشرت بعد ذلك في ألمانيا كلها . وكان أصحابها يستخدمون لغة رمزية خاصة في التعبير عن التعاليم الجديدة التي تدعو إلى حرية الفكر واحترام حقوق الإنسان . فتعاليم المسيح هي في نظرهم تعاليم عقلية ، ويجب أن لا تتجاوز حدود العقلانية . لذلك فهم يبنذون كل التفسيرات الأخرى التي أخذ بها رجال الدين حتى اليوم ، والتي تدعو إلى الإيمان بالمعجزات والغيبيات .

وكان من أشهر فلاسفة هذه الحركة Feder « فيدر » الذي قرأ له هيغل في مرحلة الشباب ، و«رينولد» Reinhold ، و«ياقوبي» Jacobi الذي صادقه هيغل في ميونخ ، و«هردر» Herder ، و«جوته» Goethe الذي عرفه هيغل في ينا ، ثم «كوزر» Korner صديق الشاعر «شيلر» ، والموسيقار موزارت مؤلف «النأي السحري» . . . ولا شك أن هؤلاء جميعاً كانوا من أنصار الثورة الفرنسية ، يروجون لآرائها ، ويدافعون عن مبادئها . كذلك يجب أن نذكر أن «ميرابو» خطيب الثورة الفرنسية الذي زار ألمانيا سنة ١٧٨٦ ، قد انضم إلى هذه الحركة ، وكذلك

« بونفيل » الكاتب الفرنسي ، الذى أسس جمعية « الدائرة الاجتماعية » .
 ويقدّر ما تأثر هيجل بالتنوير ، تأثر أيضاً بحركة أصحاب الكشف Illuminat .
 وظهرت كلمة أمانية جديدة تشير إلى أصحاب هذه الدعوة ، تجمع بين التنوير العقلى ، والكشف
 الصوفى والدينى وهى ، Der Erleuchtete التى استخدمها شيلر ومن بعده هيجل .
 ولكن فى الوقت ذاته ، كانت هذه الكلمة مدعاة لسخرية البعض : انظروا إليهم الخونة اللثام ..
 انظروا إليهم فى عيونهم .. وكانت الحكومة الألمانية تطارد هؤلاء ، وكذلك فعل نابليون ،
 لاعتقاد هذه الحكومات بأنهم من المتآمرين السياسيين .

البَابُ الثَّالِثُ

أَصَالَةُ الْحَضَارَةِ وَالتَّارِيخِ

لم يصنع التاريخ القادة والرؤساء والملوك وحدهم ، إنما صنعته الشعوب . وكل تاريخ للشعوب ، إنما هو تاريخ لحضارتها بكل ما فيها من مقومات سياسية واجتماعية ، وثقافية وعلمية . ونستطيع أن نقول إن الحضارة هي المكان الذي تنطلق منه حركة التاريخ . وكل حضارة لا تحيا بالتاريخ ، هي حضارة فانية أو متأخرة .

عاش هيجل في عصر الثورة ، الذي عبر فيه الإنسان عن أصالته وحرية . فالأصالة هي البداية الحقيقية للتفكير والعلم . والفلسفة هي التعبير الصادق عن أصالة الحضارة وأصالة التاريخ .

وهذا الباب ينقسم إلى ثلاثة فصول :

١ - الروح والتاريخ .

٢ - الحضارة ومقوماتها .

٣ - أصالة التاريخ .

الفصل الأول

الروح والتاريخ

إن كتاب « ظاهريات الروح » لهيغل ، هو المصدر الأساسي لفلسفته . وكل محاولة لفهم هذه الفلسفة بعيداً عن هذا المصدر ، تكون محاولة ناقصة وضعيفة ، لا تهدف إلا إلى نقل العبارات والأفكار التي تبدو في أكثر الأحيان غامضة وغير مفهومة . و « ظاهريات الروح » ، يحمل المعنى العميق لهذه الفلسفة من حيث بنائها وتكوينها . ولا أعتقد أن أحداً يستطيع أن يفهم جانباً واحداً منها إلا في إطار هذا البناء العام .

ويتساءل « هيوبوليت » : هل « ظاهريات الروح » هي تاريخ للإنسانية ، أم فلسفة للتاريخ^(١) ؟ لقد بحث « شلنج » عن فلسفة للتاريخ ، تكون بالنسبة إلى الفلسفة العملية ، كالطبيعة بالنسبة إلى الفلسفة النظرية . فإذا كانت الفلسفة النظرية تبدأ من معرفة ودراسة الطبيعة ، فإن كل فلسفة عملية يجب أن تبدأ من التاريخ . والمفكر يجد في الطبيعة مقولات العقل ، كما يجد في التاريخ مقولات الإرادة . والحق أن التاريخ يعبر عن إرادة مجموعة من الأفراد ، لا عن إرادة فرد واحد . ومن الأصح أن نقول « إن التاريخ هو تاريخ الإنسانية » . ولكن هذا التاريخ لا يكون ممكناً في نظر هيغل ، إلا إذا تم التوافق بين الإرادة والضرورة ، بين الموضوعى والذاتى ، بين الشعور واللاشعور . ومعنى ذلك أن التاريخ هو حركة جدلية بين الأضداد ، وهذا التضاد قد بلغ عند شلنج حدّ الهوية الكاملة بين الحرية والضرورة . ويقول شلنج : « إن الضرورة يجب أن تكون في الحرية »^(٢) .

وربما يبدو الجدل على هذا النحو ، كوسيلة للتلاعب بالأضداد . فالضرورة التي تشمل الحرية ، لا يمكن أن تكون ضرورة بالمعنى الصحيح ، أو ضرورة مطلقة . كذلك فالحرية التي تتحرك وتعمل في إطار الضرورة ، لا يمكن أن تكون حرية كاملة ونخالصة . ولكن هذا التضاد عند هيغل يعبر عن حقيقة الوجود ، وعن الواقع الحقيقي . ولقد سبقه هيرقليطس في تصور الوجود على هذا النحو ، بوصفه حاملاً للأضداد . .

Hypollite : Genèse et structure de la Pnénoménologie de l'esprit. Paris, 1946. (١)

p. 31.

(٢) نفس المرجع ص ٣٢ .

هذا الوجود الحامل للأضداد ، لا بدّ من خضوعه لمبدأ ينظم أحوالها وإلا سقطت الفوضى في الكون . لذلك قال هيرقليطس « باللوجوس » Logos كبداً منظم للوجود ، وقال هيجل بالطلق ، Absolu الذي تصبح الأضداد تعينات له . وقد يبدو المطلق في تعريفه السلبي كذنب للمحمولات ، ولكنه في تعريفه الإيجابي يبدو كجملة للتعينات الممكنة . ولكن هذه التعريفات سواء كانت سلبية أم إيجابية ، ليست كافية في حد ذاتها . وبيحث هيجل عن المطلق كما يتبدى لنا في حقيقته .

١ - المطلق والتاريخ

يقول هيجل في تفسير المطلق : إنه ليس الوجود فحسب ، ولا الماهية فقط . فالوجود هو المباشرة^(١) الأولى والاتأمل ، أما الماهية فهي المباشرة المنعكسة في التأمل . والوجود والماهية يعبران عن وجهين للمطلق ، عن ظاهره وباطنه . وهو الوحدة المطلقة لتجليه في الظاهر ، ولتخفيه في الباطن . ويتصور هيجل هوية المطلق على نحو جدلي ، باعتبارها هوية لا تفرض التطابق المطلق بين الظاهر والباطن في اللحظات الزمنية والتاريخية كلها . هذه الهوية الصورية ، لا تتحقق في الواقع ، إلا في خلال الزمان والتاريخ .

والحق أنه من الممكن أن تفرض الهوية الصورية بين المطلق وذاته ، بوصفه وجوداً وماهية ، ولكننا لا نستطيع أن نفرضها في الواقع إلا من خلال الصيرورة . فالحركة المنطقية للوجود والصيرورة ، يتعين مضمونها بالضرورة الباطنة^(٢) . هذا التعين الباطن هو التعين الموجب للمطلق . ولكن هناك التعينات الظاهرة ، أو ظواهر المطلق ، التي تتغير وتتعدد ، والتي تشكل صفات المطلق : وهي في الحقيقة تعينات سالبة بوصفها مظهرًا للمطلق ، وبفضلها يصبح المطلق وجوداً متعينًا خارجيًا .

ويميز هيجل بين تصوره للمطلق ، وتصور أسبينوزا للجوهر . فهو يجعل المطلق روحًا خالصًا في ماهيته وباطنه ، أما التعينات الخارجية فهي مجرد مظهر وتجل له . أما أسبينوزا فلقد وحد بين الامتداد والفكر ، وربط بينهما ، بحيث لم يعد هناك وجود للفكر خارجًا عن الامتداد . إن جوهر أسبينوزا كما يقول هيجل ، ينقصه مبدأ « الشخصية » ، ومعرفته تكون بالتأمل الخارجي ، لا بالتأمل الداخلي . وإذا كان الجوهر عند أسبينوزا علة لذاته ، وإذا كانت ماهيته تستلزم الوجود ، فإننا نستطيع أن نقول ، إن تصور المطلق الهيجلي لا يستلزم في تعريفه شيئًا آخر غير ذاته ، وإنه تأكيد لا يستلزم الامتداد . ولا ينسى هيجل أن يقارن بين الفكرة الشرقية للصدر ، التي تجعل المطلق نوراً منيراً لذاته^(٣) ، وكل ما يصدر منه وعنه ،

(١) Immédiateté.

Hegel : Science de la logique, Tome II trad fr. p. 185.

(٢)

(٣) نفس المرجع . المنطق الجزء الثاني ص ١٩٤ .

يكون أقل كمالاً منه . ويعتبر هيكل كل ما يصدر عن المطلق تقيماً له . وظلاماً وليلاً بالنسبة إلى النور والضياء .

ومن الواضح أن هيكل يميل إلى فكرة التجلي^(١) أكثر من فكرة ابصودور . ذلك لأنه لا يصدر عن المطلق إلا المطلق ذاته ، ولا يمكن أن يصدر عنه . ما هو أقل منه كمالاً . لذلك يجب أن نؤكد أن التجلي هو مجرد مظهر خارجي للمطلق نتيجة لوجوده في ذاته ولذاته . وهو لا يكشف عن مضمون المطلق ، إنما يكشف عن ذاته هو بوصفه تجلياً وظهوراً^(٢) .

وكان شلنج يعتقد أن التاريخ ليس من أعمال الرجال ، ولكنه تجلي وكشف للمطلق ، وقال بأن التاريخ هو تاريخ للمطلق . ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يقدم لنا فلسفة للتاريخ ، واكتفى ببيان إمكان مثل هذه الفلسفة . وإذا كان التاريخ ، هو تاريخ للمطلق ، فكيف يمكن أن يتم الوعي بهذا المطلق وبهذا التاريخ ؟ هكذا أصبح المطلق عند شلنج مجرد شرط للتاريخ . ولكنه بما هيته يتجاوز التاريخ ذاته ، ونحن نجد عند شلنج الكثير من العبارات التي يرددها هيكل من بعده . فهو يقول : « إن التاريخ في مجموعه ، هو كشف مستمر للمطلق » . ولكن هيكل وحده هو الذى استطاع أن يقيم فلسفة حقيقية للتاريخ ، باعتبار أن التاريخ هو تجلي للمطلق .

كان شلنج في الواقع أكثر اهتماماً بالطبيعة منه بالتاريخ ، وبخاصة بتاريخ الإنسانية وفلسفة الطبيعة عنده تعبر عن ضرورة المطلق ، في الوقت الذى يعبر فيه التاريخ عن حرته . والطبيعة هي النتائج الفعلية ، والجمال للمطلق ، إنها إنتاج لا شعورى له والعقل الإنسانى تصبح وظيفته هي عيان هذه الطبيعة .

والطبيعة تعبر عن وجود المطلق بوصفه موضوعاً ؛ ومعرفة الطبيعة أو العلم بها ، إنما هي معرفة خارجية بالمطلق . وكان شلنج يفرق بين الطبيعة الجامدة واللاعضوية التي لا تاريخ لها والطبيعة الحية التي تتمثل في الكائنات العضوية . ولكن هذه الحياة النباتية والحيوانية ، تبدو في صورة كلية ومجردة ، تنتهى إلى الموت . إنها فناء ، ونفى لكل تعين خاص للحياة . ونحن لا نستطيع أن ندرك المعنى العميق ، والحقيقة الدامغة لهذه الحياة الخالقة والمتجددة ، إلا بإدراك المطلق ذاته . وهذه هي الفلسفة المثالية عند شلنج ، التي تستنبط مقولات الطبيعة من المطلق . وفي هذا يقول : « كل نبات مثلاً ، هو رمز للعقل »^(٣) ، وفي عالم الحياة يتأمل العقل ذاته .

(١) Manifestation.

(٢) نفس المرجع ص ١٩٧ .

(٣) نقلاً عن هيوليت : نفس المرجع ص ٣٥ .

وكما أن الحياة تتجلى في الوجود على درجات ، كذلك فإن العقل يكتشف الحقيقة على درجات موازية لها . وهكذا تصبح « الطبيعة ملحمة للعقل » .

ولكن هيجل يختلف مع شلنج في تصوره للمطلق وتجلية ، وهو يبحث عن معرفة ذاتية للمطلق ، لا عن معرفة موضوعية له . وإذا كانت الطبيعة هي التي تمدنا بالمعرفة الموضوعية ، فإن هناك سبيلاً آخر يقودنا إلى المعرفة الذاتية للمطلق . ويتساءل هيجل : هل يستطيع العقل أن يعرف الطبيعة ، بوصفها كلا عضوياً ، معرفة مطابقة لذاتها ؟ إن ما يتأمله العقل في جملة الطبيعة يشبه عملية القياس الذي يكون الحدّ الأكبر فيه هو الحياة الكلية ، والحدّ الأصغر الأرض التي تحيا فوقها الكائنات الحية . أما الحدّ الأوسط فهو يشير به إلى الكائنات الحية الخاصة التي تمثل الحياة الكلية ، وتخضع في الوقت ذاته لمؤثرات البيئة الخارجية . من أجل ذلك يعتقد هيجل أن هذه الكائنات الحية لا يمكن أن تعطينا بوجودها العرضي ، المعنى الكلي للحياة . والعقل لا يستطيع أن يكتشف ذاته في هذا المشهد العرضي للحياة . إن هيجل يطلق على الحياة الكلية *Vie universelle* بوصفها حياة « اسم التصور Begriff ، لكن لا الحياة ولا المطلق عند شلنج يكشفان عن الدلالة الكلية في هذه الأشكال الجزئية والخاصة . إن الحياة كلها حاضرة في كل كائن حي ، إنها هي التي تجعله يحيا ويتكاثر ويموت . ولكنها لا تعبر عن ذاتها الكلية في هذه الكائنات . فموت الكائن الحي يرتبط بمولد كائن آخر ، وتتكرر الحياة بدون أن تنمو وتتوسع في جنسها ونوعها . لذلك فلا معنى للبحث عن تاريخ لهذه الحياة ، أو لهذه الصور من الحياة .

ها هو هيجل يعلق في « ظاهريات الروح » ، أن الحياة العضوية لا تاريخ لها . إنما الروح وحده هو الذي له تاريخ . الروح الذي له ماضٍ يحتفظ به في توسعه الداخلي *Erinnerung* ، وله مستقبل يرسمه أمامه كصيرورة « لذاته » ، كما هو « في ذاته » . من أجل ذلك كان الزمان والزمنية من المقومات الأساسية للروح الذي يتجلى في الوجود .

هكذا يعرف هيجل الروح بالتاريخ ، والتاريخ بالروح لا بالطبيعة . الروح هو الكلي الصوري الذي يتجلى في الكلي العيني ، وبعبارة أخرى ، هو الكلية التي تتجلى في عينية التاريخ .

٢ - الروح GEIST

الحقيقة عند هيجل ترتد إلى رداء الزمنية ، إنها حقيقة الروح وحقيقة التاريخ وكلمة الروح عند هيجل تشير المطلق بوصفه وعياً وعقلاً ، وهو يقول في ظاهريات الروح : إن الروح

هو حقيقة العقل ، من حيث إن الحقيقة هي اليقين الذاتي لا الموضوعي . إنه العقل العيني ، والعالم الروحي . والعقل يكون روحاً عندما يعي بذاته الواقع بوصفه حقيقة ذاتية^(١) والوعي الرحي عند هيجل ، هو الوعي الكلي ، لا الجزئي والفردى . وهكذا يتبدى الروح كتجربة لنا نحن « Cogitamus » ، ولا نستطيع أن نقول ، كما كان يقول ديكارت ، « أنا أفكر » ، بل « نحن نفكر » . والروح يفترض تعدد الضمائر ، وهو يتجاوزها من أجل البقاء على تنوعها في داخل الجوهر الواحد . وإننا نكتشف في قلب كل ضمير وشعور خاص ، علاقة ضرورية بالضمائر الفردية الأخرى . فهو موجود لذاته وللآخر . والروح هو الحقيقة الكلية التي تربط بين الضمائر المختلفة ، ولكنه في ماهيته وحقيقته ، هو ضمير واحد مدرك لذاته وبذاته . وهو يتجلى لنا في خلال التاريخ ليكشف عن مضمونه الحقيقي

وإذا كان الروح يتجلى لنا مباشرة في « الطبيعة » ، فإنه عند هيجل ينكشف لذاته في مرحلة التأمل الذاتي ، والعلم بذاته أى العلم المطلق . وحالة المباشرة ، تفترض وجود الروح لذاته وبذاته حقيقة حية تدرك ذاتها بذاتها ، وهي حقيقة الروح تلك التي تتحقق في الحركة والحياة ، لا في الجمود والموت .

والروح في خلال التاريخ يسير نحو التقدم في معرفة ذاته . وهذا التاريخ يشمل مراحل ثلاثة تتمثل في العالم القديم ، والعالم الحديث والعالم المعاصر (القرن الثامن والتاسع عشر) . وهي بالمفهوم المنطقي الدعوى وتقبض الدعوى والائتلاف بينهما . وهكذا يتأسس التاريخ على تاريخية المطلق والروح . « الروح تاريخ » ، هذا ما أكده هيجل في مرات عديدة في كتاباته . وينهب هيجل إلى أن العالم الذي يتمثل فيه الروح ليس العالم المادى ، ولكنه عالم التاريخ الإنسانى . والظاهريات ليست تاريخاً « للعالم » ولكنها تاريخ الإنسانى ، وإن كان كلاهما يرتبط بالآخر .

يقول هيبوليت إن التاريخ يلعب دوراً كبيراً في ظاهريات الروح ، حتى إن هايم Haym^(٢) يعرفها بأنها « السيكولوجية المتعالية التي أفسدها التاريخ ، والتاريخ الذى أفسلته السيكولوجية المتعالية . وأغلب الظن أن هيجل قد وجه عناية خاصة ، إلى لحظات معينة ومحددة من التاريخ الإنسانى ، مثل التاريخ اليونانى القديم ، وتاريخ الثورة الفرنسية المعاصرة .

(١) ظاهريات الروح . الترجمة الفرنسية لهيبوليت . الجزء الثانى ص ٩ .

Haym : Hegel und seine Zeit.

(٢)

٣ - روح الشعب VOLKSGEIST

إن الروح الواعي لذاته ، لا يتحقق على نحو كامل إلا في حياة الشعب . وفي هذه الحياة يكون العقل - الروح - حاضراً كجوهراً كلياً ، وكشيفية choséité بسيطة وثابتة . إن هذه الشيفية تنتشر ، كما ينتشر الضوء في مجموعة من الماهيات المستقلة^(١) . إن وجودها لذاتها يجعلها واعية لما هياتها الفردية ، ولكنها تتجاوز هذه الفردية في الجوهراً الكلي : أو الروح الكلي الذي يدرك فيه كل فرد يقينه بذاته ، وبذات الآخرين . وفي الشعوب الحرة يتحقق الروح بصورة فعلية وفعالة ، ويصبح حاضراً بصورة حية . ومن أجل ذلك قال الحكماء القدماء : إن الحكمة والفضيلة ، هي في الحياة وفقاً لتقاليد الشعب^(٢) .

يقول هيوبل في دراسة له بعنوان « المدخل إلى فلسفة التاريخ لهيجل » : إننا لا نستطيع أن نعطي معنى دقيقاً لما يقصده هيجل « بروح الشعب » ، باعتبار أن الروح يتحقق تاريخياً في روح الشعوب . وإذا نظرنا إلى تأملاته الأولى لوجدنا أن هذه العبارة لا تشير إلى تصور معين ، ولكنها عبارة عن عيان للواقع وللحقيقة كما تراءت لهيجل . ويبدو أنه قد استخدم كلمة الروح « ليشير بها إلى وحدة الشعب التي تتجاوز وتتعالى على مجموع أفرادها . إننا هنا إزاء تعريف فلسفي للشعب ، لا تعريف اجتماعي له .

إن علماء الاجتماع كثيراً ما فرقوا وميزوا بين معنى الجماعة والمجتمع ، فالمجتمع يتكون من مجموعة مترابطة من الأفراد ، لها هدف خاص ، وكل تجمع ليس بالضرورة مجتمعاً . أما الجماعة المشتركة فهي تتأسس على الوحدة لا على المجموع . وكأن روح الشعب في الحقيقة هو روح هذه الجماعة المشتركة ، إنه الحقيقة الروحية الأصيلة التي تتجسد في شعب من الشعوب . وتصور هيجل الفلسفي لروح الشعب ، يختلف تماماً عن التصورات الذرية التي كانت منتشرة بين فلاسفة القرن الثامن عشر .

إن الشعب لا يتألف من مجموعة من الأفراد - الذرات ، ولكنه نظام عضوي تكون هذه الأفراد بمثابة أعضاء له . ولقد افترض هيجل منذ مؤلفاته الأولى ، ثمة انسجام أزلّي بين روح الشعب ، وروح الأفراد . فالفرد لا يستطيع أن يتحقق كماله إلا بانتمائه إلى الشعب ، وهذا الانتماء هو الذي يكتمل للفردي حرّيته واستقلاله .

(١) - ظاهريات الروح الجزء الثاني ص ٢٩٠ .

(٢) - نفس المرجع ص ٢٩٢ .

إن الفرد الذى يشعر بحريته فى داخل الجماعة المشتركة ، هو الذى اكتشف حقيقته فى تجاوز فردانيته . وهذه النظرية الهيجلية نجد أصولها عند مونتسكيو وروسو . كان مونتسكيو أول من نادى بأصالة كل شعب ، وأول من اعترف « بروح الأمة » ؛ : إن القوانين يجب أن تكون خاصة بالشعب الذى وضعت من أجله ، وإنه من الخطأ أن تلامم قوانين أمة معينة ، أمة أخرى . ولكن المتكرر الترنسى ، كان يرى أن روح الشعب أو الأمة ، هو نتيجة لقوى مختلفة ومتعددة . أما هيجل فهو يعرف الروح بمقوماته الروحية : « روح الشعب يرتبط بالأرض برباط رقيق ، ولكنه يقاوم بقوة سحرية كل محاولة للفصل بينهما . . . » (هيجل) .

حاول مونتسكيو فى « روح القوانين » ، أن يحلل هذا الروح ، وأن يحدد مركباته تحديداً آلياً ميكانيكياً ، ولكنه كان يفتقد الأصالة الحقيقية لروح الأمة والشعب . أما هيجل فكان أكثر تأثراً « بهردر » الفيلسوف والمؤرخ الألماني . إنه كان يعزو عبقرية الشعب إلى هذا الروح ، حتى عند الشعوب البدائية . وكان الشعر فى نظره هو الدليل القاطع على هذه العبقرية وهذا الروح . ولكن هررد كان يتصور هذا الروح كطاقة حيوية ، وكقوة حية ، لا كطاقة روحية كما تصوره هيجل .

ولاشك أيضاً أنه قد تأثر بروسو و« بالعقد الاجتماعى » بالذات . ولقد تصور المفكر الفرنسى الدولة كنتيجة للتعاقد بين الأفراد . ولكن ليس التعاقد هو الذى أهتم به هيجل ، إنما كان اهتمامه بالإرادة العامة التى تعلو على إرادة الأفراد . هذه الإرادة العامة ليست مجموعة من الإرادات الفردية ، ولكنها المثل الأعلى لها .

إن روح الشعب هو الذى يحقق التوافق بين واجب الوجود Sollen والوجود ذاته . إنه حقيقة تاريخية تتجاوز الأفراد ، ولكنه يمنح لكل فرد حقيقته الذاتية والموضوعية . ونحن نجد عند هيجل تمييزاً بين روح الشعب وبنسية الشعب Seele des Volks ، وعبقرية الشعب Genius des Volks باعتبار أن روح الشعب هو الوحدة الأولى والمعطى الأصلى فى تاريخ الشعب . وإذا كانت الأخلاق والعادات والتقاليد الشعبية ، تتأثر بنفسية الشعب ، وإذا كان الفن يتأثر بعبقرية الشعب ، فإن روح الشعب هو الأصل فى هذه النفسية ، وهذه العبقرية . ويمكن اعتبار التاريخ بوصفه تجسيدا للروح الكلى بالنسبة لتاريخ الإنسانية ، وتجسيدا لروح الشعب ، كمنظور لتجلى الروح الكلى .

٤ - روح المسيحية

ما من أحد يستطيع أن ينكر مدى تأثير هيجل بالمسيحية ، حتى إن تصوره للروح الكلى الذى يتجسد فى الزمان والتاريخ ، إنما هو قد استوحاه من المعانى الرمزية للمسيحية . فالمسيح هو روح المسيحية الذى تجسد فى الزمان والمكان ، وهو الذى غير مصير الإنسانية وتاريخ العالم . وإذا كان العالم الإغريقى ، قد عانى من مأساة الضمير ، فإن اليهود قد عانوا من يؤس وعذاب الضمير . إن « اليهود » قد تركوا وطنهم وآباءهم ، وأرادوا أن يجمعوا بعد أن مزقوا كل روابط الحياة المشتركة (الأسرة والوطن) والحب الإنسانى . لذلك حملوا فى ضميرهم روح العذاب والغربة ، وعاشوا هائمين كالقطيع على وجه الأرض . ويؤكد هيجل أن هذه الغربة ، قد ولدت فى نفوسهم عداً للبشرية . إنهم لم يعرفوا معنى الحب ، لأن الحب هو وحدة الحياة مع الطبيعة والناس . واليهود لم ينظروا مادية إلى الأشياء بوصفها وسائل لتحقيق أطماعهم ومصالحهم الشخصية . لذلك فكل علاقاتهم ، إنما هى علاقات موضوعية لا تعرف معنى العاطفة والحب . إنهم يرفضون الحب ، ويعيشون غرباء فى كل أرض بين أهليها . وفى نفوسهم عداً للجماعات البشرية ، والقيم الحيوية (مثل البطولة) التى تتمثل فيها . إنهم كذلك لا يعرفون بالقيم الفكرية والروحية التى تقوم عليها الثقافة والحضارة فى هذه البلاد والجماعات وبعثهم فى ذلك هو اللؤم والحبث . وكان من نتيجة هذه الكراهية ، وهذا العداً للشعوب ، أن ظنوا أنهم وحدهم يمثلون شعب الله المختار . ولقد حاول « موسى » أن يؤكد هذا التفوق للمصريين بوسائل خارجية مثل استخدام السحر ، ولكن السحرة المصريين لم يكونوا أقل براعة منه ! إن اليهود لم يعرفوا غير علاقة السيد بالعبد ، أى علاقة القهر والاستعباد . « إن الروح اليهودى يجمد الطبيعة وعلاقات الحياة ، ويحيلها إلى أشياء . وفى الوقت ذاته فهو لا يخجل من الرغبة فى هذه الأشياء . . . »

إن قدر الشعب اليهودى هو أن يجيا إلى الأبد منفصلاً وبعيداً عن الله والناس ، لأنه قد وضع مثاله Idéal خارج ذاته ، وقطع كل أواصر الصلة بينه وبين الحياة . لذلك جاء السيد المسيح ليعيد الصلة بين الشعب والناس والحياة ، وأعادها بالحب وبرفض العلاقة بين السيد والعبد . وكان هذا هو طريق الخلاص والتجدة .

ويعتقد هيجل أن المسيحية ليست دعوة إلى شعب معين بقدر ما هى دعوة إلى الإنسانية كلها . والله ينكشف ويتجلى للناس جميعاً ، ولا يخص بدعوته شعباً دون آخر . ومن خصائص روح المسيحية أنها تفصل بين الدين والدولة « فلكرت الله ليس فى هذه الأرض » . ومن

حكمتها المشهورة : أعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . وهذا الفصل بين السلطين قد طبع العالم الحديث بطابع مميز خاص ، وقطع كل صلة بين الأزلية والزمنية وأعطى للإنسان حرية لا محدودة إزاء العالم .

ويجب أن نشير إلى التطور الذي لحق بفهم هيجل للمسيحية . ففي مؤلفات الشباب ، كان أكثر إعجاباً بسقراط منه بالمسيح . كان سقراط في نظره حكماً ، أما المسيحية التي تدعو إلى الزهد والتشف ، فهي تريد أن تجعل من البشر مواطنين في السماء ، ينظرون دائماً إلى أعلى ، ويفقدون كل المشاعر الإنسانية . وفي كتاب « ظاهريات الروح » ، يعود هيجل ليؤكد أن المسيحية صورة للروح المطلق ، وأن الفصل الذي تدعوا إليه بين الدولة والكنيسة ، بين الفضيلة والتقى ، بين الله والحياة ، إنما هو قدر مقدر عليها في لحظة تاريخية معينة . والخلاص الذي تدعوا إليه المسيحية ، إنما هو دعوة إلى الخلاص الحقيقي ، والمصالحة الحقيقية التي يجب أن تدعو الفلسفة إليها . وهو يقول في ذلك : إن المسيح كان يستطيع أن يشارك في مصير شعبه ، ولكنه أراد أولاً أن يحقق ذاته وطبيعته ، التي خلقت من الحب ومن أجل الحب . « من يحب أباه وأمه ، ابنه أو ابنته ، كما يحبني ، فليس مني » .

إن المسيحية هروب من القدر والمصير المحتوم الذي فرض على اليهودية . والروح المسيحي هو تقيض الروح اليهودي ، فالأول قد ملأ قلب الإنسان بحب اللانهائي ، أما الثاني فقد مزق الرباط الجميل الذي كان يربط الإنسان بالعالم الروحي . قال المسيح : « إن ملكوت الله فيكم » . وهذا هو قدر المسيحية .

وحياة المسيح وموته في نظر هيجل ، هي صورة جديدة للمأساة فرفض المسيحية للخضوع للعالم ، وللعلاقة بين السيد والعبد ، هو قدر ومصير جديد للإنسانية . وشخصية المسيح هي شخصية جميلة ، تجمع بين فضيلتين متعارضتين هما الشجاعة والمسألة . وهذه المسألة ليست الجبن والحرف ، ولكنها الشعور الحى بنقاوة النفس وطهارتها .

تلك هي النفسية الجميلة ، التي دعت إلى الحب بوصفه قدراً *Amor fati* ، والتي عانت في سبيله مأساة قاسية ، انتهت ببعث المسيح وبانتصاره على الموت .

الفصل الثاني

الحضارة ومقوماتها

من الخطأ أن نظن أن التاريخ عند هيجل هو مجرد سرد وتسجيل للأحداث البارزة في حياة القادة والرؤساء من ناحية ، والشعوب من ناحية أخرى . فمثل هذا التاريخ الذي تناوله الكُتُب وعلماء التاريخ ، بالفحص والبحث ، لا يمثل في نظره الأبعاد الحقيقية للتاريخ الإنساني . وينظر هيجل في أعماق التاريخ ، ليكشف عن جذوره الحقيقية في عالم الإنسان والذي يتحرك في التاريخ ، هو الإنسان بكل سماته الحضارية التي تشمل الثقافة ، والأخلاق والقانون والدين والفن . ومن المؤكد أن التاريخ يبدأ مع الحضارة ، ولذلك سميت العصور السابقة على الحضارة ، عصور ما قبل التاريخ . وهيجل يربط بين الحضارة والثقافة ، ولا يتصور وجود حضارة بالمعنى الصحيح بدون المظهر الثقافي لها .

لكن قبل أن نحلل موقف هيجل من حركة الحضارة ومقوماتها يجب أن نشير إلى نظرية هامة ، تتعلق بصلة الحضارة بالأرض ، والإنسان بالمكان .

١- الشعب والأرض

قبل هيجل بمئات السنين ، كان ابن خلدون المؤرخ العربي العظيم يبحث في أصول التاريخ ، وفي أحوال الحضارة وال عمران . وهو أول من يستحق أن يلقب بفيلسوف الحضارة من بين المفكرين العرب والغربيين . ونحن لم نسمع من قبل عن مؤرخ ينشئ في التاريخ كتاباً ، ويبدؤه بالبحث « في أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض في الإجماع الإنساني من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلة والأسباب » . والحق أن ابن خلدون كان فيلسوفاً ، بقدر ما كان مؤرخاً ، وهذا ما يؤكد قوله بأنه كان « يستوعب أخبار الخليقة استيعاباً » ، « ويدخل من باب الأسباب على العموم ، إلى الأخبار على الخصوص ويعطى لحوادث الدول عللاً وأسباباً » حتى أصبح كتابه « للحكمة صواناً وللتاريخ جراباً » (١) ولا معنى للتاريخ في نظر ابن خلدون ، إلا إذا ارتبط بالعمران البشري ،

(١) مقدمة ابن خلدون . ص ٦ .

أى بالمدينة والحضارة . وهو يقول إن الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى ، وإلا لم يكمل وجودهم ، وما أراد الله من اعتمار العالم بهم ، واستخلافه إياهم . وكان من نتيجة هذا الاجتماع ، وهذا العمران ، الذى يتم للناس بمقتضى الفكرة والسياسة لا بمقتضى الفطرة والمهذبة ، أن أصبح لكل مجتمع صفاته وخصائصه ، التى تختلف وتتباين من واحد إلى آخر . ويعزوا بن خلدون هذا التباين وهذا الاختلاف إلى طبيعة الأرض نفسها التى تعيش عليها هذه الجماعات . وكان الفيلسوف العربى يرد الخصائص الأثرى وبيولوجية للشعوب ، إلى البيئة الجغرافية ، وطبيعة الأرض . وهذه النظرية جديرة مناسبا بكل عناية وبمبحث ، لأنه قد سبق بها فلاسفة الغرب ومفكرهم .

يقول ابن خلدون : أعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب ، يسمون كل قسم منها إقليمياً ، كل واحد منها أخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . . . إلخ^(١) . ومن بين هذه الأقاليم الجغرافية ، نجد الباردة فى الشمال والحارة فى الجنوب ، والمعتدلة فى الوسط . والإقليم الرابع أعدل فى العمران ، والذى حفا فيه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال ، « لهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحوانات ، وجميع ما يتكوّن فى هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً ، وأخلاقاً ، وأدياناً ، حتى النباتات فإنما توجد فى الأكثر فيها ، ولم تقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية . وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وأخلاقهم ، قال تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس »^(٢) .

وبحث ابن خلدون عن أثر البيئة والهواء فى أخلاق البشر . فأهل مصر مثلاً يغلب عليهم الفرح ، والخفة ، والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنّهم ولا شهرهم ، وعامّة ماكلهم من أسواقهم . أما أهل السودان فيغلب عليهم كثرة الطرب والخفة ، فنجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع . . إلخ . وقد تعرض المسعودى ، المؤرخ العربى ، للبحث عن السبب فى خفة السودان ، وكثرة الطرب فيهم فلم يأت بشيء إلا أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحق الكندى^(٣) . ويؤكد ابن خلدون أن « البادية أصل العمران والأمصار مدد لها » ، ومعنى ذلك أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار ، وأصل لها ، وهو يصف أهل البدو ، بأن نفوسهم هى أقرب إلى الخير والشجاعة من أهل الحضرة ، والسبب فى ذلك أن أهل الحضرة ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ، ووكّلوا أمرهم فى المدافعة

(١) نفس المرجع ص ٦٠

(٢) نفس المرجع ص ٩٨

(٣) نفس المرجع ص ١٠٣

عن أمثالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم ، والحامية التي تولت حراسهم واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم . . . « أما أهل البدو ، لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية واتبادهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمداخلة عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم . . . قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية . . . إلخ » . وهكذا يتضح لنا أن البيئة الطبيعية (الجغرافية) تخلق في الإنسان « خلقاً » ، وملكة ، وعادة ، تنزل منزلة الطبيعة والحيلة (١) .

ها هو ابن خلدون يفرض ثمة رابطة قوية بين أخلاق الناس وبيئتهم الطبيعية ، ويؤكد حقيقة الاعتدال في الأخلاق عند أهل المناطق المعتدلة . ونستطيع أن نقول إننا نجد هاتين النظريتين عند هيجل ، وهو يعرضهما في الجزء الخاص « بالأساس الجغرافي للتاريخ الكلي » (٢) .

يقول هيجل : « قد تبدو الرابطة بين الروح القوي *esprit national* والطبيعة شيئاً خارجياً ، بالنسبة لعمومية الكل الأخلاقي ، وفرديته الخاصة للفعالة - . لكن من حيث يجب إعتبارها الأرض التي يتحرك الروح عليها ، فهي بالضرورة وبالذات ، القاعدة والأساس ولقد بدأنا بهذا الإلتفات ، وهو أنه في التاريخ الكلي ، تتجلى فكرة الروح في الواقع ، في سلسلة متتابعة من الصور الخارجية التي تتكشف كل واحدة منها بوصفها شعباً له وجود حقيقي » . كل شعب يعيش في المكان والزمان ، والفروق بين الشعوب هي فروق طبيعية ، ويمكن اعتبارها كمسكانات خاصة للروح الذي يتجلى خارجياً في الواقع ، وهذا هو الأساس الجغرافي للتاريخ ولا يهم هيجل بمعرفة الأرض كمحل خارجي لحركة التاريخ ، ولكنه يهتم بها « كنمط طبيعي لهذا المحل ، من حيث علاقته الدقيقة مع نمط وخلق الشعب ، الذي هو ابن لهذه الأرض » (٣) .

ولا ينبغي أن تغالي من قدر هذه الطبيعة ، أو نمحط منه ، ولكن من المؤكد أن المناخ المعتدل يطبع الشعوب بطابع اللطافة والاعتدال ، أما الشعوب التي تقطن في المناطق الباردة والحارة ، فليس لها تاريخ يذكر ، وذلك لأنها لم تستطع أن تتحرر من سلطة الطبيعة عليها . ولتجد ظهر الشعراء مثل هوميروس في بلاد معتدلة مثل أويونيا (في اليونان) .

ويجب أن نوضح ، أنه إذا كان ابن خلدون قد أشاد بخلق وأخلاق العرب كمثال للشعوب التي عاشت في المناطق المعتدلة ، فإن هيجل قد أشاد بالإغريق ، بمحضارهم ، وقاربهم .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٨ .

(٢) *LeCons sur la philosophie de 'Histoire. Trad. fr. par J. Gibelin. Paris 1945, p.77.*

(٣) نفس المرجع . ص ٧٧ .

يقول هيجل : « إن الطبيعة إذا ما قورنت بالروح ، هي قيمة كمية *Valueur* quantitative لا قدرة لها على التأثير وحدها . وفي المناطق الشديدة الحرارة أو البرودة ، لا يستطيع الإنسان أن يتحرك بحرية ، لأن البرد أو الحر يؤثران بقوة عليه ، ولا يسمحان للروح بأن يبنى لذاته عالماً له . حتى كان أرسطو يقول إنه عندما يشبع الإنسان حاجاته الضرورية ، فإنه يتجه ناحية (العلم) العام والعالى . لكن في تلك المناطق لا يكتفى إلحاح الحاجة عند الإنسان أبداً ، لذلك فهو مضطرب دائماً أن يوجه اهتمامه إلى الطبيعة ، إلى أشعة الشمس الحامية ، والبرد الجليدى . وإن المسرح الحقيقى للتاريخ الكلتى ، يتألف من المنطقة المعتدلة ، وبخاصة من الجزء الشمالى منها ، الذى يمثل المظهر القارى للأرض ، وصدرة واسع كما يقول الإغريق وعلى العكس ، ففي الجنوب تنقسم الأرض ، وتنسحب إلى أطراف متفرقة تتميز بحيواناتها ونباتاتها أى بمصادرها الطبيعية (١) » .

كذلك يعتقد هيجل أن العالم الحديدى — أمريكا وأستراليا — هو عالم ضعيف من الناحية الطبيعية والخلقية . فالحضارة الأوروبية قد أضعفت بنية السكان الأصليين (الهنود الحمر) ، وأنهمكت قواهم . ولقد استحضرت الأمريكان الزوج من أجل القيام بالأعمال التى تحتاج إلى القوة البدنية . ولا نستطيع أن نقارن بين أمريكا وأوروبا إلا إذا امتأ المكان الشاسع بالسكان . فأمريكا الشمالية ما زالت في حالة استصلاح للأراضى ، وعندما تنهى من هذه المرحلة الزراعية ، فإنها سوف تتجه نحو الصناعة والتجارة ، فتكون مجتمعاً سياسياً ، ودولة ذات نظام سياسى . ويرى هيجل أن الدول الحرة في أمريكا الشمالية ، لن نجد دولة معادية تجاورها ، كما يحدث في أوروبا ، لذلك فلن تكون بحاجة إلى بناء جيش دائم والإنتفاق عليه .

« إن أمريكا هي بلاد المستقبل التى سيظهر فيها التضارب بين أمريكا الشمالية والجنوبية ، بصورة خطيرة في التاريخ الكلى ، إنها بلد الأحلام بالنسبة للذين ملأوا من مخزن الأسلحة طوال تاريخ أوروبا القديمة . ويمكن أن ننقل هنا كلمة نابليون (أوروبا القديمة هذه ، أصبحت تضايقتى) . وهكذا يتنبأ هيجل بمنطلق جديد للتاريخ في أمريكا ، بحيث يتحرر هذا التاريخ في المستقبل من صدق العالم القديم ولكنه في الحقيقة لا يوجه عنايته إلا إلى تاريخ العالم القديم بوصفه مسرحاً للتاريخ الكلتى . ولقد تحدد هذا التاريخ في المناطق التى تمتد حول البحر الأبيض المتوسط . وعندما اجتاز يوليوس قيصر جبال الألب ، واستولى على بلاد الغال ، وقع الاتصال المباشر بين الجرمانيين ، والإمبراطورية الرومانية . وتعتبر آسيا الشرقية ، ومنطقة ما وراء الألب ، الحدين الفاصلين لهذا الوسط الذى يتحرك التاريخ فيه ، بدايته ونهايته ، شروقه وغروبه . تنقسم المناطق الجغرافية في نظر هيجل إلى ثلاثة أقسام هي (٢) :

(١) نفس المرجع ص ٧٨ .

(٢) نفس المرجع الفرنسي ص ٨٤ .

- ١ - البلاد المرتفعة ، وفيها البرارى والسهول .
- ٢ - البلاد الوسطى ، وفيها الوديان والسهول التى تقطعها الأنهار الكبرى وتروىها .
- ٣ - الساحل الذى يتصل بالبحر اتصالاً مباشراً .

أما المناطق العالية فتكون صلبة كالفلواذ ، بعيدة عن كل المؤثرات منغلقة ومنطوية على ذاتها ، ولكنها قادرة على إعطاء بعض الاندفاعات إلى الخارج . أما المنطقة الوسطى ، فهى تعتبر مركز الحضارة ، وبلاد الاستقلال الذاتى الذى لم يتفتح بعد . بينما الساحل يمثل الرابطة التى توحد العالم ، ويحافظ عليها . ووادى النيل يدخل ضمن المنطقة الثانية ، التى تقوم فيها الإمبراطوريات العظيمة والدول الكبيرة وتنتشر فيها الزراعة ، وتتأسس الملكية الزراعية طبقاً للقانون . وتشمل تلك المنطقة الصين والهند التى يخترقها نهر السند والكنج ، وبلاد بابل التى يجرى فيها نهر الدجلة والفرات ، وكل هذه المناطق كانت مهداً لحضارات كثيرة ، وسرحاً للتاريخ . كذلك نجد منطقة ساحلية فى مصر ، تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وإذا كانت البحار فى نظر البعض هى حدود طبيعية تفصل بين البلاد بعضها وبعض ، فإنها فى نظر هيكل ، وسائل للاتصال بين الشعوب . ولهذا السبب كان البحر الأبيض المتوسط مركزاً للحضارة . فالبحر يعطينا تمثلاً للامعيتن ، وللالمحدود واللاتمهاى ، وعندما يشعر الإنسان بوجوده فى هذا اللاتمهاى ، فإنه يجد فى نفسه الشجاعة لاجتياز المحدود . إن البحر يدعو الإنسان إلى الغزو وقطع الطرق^(١) ، ولكنه يدعو أيضاً إلى كسب الأرض واملاكها . فالأرض ، وسهول الوديان تثبت الإنسان فوقها ، ويقع تحت ولايات لانهاية لها ، بينما البحر يخرجها من هذه الدوائر المحدودة^(٢) . ولكن الشجاعة فى مواجهة البحر يجب أن تكون خبثاً ، لأن البحر هو أكثر العناصر خداعاً فهذه المساحة الشاسعة ، غير المحدودة ، رخوة ولا تقاوم أى ضغط أو أية نسمة ريح ، وهى تبدويريئة جداً ، خاضعة ، أنيسة ، وهذه السهولة هى التى تحيل البحر إلى عنصر خطير جداً وقدير . والإنسان يقاوم هذا المكر وهذا العنف ، بقطعة بسيطة من الخشب ، ينتقل بها من اليابس إلى البحر متكلاً على شجاعته وحضور يديته . لذلك فالبلاد التى تقع على ساحل البحر ، يتصف أهلها بالشجاعة والذكاء .

وأفريقيا هى القارة التى تغلب فيها المناطق العالية ، ويميز هيكل بين ثلاثة أجزاء فيها : جزء يقع فى جنوب الصحراء ، أى أفريقيا بالمعنى الصحيح ، وفيه المناطق الساحلية الضيقة التى ما زالت مجهولة (فى زمن هيكل) ، والجزء الثانى فى شمال الصحراء وهو أفريقيا الأوربية

(١) Brigandage.

(٢) نفس المرجع ص ٨٦ .

التي تتكون من بلاد ساحلية ، والجزء الثالث هو حوض النيل ، وهو الوادى الوحيد الذى يربط بين آسيا وأفريقيا .

وإذا كان لنا أن نختار بين هذه الأجزاء الثلاثة ، فلا بدّ وأن نختار الجزء الثالث الذى يشمل وادى النيل . ومصر فى هذا الوادى ، كانت مركزاً كبيراً للحضارة الأصيلة والمستقلة بذاتها ، عن الأجزاء الأخرى فى أفريقيا ، كما استقلت أفريقيا عن القارات الأخرى فى العالم .

أما بلاد شمال أفريقيا مثل المغرب والجزائر وتونس وليبيا فهي تواجه أوروبا ، ويجب فى نظره أن ترتبط دائماً بالحضارة الأوروبية . ومهما كان خطأ هيجل فى هذا الظن ، وعدم فهمه لطبيعة هذه البلاد العربية وأصالة حضارتها ، فإن التاريخ نفسه ، والواقع الحاضر ، يشهدان بغير ذلك .

ويعترف هيجل بأن الزنج يميلون إلى السحر ، ولا يعرفون بقدرة أخرى يمكن أن تؤثر فى الكون غير قدرة السحر وقدره الإنسان . وهو يعتقد أنهم لم يبلغوا فى ديانتهم درجة التصور الكلى للألوهية .

أما حضارة مصر وروحها ، فهما لا يتبعان إلى الروح الإفريقى . إنها حضارة مستقلة بذاتها ، لها تاريخ متصل بالتاريخ الكلى للإنسانية . أما إفريقيا ، فلأنها ما زالت حبيسة فى الروح الطبيعى ، فهي تقف على عتبة التاريخ .

وهو يقول : « إن التاريخ يبدأ من الشرق . فالشمس والنور يبرزان من الشرق . ولكن النور ليس مجرد علاقة بسيطة بذاته ؛ النور الكلى فى ذاته ، هو أيضاً « ذات » فى الشمس . وكثيراً ما صورنا مشهمل الرجل الفاقد لبصره حين يردّ إليه ، فىرى الفجر والنور والشمس المتوهجة . فعندما يرى الضوء الصافى ، ينسى ذاته ، ويتملكه إعجاب مطلق . وكلما ارتفعت الشمس ، يقل هذا الإعجاب ؛ إذ يرى الموضوعات المحيطة به ، ثم هو يتجه إلى أعماق ذاته ؛ وتتقدم العلاقة المتبادلة بينه وبين النور . وهكذا ينتقل الإنسان من التأمل السلبي ، إلى النشاط والفاعلية . وعندما يأتي المساء ، يشيد الإنسان بناء داخلياً بنور الشمس الباطنة . وحين يتأملها فى المساء ، تبدو أعلى قدراً من الشمس الخارجية . ذلك لأنه يكون فى وعى كامل بروحه وبمجريته . ولتتمسك بهذه الصورة ، لأنها ترسم مسار التاريخ الكلى ، ونهار الروح العظيم (١) .

٢ - الأخلاق

لا شك أن ابن خلدون قد أكد أثر البيئة الطبيعية على أخلاق البشر ، وكذلك آثار العمران في أبدان البشر وأخلاقهم . وهو يقول في ذلك : إن أهل القفار أحسن حالا في جسمهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش فألوانهم أصنى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وأحسن ؛ وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أنقى في المعارف والإدراكات ؛ هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم « . . . إلخ . . .

وكلمة الأخلاق عند ابن خلدون تعني في الحقيقة الخلق الفطري والطبيعي في الإنسان . ويبدو أنه متأثر بجالينوس في تفسيره لفسولوجيا الجسم الإنساني لأنه يقول : إن كثرة الأغذية ورطوبتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطارها في غير نسبة ، وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ، ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلنا ، وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبحرتها الرديئة فتجيب البلاد والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالحملة « (١) .

وحياة البادية في نظره تعلم الناس « الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال » ، ذلك لأن الإقلال من الطعام والجوع ، يؤثر في « نقاء » الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل « . ونستطيع أن نقول إن الأخلاق عند ابن خلدون ، ترتبط أصلاً بالدراسة الأنثروبولوجية للشعوب ، من حيث ارتباطها بالحضارة والعمران .

ولكن هيجل في « مظاهر الروح » ، يجعل من الأخلاق تجلياً للروح . فالروح هو الماهية الأخلاقية بالفعل ، أو الحياة الأخلاقية لشعب ما ، من حيث هي الحقيقة المباشرة للروح . وهو يقول : إن العالم الأخلاقي الحي ، هو الروح في حقيقته . ونستطيع أن نكتشف ثلاث مراحل جدلية في العالم الأخلاقي : مرحلة تمثل الحقيقة المباشرة للروح ، ومرحلة ثانية تمثل التمزق والانقسام في الرؤية الأخلاقية بين القانون من جانب ، والأخلاق بكل ما تشمل من عادات وتقاليده من جانب آخر . وثالثاً مرحلة انتصار الروح ، وتحقيقه لماهيته الأخلاقية .

١ - الأخلاق والشعب :

قد يهتم بعض الفلاسفة والمفكرين بدراسة الأخلاق من وجهة النظر الفردية الخالصة .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٤ .

ولكن هيجل يعتقد أن الشعب هو الجوهر الأخلاقي ، وإننا لا نستطيع أن نفهم الإنسان الفرد إلا من خلال المجتمع والمدينة التي هو عضو فيها . والأخلاق تمثل الوحدة الروحية لشعب من الشعوب . وهو يميز بين نوعين من الأخلاق : الأخلاق الذاتية أو Moralitat ، والأخلاق الموضوعية والعينية أي Sittlichkeit ، التي يمكن أن نترجمها بالنظام الأخلاقي .

رؤنا كان الروح يمثل الجوهر الأخلاقي ، فإن الرعى أو الشعور الفردي هو الذي يمثل الأخلاق من وجهة النظر الفردية والذاتية . وقد يحدث في بعض الأوقات وفي بعض الشعوب ، أن يحيا الشعور الفردي ، في الجوهر الأخلاقي الكلي ، كما يحدث أن يستقل بذاته عنه ، نتيجة للوعي الخاص بحريته وفرديته . والفرد في المرحلة الأولى ، يحيا حياة سعيدة ، ويتحقق لانسجام الأخلاقي بين الفرد والجماعة . والإحساس بالفردية يختلف من مجتمع إلى آخر ، ففي المجتمعات الحديثة - في القرن الثامن عشر - ظهرت هذه الفردية بصورة شديدة في الحركة الرومنسية

ونستطيع أن نميز بين ثلاثة أشكال للترعة الفردية من الناحية العملية لا النظرية :

الشكل الأول يقوم على العلاقة بين الفرد والعالم الإنساني ، وهنا يكون المفرد في مواجهة الكلي . وفي المرحلة الأولى يترك الإنسان وراءه ، العلم والفكر ، كظلال رمادية ، ليحقق ذاته على نحو مباشر . إنه بذلك يحقر العقل والعلم ، دون أن يرتد إلى حالة الغريزة ، ويكشف عن ذاته ، وإرادته ، « كرجبة خالصة » . ويجد الإنسان نفسه في حالة انسجام مع العالم الاجتماعي أو الآخر . وينعكس الجوهر الأخلاقي في هذه النفس كما يتعكس في المرأة . إنها حالة الغبطة واللذة التي يشعر بها الإنسان تجاه المجتمع والطبيعة . وأول ما يكشف الإنسان الآخر ، إنما يكشفه في الجنس الآخر ، الذي يمثل الفردية الإضافية والتكميلية . والفردية الحية ، التي تجد ذاتها في الجنس الآخر ، إنما تحقق بقاء النوع الإنساني . و « نمو الأبناء هو موت للأباء » . وكل ما يشعر به الإنسان في هذه الحالة ، قد لا يفهم معناه ، لأنه لم يبلغ بعد مرحلة الوعي بإرادته وبالإرادة الكلية .

الشكل الثاني إذا كانت أفعال الإنسان تخضع في المرحلة الأولى للضرورة التي يفرضها الروح الكلي على إرادته ، وإذا كان لا يعي المعنى الحقيقي للذة والغبطة ، فإن الإنسان يبحث في هذه المرحلة الثانية عن سعادته ويشعر بالرغبة الضرورية في هذه السعادة . وهذه الرغبة لها قيمة كلية ، لا قيمة فردية . ويقول هيجل عن هذه الرغبة في السعادة ، إنها تصبح

قانوناً ، ولكنها . « قانون القلب » ومن الواضح أن هيجل متأثر في هذه التسمية بالعاطفية التي كانت سائدة في عصره ، وبخاصة عاطفية روسو ، وجوته ، وشيلر . وقانون القلب يعبر عن ميل أصيلة في الطبيعة الإنسانية ، تدفعها إلى تحقيق سعادتها . وذلك بشرط ألاّ يعمل المجتمع على إفساد هذه الطبيعة : فالقطرة السليمة تميل دائماً إلى فعل الخير ، والنزوع الفطري هو نزوع نحو الخير . وإذا خضع كل فرد لنداء قلبه ، فإنه يتذوق طعم السعادة بالحياة . ويبقى هذا القانون ، مجرد قصد ونية ، حتى يتحقق في الواقع وبالفعل ، الذي يفصل بذاته عن عاطفة الأفراد . ويبدو أن العالم الخارجي ، يسود فيه قانون العنف والإلزام الذي يتناقض مع قانون القلب ، ومن هنا كانت تعاسة الإنسانية التي تن تحت وطأة الضغط والإلزام . ولذلك ظهرت الحركة الرومنسية ، كردّ فعل ورفض لهذا العنف ، وكدعوة إلى تحرير الإنسان ، لا بتصارع الناس بعضهم مع بعض ، إنما بتصالحهم من أجل تحقيق سعادتهم وسعادة الإنسانية .

لكن كيف يمكن أن تتحقق هذه السعادة للجنس البشري . إنه كما يقول شيلر « جنس خبيث مثل التماسيح » . إنه لا يحقق السعادة لنفسه ، ولا للآخرين . وهذا التناقض بين الفرد والمجتمع يمزق الوعي والضمير الأخلاقي .

الشكل الثالث هذا الشكل يحقق الفضيلة مع الوعي بالذات . ولكن الفضيلة تظهر هنا بمفهوم جديد ، يختلف تماماً عن مفهومها القديم . كانت هذه تعبر عن تلقائية الروح ، وجوهر الشعب الذي لا يثور ضد العالم ، وضد الآخرين . كانت تابعة من القلب لا من العقل ، الذي يكشف التناقض ، ويحاول أن يوفق ويؤلف بين أطرافه . وعندما يوفق العقل بين القلب والقانون ، تتحقق الفضيلة الإنسانية بأجلى وأروع معانيها .

تلك هي مرحلة الفضيلة العقلية ، التي تتجاوز الفرد إلى الكلّي . وكل فرد يحقق الفضيلة لذاته وبذاته ، لا بدّ أن يلتقي بالكلّي

٢ - الأخلاق في المدينة القديمة :

يعتقد هيجل أن المدينة الإغريقية القديمة ، قد حققت للإنسان ، حياة أخلاقية جميلة . فكان القانون الإنساني صورة من قوانين المدينة التي نظمت الحياة الاجتماعية والسياسية للشعب . وكانت أخلاق الأسرة لا تختلف في ذلك الوقت ، مع قانون الدولة - المدينة ، الذي نظم كل شئ . كان قانون المدينة ، قانوناً مدنياً يعترف به جميع المواطنين ، ويعبر عن إرادتهم الجماعية للشركة . وقال سوفوكليس في مسرحية أنتيجون : إن الإنسان هو الذي أعطى للمدن قوانينها .

كان الفرد في المجتمع الإغريقي ، يحيا كالنبات ، جذوره في الأرض ورأسه في السماء وكان لا يستطيع أن يتفصل عن هذه الأرضية المشتركة التي يقف عليها مع سائر المواطنين في المدينة .

ونظرة هيجل إلى اليونان قد لا تختلف عن نظرة غيره من المفكرين والشعراء والأدباء الذين عاشوا معه في نفس العصر . كانت اليونان ، هي الفردوس المفقود ، وكانوا يبحثون عنه ، كما يقول جوته ، بعين الروح والنفس . وكانت المدينة القديمة ، تمثل النموذج الأعلى الأخلاقي لحياة الشعوب : وبلغ إعجاب هيجل بأخلاق الإغريق إلى حد القول بأن : الروح الإغريقي ، بوصفه روحاً أخلاقياً ، هو من عمل الفن السياسي . والفرد في هذه المدينة ، لا يشعر بوجوده ، إلا بوصفه مواطناً لشعب حرّ . وكان من الممكن أن تتعارض أخلاق الفرد مع الأخلاق الشعبية ، أو أخلاق الأسرة مع أخلاق الدولة ، كما يتعارض الظل والنور . ولكن المدينة القديمة عرفت حالة من الاستقرار والسعادة ، التي لم تعرفها البشرية بعد ذلك .

وكان من أبرز خصائص الأخلاق في المدينة القديمة ، أنها جعلت من القانون الإنساني ، قانوناً إلهياً . فالقانون الذي يحكم الأرض ، يجب أن يحكمها دائماً وفي كل وقت . والجوهر الأخلاقي في كليته ، يقوم على الوحدة بين الطبيعة والروح .

• وتكاد تحتل أخلاق الأسرة أهمية خاصة في المدينة القديمة . ذلك لأن الأسرة هي وحدة المجتمع ، والجماعة الطبيعية . والأسرة لها جوهرها الأخلاقي الذي تستمد منه المدينة . فالعلاقة الأخلاقية بين أفراد الأسرة لا تخضع للعاطفة وحدها ، إنما تخضع للماهية الأخلاقية للمدينة .

كانت المدينة تنظم الحياة الاقتصادية في الأسرة ، وأصول تربية الأبناء ، لكي يصبح كل ابن فيها مواطناً صالحاً في المدينة . ولم يكن هدف الأسرة أن تنعزل عن حياة المدينة ، إنما كان هدفها أن تندمج في هذه الحياة ، وتعمل من أجل صلاحها .

٣ - الأخلاق والحرية :

الحرية هي جوهر الروح وماهيته . ومهما كانت الصفات الأخرى التي يتصف بها الروح بها ، فلا بد وأن تكون الحرية ضمن هذه الصفات . ويعتقد هيجل أن كل الصفات الأخرى ، إنما هي وسائل من أجل تحقيق الحرية باعتبارها حقيقة الروح . والمادة ثقيلة ، من حيث إنها تتجه نحو المركز ، وذاتها مركبة ولكنها تسعى إلى الوحدة أي إلى صحتها . فإذا ما تحققت لها هذه الوحدة ، فإنها تفقد ذاتها وتنعدم . أما الروح فهو على العكس ، يحمل في ذاته مركزه ، ووحده في ذاته لا خارج عنها . إنه موجود « في ذاته » ، و« مع ذاته » ، وهو

الموجود في ذاته . وكلمة الحرية تعنى أننى موجود فى ذاتى ، ولا أتبع فى وجودى ، وجوداً خارجياً .

ويجب أن نميز بين عملية المعرفة ، وموضوع المعرفة ، كوفى أعرف ، وماذا أعرف . ويقول هيجل : إن الشرقيين لا يعرفون بعد أن الروح أو الإنسان ، هو حرّ فى ذاته ؛ لأنهم يعرفون فقط أن الواحد وحده هو الحرّ ؛ ومثل هذه الحرية هى همجية وعناد . فهذا الواحد الحر هو مجرد طاغية لا إنسان حرّ . وعند الإغريق برز الوعى بالحرية ، ومن أجل ذلك كانوا أحراراً . ولكنهم اعتقدوا مثل الرومان أن بعض الناس أحرار ، وليس كل إنسان حرّ ؛ حتى أفلاطون وأرسطو ، لم يدركوا هذه الحقيقة . وكان الإغريق يستخدمون الرقيق فى حياتهم ، وتحقيقاً لحياتهم الجميلة . ولهذا السبب كانت هذه الحرية كزهرة برية ، متغلقة فى حدود ضيقة . وكان فيها نوع من الاستعباد القاسى لما يتميز به الإنسان عن غيره ، نعى لما هو إنسانى . أما الأمم الجرمانية وحدها ، فهى التى توصلت بفضل المسيحية ، إلى الوعى بالإنسان بوصفه إنساناً حرّاً ، وأدركوا أن الحرية الروحية هى التى تكون حقيقة طبيعته الخاصة . وهذا الوعى قد ظهر أولاً فى الدين (١) .

لم يكن حكم هيجل على الشرق منصفاً ، ويبدو التحيز واضحاً فى جانب الإغريق والجرمانيين . وليس بالغريب أن تبدو العقلية الشرقية والروح الشرقية بعيدة عن فهم العقلية الغربية التى يمثلها هيجل . إن الترق الذى دعا باسم الإسلام ، إلى إلغاء الرق ، وعدم استعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، هو خير من عرف حقيقة الحرية ومعناها الإنسانى . والحياة الأخلاقية ، هى الحرية التى تحقق الخير . إنها تصور Concept الحرية كما يتحقق فى العالم ، وفى الوعى بالذات .

٣ - السياسة

١ - الدولة :

تعتبر الدولة ، من أبرز المظاهر السياسية فى كل حضارة إنسانية . وإذا كانت الدولة فى الحضارة اليونانية القديمة ، قد أخذت الشكل الصغير للمدينة ، فإنها فى حضارات أخرى ، تأخذ شكل الإمبراطوريات الكبيرة مثل الإمبراطورية الرومانية . وكانت الحياة السياسية فى الدولة - المدينة ، تستند إلى جوهرها الأخلاقى ، كوحدة لا تتجزأ فى

(١) دروس فى فلسفة التاريخ . ص ٢٩ - ٣٠ .

الأفراد . فكل فرد كان يشعر أنه ينتمي إلى هذا الجوهر الذى يمثل أسمى ما فى ذاته ، والغاية النهائية لعالمه . وكان هذا هو مفهوم الوطن والدولة عند الإغريق . وعندما تصور مونتسكيو الجمهورية ، كان ذلك على شكل الجمهورية القديمة عند الإغريق ، التى تقوم أصلاً على أساس الفضيلة والأخلاق المدنية . وكان المواطن القديم حراً لأنه كان لا يشعر بالتعارض بين حياته الخاصة وحياته المدنية . ولم تكن الدولة تمثل فى نظره سلطة غريبة على حريته وإرادته . بل كان يخضع بمحض حريته للقوانين التى وضعها لنفسه فى مدينته .

وانحلت صورة المدينة تحت وطأة الحروب . وبدلاً من الحرية والديموقراطية انتشر الاستبداد والطغيان . وبدأ الفرد يشعر بانفصاله عن الحياة السياسية التى أصبح يتحمل مسئوليتها عدد قليل من الأفراد ، وربما فرد واحد . وعندئذ أخذ كل فرد يطالب بحقه الذى يضمن له ملكيته الخاصة ، ومصالحه الشخصية . كل إنسان يعمل من أجل ذاته ، وبالإلزام ، من أجل ذات أخرى .

٢ - الدولة والقانون :

ظهر القانون فى الدولة من أجل ضمان حق الملكية الخاصة للأفراد . والقانون ينظم الحياة الخاصة والحياة المدنية والسياسية . ويؤكد هيجل فى مؤلفاته ، شكلية القانون ، وصورته المجردة . إنه يوضع من أجل الشخص فى ذاته ولذاته ، والأنا أو الذات المجردة ، التى لا ترتبط بأى مضمون معين .

إن الجوهر الأخلاقى الذى تفتت فى الدولة الرومانية ، قد جعل من هذه الدولة ، دولة القانون والحقوق . والقانون يصبح فيها . قانوناً خاصاً ، ينطبق على الذرات الفردية . وتعتبر الفترة التى انقضت قبل ظهور المسيح بنحو مائتين وخمسين عاماً ، من أكبر العصور التى ازدهر فيها القانون . ولكن القانون الرومانى ، كان يعبر عن إرادة الحاكم أو الإمبراطور : كانت إرادته فوق كل شئ ، ومن بعد الإمبراطور تكون المساواة بين سائر أفراد الشعب .

ويذهب هيجل إلى أن عالم القانون ، إنما يحقق بالفعل ، ما كانت تعبر عنه الرواقية بالفكر . ويمكن اعتبار القانون فى مرحلته الأولى ، قاعدة مفروضة (Jussum) ، تصير بفضل الرواقية ، تجلياً للعدالة والمساواة الطبيعية .

لكننا لا نستطيع أن نصور المساواة الطبيعية ، إلا كساواة بين الشخصيات المجردة ، وبالتالي ، فإن الملكية التى تختص بالمساواة ، تقع خارج دائرة الشخصية المجردة .

والحاكم فى الإمبراطورية الرومانية ، له حقوق تختلف عن حقوق سائر أفراد الشعب .

إنه ملك العالم الذى يعترف بأنه الشخصية المطلقة ، التى لا توجد أية شخصية أخرى أعلى منها . وهو الشخص المنفرد الذى يواجه الجميع . والشخصية الكلية للجميع ، قد تبدو أكثر إيجابية من الشخصية الفردية والمنعزلة . ولكنها تنهى إلى صراعات بين الأفراد ، تؤدى إلى القضاء على قوة الإمبراطورية .

والقانون هو الذى يحدد العلاقة بين الشخصية الكلية والشخصية المفردة . وفى حالة الشخصية الكلية ، يكون المضمون غريباً^(١) ، ويبقى القانون فى صورته التجريدية .

والقانون بعامته ، يكون وضعياً ، عندما يصبح قانوناً فى دولة ما . وهناك علم للقانون الوضعى . ويتحقق مضمون القانون ، طبقاً للطبيعة القومية لشعوب ، ومراحل تاريخها . وكل قانون وضعى ، يجب أن يفترض تطبيقه ، ولا ينبغى أن يتوقف عند فكرته وتصوره المجرد .

إن القانون الوضعى يختلف عن كل قانون طبيعى ، لأنه قانون الدولة وقانون الشعب . وهو يعبر عن العقل والإرادة ، سواء كانت هذه الإرادة إما إرادة الحاكم والسلطان ، أو إرادة المحكوم والشعب . وبهما كانت دعوة كنت إلى تحقيق الإرادة الكلية ، فهى تظل دعوة نظرية ، لا تتحقق عملياً فى القوانين الوضعية .

ويقول هيجل فى « فلسفة القانون » : إن كلية الإرادة الحرة هى كلية مجردة . ولا تبدأ الشخصية فى الظهور ، إلا عندما تنفصل عن الإرادة الكلية . وهذا هو أساس القانون . والأمر القانونى المطلق هو : كن شخصاً ، واحترم الآخرين بوصفهم أشخاصاً .

وإذا أراد الشخص أن يترجم عن حريته فى العالم الخارجى ، فلا بد من قانون يحمى هذه الحرية . والإنسان لا يشعر بحريته وشخصيته إلا فى ظل القانون . ولا كان الإنسان يتعامل فى حياته العملية مع الأشياء ، فإنه يمنح إلى امتلاكها . ولقد وضع القانون أصول هذا الامتلاك والملكية . وإذا كانت الإرادة الفردية هى التى تتمثل فى الملكية ، فإتانا نقول عنها ، إنها الملكية الخاصة . أما الملكية العامة والمشاركة فهى التى تصدر عن الإرادة الكلية والجماعية .

ويربط هيجل بين الملكية ، وحقيقة الشخصية ، وكأنه لا وجود للشخصية بدون ملكية . إذ لا يكفى أن يقول إنسان عن شىء إنه « له » ، لكى يصبح بالتالى ملكاً له . ولكن القانون وحده هو الذى يحدد أصول هذه الملكية .

ويحدد هيجل ثلاثة أنواع من العلاقات بين نفرد والأشياء :

١ - علاقة الفرد بالأشياء بوصفها أدوات له .

(١) entfremdete وهى غير Entaussern أو الغريبة .

٢ - علاقة الفرد بالأشياء بوصفها ممتلكات له .

٣ - مقاومة الأشياء لإرادة الأفراد ، وما ينتج عنها من فقدان لحرية .

يقول الشخص عن الأشياء التي يستخدمها ، إنها « له » ، وهي ترتبط بإرادته على نحو إيجابي . وبدون عملية الاستعمال هذه ، تكون الأشياء ذات قيمة سلبية بالنسبة له . واستعمال الأشياء يحقق في الحقيقة ثمة غاية لها . وقد يحدث أن يتكرر هذا الاستعمال لها ، بوصفها أدوات لنا ، وعندئذ يصبح الشيء في ظاهره أنه لي ، وأنتى صاحبه . ذلك لأن كثرة استعماله له ، لا يسمح بأن يكون هذا الشيء ملكاً للآخرين .

إن الشيء الذي يخضع لإرادتي ، ويكون في الوقت ذاته قابلاً نظرياً للخضوع لإرادة الآخرين ، هو الذي يتطلب القانون ويستلزمه . فالقانون يضع حداً للصراع بين الإرادات والحريات . ومن هنا كان يفرق ويميز بين وضعين مختلفين : استعمال الشيء ، وامتلاكه . فقد يستعمله شخص بدون حق في امتلاكه ، وقد يمتلكه شخص ولا يستطيع استعماله ، لأن هناك شخصاً آخر يفرض إرادته بالقوة عليه . ومن الواضح أن هناك أشياء يمكن أن يستخدمها هذا الشخص أو ذاك دون أن تصبح ملكاً لواحد منهم . ولكن القانون وحده هو الذي يمكن أن ينظم في هذه الحالة العلاقات بين الأفراد والأشياء .

وبعض النظم السياسية تسمح لبعض الأشخاص بامتلاك الأشياء وعدم السماح للآخرين باستعمالها ، أو الإفادة منها . وهذا هو النظام الإقطاعي . كذلك قد أملك شيئاً ، ثم أفقد ملكيته ، وهذا يحدث من حرية وإرادتي . لذلك يظهر القانون ليضمن حق في الملكية ، ولا يسمح بفقدانه .

ويذهب هيجل إلى القول بأن هناك أفراداً تستخدم ما ينتجه أناس آخرون . ومن الممكن أن يكون هذا الإنتاج ، إما إنتاجاً فنياً ، أو صناعياً . ولا بد في هذه الحالة من تقييم للأشياء ، حتى تنتقل ملكية هذه المنتجات بطريقة مشروعة إلى الآخرين . ولا يفقد المنتج ولا الفنان ، حقه باستخدام الآخرين لهذه المنتجات . ويؤكد القانون ، حق الاختراع بالنسبة للعلماء ، وحق الإنتاج الفني بالنسبة للكاتب والفنانين . وهو يكفل حرية التقدم للعلوم والفنون ، كما يكفل حرية الصناعة والتجارة .

ويجب أن نشير إلى جانب آخر من القانون ، لا يقوم على علاقة الأفراد بالأشياء بقدر ما يقوم على علاقة الأفراد بعضهم ببعض . وهذه العلاقة يحددها « عقد » contract بين الأشخاص . وهذا التعاقد يكفل حرية الأفراد معنوياً ، حتى وإن كانت أملاكهم غير متساوية . والعقد الاجتماعي يحدد حرية كل فرد ، بالنسبة للفرد الآخر ، ولا معنى لحرية

شخص إلا بجانب حرية الشخص الآخر . ومن أمثلة العقود الاجتماعية ، عقد الزواج ، الذى يسجل إرادة الطرفين فى حياة مشتركة . وكل عقد اجتماعى يستلزم موافقة واتفاق الطرفين ، أو الأطراف المتعاقدة . ويمكن أن يتفق الأفراد فيما بينهم على عقود عرفية ، لا تكون لها الصفة القانونية بأية صورة من الصور .

ولما كان الإنسان بطبيعته له بعض النزعات العدوانية ، فإن هناك القانون الجنائى الذى يفرض العقوبة على هؤلاء الأفراد . وتختلف القوانين والتشريعات من دولة إلى أخرى ، ومن عصر إلى آخر . ولا يستطيع أحد أن يزعم ، أن القانون يجب أن يكون جامداً وثابتاً ، لا يتغير فى صورته أو مضمونه . وعلى الأقل فهناك تطور فى فهم القانون ، ولا يمكن أن يفسر القانون بنفس الروح ، فى المجتمع القديم والحديث .

والغرض من وضع القانون الجنائى ، هو المحافظة على الحياة الأخلاقية فى الدولة . فالدولة كما يقول هيجل ، هى الحياة الأخلاقية *sitt lich* ، لأنه وحدة الإرادة الكلية والإرادة الذاتية .

يقول هيجل : إن التاريخ الكلى لا يهتم إلا بالشعوب التى تكون الدول . ذلك لأن الدولة هى تحقيق للحرية ، بوصفها الهدف المطلق لوجودها لذاتها . ويجب أن نعلم أن كل قيمة الإنسان وواقعه الروحى ، لا تكون إلا بفضل الدولة . ومعنى ذلك أن الإنسان لا يشعر بحقيقته الروحية إلا من خلال العادات والتقاليد ، والحياة الأخلاقية والقانونية للدولة

وقد يعتقد بعض الفلاسفة عكس ذلك ، وقد يظنون أن الإنسان لا يشعر بحريته إلا فى حالة الفطرة الأولى . أما الدولة والمجتمع فهما يقيدان هذه الحرية الطبيعية . ولكن هيجل يرد على أولئك الفلاسفة بقوله ، إنهم يسلمون بحالة طبيعية للإنسان ، تكون له فيها جميع حقوقه الطبيعية التى تكفل له ممارسة الحرية بدون حد أو شرط . ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية ، فإننا لا نصادف مثل هذه الحالة الطبيعية التى يتكلمون عنها ، والتى لا مثل لها فى العصور الحديثة . قد نجد فى ماضى الإنسانية عصوراً للبربرية والوحشية ، والعنف ، ارتبطت بمؤسسات اجتماعية محدودة من حيث الحرية . لذلك فأصحاب هذا الرأى يعجزون عن إيجاد أى تبرير تاريخى له .

الدولة والحرية : هذه هى نظرية هيجل فى الدولة ، وهى أنها تحقيق للحرية ولوحدية الإرادة العامة ، والإرادة الذاتية . إن الحرية فى نظره ، كمثل أعلى ، لا تعطى فى حالة مباشرة وطبيعية ؛ إنما هى تكتسب بالتربية للعقل وللإرادة .

ويجب أن نسلم بأن حالة الفطرة ، وحالة الطبيعة ، تتسم بالظلم والعنف ، فى الأفعال

والمشاعر الإنسانية . والمجتمع والدولة يضعان حدوداً لهذا العنف ، وللغرائز الطبيعية بانفعالها وأهوائها ؛ ويفرضان على الإنسان وعياً عاقلاً بحريته ، وإرادته . ومن تصور الدولة للحرية ، ينشأ القانون ، والعادات والتقاليد ، وهذا التصور يختلف عن الإحساس بالحرية أو الإرادة الحسية لها . فالتصور يفرضه العقل ، لا العاطفة ، ولا الإرادة العشوائية . والدولة تعطى له مضموناً عاماً ، وأهدافاً عامة .

تطور الدولة : إنه يقوم على تطور « الحق » حتى يأخذ الصورة القانونية في الدولة .

ويميز هيجل بين حالات متعددة للدولة في أثناء تطورها

١ - الحالة البربرية^(١) : إنها تعتبر سواء بالنسبة لكل الحالات أو لبعض تفرعاتها الخاصة ، الشرط الذي يحقق العنصر القانوني والأخلاقي (Sittlich) ويشيع العنصر العاطفي ، حتى إن العدالة لا تتم حقيقة إلا إذا ارتبطت بهذا العنصر الأخير ، وبمضمونه حتى^(٢) . وتعد الأسرة الأساس الذي تقوم عليه ، وتضاف إليها الدولة فيما بعد . إنها حالة انتقالية ، لأن الأسرة قد صارت قبيلة أو شعباً ، ولم تعد العلاقة الرابطة بين الأفراد علاقة حب وثقة ، بل علاقة خدمات^(٣) . وعلى أساس الحالة البربرية ، يمكن أن تصبح الدولة نظاماً دينياً théo cratie ويكون فيها رئيس القبيلة كاهناً .

٢ - الدولة والدين : في هذه الحالة تكون الدولة دينية ، ولا شك أن مفهوم هيجل للدولة الدينية ، مفهوم ضعيف للغاية ، لم يتجاوز فيه مرحلة القبيلة والحالة البربرية التي يتحدث عنها . ومن الواضح أن هيجل لا يخرج عن مفهوم المسيحية للسلطة الدينية التي يجب أن تفصل عن السلطة السياسية .

واهتم هيجل بالصلة بين الدولة والدين - في الدول الإغريقية القديمة - من الناحية الأخلاقية فحسب . أما ابن خلدون فهو يكشف عن أبعاد سياسية لها ، ثم عن عمق النظر ودقة البحث . يقول ابن خلدون : إن الدول العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك ، أصلها الدين ، إما من نبوة أو دعوة حق . ذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة . وجمع القلوب وتأليفها ، إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه ، قال تعالى : لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ، ما ألفت بين قلوبهم .

(١) هذه ترجمة لكلمة Patriarcal كما وردت في معجم مصطلحات علم الاجتماع ، ومنهاها نظام سلطة الأب .

(٢) دروس في فلسفة التاريخ ص ٤٧

(٣) دروس في فلسفة التاريخ ص ٤٨ .

والدعوة الدينية في نظر ابن خلدون ، تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة . ذلك لأن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية ، وتفرد الوجهة إلى الحق . . . لذلك تغلب العرب على غيرهم من الشعوب ، وعاجلوهم بالفناء . « وفي صدر الإسلام ، في الفتوحات ، كانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بعضاً وثلاثين ألفاً في كل معسكر ، وجموع فارص مائة وعشرون ألفاً بالقادسية ، وجموع هرقل على ما قاله الواقدي ، أربعمائة ألف ، فلم يقف للعرب أحد من الجانبيين ، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم » . وذلك معناه أن الاجتماع الديني يضاعف من قوة العصبية ولا يضعفها .

٣ - الدولة والدستور :

ويتساءل هيجل : من الذي يضع دستور الدولة ؟ هل هم الساسة أم الشعب ؟ لقد اعتقد المفكرون في عصره ، وخاصة مفكرو فرنسا مثل جان جاك روسو ، أن الشعب وحده هو صاحب الحق في التشريع . ولكن هيجل يرى ثمة خطورة في هذا الزعم . فن يقول إن الشعب وحده يعرف الحق ، وأنه صاحب العقل والحكمة ؟ كل جزء من الشعب يمكن أن يزعم أنه هو الشعب ، والدولة بحاجة إلى معرفة طبقة مثقفة لا إلى الشعب^(١) .

وإذا افترضنا أن الحرية السياسية في الدولة ، تقوم على أساس الحرية الفردية ، وأن كل ما يصدر من أعمال في الدولة إنما يكون بموافقة الأشخاص ، فإن هذه الدولة لا دستور لها . وتبقى مجرد شيء مجرد ، ليس له غير وجود عام في المواطنين . ولا بد من وضع نظام يبين عدد الأفراد الذين يوافقون على الاقتراح ، والذين لا يوافقون . وهناك حاجة للحكومة والإدارة في الدولة ، وهذه الحاجة تجعل الناس تنقسم إلى فريقين ، فريق يحكم ويأمر ، وفريق محكوم ومأمور . حتى في النظم الديمقراطية التي تفرض أن الشعب هو الحاكم ، في حالة الحرب ، لا بد من وجود قائد ليقود الجيش .

إن الدستور وحده هو الذي يسمح للدولة المجردة ، أن تحيا وتتحقق في الواقع ، وعندئذ يظهر الفرق بين الذين يأمرون والذين يطيعون^(٢) . وقد يبدو أن الطاعة لا تتفق مع الحرية ، وأن الذين يأمرون ، إنما يفعلون عكس ما تتأسس عليه الدولة من تصور للحرية .

لذلك فالفرقة بين الذين يأمرون ، والذين يطيعون ، إنما هي تقع خارج نطاق ومفهوم الحرية . ويجب أن تحاول الدول أن تجعل المواطنين يطيعون الأوامر في حدود ضيقة ، وأن يساهم أكبر عدد من المواطنين في تحديد هذه الأوامر ، وبعبارة أخرى ، أن تتحدد الأوامر بإرادة

(١) نفس المرجع . . . ص ٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٩

الشعب . وهكذا تستطيع الدولة أن تحافظ على وحدة أفرادها وطاقها ، وقدرتها .

النظم السياسية : يميز هيجل بين ثلاثة ضروب من النظم السياسية : الملكية ، والأرستقراطية ، والديموقراطية .

تنقسم الملكية إلى ملكية مستبدة ، وملكية بالمعنى الصحيح . ولحق أن هيجل يعتقد أن العصور الحديثة أصبحت ترى أن النظام الجمهورى هو من الوجهة النظرية ، النظام السياسى الوحيد الذى يقوم على دستور عادل . وأن من الناس الذين يعيشون فى النظم الملكية ، من يسلم بمثل هذا رأى . ولكنهم فى الوقت ذاته يعتقدون أن الجمهورية لا تتحقق عملياً فى كل مكان ، وأن الناس عليها أحياناً أن يتكئى بقدر أقل من الحرية .

والملكية الاستبدادية هى الصورة الأولى للملكية حيث يخضع الشعب للحاكم بدافع من الخوف منه . وتأخذ هذه الملكية شكلاً عسكرياً .

ومن هنا يفرق هيجل بين الملكية البربرية والملكية العسكرية . ويؤكد هيجل أنه من الخطأ أن نظن أن النظم السياسية المعاصرة أو الحديثة تقتدى بالنظم القديمة . قد تقتدى بالفن القديم ، أو بالفلسفة القديمة ، أما فى مجال السياسة ، فهناك تطور فى مفهوم الفضيلة والعدالة . وقد نعجب اليوم بالنظام الأبوى فى الشرق القديم ، وبالحرية المدنية عند الإغريق والرومان . ولكن الدول اليوم أصبحت أكثر اتساعاً من الدول القديمة ، وعدد المواطنين أصبح كبيراً إلى الحد الذى لا يسمح بأن يشاركوا جميعاً على نحو مباشر فى نظام الدولة ودستورها . ومن هنا كان نظام التمثيل والانتخاب .

وبعض الدول تفرض النظم الأرستقراطية وسيادة الطبقة الأرستقراطية على الشعب ، أما الدول الأخرى فهى تفرض الديمقراطية أى سيادة الشعب وجموعه .

كل آراء هيجل التى يعرضها عن السياسة والدولة ، هى آراء مجردة للغاية ، وينقصها الكثير من الدقة والعمق . وإذا كانت السياسة من أهم مظاهر الحضارة ، إذ بدونها لا تتحد إرادات الأفراد ، ولا تتحقق له حريتهم ، فإن الدولة هى التى ترعى الأفراد وتصون حرياتهم فى ظل القانون . ونحن نجد من المؤرخين ، من اهتم بهذا الجانب السياسى على نحو خاص ، وخرجوا من دراساتهم بالعبارة والعظة . . ولكن حياة الأمم تجعل الحاضر فى ثوب مختلفة عن الماضى ، ويجب أن نتعلم من حاضرنا أكثر من ماضينا .

ولا ننسى فى هذا المجال أن نقول إن أفلاطون من جانبه قد أفاض فى فلسفته السياسية التى عرضها فى الجمهورية فى وصف النظم السياسية ، أنواعها وتطورها ، ونشأتها وتدهورها ، بصورة أوضح من هيجل .

٤ - الدين

من أهم مقومات الحضارة في نظر هيجل ، حتى أنه قد جعل منه أساساً للفن (٢) .
والدين هو حضور الحقيقة النظرية في عنصر خاص هو التمثل *vorstellung* ويقول
هيوليت : إن الدين بالنسبة لهيجل ليس كالدين بالنسبة للتوير ، أى تأليهاً مجرداً ، ولا كالدين
بالنسبة لكنت وفشته أى امتداداً للحياة الأخلاقية ، ومسلمة للعقل العملي . فمثل هذه المثالية
الأخلاقية ، قد تجاوزها فلاسفة وكتاب العصر في مجال علم الجمال مثل شيلر ، وفي مجال
الدين مثل شلايماخر (٢)

وإذا كان كنت قد حاول أن يطهر الدين من كل عنصر إيجابي أو تاريخي ، فإن هيجل
قد حاول في مرات عديدة أن يؤكد العناصر الإيجابية والوضعية في الدين ، لا سيما في الكتاب
الذي ألقه في مرحلة الشباب ، وهو « حياة المسيح » .

والدين يختلف عن الأخلاق ، ذلك لأنه من حيث هو « دين للشعب » ، فإنه يترجم عن
رؤية أصيلة للعالم ؛ كذلك لا ينبغي أن نهمل العنصر التاريخي فيه .

إن وعي الشعب بذاته في التاريخ ، هو ما يعبر عنه الدين ، وبالتالي فهو يتجاوز
الظروف الزمنية التي ساعدت على ظهوره . إن الدين يكشف على نحو ما عن عبقرية الشعب ،
وعوي الروح بذاته . ولقد حاول هيجل تحت تأثير صديقه وزميله الشاعر هولدرلين *Holderlin* ،
أن يكشف عن عبقرية الشعب اليوناني من خلال تحليله لأساطيره . كانت الديانات الإغريقية
في نظره عملاً فنياً يعبر عن فهم خاص بالإنسانية .

ويبدو أن شلايماخر هو الذي أوحى إلى هيجل بالصلة بين الدين والفن . إذ كان يقول
« إنهما - الدين والفن - صديقان يشعران بالتجاوب النفسى بينهما » ، وكان يتحدث عن
الدين ، وكأنه يتحدث عن الموسيقى : إن المشاعر الدينية يجب أن تلازم جميع أفعال الإنسان ،
وكانها أنغام مقدسة (٣) . والدين هو الذي يحيل الألحان البسيطة في الحياة إلى انسجام موسيقى.
والكهنة هم العازفون ، أو فنانون الدين الذين يعلمون الناس الإحساس المباشر بالعالم .

تعريف الدين : يذهب هيجل إلى أن الدين هو وعي الروح بذاته ، وليس في الحقيقة

(١) إن هيجل لا يفصل بين الفن والدين حتى في الدروس في فلسفة الجمال .

(٢) هيوليت : تكوين وبناء ظاهريات الروح . . . ص ٥١١ .

(٣) نفس المرجع ص ٥١٣ .

علماً للروح بذاته . فعلم الروح هو علم مطلق *Savoir absolu* ، يتجاوز مرحلة الوعي الديني . لكن أليس في ذلك إجحاف بالدين ؟ وألم يكن هيغل يسهل بذلك مهمة فيورباخ *Feuerbach* في نقض الدين وجوهره ؟ ربما لا يوافق هيغل فلاسفة آخرون في هذا الرأي ، إذ أن الدين في نظرهم ، لا يتخلو من العلم ، والعلم الصحيح . إذ كيف يكون الدين خالياً من كل مضمون ذهني أو عقلي ؟

لقد حاول كرونر أن يفسر الدين لعند هيغل ، تفسيراً جوهرياً وماهويّاً *nouménologique*

لا تفسيراً ظاهرياً *Phénoménologique*

فالدين ليس مظهراً لتجلي الروح ، ولكنه هو ماهية الروح وجوهره « الدين هو وعي الروح المطلق بذاته ، كما يتمثله الروح النهائي »^(١) .

إن المظهر الخارجي للدين ، هو في تمثّل الشعب أو الجماعة المشتركة ، للروح المطلق ، في التاريخ ، ومن هذه الناحية ، يمكن أن يكون موضوعاً لدراسة فينومينولوجية . أما إذا نظرنا إلى الدين بوصفه وعياً للروح المطلق بذاته ، فإنه يكون موضوعاً للدراسة الماهوية . وهذا تأكيد للصلة بين الدين والناس ، والدين والله .

الدين والشعب : (ابن خلدون) .

كان ابن خلدون يؤكد الصلة بين الإسلام والعرب ، وأن الإسلام إنما جاء هداية لهذه الأمة التي تتصف بالبداوة والعصبية . فالإسلام يدعوهم إلى ترك التنافس ، والغلظة والأنفة ، ومذمومات الأخلاق ، والقيام على دين الله ، الذي يؤلف كلمتهم لإظهار الحق . فقد كانوا « أكثر بداوة من سائر الأمم ، وأبعد مجابلاً في القفر » .

وكان من نتيجة هذه الصلة القوية بين الدين الإسلامي ، والأمة العربية ، أن كانت السياسة ، سياسة دينية ، نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » (صدق الله العظيم) . فجاءت الشرائع لتحديد عباداتهم ، ومعاملاتهم . « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما هي أعمالكم ترد عليكم » ، ولا كانت أحكام السياسة إنما تهدف إلى تحقيق المصالح الدنيوية ، فوجب بمقتضى الشرائع ، حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم . وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ، ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء . فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

وكان لكل ملة أممها التي تختار من يقوم على أمرها في غيبة النبي . والملة الإسلامية ،

(١) كرونر - نقلاً عن هيوليت ، نفس المرجع ص ٥١٥

لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة ، وحمل الكافة على دين الله ، طوعاً أو كرهاً ، اتخذت فيها الخلافة . أما سوى الملة الإسلامية ، فلم تكن دعوتهم عامة ، ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط ، فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك ، وإنما وقع الملك لمن وقع منهم ، بالعرض ، ولأمر غير ديني . ولذلك بنى إسرائيل أربعمئة عام لا يعتنون بشيء من أمر الملك ، إنما همهم إقامة دينهم فقط ، وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن ، يقيم لهم أمر الصلاة والتقربات ، ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هرون لأن موسى لم يعقب .

ولما جاءت المسيحية ، كان الذي يقوم على الدين ومراسته هو البطرك ، وهو رئيس الملة وخليفة المسيح ، يبعث نوابه وخلفاءه في الأمم النصرانية ، ويسمونهم الأساقفة . أما التساوية فكانوا يفتنون في الدين ويقيمون الصلوات ، أما الرهبان فكانوا يتعبدون في الخلوة أو الصوامع (١) .

وجدريد بالذكر أن هناك كنيسة في روما وهو صاحب الكرسي الأعظم عندهم ، لأنه كرسى بطرس الرسول . والكنيسة الثانية هي التي يرأسها بطرك المعاهدين بمصر على رأى يعقوبية ، وأهل الحيشة يدينون بدينهم .

هذا ما يقوله ابن خلدون عن الدين وعلاقته بالشعب أو الأمة من جانب ، وعلاقته بأمر السياسة من جانب آخر . وهذا يؤكد جانباً خاصاً من جوانب الدين ، لم يتناوله هيغل بطبيعة الحال ، بالبحث والدراسة ، لأنه تقيد بالنظرة المسيحية ومفهومها للدين .

جدل الدين : يعتقد هيغل أن هناك جدلاً وتطوراً للدين ، حدث في خلال التاريخ ، وأن الصور المختلفة التي اتخذها الدين ، في خلال تاريخه ، إنما هي تعبير عن تدرج الروح في الكشف عن ذاته ولذاته . ولا غرابة عند هيغل أن يكون الروح واحداً ، وأن يتخذ الدين صوراً وأشكالاً متنوعة . تلك هي طبيعة الجدل أو الصيرورة ، التي تجيز ظهور التناقض ، وتجاوزه في مرحلة أخيرة ، ينتهي عندها كل تطور وتقدم .

لكن كيف يمكن أن يتصور هيغل في لاهوته ، الصلة بين الروح اللانهائي - الله - والروح النهائي - الإنسان - ؟ وهل يقوم الدين على تمثل النهائي للانهائي ؟ أم أن الله هو الذي يكشف عن ذاته للإنسان ؟ إن هيغل في الحقيقة ، يذهب في تفكيره إلى أبعد من ذلك فيتصور أن الله ذاته ، أو الروح المطلق والانهائي ، هو الذي يعي ذاته ويدركها في خلال التاريخ .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٠ وما يليها .

وهذه النظرية قد لا تتف في نظر البعض مع العلو الإلهي ، وصفات الله من عام محض ، وإرادة ومتيثة خالصة . ويبدو أن نظرية هيغل اللاهوتية عن الجدل الإلهي إنما هي قائمة على تصور رمزي للألوهية ، لا على تصور عقلي خالص . فكيف يحدث أن الجوهر الخالص يعنى نفسه في خلال هذا الجدل التاريخي ؟ وقد يكون التاريخ والزمية بالنسبة للإنسان وحده ، أما الله فليس بحاجة إلى الزمان للوعي بذاته ، وتعلم بها .

قد يكون من الأفضل أن نقول إن الدين يعبر عن الكشف الإلهي بالنسبة للناس . في الزمان والمكان. وتاريخ الأديان، ما هو إلا تاريخ لهذا الكشف. أما قول هيغل، بأن الروح المطلق يتكشف لذاته كما يتكشف للناس في خلال التاريخ ، فهذه نظرية خاصة قد سبقه إليها شلنج في كتابه عن « فلسفة الأساطير » . فلقد تصور الفلاسفة الألمان ، أن الله هو الحقيقة الحية ، ومن ماهية الله أن يتجلى في التاريخ بوصفه الحياة الأزلية . والمسيحية في نظرهم ، هي الصورة الكاملة لهذا التجلي ولهذا الوعي الإلهي بذاته .

ويتساءل بعض شراح هيغل - هيوليت ، هل نحن أمام نظرية صوفية ، يتبع فيها هيغل آراء إيكارت Eckhart ، ويعقوب بوم Jacob Boehme ، أم أنه يقدم هنا نظرية أنثروبولوجية للدين ، هي مقدمة لفلسفة فيورباخ ؟

يقول هيوليت : ^(١) كان يحلو لهيغل أن يستشهد بقول إيكارت : إن العين التي يراى الله بها ، هي العين التي أراه بها ، فعين وعينه عين واحدة . . . وكانت صلته قوية باللاهوتى الألماني بوم ، وقد ذكره في « تاريخ الفلسفة » وهو يقول : إنه يبحث عن الله كذات ، وعن حياته الشخصية ، بوصفها علماً بذاته . ولقد حاول الفيلسوف الألماني أن يكشف في التاريخ عن صورة منعكسة للألوهية . وكتابه « السر الكبير » *Mysterium Magnum* يعبر عن رغبة الله وإرادته في الكشف عن سره الكبير .

ومع ذلك لا نستطيع أن نقول إن هيغل كان صوفياً ، لأن الروح المطلق لا يتجلى في الأفراد ، بل في الشعوب . وهو لا يقدم لنا أنثروبولوجية لاهوتية مثل فيورباخ ، لأنه يعتقد أنه إذا كان الله يتجلى لذاته في تاريخ الإنسانية ، فإن الإنسان لا يؤثر في هذا التجلي وهذا الوعي . ومن الخطأ أن نعتقد أنه سبق فيورباخ إلى القول بأن : الله هو الإنسان والإنسان هو الله .

مراحل الدين :

١ - دين الطبيعة أو الدين الطبيعي : يميز هيغل بين ثلاث مراحل في تطور الدين

(١) تكوين وبناء الظاهريات . . . ص ٥٢٣ .

تطوراً جديلاً : دين الطبيعة ، دين الفن ، الدين المنزل :

أما دين الطبيعة فهو يطابق الوعي المباشر للروح بذاته ، بوصفه وجوداً مباشراً ، ودين الفن هو تجلي الروح لذاته ، في الفن والأعمال الفنية . أما الدين المنزل فهو يطابق مرحلة العقل التي يتجلى فيها الروح لذاته كما هو في ذاته . وكل مرحلة من هذه المراحل ، تعبر عن الروح في التاريخ ، تعبيراً حقيقياً وواقعياً .

وفي دين الطبيعة ، يؤله الروح الموضوعات الطبيعية ، إنه دين يؤله النور ، أو النباتات أو الحيوانات . ويعتقد هيجل أن دين الطبيعة يمكن أن تكون له بعض مظاهر الفن ، ولكنه فن قائم على الصنعة مثل بناء الأهرامات والمسلات .

والروح يتجلى لذاته بصورة مباشرة ، كنور للشمس المشرقة . ولكن الشمس المحسوسة هي مجرد رمز للنور الإلهي^(١) . وقد يتفق في هذه الحالة يقين الوعي المباشر للروح ، يقين الوعي الحسي وإذا كان الوعي بالذات لا يكشف للروح في أعماقه عن ماهيته المظلمة ، فإنه مع ذلك يتجلى على نحو مباشر في العالم المحسوس ، وفي موضوعاته المختلفة . والمطلق يظهر في هذه المرحلة ، « كنور الشرق الذي يحوى ويملاً كل شيء ، ومع ذلك يحتفظ بجوهره » .

إن هذا الجوهر هو في صورته الأولى ، نفي للنهائي . ويظهر لنا في علو المطلق في الخلق والخلق . لذلك فالحياة الدينية في هذه المرحلة ، هي حياة سلبية ، تقوم على سلب الإنسان لقدرته الذاتية . ولقد تخيل الإنسان المطلق في مظاهر الطبيعة ، في النباتات والحيوانات . وهذه هي وحدة الوجود .

وتمثل المطلق في النبات يعبر عن البراءة والصفاء ، بينما تمثل المطلق في الحيوان ، يعبر عن النزاع والصراع في الحياة . هذه الأشكال الحيوانية إنما ترمز إلى الصراع بين الجماعات والشعوب التي تتقاتل مثل الحيوانات حتى الموت .

إن الروح يتجلى في هذه المرحلة بوصفه صانعاً Artisan ، وأعماله هي أعمال غريزية مثل النحل الذي يصنع الخلايا . إنه لا يدرك ذاته بفكره أو عقله ؛ وأعماله لاشعورية . والأهرامات والمسلات ، هي من نتاج هذا اللاشعور . ومن الواضح أن هيجل يقوم بتفرقة واضحة بين الفن المصري والفن الإغريقي . فما يعنيه بالإهرامات والمسلات ، إنما هو الفن المصري الذي في نظره لا يعبر عن فكرة معينة . ولا أجد تفسيراً لهذا الرأي ، إلا عجز هيجل عن فهم الفن المصري القديم الذي لم يشاهده على حقيقته . أسمع هيجل عن أبي الهول والأهرامات ، وتعددت القصص والروايات عن هذه العجائب ، فحار في فهمها ، وعجز عن إيجاد الفكرة التي تعبر عنها .

(١) ظاهريات الروح ، الجزء الثاني ص ٢١٨ .

من يفهم الصوت الصادر من تمثال ممنون Nemnon ؟

دين الفن أو الدين الجمالي : إذا كان الدين الطبيعي يعبر عن دين الشرق القديم، مصر والهند وفارس ، فإن الدين الجمالي هو في نظر هيجل ، دين الإغريق . وكأن الروح الإغريقي الذى جسد الأخلاق والفضيلة — كما يقول هيجل — يجسد الجمال والفن أيضًا . وكما عبر عن التسمية الجميلة ، بالأخلاق، فإنه يعبر عنها هذه المرة بالفن وفى كلتا الحالتين ، يشعر الإغريقي بحريته كإنسان وفنان .

كان الفن المصرى القديم — فى نظر هيجل — عملاً صناعياً ، أو عملاً تركيبياً ، يؤلف ويخلط بين العناصر والأشكال الغريبة ، وبخاصة بين المنكر والطبيعة . أما الفن الإغريقي فهو وحده الذى يعبر عن وعى الروح . إنه الروح الحقيقى ، أو الروح الأخلاقى ، الجوهر الكلى ، والماهية المضيئة^(١) ، والحرية الكلية لجميع الأفراد . هذا الروح هو روح الشعب الحر ، الذى يمثل التوافق بين الإرادة العامة والإرادة الفردية ، وهذا التوافق يحقق السعادة للشعب الحرة ولكن الإنسان الإغريقي الذى يدرك ذاته فى نهائيتها ، يظل محدوداً فى وعيه وتفكيره . فمن قبله ، كانت الطبيعة تصرع الإنسان وتقهره ، ومن بعده تجاوز الإنسان ذاته فى اللانهاية .

إن الشعب الإغريقي يمثل شباب الروح jeunesse de l'esprit ولكن هذا الروح لا يعنى ذاته ، إلا فى الإنسانية المحدودة والنهائية .

ويقول هيجل : إن الروح الإغريقي ، هو قمة للحضارة ، وبداية لسقوطها وأفولها . فهذا الوعي بالذات قد أفقد الروح صلته المباشرة بالطبيعة . وهو يحيل الجوهر الكلى إلى ذاتية كلية . ويظهر جمال الفن القديم ، فى الروح الذى ارتفع فوق الواقع ، وأدرك حقيقته الذاتية . إنه تذكر لبطون هذا الوجود الروحي Erinnerung .

تلك لحظة هامة فى تاريخ الشعوب ، يعلو فيها الفكر والروح على الواقع . ويحاول فيها « الروح الوطنى والقوى ، أن يدرك ذاته فى العمل الفنى^(٢) » وأنه من الضرورى على كل روح قوى ، أن ينتجز هذا العمل ، ولكن هذا الإنجاز هو فى الوقت ذاته إعلان بنهاية هذه المرحلة وإبذان مجلول مرحلة جديدة للروح؛

إن العمل الفنى يكون فى بداية الأمر عملاً مجرداً ، وانتقال إلى الجوهر المحرد والتصور الخالص كل ما يمكن أن يتمثله الروح موضوعياً ، يظهر فى هذا العمل الفنى اللينى^(٣) ، إلا التصور ذاته ، واليقين المطلق للروح بذاته . والروح الإغريقي هو ذلك الروح الذى يتجلى فى الخارج ،

(١) ظاهريات الروح ، الجزء الثانى ص ٢٢٦

(٢) ظاهريات الروح . ص ٢٦ الجزء الثانى .

ولكنه لا يعلم من أمر الروح وذاتيته : إلا هذه المظاهر الخارجية . تلك المظاهرة لا تظهر إلا في وضوح النهار ، والروح الفنى لا يعرف غير العمل في النور : ولا يجيء في ظلام الليل الخالك .

ويعتقد هيجل ، أن المأساة الإغريقية القديمة (التراجيديا) ، التى كانت مجرد تمثيل ، كانت تنذر بالدراما المسيحية ، وبجياة وموت الإله في التاريخ . ولذلك يجب أن نفرق بين ثلاث مراحل للعمل الفنى الدينى : العمل الفنى المجرد ، والعمل الفنى الحى ، والعمل الفنى الروحى .

(١) العمل الفنى المجرد :

في هذا العمل ، يظهر الروح الأخلاقى في الأشكال الإلهية المجردة . ولقد تمثل الفنانون الإغريقيون آلهة الأولب في صور وأشكال فنية ، كما عبروا عن الروح الدينى في الأشعار والملامح . وتمثل الآلهة هو في حد ذاته ، تمثل مجرد بقدر ما فيه من الموضوعية . فالننان هنا ينسب ذاته ، أمام العمل الفنى . والصورة التشكيلية للآلهة ، هى صورة مجردة من ذاتية الفنان ، ولكنها صورة مجردة للإنسان ، وجميع أشكال الحيوانات التى تلازمها ، إنما هى مجرد رموز ، وبعبارة أخرى ، ليس لها إلا دلالة رمزية مثل نسر زيوس وطائر ميزفا (إلهة الحكمة) . مثل هذه الأشكال لا تمثل فقط قوى الطبيعة العنصرية ، ولكنها تمثل روح الشعوب الواعية بذاتها . وكانت المدن القديمة تقس ذاتها في عبادتها للآلهة .

وكانت الملامح والأناشيد التى يتغنى بها الشعب الإغريقى ، صافية خالصة ، يفيض أسلوبها بالرفقة واللطف . ويجب علينا أن نشير إلى نيتشه Nietzsche ، عندما فرق بين اتجاهين في الفن الإغريقى ، الاتجاه الأبولونى ، والاتجاه الديونيسوسى ، الأول يمثل القوة ، والثانى الرقة أما العبادات والطقوس الدينية عند الإغريق ، فكانت تعبر عن الوحدة الحية بين الآلهة والبشر . وكان الضمير الإنسانى يتقرب إلى الإله الأولبى ، وبالتبادل ، كان الإله يجد في الإنسان وعياً لذاته هو . ومن أقوال هولدرلين الشاعر إن الآلهة كانت تكتسب وعيها بذاتها عند نداء الإنسان لها : « إن الآلهة ترقد في أعماق القلوب الإنسانية » .

وحقيقة الآلهة لا تكتمل بدون الإنسان ، وكذلك لا يجد الإنسان إنسانيته إلا عندما يرتفع إلى الآلهة . وكل الطقوس اليونانية القديمة ، إنما تعبر عن سعادة الإنسان بالآلهة ، وعن فرحة الآلهة بالبشر . إن الضمير الإغريقى لا يعرف معنى الخطيئة ، كما عرفها الضمير المسيحى وربما تكون هذه البراءة ، أو هذه النقاوة ، وهذا الطهر حالة سطحية ونحرجية قد أصابت هذا الضمير ، ولكن من المؤكد أن الإنسان قد تخلى عن ذاتيته ، كما تخلت الآلهة عن جوهرها الكلى . وعلى هذا الأساس قامت الصلة الدينية بين الآلهة والبشر .

(ب) العمل الفني الحسى :

مع تقدم الحضارة الإغريقية . تقدم الفن الحسى وتطور . وانتقل من المرحلة المجردة ، إلى المرحلة الحسية التى يدرك فيها الإنسان ماهيته مع المادة الإلهية . ويعتقد هيجل أن أسرار كيريس Gères وديونيسوس Dionysos ، تعبر عن وحدة . أهمية الإنسان والإله . وهذه الأسرار قد تكون بعيدة عن الصوفية الروحية . ولكنها ضرب من الصوفية اللاشعورية للإنسان فى مواجهة الطبيعة . التى تبدو فى نظره تجسيدا للروح فى الخبز والنبيد . إن العمل الفني الحسى يقرب بين الشعب والآلهة ، حيث يرى فيها كمالا لذاته ولروحه . وهذا العمل يكشف عن سر الحياة والوجود (الخبز والنبيد ، اللحم والدم) .

(ج) العمل الفني الروحي :

إن روح الشعب الذى يعى ذاته وماهيته فى صورة حيوان خاص ، يتحد مع أرواح الشعوب الأخرى فى إطار اللغة . وبفضل اللغة يكون وعى الإنسان والشعوب ، للماهية الإنسانية الكلية . ولكن هذه الماهية الإنسانية ، لم تتجاوز فى بداية الأمر حدود الأخلاق والعالم الأخلاقى (épos) . ولا تكون الآلهة فى هذه الحالة ، مجرد تماثيل من المرمر ، ولكنها نجما فى لغة الشعب الذى ارتفع بذاته إلى مرتبة الكلية . فكل أشعار هوميروس ، وتراجديا أسخيلوس وسوفوكليس ، وكوميديا أرسطوفانيس ، تترجم عن هذا الجدل الإنسانى نحو الكلية والألوهية . هذه الأعمال هى صحوة الضمير الإغريقى ويقظته ، وتذكره لماهيته المباشرة . إن الآلهة التى تشارك البشر فى أعمالهم تبدو كبشر من مرتبة عليا ، والناس حين ترتفع إلى درجة الكلية ، تصبح آلهة خالدة .

٣ - الدين المنزل :

هذه هى المرحلة الثالثة فى جدل الدين ، هى فى نظر هيجل تضع نهاية للعالم القديم ، وفيها إرهابات تاريخية بظهور الديانة المسيحية ، التى يتم فيها علم الروح بذاته بوصفه روحا . يقول هيجل : إن المطلق يظهر فى الديانات الشرقية ، كجوهر يفقد الوعى بذاته ، أما الإنسان فهو يظهر كوجود عرضى فى هذا العالم . ويكون الله هو الموجود فى ذاته المجرد . ولكن هذا النحو من الوجود ، هو فى الحقيقة ضرب من السلبية المجردة . حتى ظهر المسيح على الأرض ، بوصفه الإله الحقيقى ، والإنسان الحقيقى ، وفى ذاته ، تتساوى الطبيعة الإلهية . مع الطبيعة الإنسانية . ومن الواضح أن هيجل يفسر شخصية المسيح بوصفه الوحدة الكاملة بين الألوهية والإنسانية . ولقد كان ميلاده وحياته ، وموته وبعثه فى الجماعة الإنسانية ، وبين البشر . وظهور المسيح هو لحظة إيجابية فى تاريخ الإنسانية ، بدأت بحضوره الحسى فى العالم : من رأى ، فقد رأى الأب .

وكما ظهر الإله - الإنسان على الأرض وفي الزمان ، كان لابد أن يختنى من الزمان والمكان . وبموت المسيح ، استحالت الماهية المجردة للذات الإلهية ، إلى ذات فردية وشخصية . والبعث تأكيد لذاته الإلهية .

ومهما كانت آراء هيغل عن الدين المنزك ، فمن الواضح أنه كان من البداية إلى النهاية متأثر بالمسيحية ، ولا عجب في ذلك ، فمن حقه بوصفه فيلسوفاً مسيحياً أن يدافع عن العناصر الإيجابية التي يراها في المسيحية . أما العجب حقاً ، أن تأخذ آراء هيغل كقضية مسلمة ، وتنقل آراءه نقلاً بدون تفرقة أو تمييز بين الأوضاع التي كان يعيش فيها والأوضاع التي نحن نعيش فيها . إن العلو الإلهي الذي يدعو الإسلام إليه ، ليس محوياً وسحقاً لشخصية الإنسان . إنما جاء الإسلام هداية ورحمة بالعالمين . وكانت الرسالة النبوية الشريفة آخر الرسالات ونخائمتها ، وكل الجوانب الإيجابية التي دعت إليها في علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان إنما هي جديرة بالدراسة والبحث .

٥ - الثقافة

تعتبر الثقافة من أهم مظاهر الحضارة الإنسانية . وعالم^(١) الثقافة هو في نظر هيغل عالم الإرادة ، وبعبارة أدق إنه الإرادة ذاتها .

وعصر الثقافة الغربية يبدأ من العصر الوسيط حتى القرن الثامن عشر الذي كان يعيش فيه . ويقول عنه إنه عصر الحضارة Bildung . وكلمة الثقافة لا تعنى فقط الثقافة العقلية ، إنما تعنى الثقافة السياسية والاقتصادية .

وينسب هيغل ظهور الثقافة بكلمة أخرى : هي الغربية Entausserung ، ذلك لأن الثقافة تعبر عن غربة الذات المباشرة التي تمثلت في العالم الأخلاقي . فإذا كان العالم الأخلاقي يعبر عن وحدة الإرادة الذاتية والإرادة الكلية ، فإن عالم الثقافة هو عالم التمزق والانقسام .

وفي هذا العالم ، يصبح الروح غريباً على ذاته . إن الثقافة هي في مظهرها رفض لهذه الماهية Entuvesung وكأن الذات تخرج عن ذاتها extraneation . إن الروح يجأ في عالم فعلي ، ولكنه يفكر ماهيته في عالم آخر . وهذان العالمان هما في الوقت ذاته غريبان ومتضايقان . إن العالم الفعلي يخضع لعناصر متضاربة ومتصارعة ، وهكذا تصبح ماهية الروح غريبة عنه . فجوهر الروح

(١) هذه الكلمة يستخدمها هيغل بالمعنى الروحي لا بالمعنى المادى .

هو غربته ، وغربته هي جوهره الذى تتحد فيه القوى الروحية فى عالم منظم .
على هذا النحو ، يكون جوهر الذات روحا ، ووحدة واعية بالذات وماهيتها . ولكن بين
الذات وماهيتها غربة وتجارجا . والوعى الفعلى بالذات ، الذى يدركها فى موضوعيتها ، يختلف
عن الوعى الخالص للذات بذاتها ، أى بماهيتها .

يقول هيجل إن الروح لا يبنى لذاته عالما واحداً فريداً ، ولكنه يبنى عالما مزدوجاً متعارضاً
ومتفرقا . وعالم الأخلاق يعبر عن حضور الروح حضوراً مباشراً ، بينما عالم الثقافة يعبر عن غربة
الروح entfremdete ، والثقافة وهي مرحلة التناقض وعمدة الجدل عند هيجل ، هي
الصراع بين حياة الذات المباشرة ، ووعياها بغربة جوهرها عنها . والغربة تبدأ عندما تفقد الذات
يقينها المباشر بذاتها وبوجودها الطبيعي . فتحاول أن تتحقق كذات كلية . ويعتقد هيجل أن
التضاد بين الذات وجوهرها يحوى فى ذاته كل الصور الممكنة للتضاد والتناقض فى عالم الثقافة .
فالجوهر يتبدل للذات فى مرحلة الصراع بوصفه الآخر ، لابوصفه عين الذات وجوهرها . وتلك
هي غربة الروح التى يتحدث عنها ، حين يصبح جوهر الذات عالما غريبا عنها ، لا تستطيع أن
تعرف عليه . وهذا هو ما يعنيه بقوله : إن عالم الثقافة يتعين بوصفه خروجا ونفيا للوعى بالذات .
ويجب أن نؤكد أن كل المعانى التى يتحدث عنها هيجل ، إنما هي معان روحية ، لا تعطى
للجوهر وجوداً آخر كشيء فى ذاته أو كطبيعة أخرى تواجه الذات . إنه فقط الروح كما هو ،
وكما يتميز عن الروح الواعى بذاته .

لقد حاول الإنسان مع التقدم الحضارى أن ينتقل من الصورة الجماعية للحياة ، إلى الصورة
ال فردية والذرية . ولكنه عندما يبدأ بالشعور بهذه الوحدة ، وبأن وجوده لذاته إنما هو نوع من
النقص ، فإنه يبدأ فى إدراك مدى ضعف العالم وفقره . وعندئذ يبدأ الإنسان فى التثقف ، ويفقد
حقه الطبيعي فى الحياة ، لكن يكسب جوهره وماهيته . هذا الجوهر فى الحقيقة الذى يريد الإنسان ،
هو الجوهر الكلى للروح ، الغريب تماما عن العالم الفعلى الذى يحيا فيه الإنسان . وقد يكشف
إنسان الجوهر الكلى فى حالة الإيمان foi ، ولكن عالم الإيمان يظل خارجا عن العالم الفعلى
والإحساس بأن عالم الإيمان غريب وبعيد ومفارق هو السبب فى بؤس الضمير . فالإنسان يهرب
من العالم ليجد المطلق الخارج عنه .

الإيمان فى هذه المرحلة من تاريخ الإنسانية ، هو الحلّ الضرورى الذى يحقق التوفيق بين
الفرد والذات الكلية . ومنذ مؤلفات الشباب وهيجل يفرق بين عالم قيصر وملكوت الله ، بين مدينة
الأرض ومدينة الله . ووجود المدينة الأولى هو الوجود الفعلى يتعارض مع الوجود الفكرى للمدينة

الثانية . وكان لهذا التعارض أثره الكبير على تاريخ الإنسانية : فالدين هو تمثل الروح ، والذات التي لم توحد وعيها الخالص مع وعيها الفعلي ، ومن هنا كان تمزق الروح في حياته وفكره .

ولكن عالم الإيمان لن يظل وحده هو عالم الفكر والعقل . وفي القرن الثامن عشر ظهر الصراع بين التنوير والإيمان باعتبار أن الإيمان هو وعي الإنسان بماهية خارجة عن وجوده الفعلي . ويمكن اعتبار حركة الإصلاح الديني ، بداية لحركة التنوير .

العالم الفعلي : العبد والسيد :

يقول هيجل : إن العبد لا يصبح سيداً للسيد ، ولا يرتفع إلى الوعي الحقيقي بالذات إلا بفضل الثقافة . فالعمل الذي يقوم به العبد ، يفقده ذاته الطبيعية ، ولن يجد ماهيته الكلية إلا من خلال الثقافة . ولا بد أن يفقد الإنسان وجوده الطبيعي لينتمي إلى عالم الثقافة . وكان هذا الفقدان وهذا الخروج عن العالم الطبيعي هو شرط ضروري لتحصيل الثقافة . والثقافة لا يكتسبها الإنسان عن طريق توسع الذات ونموها ، ولكن بواسطة غربة الذات وتمزقها .

الجدل في عالم الثقافة :

يخضع عالم الثقافة للجدل والصورورة . واللحظة الأولى في هذه الصورورة تؤدي إلى تكوين الرجل الشريف الذي يتميز بإرادته وإرادة القوة^(١) .

ولقد حدث ذلك إبان القرن السابع عشر الذي بلغ درجة كبيرة من الثقافة ، في مجتمع يرى في الإيثار لا في الإثارة دليلاً على نزاهة الرجل وشرفه . كذلك كان العلم قوة وفاعلية للإنسان . وكان يحلو لهيجل أن يردد كثيراً كلمة بيبكون : المعرفة قوة .

وتميزت نوعية الإنسان بثقافته في هذا العصر ، فالإنسان الذي لم يتشكف لا قيمة له ، ولا فضل . والثقافة هي نوع من تربية الذات التي ترتفع إلى مرتبة الكلية . ولكن الذات حين ترتفع إلى الكلية تشعر بالغربة في هذا العالم . ولذلك حاول الفلاسفة والمفكرون في القرن الثامن عشر أن يردوا الإنسان إلى الطبيعة والحالة الطبيعية .

والحق أن الغربة لا تكون بالنسبة للعالم الطبيعي وحده ، ولكنها تكون أيضاً بالنسبة للنظام السياسي والاجتماعي الذي يبدو غريباً بالنسبة إلى الذات . والإنسان بإرادة القوة ، يحاول أن يصل بفكره إلى الماهية الكلية للذات . إنه يتصارع مع القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

(١) . تكوين وبناء الظاهريات . . . ص ٣٧٤ .

يذكر هيبوليت أن كلمة الغربة قد استخدمها من قبل المفكرون السياسيون مثل هوبز ولوك وروسو ، وكانوا يعنون بها غربة الذات الطبيعية .

وكانت الغربة تبدأ في حالة الطبيعة وما يستلزمها من حق طبيعي للإنسان ، ثم فقدان هذا الحق في المجتمع ، إما بالنسبة إلى الجماعة المشتركة التي هو عضو فيها ، أو بالنسبة إلى السلطة الممثلة في هذا المجتمع في صورة الحاكم أو الملك . ولقد وجد روسو أن الخروج من حالة الغربة ، إنما يكون بالاتفاق بين الفرد والجماعة ، وتلك هي نظرية العقد الاجتماعي .

إن المدينة القديمة قد حققت الوحدة بين الفرد والجماعة . لكن في الدولة الحديثة أصبح الحكم السياسي غريباً عن الذات الفردية ، كما أنه لم يعد صورة للخير كما يتمثله الإنسان بفكره الخالص . وتتعدد المسألة بتدخل العوامل الاقتصادية وعندما تصبح الدولة هي الوسيلة التي تسمح بتحقيق الثروة . ولكن هذا لا يتم في المجتمع إلا بنوع من الخبث والرياء . وهكذا يتصارع الخير والشر في حياة الإنسان .

والدولة هي المصدر المشترك للإرادة الفردية ، وهي من صنع كل الإرادات الفردية . والثروة ، أو الحياة الاقتصادية للشعب كله ، هي أيضاً ماهية كلية ، يجب أن يشارك الجميع فيها . ولا شك أن المباحث الاقتصادية كانت قد انتشرت في ذلك الوقت فقد صدر كتاب آدم سميث عن « ثروة الأمم » واطلع هيجل على ترجمته الألمانية التي نشرها « جارف » Garve سنة ١٧٩٤ . وكانت نظرية سميث تقوم على فكرة أن الإنسان يعمل لنفسه ، ويجب أن يستفيد من عمله هذا . وعمل الفرد ينفع الجماعة ، وعلى هذا الأساس كان تقسيم العمل في المجتمع . ويتخيل الإنسان أنه بواسطة العمل ، وما يعود عليه منه ، يستطيع أن يؤمن مستقبله ، وحياته الخاصة . وعندما يظن أنه بعمله هذا ، إنما يحقق غاية وهدفاً جماعياً وكنياً ، فإنه يكون فريسة للوهم ، لأنه في الحقيقة لا يعمل إلا من أجل مصلحته ومنفعته الشخصية . وذلك هو المجتمع البورجوازي أو المدني die burgeliche Gesellschaft الذي لا يهدف إلى الجوهر الكلي إلا بطرق ووسائل ملتوية وغير مباشرة .

ولقد عاشت المجتمعات الحديثة صراعاً قوياً بين قوة الدولة وقوة الثروة ، وانقسمت الآراء حول قيمة الدولة وقيمة الثروة ، وأيهما يمثل الخير والشر ؟ بعض الناس كانوا يرون أن الدولة هي الخير الذي يجب أن يشارك الإنسان بإرادته فيه . أما الثروة فهي وسيلة للتفرقة بين الأفراد ، وعلّة الصراع بينهم . والبعض الآخر كان يرى أن قوة الدولة شر ، أما الثروة فهي وحدها الخير الذي يساعد الإنسان على تحقيق وعيه بذاته . والثروة هي في ذاتها ، الرخاء الكلي ، وعندما يحاول كل فرد أن يغتنى ويثري ، فإنه بذلك يحقق الخير للجميع . أما سلطة الدولة ، فهي التي تقهر سلطة الأفراد ، وتكون عقبة أمام توسع الثروات .

هكذا يختلف معنى المساواة بين الأفراد في الثروات. من مجتمع إلى آخر . وهذه العلاقة قد أدت إلى ظهور نوعين من الوعي الذاتى في الدولة الحديثة . الوعي النبيل^(١) ، الذى هو نتيجة المفارقة بين الوضع المتعادل بين القوة السياسية وقوة الثروة ؛ والوعي الأدنى^(٢) ، الذى هو نتيجة المفارقة بين الوضع السياسى والوضع الاقتصادى . ويتصف صاحب الوعي النبيل بأنه يحافظ على النظام السياسى والاقتصادى الموجود ، أما صاحب الوعي الأدنى فإنه يخضع لهذه النظم كرها ، وفى نفسه ثورة داخلية ، وهذا هو الوعي الثورى .

لقد استمد كارل ماركس عناصر فلسفته من الجدل الهيجلى ، ومن الصراع بين طبقة النبلاء المحافظين ، وطبقات الشعب الكادحة الثائرة . لقد كان هيجل أول من أدرك علامات الثورة في المجتمع الأوربى الحديث ، وأول من اكتشف أصول الثورة الاقتصادية والليبرالية الفكرية . وإذا كانت فلسفة هيجل لم تنته صراحة إلى المناذاة بالثورة ، فهذا لا يمنع بأنه قد أشار إلى الثورة في مراحل الجدل والصبوروة . وكان الصراع بين النبلاء وغيرهم من الطبقات الدنيا ، لا يقف عند الحدود الاجتماعية والاقتصادية وحدها ، إنما هو عند هيجل يمتد إلى الحدود الثقافية . ولذلك كان المجتمع الفرنسى قبيل الثورة مجتمعا ممزقا من الناحية الثقافية . ولقد كانت ثقافة العصر تعبيراً عن فساد المجتمع بالثروة والسلطة . إن طبقة النبلاء ، أو الطبقة الأرستقراطية ، قد طالبت بالثروة في مقابل أداء خدماتها للدولة ، وبذلك أصبحت الدولة هى وسيلة لتحقيق قوة الثروة والمال . وكان لهذه الطبقة أدبها وفنها ، الذى يعبر عن وعيها السياسى والاقتصادى . كذلك كان هناك الأدب الثورى . الذى يعبر عن وعى الطبقات الأخرى التى تريد أن تقضى على النظم السائدة ، لكى تحل مكانها نظم جديدة . وأسلوب هذا الأدب كما ظهر في فرنسا ، هو أسلوب التمزق الذى يجمع بين المأساة والملهامة .

اللغة والثقافة :

لا يمكن أن نتصور ظهور الحضارة بدون اللغة . حتى الشعوب البربرية كانت تستخدم اللغة لكن مع تطور وتقدم الحضارة ، أخذت اللغة مظهراً عقلياً وروحياً . فهى فعل العقل النظرى ، الذى بدونها تصبح حركات الشعوب مختلفة وراء ستار الماضى وإن لم تفصح اللغة عن هذا الجانب العقلى من الشعوب ، فالتاريخ يظل غامضاً ومبهماً . وكل شعب له لغته التى تعبر عن أصالته وحقيقته . وإذا أردنا أن نسجل تاريخ الشعوب ، فيجب علينا أن لا نتجاهل العناصر الأساسية فى حضارتها ، ومن بينها اللغة .

Conscience noble.

(١)

Conscience basse.

(٢)

والشعب يعبر عن ذاته بلغته ، والإنتاج الأدبي له خصائص معينة في الشعوب المختلفة . يقول هيجل : في حياة الدولة توجد ضرورة للثقافة النظرية ، وبالتالي لإنتاج العلوم ، وبصفة عامة لإنتاج الشعر والفن^(١) ، والفنون التشكيلية تتطلب غير إتقان الصنعة والتقنية ، حياة الجماعة . والشعر يتطلب انسجاما في الألفاظ واللغة . والفلسفة يجب أن تظهر في حياة الدول كظهور للثقافة ، وباعتبارها وعيا بها ، وفكراً للفكر . ومعنى ذلك أن الفلسفة تستمد من الثقافة العامة مواد بنائها . إن الفلاسفة يلجأون إلى فكرهم ، ويحتمون في المثل العليا، هرباً من الواقع الممزق الذي يفقد الدين والقانون والعادات والتقاليد ، كل أصالة فيها .

ونحن نجد بالتأكيد عند جميع الشعوب التي صنعت التاريخ الكلي للإنسانية ، الشعر والفنون التشكيلية والعلم والفلسفة ؛ والذي يختلف بينها ليس الأسلوب التعبيري والفني بل عمق الفكر والعقلية . ومهما كانت النظريات الجمالية التي تقول بأن الفن هو شكل قبيح أن يكون مضروباً ، وأن الأشكال الجميلة هي التي تكوّن الفنون الجميلة ؛ وأنها تحقق غبطة النفس الحرة والفكر المثقف ، فإن المضمون الفني لا يقل أهمية عن الشكل .

ويقارن هيجل بين الملاحم الهومييرية الإغريقية ، والملاحم الهندية . وقد يفضل البعض من حيث الشكل ، أي من حيث الخيالات وقوة الصور والإحساسات ، وجمال الأسلوب ، الملاحم الهندية على الملاحم الإغريقية . ولكن هيجل يعتقد أن المضمون مختلف تماماً ، وأن العقل الإنساني يجد في الملاحم الإغريقية معاني الحرية الإنسانية . ومهما كانت وحدة الثقافة الإنسانية ، فلا بد أن يكون هناك فرق بين الإنتاج الثقافي للشعوب . فكل شعب يعبر عن عقلانيته ، وعن وعيه بالحرية . وإذا كانت الشعوب الهندية استطاعت أن تتجاوز في أشعارها ، وبخاصة في ملاحمها ، الصفات الحسية للوجود ، فإنها كانت تفتقر إلى الوعي الأساسي بجوهر الحرية . كذلك الصينيون ، فإنهم لم يعرفوا معنى الحرية ، وكانت القوانين الأخلاقية عندهم ، لها نفس إلزام وضرورة القوانين الطبيعية .

الثقافة تعبر عن روح الشعب ، وعن روح حضارته في الزمان والمكان . ولقد وجد هيجل أن الثقافة الأوربية قد عانت من الغربة الروحية بين الأوضاع القائمة ، والمثل العليا للفكر ، والأهداف السامية للإرادة . وبعبارة أخرى ، كانت الثقافة محاولة من أجل الخروج من الواقع والمهروب منه . تلك هي مرحلة الوعي في تاريخ الإنسانية . لأن الحضارة الإغريقية قد عرفت حالة روحية من المباشرة ، تمثل مرحلة خاصة من تاريخ الإنسانية .

ما من أحد يمكن أن يجادل هيجل في أن الثقافة من مقومات الحضارة الإنسانية ؛ وأن اللغة ،

(١) دروس فلسفة التاريخ ص ٦٩ .

وبخاصة اللغة المكتوبة هي تسجيل لوعي الشعوب ومدى صحتها ويقظتها ونهضتها . فاللغة المكتوبة هي التي حافظت على العلوم والمعارف وصحف الأولين . ولذلك كان لابد أن نشير إلى أهمية العلوم ودورها في نشر الثقافة ، بجانب الآداب والفنون .

لقد وضح هيجل الخواص الأساسية للثقافة الغربية ، وأهمها غربة الروح . ولا أعتقد أن العالم الغربي قد انتظر عصر الإصلاح الديني ، وعصر الثورة الفرنسية لكي يشعر بهذه الغربة . وليس صحيحاً أن الإغريق لم يعانون منها ، وأنهم عاشوا في سعادة وغبطة في العالم الطبيعي . والحق أن فلسفة أفلاطون المثالية إنما كانت تعبيراً عن الغربة . وإلا ، فما معنى قوله بأن الخير ، والحقيقة والجمال ، قيم لا وجود لها في عالم المحسوس بل في عالم المثل .

لقد أدت هذه الغربة إلى أزمة الضمير في الحضارة الغربية ، وإلى نوع من الانفصام بين الحياة المادية والقيم الإنسانية . وربما كان ذلك نتيجة الفصل الزائف بين العقل من ناحية والضمير الإنساني من ناحية أخرى .

وإذا كان أصحاب هذه الثقافة وأهلها ، يعانون من غربة الروح ، فما بالتأثير أصحابها .

الفصل الثالث

أصالة التاريخ

لقد بينا في الفصل السابق ما هي مقومات الحضارة . لكن هذه المقومات ليست ساكنة وحاملة ، إنما هي تتحرك وتتغير وتتطور ، في خلال تاريخ الإنسانية . والحق أن كلمة التاريخ عند هيجل ، لا تعنى التاريخ السياسى وحده ، بالمعنى الخاص ، ولكنها تعنى تاريخ الحضارة الإنسانية بكل مقوماتها . وعبارة فلسفة التاريخ ، تشير إلى فلسفة تاريخ الحضارة ؛ فبهذا المعنى وحده يمكن أن يكون التاريخ هو التاريخ الكلى للشعوب .

ويميز هيجل بين ثلاثة مناهج في كتابة التاريخ :

١ - التاريخ الأصيل .

٢ - التاريخ التأملى .

٣ - التاريخ الفلسفى .

وهذه المناهج الثلاثة يمكن اعتبارها مناهج إضافية ومكملة . فالتاريخ الأصيل هو لجمع المعلومات والحقائق ، ويجب أن يكون مقدمة لكل كتابة للتاريخ . أما التاريخ التأملى فهو الذى ينسق هذه المعلومات طبقاً لفروض علمية يضعها المؤرخ ، من أجل ربط الحوادث التاريخية بعضها ببعض . وفلسفة التاريخ ، أو التاريخ الفلسفى ، هو التاريخ الكلى للشعوب كلها . فهو يعطينا نظرة موحدة وشاملة لتاريخ الحضارة الإنسانية كلها .

ويجب أن ننظر إلى هذه المناهج الثلاثة بوصفها ثلاث مراحل لمنهج واحد . فعلم التاريخ لا يمكن أن يتوقف عند حد التاريخ الأصيل ، وملاحظة الأحداث التاريخية . والتاريخ التأملى هو تنظير لعلم التاريخ ، ونجد أن النظريات التاريخية تختلف من مؤرخ إلى آخر . أما التاريخ الفلسفى فيجب أن يعتمد على معطيات التاريخ الأصيل . وتعليقات التاريخ التأملى ، ليستخلص منها النظرية الواحدة والشاملة لتاريخ الإنسانية كلها ، بكل مقوماتها الحضارية .

١ - ما التاريخ ؟

يقول المؤرخ العربي سَمِيسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّخَاوِيُّ : التاريخ في اللغة الإعلام بالوقت . والتورِيخُ مثله . ويقال أرخت ، وورخت . وقيل اشتقاقه من الأرخ (بفتح الهمزة وكسرهما) وهو الأثني من بقر الوحش ، لأنه شيء حدث كما يحدث الولد .

وقد فرق الأصمعي بين اللغتين ، فقال : بنو تميم يقولون ورخت الكتاب تورِيخًا ، وفيس تقول : أرخته تَأْرِخًا ، وهذا يؤيد كونه عربيًّا .

وقيل إنه ليس بعربي محض ، بل هو معرب مأخوذ من ماه روز بالفارسية . ماه القمر ، وروز اليوم ، وكأن الليل والنهار طرفه . وقال أبو منصور الجواليقي في كتابه المعرب من الكلام الأعجمي : إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ، ليس بعربي محض ، وإنما أخذته المسالمون من أهل الكتاب ، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة . كتب في خلافة عمر رضى الله عنه ، فصار تاريخًا إلى اليوم .

وقال أبو الفرج قدامه بن جعفر الكاتب في كتاب الخراج : تاريخ كل شيء آخره ، فيؤرخون بالوقت الذي فيه حوادث مشهورة ونحوه . وقول آخر : تاريخ كل شيء غايته ووقته الذي ينتهي إليه زومه . والحاصل في نظر - السخاوي - أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت .

أمام موضوع علم التاريخ ، فالإنسان والزمان ، وسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان .

كذلك ، فالتاريخ في نظر أصحابه يجب أن يتوخى الصديق . وقال أحد المؤرخين العرب - سيفين الثوري - لما استعمل الرواة الكذب : استعملنا لهم التاريخ .

والتاريخ شامل لأخبار الملوك وسياستهم ، وأسباب مبادئ الدول ، ثم سبب انقراضها . وتدير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها ، وأشباهاها أبدأً في العالم . وواضح من هذه الأخبار ، أنها الأخبار السياسية في الدول من أجل الكشف عن علل الأحداث ، وما يمكن أن يتكرر منها في الزمان . ويذهب السخاوي ، أن التاريخ يمكن أن يفهم بأنه « الذكر » : و « رفعتنا لك ذكرك » (صدق الله العظيم) ؛ وإنه « لذكر لك ولقومك » . قال تعالى : يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج ... و « هو الذي جعل الشمس ضياءً ، والقمر نوراً . وقلنر منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ،

يفصل الآيات لقوم يعقلون . إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض -
لآيات لقوم يتقون » .

وقال الجـنـسـدى : بل قضى الله تعالى في كتابه المبين - كثيراً من أخبار الأمم الماضين -
كقوم نوح ويهود وكلدان ، وثمود - وما حكاه عن موسى وهرون وفرعون - وقارون وعن أصحاب
الكهف والرقم .. إلخ . وكفى بهذا دليلاً على جلالة علم التاريخ - وفخامة قدر
صاحبه ونبله .

وقال العماد بن محمد بن حامد الأصبهاني الشافعي ، الكاتب في الفتح القدس : إن عادة
التواريخ الابتداء ببدء الخلق ، أو بدولة من الدول . فليست أمة أو دولة إلا ولها تاريخ يرجعون
إليه ويعولون عليه ، يتقلده خلفها عن سلفها ، وحاضرها عن غابرها ، تقيد به شوارد الأيام ،
وتنصب به معالم الأعلام ، ولولا ذلك لانتقطعت الوصل وجهلت الدول ، ومات في أيام الأواخر
ذكر الأول .

وقال ابن الأثير في كامله : إن فوائده كثيرة ومنافعه دنيوية وأخروية . أما الدنيوية -
فنها أن الإنسان لا خفاء به ، أنه يجب البقاء ، ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء . فياليت شعري -
أى فرق بين ما رآه أمس ، أو سمعه ، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين . وحوادث
المتكلمين . فإذا طالعها ، فكأنه عاصرهم ، وإذا علمها ، فكأنه حاضرهم ... إلخ .

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الفقيه القاضى الحموى الأصل عن فائدة
التاريخ الإسلامى : إنما الفائدة من التاريخ الإسلامى ، مع قرينه من الصحة - ذكره لعلماء هذه
الأمّة المحمدية ، وذكر محاسنهم وعلومهم ومواعظهم وحكمهم وسيروهم ، التى يستدل العامل بها في
أمره ويتدبرها ويتفكر فيها ، فينتفع بما قالوه وعانوه ، وما ينقل عنهم من الحاسن دنيا وأخرى .

ونحن نجد من بين المؤرخين العرب من يفضل أن يكون التاريخ للأئمة ورجال الدين
لا لرجال السياسة . وقال أبو زيد الأنصارى القيروانى إنه يقتصر في تاريخه على « أهل العلم
والدين ، وعباد الله الصالحين ، وذلك أليق وأجمل وأشرف وأكمل وأسبق إلى الأجر الجليل ،
والتواب الحفيل ، لما في ذكرهم من استنزال البركات الجمّة - واستجلاب القرب المدة ، فعند ذكر
الصالحين تنزل الرحمة .

ولقد وضع فيه علماء العرب الأيقاظ ، كتباً تكاثر نجوم السماء ، ثم منهم يقين من رتب على
السنين ، ومنهم من رتب على الأسماء ليكون أسنى وأسنى ، ثم منهم من خص بعض البلاد ،
ومنهم من عم كل قطر وناد . وكتب التواريخ ينتفع بها في الاطلاع على أخبار الملوك والعلماء
والأعيان ، وحوادث الحدثنان في الماضي من الزمان .

الشعب والتاريخ

وقال أبو علي أحمد بن يعقوب الرازي مسكويه : إنه لما تصنّف أخبار الأمم وسير الملوك ، وقرأ أخبار البلدان ، وكتب التواريخ ، وجد منها ما يستفاد تجربة في أمور لا يزال التكرار بمثلها ، وينتظر حدوث أشباهها وشكلها ، بحيث صنف كتابه تجارب الأمم ، وعواقب المهم في أربع مجلدات .

وقال ابن الجوزي : رأيت المؤرخين تختلف مقاصدهم ، فمنهم من يقتصر على ذكر الابتداء ، ومنهم من يقتصر على ذكر الملوك والحلفاء ، وأهل الأثر يؤثرون ذكر العلماء ، والزهاد يحبون أحاديث العلماء ، وأرباب الأدب يميلون إلى أهل العربية والشعراء ، ومن المعلوم أن الكل مطلوب . ويقول ابن خلدون في مقدمته : اعلم أن فن التاريخ ، فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى تم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرويه في أحوال الدين والدنيا .

وقال المقرئ في الخطط : إن علم التاريخ من أجلّ العلوم قدراً وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً ، لما يحويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقبض بها ، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها وألو النهي .

ومن الواضح من هذه الأقوال ، أن هناك إجماعاً على قيمة وفائدة هذا العلم ، ولكنهم يختلفون في أهدافه ومراميه . ونستطيع أن نقول إن التاريخ إما أن يكون تاريخاً سياسياً لأحوال الأمم والدول والملوك والأمراء ... إلخ . أو تاريخاً دينياً يبين آثار الله في الخلق . واهم العرب بتاريخ العلماء والفقهاء والأدباء ، كما اهتموا بتاريخ الملوك والساسة ، وذلك لعلو مكانتهم وقدرهم . واحتل التاريخ الإسلامي مكانة خاصة لدى المؤرخين العرب ، فأبانوا عن أصوله وأحداثه . «فن يتدبر في أحوال الناس والدول ، يعترف بوحداية الباري جلّ جلاله ، إذ في تدبر مجارى الأقدار ، وتقلب الأدوار ، واختلاف الليل والنهار ، وتوالي الأمم وتعاقبها ، وتداول الدول وثناؤها عظة للمتعظين ، وتنبيه للغافلين . قال تعالى : وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

ويرى السخاوي أن علم التاريخ لا يمكن أن ينفصل عن غيره من سائر العلوم الأخرى ، وبخاصة علم السياسة والأخلاق والطبقات . وهو يقول : يستفاد من أنباء هذا الفن ، ما لعله مندرج في علوم آخر .

١ - كالتاريخ ، وهو العلم الذي يتعرف منه على أنواع الرياضات والسياسات والاجتماعات الفاضلة والمردية وتوابع ذلك .

٢ - وكعلم الأخلاق الذي يعلم منه أنواع الفضائل ، وكيفية اكتسابها ، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها .

٣ - وكعلم تدبير المتزل الذي يعلم منه الأحوال المشتركة بين الإنسان وزوجه وولده وخدمه ووجه الصواب فيها .

٤ - وعلم الطبقات ، والحق أنهما بحسب الذات يرجعان إلى شئ واحد : وبحسب الاعتبار يتحقق ما بينهما من التباير .

فالتاريخ ينظر فيه بالذات إلى المواليد والوفيات ، وبالعرض إلى الأحوال . أما علم الطبقات فينظر بالذات إلى الأحوال ، وبالعرض إلى المواليد والوفيات .

والمكتبة العربية تذخر بكتب الطبقات . منها كتاب سليمان بن جعفر الأسنوي عن طبقات الشافعية ، وكتاب الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية لعبد القادر القرشي .

والتاريخ كان عند العرب علماً من الدرجة الأولى وإذا كانت هناك حكمة يمكن استخلاصها من هذا التاريخ ، فهي بالتأكيد حكمة عملية ، لا حكمة نظرية . فليس من المعقول ، أن دول العالم وشعوبه ، وملوكه ورؤسائه ، تخضع جميع أفعالها لتعاطف واحدة ، أو لقانون عقلي واحد !

التاريخ عند هيجل :

والآن ننتقل إلى تعريف التاريخ عند هيجل ، بعد أن عرضنا لأهم تعريفات هذا العلم لدى المؤرخين والمفكرين العرب بوجه خاص . يقول هيجل في الدروس في فلسفة التاريخ : التاريخ في لغتنا يربط الجانب الموضوعي بالجانب الذاتي ، ومعناه *historiam Rerum Gestarum res gestas* ، وهو واقعة وليس خبراً أو رواية . ويجب أن نفهم القصة التاريخية باعتبارها أفعالاً وأحداثاً تاريخية . إن ذكريات الأسرة ، والتقاليد الأبوية ، لها أهميتها في الأسرة والقبيلة : وسيرها الموحد ليس هو موضوع التذكر . ولكن هناك بعض الأفعال والأحداث التي تؤثر في هذا السير ، وفي مصير الأفراد ، وعندئذ تلجأ الذاكرة إلى الحفاظ على هذه الصورة . وقد يتدخل الشعور الديني في هذه الحالة ، ليعطي لهذه الأحداث الغامضة صورة واضحة . ولكن الدولة وحدها . هي التي تعطي لهذه الأحداث صورة لا تكفي بأن تكون مادة لهذه القصص أو لهذا الشر التاريخي . فالجتمتع الذي يرتفع إلى مرتبة الدولة ، تحافظ على أفعالها وأحداثها ، وتبقى على ذكرها . فوجود الدولة هو الذي يؤكد موضوعية التاريخ .

ونفهم من ذلك أن هيجل يعطي أهمية خاصة لوجود الدولة بالنسبة للتاريخ . وفي المجتمعات التي لم تصل إلى هذه المرتبة ، لا نجد تاريخاً علمياً بالمعنى الصحيح : إنما نجد قصصاً يحكيها الرواة ، فلا يكون لها غير قيمة ذاتية .

وكل العصور التاريخية السابقة على ظهور الدولة ونشأتها في المجتمعات الإنسانية ، إنما هي

عصور لا تاريخ لها . وهو يقول في ذلك : عاشت شعوب حياة طويلة قبل أن تصل إلى أن تكون دولة ، وقبل أن تحقق توسعا في بعض الاتجاهات . إن حياة ما قبل التاريخ هذه ، تخرج عن دائرة موضوعنا . ونحن نعرف في الوقت الحاضر شعوبا تكون مجتمعا ، ولكنها لم تكون دولة ، وإن كانت قد وجدت منذ عصور طويلة . وهذه الشعوب مهما كانت أهميتها ، فهي تخرج عن نطاق التاريخ ، لأنها تسبق التاريخ . لذلك فالعصور السابقة التي نتمثلها بألاف السنين ، والتي انقضت بالنسبة للشعوب قبل التاريخ ، والتي كانت فيها ثورات وهجرات وتغييرات عنيفة ، ليس لها تاريخ موضوعي ، لأنها لا تمثل أيضا تاريخا ذاتيا . إذ في الدولة فقط تتضح الأفعال والوعي بها ، مما يساعد على بقاء قوانين الدولة .

ويشير هيجل إلى بلاد الهند باعتبارها بلاداً تعيش في ما قبل التاريخ ، لا في التاريخ . والغريب أن كل الذين حاولوا أن يطلعوا على كنوز الأدب الهندي ، وعلى ثراء مؤلفاته الفكرية ، لم يجدوا لهذا البلد تاريخا . ويجد في الهند ، كتباً دينية قديمة ، وأعمالاً شعرية باهرة ، وكتباً عتيقة في القانون ، ومع ذلك فهذا البلد لا تاريخ له . أما الصين فلها تاريخ مدهش ، يرجع إلى أبعد عصور التاريخ .

إن الحياة في الهند كانت نوعاً من النظام القاسي والصارم ، مثل نظام الطبيعة ، ولكن كل العلاقات الاجتماعية كانت غير منتظمة ، وكانت حركة الحياة فيها ، حركة وقتية وعرضية لا تبغى أى هدف عام للتقدم والتطور . ولا يوجد في هذه الحياة ، ما تحتفظ به الذاكرة ، لأنها تفتقر إلى الحرية الجوهرية ، والأهداف الخاصة .

إن المجتمعات التي تتزايد فيها الأسرات لتصبح قبائل ، والقبائل التي تتزايد لتصبح شعوبا ، والتي امتلأ وجودها بالحروب والانقلابات ، والآثار الباقية ، قد مضت بلا تاريخ . تلك هي نظرية هيجل عن التاريخ ، إنه لا يبدأ مع ظهور الحضارة الإنسانية ، بل يبدأ بعدها بكثير ، وبالذات مع ظهور الدولة في هذه الحضارات . وكأن ظهور الدولة ، هي دليل على النضج والعقل السياسي لدى الشعوب . وبدون هذا العقل وهذا النظام في الحياة ، لا تستحق هذه الشعوب أن تذكر ، أو أن يكون لها تاريخ

إن نظرية هيجل عن بداية التاريخ ، نظرية ضيقة الأفق إلى حد بعيد ، ولا تخلو من بعض مظاهر التعصب الجرمانى لفكرة الدولة .

٢ - التاريخ الأصلي

كتب هيجل ثلاث صفحات عن التاريخ الأصلي *Histoire originale* 1^e ضمنها أهم آرائه ونظرياته . وبدأ هذه الصفحات بالإشارة إلى أهم المؤرخين الذين برزوا في استخدام هذا المنهج التاريخي وهم : هيرودوت وثوكيديدس وغيرهم . هؤلاء استطاعوا أن يصفوا الأعمال والأحداث والمواقف التي شاهدوها أو شهدوا عليها ، وأنصتوا إليها ، ونقلوا إلى مجال التمثل العقلي ، ما يحدث في الخارج . وهكذا تترجم الظاهرة الخارجية في التمثل الباطني . وكذلك يفعل الشاعر عندما يصور تصويراً خارجياً . ما تميز به مشاعره وعواطفه .

والمؤرخ الذي يؤرخ لعصره وأهله ، لزمه وبلده ، لا يستطيع أن يعتمد على نفسه فقط في نقل الأخبار والأحداث . إذ يستحيل على فرد واحد أن يرى كل شيء ، ويستمع إلى كل كلمة أو رأى . وهو يجد أخباراً وروايات نقلها غيره من الناس ، وعليه أن يستخدمها ، كما يستخدم الشاعر لغة الأدب الموجودة والجاهزة . ولكن مهمة المؤرخين هي أن يربطوا الأحداث التي تمر مرّاً سريعاً ، ويضعونها في معبد الذاكرة *Mnemosyne* ، للخلود .

ويجب أن يفرق المؤرخ الأصلي بين الأخبار التاريخية والقصص والأغاني الشعبية ، التي يجب استبعادها من دائرة التاريخ ، لأنها تعبر عن تمثيلات الشعوب التي ما زال فكرها وروحها غامضاً مبهماً . إنها تمت على أرض هشّة واهية ، ولا يمكن أن تكون المادة التاريخية للشعوب التي بلغت الفردية والشخصية القوية .

إن أرض الواقع وحدها التي نراها أو يمكن أن نراها ، هي التي تعطينا أساساً متيناً للتاريخ . والمؤرخ الأصلي ، هو الذي يتشبث بهذا الواقع ولا يفارقه . وهذا الواقع هو في نظر هيجل ، الحاضر الحي الذي يعيشه الكاتب في مكان معين ، وزمان محدد . ومن الواضح أنه يصف الأحداث التي عاشها ، أو التي شارك فيها ، ويكتب عن الرجال العظماء والأحداث الكبيرة ، فيكون من كل ذلك رسماً بصورة دقيقة وطبق الأصل للواقع الذي عاش فيه .

هذه الصورة الأصلية ، هي التي ينقلها هذا المؤرخ إلى الأجيال الأخرى بدون أن يؤثر فيها برأيه أو بفكره . إن المؤرخ الأصلي بتعبير هيجل ، لا يلجأ إلى التأمل في الأحداث ، لأنه يحيا بروح الأحداث نفسها . إنه لم يتجاوزها بعد ، حتى إذا كان يشارك فيها مثل قيصر ، وينتمي إلى طبقة قواد الجيش أو رجال الدولة ، فإنه يتمثل أهدافه الخاصة كأهداف تاريخية . وعندما يقول

إن هذا المؤرخ لا يتأمل، وإن الأشخاص والشعوب هي التي تظهر، فإن الخطب^(١) التي نقرأها عند ثوكيديس يبدو أنها تتعارض مع هذا القول، وإنها بالتأكيد لم تكن بهذه الصورة.

ما قيمة هذه الخطب التي نقلها ثوكيديس، أو التي نقلها غيره من المؤرخين، عن قادة ورؤساء آخرين؟ قد تكون هذه الخطب مجرد لغو. ولكن حينئذ يعتقد. أن الخطب التي توجه من شعب إلى آخر، أو من الأمراء إلى الشعوب هي أجزاء من التاريخ. وإذا كانت الخطب التي ألقاها بريكليس رجل الدولة ذو الثقافة العالية، وأصدق الرجال وأنبلهم في عصره، قد لقيت بعض التعديل على أيدي ثوكيديس، فإنها مع ذلك لن تكون غريبة على لسان بريكليس. في هذه الخطب يعبر الرجال عن حكم شعوبهم، وشخصيتها الخاصة، ووعيتها بالموثوق السياسي. وكذلك عن طبيعتها الأخلاقية والفكرية، والمبادئ والغايات التي يعملون من أجلها. إن المؤرخ الأصلي لا ينقل أقوالاً لشخص ما، إنما ينقل ثقافة هذا الشخص نفسه.

وتقدير هيجل للخطب التي أُلقيت في مواقف سياسية وتاريخية معينة. معناه أنها أكثر من مجرد فن أدبي. إنها تعبر عن وعي قائلها بضمير الأمة وإخلاصها وشخصيتها، وبمبادئها وغاياتها ونحن نذكر على سبيل المثال تلك الخطبة التي ألقاها أبو بكر الصديق عندما تولى الخلافة على المسلمين، نقلًا عن الإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتاب «الإمامة والسياسة»:

إن أبا بكر قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن الله الجليل الكريم العلم الحكيم الرحيم بعث محمداً بالحق، وأنتم معشر العرب كما قد علمتم من الضلالة وانتمرة ألفت بين قلوبكم، ونصركم به، وأيدكم ومكن لكم دينكم وأورثكم سيرته الراشدة المهديّة، فعليكم بحسن الهدى ولزوم الطاعة، وقد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع بين ألفتكم ويقم به كلمتكم، فأعينوني على ذلك بخير. ولم أكن لأبسط يداً ولا لساناً على من لم يستحل ذلك إن شاء الله، وأمّ الله، ما حرصت عليها ليلاً ولا نهاراً، ولا سألتها الله قط في سرٍّ ولا علانية، ولقد قللت أمراً عظيماً ما لي به طاقة ولا يد ولوددت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني، فأطيعوني ما أطعت الله. فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم^(٢).

تلك الخطبة تشير إلى حالة العرب من الفرقة والضلالة قبل الإسلام، وكيف أن هذا الدين الحنيف قد وحد بين قلوبهم، وأن عليهم أن يحافظوا على دينهم ووحدهم. وأن يطيعوا الخليفة عندما يطيع الله وأن يعصوه إذا ما عصاه الله.

(١) إنها خطب بريكليس.

(٢) تاريخ النشر: ١٩٠٤ ص ٢٧.

المؤرخ الأصلي يعبر عن روح الأمة :

تلك النظرية هي محور التاريخ الأصلي عند هيجل : الذى يجعلنا نحيا مع الشعوب والأمم ، ونفوس في سيرتهم . ولقد ضرب لنا مثلاً بالمؤرخين الذين مازنا نستمتع إلى اليوم بقراءتهم مثل هيرودوت وثوكيديداس . حتى كتاب أكسينوفون عن انسحاب العشرة « آلاف » يتصف بالأصالة التاريخية ، وشروح قيصر هي عمل كبير لفكر عظيم .

ومن الواضح أن نظرية هيجل تستلزم أن يكتب تاريخ الأمة والعصر رجل من أبنائها . وليس من اليسر على الفرنسي مثلاً أن يؤرخ للأمة الألمانية . لذلك فيجب أن نقول إن تاريخ هيرودوت عن مصر ليس تاريخاً أصلياً بالمعنى الصحيح ، ولكنه محاولة للتقرب من هذا التاريخ . والتاريخ الأصلي للغرب يكتبه غريون ، وكذلك فالتاريخ الأصلي للشرق يكتبه شوقيون .

قال السخاوى : الذى يكتب التاريخ في زماننا هذا ، فإن كان نقله عن مشاهدة وعيان ، أو بأخبار ثقات ، فلا بأس بذلك ، لأن فيه فوائد كثيرة لا تخفى على التأمل وتحتاج إلى مجلدات . ويقول ابن خلدون : إن التاريخ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم . ونفهم من ذلك أن التاريخ الأصلي يعطى مكانة للأمم والشعوب .

إن المؤرخ الأصلي هو ضمير الأمة والعصر ، ويبدو أن هناك صعوبة في فهم التاريخ الأصلي لأمة أخرى ولشعب آخر . والتاريخ مثل الفن ، لا بد فيه من التعاطف والمشاركة الوجدانية . لذلك فالتاريخ الأصلي مثل الفن الأصيل ، لا يفقد نضارته على مر العصور .

من يكتب التاريخ الأصلي ؟

والآن نتساءل : من كتب التاريخ الأصلي ؟ يقول هيجل ، لقد كان المؤرخون في العصور القديمة قادة كباراً ورجال دولة . وفي العصور الوسطى ، إذا استثنينا بعض رجال الدين الذين عايشوا الأحداث السياسية والتاريخية ، فنحن لا نجد غير بعض الرواة البعيدين عن الأحداث التاريخية . أما في العصور الحديثة فكل شيء قد تغير ، وثقافتنا تحاول أن تفهم الأحداث التاريخية ، ونجد من يكتب المذكرات في الحروب وغيرها ، وهي أقوى في مضمونها مما كان يكتبه القدماء . وهو يذكر مذكرات الكاردينال دى رتس في فرنسا^(١) ، ومذكرات الملك فريدريك الأكبر في ألمانيا : « تاريخ عصرى »^(٢) . ويعتقد هيجل أن الذين وصلوا إلى هذه المراكز العالية ،

(١) De Retz وهو عن حرب الفروند Fronde

(٢) Histoire de mon temps

استطاعوا أن ينظروا إلى الأحداث التاريخية نظرة واسعة وشاملة . أما الذين ينظرون إلى التاريخ من الأسفل ، فإنهم ينظرون إليه من فتحة ضيقة .

مذكرات نابليون نموذج للتاريخ الأصلي الحديث (١) :

تعرف هذه المذكرات باسم مذكرات سانت هيلانة . وقد بدأت الرسالة التي وجهها نابليون إلى م"ك إنجلترا بتاريخ ١٣ يوليو ١٨١٥ ، يطلب فيها حق الحماية السياسية في هذه البلاد . ولم يرحب م"ك الإنجليز بهذه الفكرة ، وطالب بنى نابليون إلى جزيرة سانت هيلانة وكتب نابليون وهو في طريقه إلى المنفى على ظهر الباخرة Bellérophon في الرابع من أغسطس سنة ١٨١٥ ما يلي : إنني أطالب بشهادة التاريخ : وليقل أن العدو الذي حارب الشعب الإنجليزي طوال عشرين عاما ، جاء طائعا ليطالب الحماية في ظل قوانينه . أى دليل أقوى من ذلك على ثقته وتقديره ؟ وكيف ردت إنجلترا على هذه الثقة ؟ بدلا من أن تمد إليه يداً كريمة ، أرادت التنكيل به ، وبقته فوق صخرة في وسط المحيط ، في النصف الآخر من الكرة الأرضية .

هذا الرجل الذي ثقته إنجلترا كان حاكما عظيماً ، حكم ستة وثلاثين مليوناً من المواطنين ، كما إنه كان في وقت من الأوقات ، حاكماً لعدد كبير من عواصم أوروبا ، واستقبل في بلاطه أعظم الملوك !

وشملت مذكرات نابليون في سانت هيلانة آراءه عن الحكم السياسي في إنجلترا ، وحرب إسبانيا ، ومعركة ساكس سنة ١٨١٣ ، وعن عودة الملكية إلى فرنسا ، وعن تحالف القوى الأوروبية ضده ، وعن مستقبل الأفكار الليبرالية . وقد كتب نابليون في هذا الصدد : إنني آسف لأنني لم أستطع أن أغزو أمريكا ، وأن أحمي فرنسا من نصف الكرة الآخر ، من سطوة الأفكار الرجعية ، كانت مجرد فكرة العودة إليهم يجعلهم في حالة من الخوف الشديد الذي يمكن أن يضع حداً لعنفهم وقلة عقلهم . إن الثورة المضادة التي يقودها البعض اليوم في فرنسا ، يجب أن تغرق في الثورة . والأفكار الثورية الفتية جديرة بأن تخنق الممتلكات الإقطاعية . ولا شيء يمكن أن يهدم وأن يححو المبادئ الكبرى للثورة . تلك الحقائق العظيمة والحميلة ، يجب أن تعيش إلى الأبد . وإذا كان للثورة بعض المآخذ ، فلقد طهرتها في أمواج من المجد ، ولقد أصبحت الثورة خالدة ومخلدة . ومبادئ الثورة التي خرجت من الشعب الفرنسي ، والتي اقتلبتها بالدماء والأرواح ، والتي اعترفت بها المعاهدات ، لا يمكن أن تراجع إلى الوراء . إنها مازالت حية في إنجلترا ، وهي تنير أمريكا ، وهي المبادئ القومية في فرنسا . إنها النور الذي يضيء العالم . وإنها ستحكم ، وستكون هي القانون ، والدين ، والأخلاق لدى جميع الشعوب . وسوف يرتبط اسمها باسمي على مر الأيام ،

لأننى قد رفعت مشاعلها عاليا . وسوف أظل بالنسبة لهذه الشعوب ، النجم القطبى الذى تسرشد به فى حقوقها ، وسوف يظل اسمى دعوة إلى الحرب من أجلها ، وأملاً لكل الشعوب .

وقد كتب نابليون عن حقيقة التاريخ :

يجب أن نتفق على أنه من الصعب تماما الحصول على الحقائق فى التاريخ . هناك حقائق لا عدّ لها ولا حصر ، والحقيقة التاريخية التى ننشدها جميعا ، ليست غير مجرد كلمة ؛ وإنها تكاد تكون مستحيلة فى لحظة حدوث الأحداث ، وفى عمرة المشاعر والانفعالات الساخنة . لكن ما هى الحقيقة التاريخية فى أغلب الأحيان ؟ قد تكون رواية أو قصة ، وهذه تشمل جانبين متميزين : الوقائع المادية من جانب ، والنوايا الأخلاقية من جانب آخر . وقد تبدو الوقائع المادية ثابتة ، ولكنها فى الحقيقة قضايا أبدية لم يفصل فيها بعد . أما عن النوايا الأخلاقية للرواة ، فنحن نفترض دائما أنها حسنة ، ولكن ماذا يحدث لو كانت سيئة وغير حسنة ؟ من يستطيع أن يعرف مدى صدق نيتى ، وأعماق فكرتى ؟ كل واحد يفسر هذه النوايا كما يريد ، الوزراء لم تفسرهم ، والذين ينصون وراء الأبواب لهم تفسير آخر ... إلخ والغريب أن كل شخص يزعم أنه صادق فى روايته !

هذا هو التاريخ ! لقد رأيت ناسا يجادلوننى أنا فى أفكارى عن المارك التى خضتها بنفسى ، يناقشونى فى أوامرى ، ويعترضون على أقوالى . ومهما كان هذا الشخص الذى يعارضنى ، فسوف يكون له أنصار . وهذا ما دفعنى إلى كتابة مذكراتى الخاصة ، وأن أعبر عن عواطفى الشخصية . وكنت لا أستطيع أن أقدم هنا مجرد اعترافات على طريقة جان جاك رسو . ولذلك جعلتها تتعلق بالأعمال العامة .

وسوف يتساءلون : هل كنت أهدف إلى السيطرة وجعل العالم كله مملكة لى ؟ وهل كانت سلطتى المطلقة نابعة من حساباتى الدقيقة ، أو من طبيعى الخاصة ؟ وهل كنت أميل إلى الحروب أم أننى كنت أحاول بها الدفاع عن بلادى وعن نفسى ؟ وهل كانت أطماعى التوسعية ، طلبا للمجد والشهرة ، أو تحميها للاستقرار فى العالم ؟

ليست مهمتى هنا مناقشة هذه الأفكار ، وعلى المؤرخين أن يقرأوا ما سطرته هنا فى هذه المذكرات ، ليستخلصوا منها أحكامهم الصادقة والمعادلة .

٣ - إحياء التاريخ

نحن نطرح هذا السؤال الهام ، والذى بدونه لا نستطيع أن نفهم المعنى العميق لكتابة التاريخ وهو : لماذا يكتب التاريخ ؟ ولا شك أن التاريخ يجب أن يكتب من أجل الإحياء الكامل

للماضى . فالشيء الذى يموت ، لا يعود إلى الحياة مرة أخرى ، والموت فى نظر هيجل ، ليس انتقالاً من ضد إلى ضد كما يقول أفلاطون ، أى انتقال من الموت إلى الحياة ، ولكنه انقضاء التام .
لذلك فلا بد من الحفاظ على حياة الحاضر قبل أن يموت ويموت .

وقد يعتقد البعض : أن كل عصر مضى ، قد ذهب ومعه كل مقوماته الحضارية والاجتماعية والسياسية والفكرية ، التى كانت تميزه عن سائر العصور الأخرى . فكيف يمكن إذاً إحياء الماضى ؟ وهل يكون ذلك فى خيالنا وتمثلنا وفكرنا ؟

هذا الإحياء هو محاولة للبحث التاريخى للماضى . وهناك مشكلة بصدد هذا البحث . فإذا كان الإحياء بالتمثيل ، فإن التمثيل ليس حياة جديدة للماضى . ويتساءل هيجل : ما هى الصلة التى تربط الماضى الذى عاشه أصحابه ، بصدى هذا الماضى كما يتردد فى كتب التاريخ ؟ إذ لا يمكن أن يصبح هذا الانعكاس الباهت للماضى فى المؤلفات والكتب ، بعثاً وإحياء له .

الماضى هو الوجود الذى لا يمكن أن نرده برمته إلى المعرفة . والحاضر وحده هو الحى ، ولا حياة للتاريخ إلا فى الحاضر . إذاً فكيف يمكن أن تكون العلاقة بين التاريخ كما يكتبه المؤرخون ، والحياة التى يحاول أن يتمثلها هذا التاريخ ؟

إن التاريخ الأصلى هو أقرب المناهج التاريخية إلى الحاضر وإلى الحياة . ومن بين جميع المؤرخين ، يظل المؤرخ الأصلى وفيماً للوجود الحقيقى والعينى للأمة ، وارجالها العظماء . ولذلك كان الشرط الأساسى الذى يجب أن يتوافر فى المؤرخ الأصلى ، هو أن يعيش ويجيا الأحداث التى يكتب عنها ، ومن الأفضل أن يكون قد شارك فيها مشاركة فعالة ، وأن تكون روحه من روح الأمة والناس الذين يكتب عنهم .

ذلك المشاركة الحية التى يقتضيه التاريخ الأصلى ، لا يستلزمها من المؤرخ التاريخ التأملى أو التاريخ الفلسفى . فهذان المؤرخان يظان بعيدىن وغريبين عن الأحداث التى يتكلمون عنها .

لكن هل هناك مسلمة أساسية يفرضها هيجل فى التاريخ الأصلى ؟ يقول هونت فى كتابه « هيجل فيلسوف ، التاريخ الحى » (١) . هناك مسلمة أساسية عند هيجل :

- ١- إن المؤرخ الأصلى يظل حبيساً فى عصره ولا يتجاوز هذا العصر .
- ٢- إن الروح القومية والوطنية هى بطبيعتها روح فريدة وخاصة ، وهى لا تزدهر إلا فى عصر واحد ، وهى تختلف عن كل روح قومية أخرى .
- ٣- إن النتيجة اللازمة عن هاتين المقدمتين هى أنه يستحيل علينا أن نكتشف روح عصر

آخر غير عصرنا ، أو أمة أخرى غير أمتنا على نحو كامل .

لذلك فكل عمل يسجل أحداث عصر آخر غير عصرنا ، أو يصف أمة أخرى غير التي ننتسب إليها ، لا يسمى تاريخياً أصلياً ، إنما هو يدخل في نطاق التاريخ التأملي . ولا بد أن يسجل في الحاضر ، لأن الماضي يتبدل كما تبدل الوردة ، وينقصنا دائماً الإحساس به وبقيمه . لذلك فإذا كان المؤرخون الأصليون ينقلون الأحداث التاريخية إلى مجال التمثيل العقلي ، فإن هذا التمثيل ما زال يختلف عن الواقع الحي والحادث المعاش . وقد يكون التمثيل نتيجة للوعي بالواقع Wirklichkeit ، ولكنه يبقى مختلفاً عن الواقع ذاته . وإذا كان المؤرخ الأصلي يقدم لنا عملاً عظيماً بتصوره وتمثله للواقع .، وينقل الحدث التاريخي الفريد إلى مرتبة التمثيل الكلي ، فإن الصورة المنقولة لا يمكن أن تكون أفضل من الأصل . فهناك صعوبات فنية تعترض المؤرخ الأصلي ، وأولها أنه لا يستطيع أن ينقل سلسلة الأحداث كلها بل بعضها ، وهذا الاختيار قد لا يكون موضوعياً في جميع الأحوال . وقد يقول هيجل إن المؤرخ الأصلي هو الضمير الواعي لزمانه ، ولكن هذا الوعي له حدود خاصة . فالمؤرخ الأصلي حين يكتب التاريخ ، يدرك في الحقيقة أنه لا يعبر عن الوعي العام بل عن وعيه الخاص . إنه التاريخ ينقل أولاً روح مؤلفه ، وفي الوقت ذاته يكشف عن بعض جوانب لروح العصر .

والتاريخ الأصلي يفقد ما كان حياً ، وإن كان يحاول أن يحتفظ بالماضي في متحف الذاكرة «الذاكرة مقبرة نضع فيها ما هو ميت» ، ولكن يجب أن نزرع في الموت جذور الحياة . ومع ذلك فهناك حجاب بين الأصل والصورة . وكما يقول ماركس : التاريخ الأصلي هو الحجاب Schleier الذي يغطي الحقيقة ، وليس تمثلاً لها .؛ وعندما تكشف هذا الثقب فلا تظهر الحقيقة عارية ، إنما هي ترتد رداء داخلياً من الزمنية . هذه الزمنية التي يتحدث عنها ماركس ، تفصل بين المؤرخ الأصلي والواقع الحي .

ويرى هونت أن هيجل ينطبق عليه قول ناثان الحكيم الذي جعله لسنج يقول : إنه يريد الحقيقة ... إنه يريد أيضاً ... عازية لامة كما لو كانت قطعة من النقود . لكن هل يمكن دمج الحقيقة التاريخية كما تلمع النقود في التاريخ الأصلي ؟

(١) نفس المرجع ص ٣٦٥ هذا النص منقول من كتاب ماركس : المدخل

(٢) ص ٤٠ إلى نقلة الإقتصاد السياسي .

الباب الرابع

فلسفة لكل الشعوب

إن الفلسفة لا تلتقي الضوء على الآثار القديمة . ولا تعطي الخلود والحياة للحاضر الذى يموت ولكنها تحاول أن تعطينا صورة معقولة عن الماضى والحاضر . أى صورة معقولة للتاريخ .
 والتاريخ الفلسفى يعبر عن طور العقل ، فى الوقت الذى يعبر فيه التاريخ الأصيل عن الإحساس المباشر للمؤرخ بالحاضر والتاريخ التأملى عن معرفة غير مباشرة لشعب معين ، أو بلد معين .

لكن هل هناك فلسفة واحدة لحضارة وتاريخ الشعوب كلها ؟ هذا ما سوف نعرضه ونتناوله بالبحث فى هذا الباب . وهو ينقسم إلى الفصول الآتية :

- ١ - الفصل الأول : التاريخ التأملى .
- ٢ - الفصل الثانى : التاريخ الفلسفى ، أو فلسفة التاريخ .
- ٣ - الفصل الثالث : ماركس وفلسفة الحضارة الصناعية .

الفصل الأول

التاريخ التأملی

التاريخ الأصيل هو وصف قصصی للأحداث التي يشاهدها المؤرخ ويشهد عليها ، فهو تاريخ للحاضر الحيّ. أما التاريخ التأملی فهو الذي يتجاوز الحاضر الحيّ؟. وهناك أربعة أنواع لهذا التاريخ:

- ١ - التاريخ الكلي .
- ٢ - التاريخ البرجماني .
- ٣ - التاريخ التقليدي .
- ٤ - التاريخ التصوري .

١ - التاريخ الكلي

هذا التاريخ يقدم لنا نظرة عامة وشاملة عن شعب ما ، وبلدما ، أو عن العالم . وهنا يعمل فكر المؤرخ عمله في مضمون الحوادث ، ويفرض عليها تصويره وتفسيره الخاص . والتاريخ الكلي لا يقوم على سرد الأحداث ، بل على المبادئ التي يراها المؤرخ كأساس وغاية لهذه الأحداث . ويرى هيجل أن الذين برعوا في كتابة هذا النوع من التاريخ ، هم الفرنسيون والإنجليز لأنهم كانوا يلمون إلاماً واسعاً بالثقافة العامة ، وبثقافتهم القومية . أما الألمان فلم ينجحوا ، لأنهم كانوا يتساءلون عن كيفية كتابته ، دون أن يتوصلوا إلى إجابة واضحة عن هذا السؤال .

والتاريخ الكلي هو أقرب أنواع التاريخ التأملی إلى التاريخ الأصيل . ومن أمثله تاريخ تيت ليف المؤرخ الروماني ، وديودورس الصقلي المؤرخ الإغريقي ، وجان دي مولر المؤرخ السويسري . ولكن وصف هؤلاء المؤرخين ليس وصفاً صادقاً للأحداث . فترى أن المؤرخ الروماني ينطق على لسان ملوك روما وقناصلها وقوادها ، أقوالاً وأحاديث هي أقرب إلى مرافعات المحامين في عصره . وهناك تعارض وتباين بين هذه الأقوال ، ولقصاص المحفوظة عن هؤلاء الملوك . كذلك فهو يصف المعارك التي لم يشاهدها ، وصفاً عاماً ينطبق على جميع المعارك في جميع العصور .

إن الأسلوب الذي يستخدمه المؤرخ التأمل هو أسلوب منمق ومتصنع . وإذا أراد أن يشمل بفكره عصوراً طويلة من التاريخ ، أو التاريخ الكلي برهته ، فإنه يتخلى عن التمثل الفردي

للواقع ، ويلجأ إلى التجريدات العامة التي تختصر الأحداث . وهذا التلخيص والإيجاز ، يجعل الوقائع تنكش وتتحول إلى علامات وإشارات .

كذلك يجب أن نشير إلى أن المؤرخ في هذه الحالة ، يكون غريباً عن روح العصر الذي يصفه ، وبخاصة عن روح ثقافته . وذلك لتنوع الثقافات القومية بين الأمم المختلفة .

٢ - التاريخ البرجماني

يحاول المؤرخ في هذا النوع من التاريخ التأمل ، أن يفسر الماضي بعقل إنسانية وعقلية . وهو يقابل التاريخ اللاهوتي ، الذي يفسر الوجود والتاريخ بالتعليقات اللاهوتية والدينية . وعلى المؤرخ أن يبعث أحداث الماضي في الحاضر ، وأن يعطيها أهمية خاصة من حيث الدروس الأخلاقية التي يمكن استخلاصها منها . ويقول هيجل : إن الأمثلة عن الخير تسمو بالنفس وترتفع بها ، ويجب استخدامها في الثقافة الأخلاقية للأطفال ، حتى يتشبعوا بكل ما هو فاضل في تاريخ مصير الشعوب والدول . وكان يقال للحكام ولرجال الدولة وللشعب أن يتعلموا من تجربة التاريخ . ولكن قد علمتنا التجربة وعلمنا التاريخ ، أن الشعوب والحكومات لم تتعلم شيئاً من التاريخ ، ولم تصدر أعمالها بحسب المواعظ والعبر التي كان يمكن استخلاصها منه . ومعنى ذلك أنه في صلب الأحداث الحاضرة ، لا تفيد المواعظ ولا العبر ، ولا الذكرى الباهتة للماضي الذي انقضى ، أمام الحياة والحركة في الحاضر . ولقد عمل الكتاب الفرنسيون على الاستشهاد بأمثلة من تاريخ الإغريق والرومان ، في عصر الثورة ، بطريقة سخيفة مملّة ، لأنه كان هناك اختلاف واضح بين طبيعة الشعوب والعصور . كذلك فإن جان دي مولر Jean de Muller ، عندما أراد أن يكشف عن النوايا الأخلاقية في التاريخ الكلي ، وفي تاريخ سويسرا ، لم يفد الشعب السويسري بشيء ولاحكامه ولا ملوكه .

ويبدو أن هذا النوع من التاريخ البرجماني ، الذي يستعرض الأحداث السياسية والحربية من حيث التعاليم الأخلاقية التي يتضمنها ، هو نوع من الدراسة الوضعية للتاريخ . ولكنه يقدم هذا التاريخ ، تحت كل صوره وألوانه . وقد يكون لهذه الصور بعض القيمة ، ولكنها تبقى مجرد عناصر ومواد للتاريخ .

ولقد ظهر في عصر هيجل ، أنصار للتاريخ اللاهوتي مثل Mohler وموهلر و Schlegel شليجل ، كما ظهر أنصار للتاريخ البرجماني ، لا سيما فولتير وفوتير Fueter وجان دي مولر . ونستطيع أن نقول إن كنت في تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، قد أوضح فكرة التاريخ البرجماني ، الذي استمد هيجل تعريفه منه بقوله : إن التاريخ يؤلف على نحو برجماني عندما

يعلم الناس الخلدري Klug ، أى عندما يعلم عالم اليوم ، كيف يعنى بمصالحه الخاصة ، على نحو أفضل من عالم الأمس .

والحق أن المؤرخين العرب قد برعوا فى كتابة التاريخ الدينى ، والتاريخ البرجماتى .

ولقد قال بعضهم : العقل عقلان ، مطبوع ومسموع ، ولا ينفع مسموع ، ما لم تم مطبوع . ونحو هذا ما يقع فيه ذكر ذوى المروآت ، والأجواد ، والمتصفين بالوفاء ، ومحاسن الأخلاق ، والمعروفين بالشجاعة والفروسية ، وأنه أيضاً كثير النفع لذوى المهمم العالية ، والقرائح الصافية ، لما جبل عليه طباعهم من ارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والافتداء بأربابها ، ليصير لهم نصيب وحسن الثناء وطيب الذكر . . وقال أبو الحسن بن الحسين بن على السعوى الشافى : . . . مكارم الأخلاق ومعاليها منه تقتبس ، وآداب سياسة الملوك وغيرها منه تلمس ، يجمع لك الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والبادى والحاضر ، والموجود والغابر ، وعليه مدار كثير من الأحكام ، وبه يتزين فى كل محفل ومقام ، وأنه حملة على التصنيف فيه ، وفى أخبار العالم محبة احتذاء المشاكلة التى قصدها العلماء وقفاها الحكماء ، وأن يبق فى العالم ذكراً محموداً ، وعلماً منظوماً عنيداً .

وقال أبو القاسم محمد بن يوسف المدنى الحنفى نزىل بلخ ، ومؤلف النافع فى الفقه : (التاريخ) فيه إحياء ذكر الأولين والآخرين ، وإن ذكر حياة جديدة ، ومن أحيائها ، فكأنما أحيانا الناس جميعاً ، وتصورهم فى القلوب ومعرفة أفعالهم وزهدهم وورعهم وديانتهم ، وانصرافهم فى الدنيا ، واحتقارهم لها ، وصبرهم على شدائد الطاعات والمصاعب فى الله ، فيتخلق الناظر بأخلاقهم ، ويتعطر السامع بأحوالهم ، فالطبع متقاد ، والإنسان معتاد ، والأذن تعشق قبل العين أحياناً .

وكتب ابن الأثير فى كامله : إن الملوك ومن إليهم الأمر والنهى ، إذا وقفوا على أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ، وما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوا مدونة فى الكتب ، يتناقلها الناس ، فيرونها خلف عن سلف ، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر ، وقبح الأحداث ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وذهاب الأموال ، وفساد الأحوال ، استبحوها وأعرضوا عنها وأطرحوها ، فإذا رأوا سيرة الولاة والعارفين ، وحسنا ، وما يتبعها من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وبما لكهم عمرت ، وأمواهم درت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وتأبروا عليه ، وتركوا ما يتافيه هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التى دفعوا بها إلى مضرات الأعداء ، وخلصوا بها من المهالك ، واستضافوا نفائس المدن ، وعظم الممالك ، ولو لم يكن منها غير هذا ، لكنى به فخرأ .

الشعب والتاريخ

وذهب بعض المؤرخين العرب إلى أن قصص القرآن الكريم، هي خير موعظة: القرآن الكريم الذى هو سيد المواعظ ، وأفصح الكلام ، يطلب به السير من هذا الخطام ، فإن القلوب مولعة بحب العاجل ، ومنها التخلق بالصبر والتأسي ، وهما محاسن الأخلاق . فإن العاقل إذا رأى أن شر الدنيا لم يسلم نبي مكرم ولا ملك معظم بل ولا واحد من البشر ، علم أنه يصيبهم ، وينوبه ما نابهم .

وقال السخاوى : إن مصنفات التاريخ ، فيها ما يبعث على اجتلاب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، وفي مصارع الأعيان ومن ساعده الزمان وملك البنيان ، اعتباراً لمن اعتبر ، وتجربة لمن تفكر ، إذ الليب يرى مكارم الأخلاق فيستحسنها ، ورذائل الأفعال فيستبجها ، وعوائد الخير فيطلبها ، وعواقب الشر فيجتلبها . وما زال أرباب المهتم العلية ، والنقوس الأبية ، يتطلعون إلى محاسن الأخبار ، ليجعلوها لقاهاً لأفهامهم ، وصقلاً لأذهانهم ، وتذكراً لقلوبهم ، ورياضة لعقولهم . ثم إن تأمل ذلك ، يبعث على التوحيد، والاعتراف بوحداية الباري جل جلاله . وإذا كان الفكر الغربي ، قد وجد تعارضاً وتناقضاً بين التاريخ اللاهوتي و التاريخ البرجماتي ، فإن الفكر العربي قد وجد صلة وثيقة بين الاثنين . واعتقد المؤرخون العرب أن في « تدبر مجازي الأقدار ، وتقلب الأدوار ، واختلاف الليل والنهار ، وتوالي الأمم وتعاقبها ، وتداول الدول وتناؤها عظة للمتمقين وللمتعظين وتنبية للعاقبين . قال تعالى : تلك الأيام نداولها بين الناس . وقال العز الكنانى الحنبلى الفريد في زمانه : لاشك في جلالة علم التاريخ وعظيم موقعه من الدين ، وشدة الحاجة الشرعية إليه ، لأن الاحكام الاعتقادية ، والمسائل الفقهية مأخوذة من كلام الهلادى من الضلالة ، والمبصر من العمى والجهالة .

وبعد فالتاريخ والأخبار علم له في الملة اعتبار
وقد كفى فيه من البرهان ما جاءنا من قصص القرآن

(نقلًا عن السخاوى)

ومن أشهر كتب التاريخ العربية ، كتاب أبي نعيم وعنوانه . « تاريخ العالم وحلية الأولياء » ، وكتاب ابن خلكان عن « فيات الأعيان » ، وكتاب ابن مسكويه عن « تجارب الأمم » ، وكتاب الإمام أنى جعفر الطبرى في التاريخ ، وكتاب ابن الجوزى « درة الأكاليل » وابن الأثير « الكامل » ، وكتاب الذهبي في « تاريخ الإسلام » .

٣ - التاريخ النقدى

يذكر هيجل هذا النوع من كتابة التاريخ باعتباره النوع السائد في عصره وفي بلاده . فالمؤرخون الألمان كانوا لا يكتبون التاريخ ، بل « تاريخ التاريخ » ، ويقدمون نقداً للأحداث

والروايات التاريخية . وهو يعتقد أن الفرنسيين قد نشروا مؤلفات عظيمة في التاريخ النقدي ، ولكنهم لم يعرضوا نقدهم بوصفه نقداً تاريخياً ، بل نقداً أدبياً . أما في ألمانيا ، فلقد مسّ النقد الرفيع مؤلفات علم اللغة ، وكتب التاريخ .

والمهج النقدي التاريخي يفرق بين الخيالات الذاتية والوهمية ، والوقائع التاريخية الأصلية . فالبحث عن حقيقة الأحداث ، هي مهمة النقد التاريخي . لكن هل يمكن أن يكون النقد التاريخي ، ضرباً من التاريخ ؟

إنه يجب أن يكون أولاً منهجاً للتاريخ ، لتوحي الصدق في كتابة التاريخ . وفي هذا كان يقول ابن خلدون بأن التاريخ يجب أن يثبت من الحق ، ويبعد عن المزلات والمغالط ، وأن يرد الحكايات إلى الأصول وهو يقول في مقدمته من الأخبار الواهية للمؤرخين ، ما يقلونه كافة في أخبار التبابعة وملوك اليمن وجزيرة العرب : إنهم كانوا يتزوّن من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب وأن أفريقش بن قيس بن صبيّ من أعظم ملوكهم الأول ، وكان لعهد موسى عليه السلام أوقبله بقليل ، غزا أفريقية وأتخّن في البربر ، وأنه الذي سماهم بهذا الإسم حين سمع رطانهم وقال ما هذه البريرة ؟ فأخذ هذا الإسم عنه ، ودعوا به من حينئذ ، وأنه لما انصرف من المغرب ، حجز هنا لك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ، ومن هذا ذهب الطبري ، والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبلي أن صنهاجة وكتامة من حمير ، وتأباه نسابه البربر وهو صحيح ، وذكر المسعودي أيضاً أن ذا الإذعار من ملوكهم قبل أفريقش ، وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ، وأنه بلغ وادي الرمل من بلاد المغرب ، ولم يجد فيه مسلماً لكثرة الرمل ، فرجع . . إلخ^(١) وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والمغالط ، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعية ، وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب ، وقراهم وكرسيم بصنعاء اليمن ، وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها ، فيبحر الهند من الجنوب ، وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق ، وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب . الأمر الذي يجعل من الصعب ، على التبابعة أن يشقوا هذه البحار ويقضوا على هذه الممالك العديدة والقوية .

ويحتم ابن خلدون نقده لكثير من الأخبار الواهية بقوله عن التاريخ : إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل ، فأما ذكر الأحوال العامة للأقبا والأجيال والأعصار فهو أس المؤرخ تنبئ عليه أكثر مقاصده ، وتبين به أخباره . وقد كان الناس يفرّدونه التأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢ .

والحق أن منهج النقد التاريخي يقتضى أن نتوخى صدق الأخبار : واكتشاف الكذب الذى يمكن أن يعلق بها . وهو يقول : لما كان الكذب مطرفاً للخبر بطبيعته ، وله أسباب تقتضيه ، فيها التشيعات للأراء والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر ، أعطته حقه من التمهيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه ، وإذا خامرها تشيع لرأى أو محلة ، قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمهيص : فتقع فى قبول الكذب ونقله . ومن الأسباب المقتضية للكذب فى الأخبار أيضاً ، الثقة بالناقلين ، وتمهيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح ، ومنها الذهول عن المقاصد . فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ، وينقل الخبر على ما فى ظنه وتمهينه ، فيقع فى الكذب . ومن الأسباب أيضاً ، توهم الصدق ، وهو كثير ؛ وإنما ينجى فى الأكثر من جهة الثقة بالناقلين .

ولما كانت النفوس مولعة بحب الثناء ، والناس متطلعين إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة ، وليسوا فى الأكثر براعين فى الفضائل ، ولا متنافسين فى أهلها ، فإن الأخبار التى يذكرها الناس مدحاً فى أصحاب الجاه من أجل تحسين أحوالهم ، تكون كاذبة . ومن أسباب الكذب كما يذكرها ابن خلدون ، الجهل بطبائع الأحوال فى العمران ، فإن معرفة هذه الطبائع ، هى أوثق الوجوه وأحسنها فى تمهيص الأخبار ، وتمييز صدقها عن كذبها ، وهو سابق على التمهيص بتعديل الرواة ، ولا يلحق به .

٤ - التاريخ التصورى

يعنى هيجل بالتاريخ التصورى *Histoire Conceptuelle* التاريخ القائم على تصور العلوم المختلفة مثل تاريخ الفن ، وتاريخ القانون ، وتاريخ الدين . . . إلخ . وهو يؤكد أن هذا النوع من التاريخ قد تقدم كثيراً فى العصور الحديثة . والتاريخ التصورى يخضع أيضاً فى نظره للتاريخ القومى للشعوب . ومن الأفضل أن نعرف ما إذا كان هذا التاريخ يخضع لمؤثرات خارجية أم لا . ولكن أياً كانت هذه المؤثرات ، فهى لا تصل إلى نفس قيمة المؤثرات الروحية والباطنة . إن الفكرة هى التى تقود الشعوب والعالم ، وتسرسل بها النفوس . والروح بإزادته العاقلة هو الذى يوجه الأحداث العالمية ، وهذا ما يودى بنا إلى التاريخ الفلسفى ، لمعرفة مسلك هذا الروح (١) .

وليس المجال هنا ، لعرض نماذج من التاريخ الخاص بالعلوم والفنون . ولكننا نستطيع أن نردد مع هيجل ، أن الشعوب تطيح العلوم والفنون ، والقوانين والأديان ، بطابع خاص ، ينبثق من روحها ، أى من ضميرها وعقلها وإرادتها .

(١) هيجل : دروس فى فلسفة التاريخ ص ٢٢ .

الفصل الثاني

التاريخ الفلسفي

أو

فلسفة التاريخ

١ - مفهوم الفلسفة عند هيجل

يقول لوسيان هر Lucien Herr في دائرة المعارف الكبرى : إن تطور هيجل كان تطوراً مستقلاً وشخصياً ؛ ولقد اعتدنا أن نمثله بوصفه مكملاً لفكر شلنج . كما أننا نتصور شلنج باعتباره مكملاً للمذهب فيشته ، الذي نعدّه خليفة لكانت ومن الممكن أن يكون هذا التصور عن تنابع المذاهب الفلسفية السالفة ، مجرد تخطيط لا يمثل يقيناً الحقيقة التاريخية^(١) .

إن التسلسل الفكري بين كانت وفشته ، وشلنج وهيجل ، قد يطابق على نحو ما تفسير هيجل لتاريخ الفلسفة . ولقد كان هذا الفيلسوف يعتبر نفسه تابعاً لفلسفة شلنج ، الذي كان مع هولدرلن الشاعر ، زميل الدراسة في توبنجن . ولقد كتب بحثاً عن « الفرق بين نسقي فيشته وشلنج » ، ونشر في مجلة شلنج الفلسفية ، مقالات عديدة وأهمها المقال عن « الإيمان والعلم » . ولكن هيجل قد حاول بعد ذلك أن يتخلص من نفوذ شلنج الفلسفي ، وتأثيره عليه ، ونستطيع أن نعتبر عام ١٨٠٧ الذي نشر فيه ظاهريات الروح ، عام الاستقلال الفكري والانعزال عن شلنج ولقد اعترض في هذا الكتاب على فلسفة المطلق عن شلنج ، باعتبارها فلسفة للطبيعة ، لا فلسفة للروح . وكانت مثالية شلنج مثالية موضوعية تفرض الذاتية والهوية في المطلق بين الأنا واللأنا . ويمكن أن نقول أن هذه الفلسفة كانت فلسفة للتأمل الجمالي للمطلق .

ويقدر ما أهم هيجل بفكرة المطلق ، أهم أيضاً بالمثالية الأخلاقية التي كان ينادي بها فيشته و كانت . فالمثالية الأخلاقية ، هي مثالية ذاتية ، تعبر عن فلسفة للروح لا عن فلسفة للطبيعة ، والروح المطلق يتجلى عند هيجل في روح الشعوب ، كذلك فإن الفرق الأساسي بين أخلاقية هيجل ، وأخلاقية كانت وفشته ، هو كما عرضه على النحو الآتي :

(١) نقلا عن هيبوليت : المدخل إلى فلسفة التاريخ لهيجل ، باريس ١٩٤٧ ، ص ٧

- ١ - كانت الفلسفة الأخلاقية عند كنت وفيشته ، فلسفة نظرية لا تحقق غاية عملية .
فالذوية المطلقة والأناهيئية للأنا Moi : تجعله ينفصل بذاته عن التجربة الوضعية والعملية .
- ٢ - تفصل الفلسفة الأخلاقية النظرية عند كنت وفيشته ، بين ما هو كائن ، وما ينبغي أن يكون . ومن أجل ذلك كان كنت يفصل بين عالم الظواهر وعالم الماهيات بين الأنا التجريبي ، والأنا الماهي أو الجوهري .
- ٣ - لقد جعل كنت وكذلك فيشته من الحرية ما هية للأنا الجوهري ؛ و من هنا كانت فلسفتها العملية ، فلسفة للحرية .
- ٤ - كل حقوق الإنسان التي تقوم على مبدأ الحرية ، هي حقوق عقلية ، يحددها ويبررها العقل الإنساني .
- ٥ - إن فلسفة كنت وفيشته : فلسفتان مثاليتان تستخلصان الحقوق والواجبات من ماهية الذات الحرة .

ويعتقد هيجل أن بين حقيقة الحق والواجب : والعالم الواقعي صلة حياة ، ولا يمكن أن تكون صلة جامدة ساكنة لا تعرف معنى الصيرورة والتغير . كما أن كنت وفيشته قد وقفا عند حدّ الإنسان القردى ، ولم يتجاوزا هذا الحد إلى الوحدات الكلية للشعوب . وهو يحلل الكلية المجردة للأخلاق عند كنت ، ليبين لنا أنها كلية فارغة وصوروية بحتة . حقا إن كنت يريد أن يعطي لهذه الكلية مضمونا عينياً ، ولكن هيجل يعتقد أن في هذه المحاولة مغالطة منطقية ، لأن المبدأ الكلي الصوري ، يمكن أن ينطبق على أفعال وتعينات مختلفة . ويأخذ هيجل المثل الذي يضربه لنا كنت في كتاب « نقد العقل العملي » عن الأمانة التي يجب أن أردّها لصاحبها ، لأنها ملك له وليست ملكاً لي . ويتساءل هيجل ما مصير هذا المبدأ الأخلاقي الكلي ، في حالة إلغاء الملكية الخاصة ؟ ومعنى ذلك أن فكرة الملكية التي يبنى عليها هذا القانون الأخلاقي الكلي ، لا معنى لها إلا في الإطار التاريخي والإنساني . وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه كنت ، عندما أراد أن يعزل المبادئ الصورية الأخلاقية من المضمون التاريخي لها . وهل يمكن أن يرد مضمون الواجب الأخلاقي إلى صورته الكلية ؟ وكل تشريع صوري وكلّ يزعم أنه ينطبق في كل زمان ومكان ، هو تشريع باطل لأن الروح الذي يعمل بهذا التشريع هو روح عيني ، وهو يفقد حياته في الصورية المجردة .

أما عن فيشته ، فهو في نظر هيجل قد وحد بين القانون والأخلاق ، بين الحق الطبيعي والفضيلة الأخلاقية *Naturrecht et Sittenlehre* ولكنه بهذا التوحيد ، يفصل بين

الإرادة الكلية والإرادة الفردية . كذلك يرى هيجل ، أن هناك تعارضاً بين القانونية والشرعية الخارجية ، والأخلاقية الباطنة . وهذان الطرفان لا يتقابلان إلا في الحياة العينية للشعوب . وعالم الأخلاق الشعبية هو وحده الذى يجمع بين الإرادة العامة والإرادة الفردية .

كل الاعراضات التى وجهها هيجل إلى كنت وفيشته وشلنج ، إنما كانت على أساس المبادئ الجديدة لفلسفته التى تطالب بمعرفة المطلق بوصفه روحاً يتجلى في الجماعات والشعوب ، كما يتجلى في الأفراد . ولما كان المطلق ليس فكرة صورية بل فكرة واقعية لها مضمون عيني ، فإنه يحيا في هذا الواقع . وحياة المطلق تأخذ صورة جدلية ، تنتهى في آخر الأمر إلى حالة من التوافق بين حالتين متناقضتين سابقتين . ويتضح من ذلك أفا فلسفة هيجل في أعماقها ، هى فلسفة لتاريخ وحياة المطلق .

٢ - التاريخ الفلسفى

التاريخ الفلسفى هو محاولة لتبرير حقيقة التاريخ الكلى . وإذا كانت الفلسفة تهتم بالعناصر القبلية^(١) للمعرفة ، فإنه يبدو أنه لا وجود لفلسفة للتاريخ ، الذى يهتم بدراسة الواقع الذى كان أو الكائن بالفعل . وبعبارة أخرى ، فإننا لا نأمل في كتابة مثل هذه الفلسفة التى يتعارض موضوعها القبلى مع زمنية التاريخ . ونحن في الحقيقة لا نستطيع أن نرفع هذا التناقض بين الفلسفة والتاريخ ، بمقارنة مبادئهما ومناهجهما وغاياتهما ، وذلك لأننا نجد اختلافاً بين المؤرخين والفلاسفة في تعريف هذه المبادئ ، والمناهج والغايات . وبالرغم من الصعوبة الواضحة في التوفيق بين الفلسفة والتاريخ ، فإننا نجد أننا لا نستطيع أن نتخلى عن دور العقل في تفسير وتبرير التاريخ . إن العقل كما يقول الفلاسفة ، هو الذى يميز الإنسان من الحيوان ، وكما يقول هيجل : إننا نجد الفكر عملاً لإحساساتنا ، وعلمنا ومعرفتنا ، وغرائزنا وإرادتنا ، بوصفنا بشراً .

والمشكلة الأساسية التى تواجه المفكر الذى يريد فلسفة التاريخ هى مشكلة منهج الفكر ذاته الذى يجب أن ينحصر للواقع من ناحية ، ويفرض ذاته على هذا الواقع من ناحية أخرى . فالفكر يجب أن يسترشد بالواقع التاريخى ، ولكنه يجب أن يحيل هذا الواقع إلى « فكرة » ، والعقل الإنسانى هو وحده القادر على ذلك .

(١) في مفهوم كل فلسفة مثالية ، وبخاصة فلسفة كنت .

العقل يحكم التاريخ :

إن الفكرة الوحيدة التي تمدنا بها الفلسفة هي تلك الفكرة البسيطة عن العقل ، وهي أن العقل يحكم العالم ، وبالتالي فالتاريخ الكلي هو تاريخ عقلي . وربما تبدو هذه الفكرة كمجرد زعم في مجال التاريخ ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للفلسفة .

لكن ما العقل ؟

« العقل جوهر يقوم الوجود . وهو قدرة لا نهائية ، ومادة لا نهائية لذاته ، ولكل حياة طبيعية وروحية » . وقد يبدو هذا الكلام غير مفهوم وغير واضح ، وهو يدعو بالفعل إلى كثير من التساؤلات والإستفسارات . هل الجوهر الذي يقوم الوجود خارجه أو داخله ؟ وكيف يكون هذا العقل مادة لا نهائية لذاته ولكل حياة أخرى ؟ الحق أن ما يعنيه هيجل بكلمة العقل ، هو شيء يختلف تماماً عن مفهومنا للعقل بوصفه عقلاً لا متناهياً مفارقاً للوجود ، وكذلك عن مفهوم اسبينوزا للجوهر الذي يتصف بخاصيتين أو صفتين أساسيتين هما الامتداد والفكر . العقل هو الروح ، والروح هو الواقع الحى . إن هذه الحياة التي تدب في أرجاء الوجود هي ما هيته وحقيقته الروحية ، وما الحياة الطبيعية ، إلا صورة من صور التجلى لروح . هذه التفسيرات وهذه التأويلات لا يقوها غير هيجل ، ولا أعتقد أن أحداً يستطيع أن يفهم تلك التعريفات إلا من خلال شرح هيجل لها .

يقول هيجل في كتاب المنطق الجزء الثانى فى تعريفه للماهية إنها الأساس ، أو التأسيس للأشياء . وهذا التأسيس المطلق هو صورة ومادة ، إيجابية وسلبية . الجوهر هو الذى يعطى للواقع وجوده وكيانه . وقوله بأن العقل قوة لا نهائية معناه أنه لا يقتصر على وضع المثل الأعلى والواجب فى رموس الناس ، وأنه صورة ومادة لأنها ثبثان معناه أنه الماهية والجوهر والحقيقة . إن العقل أو الروح العقلى ، يحيا بذاته ، وليس بحاجة إلى مواد خارجية ، ووسائل غير مباشرة ليحقق نشاطه وفاعليته . وحياته لا تتجلى فى العالم الطبيعى ، والمظاهر أو الظواهر الخارجية فحسب ، إنما أيضاً فى العالم الروحى ، وبالتالي فى التاريخ الكلى . فهو يستقى مادته من ذاته لأنه الغاية المطلقة لذاته .

الفكرة Idée هي الحق ، والأزلية ، والقدرة : وهي التي تتجلى فى العالم ، ولا شيء يتجلى غيرها ، والفلسفته تكشف عن شرف وجودها وعظمتها . أما الذين لم يتعرفوا بعد على الفلسفة ، فإن هيجل لا يطلب منهم سوى الإيمان بالعقل إيماناً كاملاً . وأولئك يجب أن تكون لهم رغبة متعطشة إلى المعرفة والتفهم العقلى للأمور . إن الفلسفة ينبغي أن تكون مطاباً ذاتياً ، وحاجة ضرورية وذاتية ، لا مجرد رغبة فى تجميع المعارف .

وإذا كنا لا نقبل على دراسة التاريخ الكليّ بالفكر والعقل ، فيجب على الأقل أن يكون لدينا إيمان راسخ لا يتزعزع بأن العقل يعمل عمله في التاريخ ، وأن عالم الفهم والإرادة الواعية لا يخضع للصدفة ، ولكنه يظهر لنور الفكرة التي تدرك ذاتها .

ويؤكد هيجل أنه من خلال دراسته للتاريخ الكليّ للإنسانية ، قد تبين له على نحو يقيني ، أن كل ما حدث في التاريخ ، قد حدث على نحو عقلي ، وأن سير التاريخ كان سيراً عقلياً وضرورياً للروح الكليّ ، الذي يحيا في حياة الكون كله . ودراسة التاريخ دراسة عقلية يجب أن تبدأ من الواقع التجريبي ، ولا تخضع مقدماً لأحكام قبلية *a priori* كما هو الحال عند بعض المؤرخين الألمان . كذلك يجب أن نترك جانباً القصص الشائعة مثل تلك التي تروى عن الشعب الأول الذي علمه الله بعقل وحكمة كاملة ، فعرف جميع قوانين الطبيعة وكل الحقيقة الروحية : أو القصة الأخرى التي تحكي أن التاريخ وُجد منذ البداية مع شعب من الكهنة ، أو أنه بدأ مع الملحمة الرومانية التي استقى منها المؤرخون الرومان تاريخ روما القديم .

مرة أخرى يعترف هيجل بسيادة العقل في العالم وعلى العالم ، في الماضي والحاضر . قال أنكساغوراس إن «النوس» ، العقل يحكم العالم . فثلاً حركة الأفلاك والنظام الشمس تم حسب قوانين ثابتة لا تتغير ، وهذه القوانين هي علة الحركة . لكن لا الشمس ولا الكواكب التي تخضع لهذه القوانين لما نمة وعى بذلك . والفكرة التي تقول بأن البيعة تخضع للعقل ، وأنها تخضع لقوانينه العامة على نحو لا يتغير ، هي فكرة لا تثير الدهشة في نفوسنا . ولقد قال أرسطو عن أنكساغوراس الذي قال بهذه الفكرة ، أنه ظهر كرجل عاقل وسط مخمورين . ولقد أشار أفلاطون في محاوراته على لسان سقراط ، أن أنكساغوراس قد أخطأ حين امتنع عن تفسير الأشياء بالعقل ، وفسرها بالعلل الخارجية مثل الهواء والأثير ، وهو لم يطبق المبدأ الذي قال به على الطبيعة العينية . إن أنكساغوراس لم يتصور الطبيعة كتنطور للعقل ، أو كنظام أحدثه العقل .

وهناك من يقول إن العناية الإلهية تحكم العالم ، وهنا يتدخل الإيمان الديني في تفسير التاريخ . فالعناية الإلهية ذات قدرة لا نهائية وهي الحكمة الإلهية . وقد يشير هذا الكلام إلى ليبنتس ، وقوله بالحكمة الإلهية في حكم هذا الكون . ولكن التاريخ في نظر هيجل ، يجب أن يكون تاريخ الإنسان والإنسانية ، وهو يهتم بالأفراد التي تأتلف منها الشعوب والدول . ومهما كنا من أنصار العناية الإلهية ، فإننا لن نستطيع التعرف على مخططاتها وأفعالها ٥

ولا يجد هيجل تناقضاً بين التفسير الديني والتفسير العقلي للتاريخ . لكن يجب أن يكمل التفسير الثاني ، التفسير الأول . وتبقى التفضية الأولى والأساسية في فلسفة التاريخ وهي : العقل يحكم العالم . وإذا كان ليبنتس في تفسيره الديني ، يريد أن يعطينا تفسير الشر في الوجود ، فإن

هيجل يعتقد أنه لا شيء يدفعنا إلى أن يتصلح الفكر مع الشر ، أكثر من التاريخ الكلي نفسه .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل يأخذ هيجل بتعريف أنكساغوراس للعقل ، ويتفسير لبيتس للعتاية الإلهية ؟ وجوابنا أنه كان يعتقد أن مثل هذه الكلمات كانت مجردة ومبهمة . لذلك كان لابد له من البحث عن مضمون العقل وتعييناته .

العقل عنده هيجل : التاريخ الكلي هو تاريخ يتم فى النطاق العقلى . فالكون يشمل الطبيعة الفيزيائية والطبيعة النفسية . لكن جوهر التاريخ هو الروح وتطوره . ونحن لا ننظر إلى الطبيعة لإامن حيث اتصالها بالروح ، بوصفه الغاية النهائية للكون . وكلا من الطبيعة الفيزيائية والطبيعة النفسية ، يلعب دوره فى التاريخ الكلي . والروح فى المسرح التاريخي الذى ندرسه ، يبلغ حقيقة الواقع العيني .

١ - ويستعرض هيجل التعريفات المجردة لطبيعة الروح . فإذا كان الثقل هو جوهر المادة ، فإن جوهر أو ماهية الروح هى الحرية . وحتى إذا افترضنا أن للروح صفات أخرى فإننا نعتقد دائماً أنه لا بقاء لها إلا بفضل الحرية ، وأنها ليست فى الحقيقة غير مجرد وسائل لتحقيقها . فالحرية هى وحدة الروح فى ذاته ، لأنه هو الموجود فى ذاته .

إن أكمل حالات الحرية التى يمكن أن يبلغها الروح ، هى حالة المعرفة ، وبالتالي معرفة ذاته . ونستطيع أن نقول إن التاريخ الكلي . هو تمثل الروح فى محاولة تحقيق أو تحصيل معرفته بذاته .

٢ - أما عن الوسائل التى تتحقق بها الحرية فى العالم ، فإنها تعودنا إلى ظاهرة التاريخ نفسه . فإذا كانت الحرية تصوراً داخلياً وباطنياً ، فإن الوسائل يجب أن تكون على العكس شيئاً خارجياً ، نعى ظاهرة تظهر مباشرة فى التاريخ ، وتمثل للعين . والنظرة الأولى إلى التاريخ تبين لنا أن أفعال الناس تنتج عن حاجاتهم وأهوائهم ، وأغراضهم الشخصية التى تبدو وكأنها المحركات والعوامل الأساسية فى التاريخ . وقد تكون هناك غايات عامة ، وإرادة للخير بجانب الحب النبيل للوطن ، ولكنها ذات تأثير ضعيف . وإذا نظرنا إلى جموع الأفراد ، ودوائر نشاطهم ، فإننا لانجد غير دور ضعيف للعقل فى أعمالهم . كذلك فإن الفضائل لا تنتشر إلا فى مساحة ضيقة للتاريخ . أما العامل الأساسى والمحرك القوى لهذه الأفعال ، فهى الانفعالات والأغراض الخاصة ، والأناية الإنسانية . وقوة هذا العامل هى فى أنه لا يعمل حساباً للحق أو للأخلاقية . فالانفعالات هى قوى الطبيعة التى لا تتأثر حتى بالتربية الصناعية . وعندما ننظر إلى مشهد الانفعالات ، ويرأى لنا عنفها وهورها : فإننا ندرك حقيقة الشر والظلم ، وأسباب انحلال الإمبراطوريات

العظيمة التي تألفت في عصور التاريخ .

وإذا نظرنا إلى التاريخ بوصفه المذبح الذي قدما عليه سعادة الشعوب ، وحكمة الدول ، وفضيلة الأفراد ، قرباناً فإننا نتساءل لمن ، ومن أجل أية غاية كانت تقدم هذه القرابين ؟ كان ذلك من أجل تفسير التاريخ بالاستناد إلى عواطفنا ومشاعرنا المضطربة ، وبوصفها للعناصر الأساسية التي تحقق المصير الجوهري والغاية المطلقة للتاريخ الكلي . ولكن مثل هذه التفسيرات هي تأويلات فارغة وعقيمة للتاريخ ، وبعبارة أخرى : هي تفسيرات سلبية له .

وأولى ملاحظات هيجل ، أن ما نعنيه بالمبدأ ، بالغاية والتعین ، أو بطبيعة الروح وتصوره ، هو معنى مجرد وعمام . فالمبدأ مثل القاعدة والقانون هو شيء باطنى ، وأياً كانت حقيقته في ذاته ، فهو لا يكون واقعياً على الإطلاق . وفضلاً عن ذلك فإننا نقول ، إن القواعد . . . إلخ ، توجد في فكرنا ومن قبل في النوايا الباطنة ، ولكنها لا توجد بعد في الواقع . فما هو موجود في ذاته ، هو مجرد إمكان وقوة ، لم تخرج بعد من الباطن إلى الوجود . وبالنسبة إلى الواقع ، فلا بد من لحظة ثانية تتضاف إلى الأولى ، تم فيها عملية تحقيق المبدأ في الواقع ، وخروجه من القوة إلى الفعل ، وذلك لا يكون إلا بفضل مبدأ آخر هو الإرادة بصفة عامة ، ونشاط الإنسان وفاعليته .

ويمكن تفسير هذه الفاعلية بأنها ناتجة عن حاجة الإنسان وغريزته وميوله وانفعالاته . والإنسان يهتم اهتماماً شديداً بأن يفعل شيئاً في الوجود ، فهذا يؤكد أنه موجود ، وأنه يريد أن يكون راضياً بهذا التنفيذ . وهو حين يعمل ، إنما يكون ذلك من أجل غاية وهدف ، وهذه الغاية التي يسعى الإنسان إليها يجب أن تكون غايته هو .

ونجد عند هيجل تحليلاً دقيقاً لكيفية صدور الفعل عن الإنسان . فهذا الفعل يجب أن يتبع عن حاجة للإنسان ، ويجب بالتالى أن يجد الإنسان فيه ، إشباعاً لحاجة ومرضاة لنفسه . وهو يقول : هذا هو الحق اللانهاى للفرد . أن ترضى نفسه بنشاطه وعمله . وكذلك يصبح العمل Travail (الشغل) ، سبيلاً إلى إرضاء النفس الإنسانية . فإذا كان يجب أن يهتم الإنسان بعمل ما ، فلكى يجد ذاته في هذا العمل ، ويرضى به عزته وكرامته الإنسانية .

ومن الضروري أن نحدد المعنى الخاص لكلمة الاهتمام الشخصى . فأحياناً نجد أن الفرد الذى يعمل بدافع من الاهتمام الشخصى ، أن له مصلحة شخصية فيه ، وغرضاً خاصاً . ونحن عادة نزدري مثل هذا المعنى ، ونلقى اللوم على هذا الشخص المغرص ، الذى لا يبحث عن المصلحة العامة ، بل يضحى بها في سبيل مصلحته الخاصة . ولكن هذا التفسير يعتبر في حد ذاته تفسيراً ناقصاً . فكل فرد منا يحقق بعمله غرضاً خاصاً ومصلحة شخصية ، وأنه لا يعمل شيئاً إلا إذا تبينت له قيمته وفوائده أو مدى نفعيته . ويؤكد هيجل

أن هذا هو الطابع الأساسي للعصر الذي يعيش فيه حيث لا يعمل الناس بدافع من السلطة ، أو من الثقة^(١) Confidence ، بل بدافع من العقل ، والإقتناع الشخصي والرأى المستقل .

لذلك يلجأ هيجل إلى إعطاء تفسير جديد للاهتمام الخاص بعمل شيء معين . فيسميه شغفاً أو كلفاً ، أو عاطفة قوية passion فالذي يحدث عند اختيار عمل معين ، هو اختيار غاية وغرض معين . وإلقاء جميع الأغراض والغايات الأخرى جانبا ، ثم تقوم بهذا العمل بدافع من الإرادة وبكل خلجة من خلجات النفس ، لأننا نركز في تلك الغاية ، كل حاجاتنا وقوانا . وهكذا لا يتم شيء عظيم في هذا العالم بدون عاطفة قوية .

إن الذات الإنسانية ، تتألف من عنصرين أساسيين هما :

العقل (الفكرة) والعواطف الشديدة . الأول هو النول والثاني هو النسيج الذي ينسج منه البساط الكبير للتاريخ الكلي الذي يمتد أمامنا . إن العاطفة الشديدة المحركة للإرادة الإنسانية ، هي طاقة النشاط والفاعلية . وأياً كانت هذه القوة فيجب التأكد من صدق الغاية وصحتها . ويرى هيجل أن الحرية الأخلاقية في الدولة هي مركز التقاء العقل والإرادة ، من ناحية ، والإرادة العامة مع الإرادة الفردية من ناحية أخرى . ولكي تتحقق الدولة القوية والمنظمة ، لا بد من تنظيمات عديدة لكي تصبح غاية العقل واضحة أمام هذه الإرادة ، كذلك لا بد من صراعات كثيرة ، ضد المصالح والأغراض الشخصية . وعندما يتم هذا الاتحاد بين الإرادة العامة والإرادة الفردية تصبح الدولة في أوج ازدهارها ، وصلاحتها وقوتها وسعدها

تطور التاريخ الكلي : هل يمكن أن تكون الغاية العامة في الحياة المشتركة ، واضحة وصرحة

منذ اللحظة الأولى من التاريخ ؟ كلا ! فإن الغاية العامة تكون أولاً لا شعورية ، وموضوع التاريخ الكلي هو في إحالتها إلى الوعي والشعور . فالتمثل الذاتي لهذه الغاية هو نقطة البداية التي يجب أن تتحول إلى تمثيل موضوعي لها . وكأن عقبرية الوجود — العالم — تستخدم ذلك الكوم الهائل من الإرادة والأغراض ، كوسائل وأدوات لتحقيق غايتها . والزعم بأن الأنشطة الحية للأفراد والشعوب تحقق بلا وعي منها ، تلك الغاية السامية والشاملة للكون ، فهذا هو السؤال الذي أثاره الفلاسفة . ولقد أنكر البعض منهم كل قيمة لهذا السؤال باعتباره حليماً وزيفاً ، وفلسفة .

ولكن هيجل يكرر ويكرز أن العقل يحكم التاريخ . وأنه لا بد أن العقل أو الروح . يستخلم كل هذه الوسائل لحيلة هذه الغاية . « هذا العقل مبطن في الوجود التاريخي ، وهو يكتمل فيه وبه » . ولقد بين في منطق ، باعتباره منطق الوجود ومنطق التاريخ ، أن التأليف بين العام أو الموجود في ذاته ولذاته ، والفردى والداني . هو الحقيقة الوحيدة .

(١) الثقة التلقائية في قيمة الأشياء .

ويمكن أن ننظر إلى سير التاريخ الكلي باعتباره . حركة من أجل التأليف بين الحرية الضرورية ، وذلك باعتبار أن الحركة الباطنة في ذاته و لذاته : هي الشيء الضروري .

ولابد من حقيقة أخرى تناقض تلك الحقيقة الأولى ، طبقاً للجدل هييجل ؛ وهي أن الفرد ، أو الوعي الفردي هو الطرف المناقض للفكرة العامة والمجردة ، أى للمطلق الكلي . ومهمة الميتافيزيقا – كما يقول هييجل – هي في إدراك الصلة المطلقة بين الطرفين المتناقضين ، أى بين اللانهائى والنهائى . الماهية المطلقة والكلية . موجودة في ذاتها ولذاتها ، أما الفرد الخاص ، فهو يدرك فرديته في عالم الظواهر . هذا العالم هو محل سعادته وشقائه .

ويمكن أن نشبه التاريخ الكلي بعملية البناء والتشييد التى نستخدم فيها مواد كثيرة مثل الحديد والخشب والأحجار . كما نستخدم عناصر خاصة لتشغيل هذه المواد مثل النار لصهر الحديد ، والهواء لإضرام النار ، والماء لتحريك العجلات التى تساعد في قطع الخشب . ولكن البناء المشيد يقف بعد ذلك في وجه هذه العناصر ، وهو يحمى من الهواء والأمطار والنار . ومعنى ذلك أن العناصر التى استخدمت في هذا البناء وفقاً لطبيعتها ، وجدت فيه بعد ذلك عنصراً مناهضاً لها . كذلك فإن العواطف والانفعالات التى ساعدت في إقامة المجتمع الإنسانى ، تجد فيه نظاماً يعوق استمرارها .

التاريخ بين الأبطال والشعوب : رجال التاريخ ، عظماءه وقادته ، كانوا يعملون بدافع من هذه الأهواء الشديدة . وكم من مدرس للتاريخ كان ينظر إليها باعتبارها أفعالاً غير أخلاقية . ومعنى ذلك أن مدرس الفصل كان يحكم على الإسكندر الأكبر ، ويولديوس قيصر ، بأنهما غير فاضلين ، وأنه من هذه الناحية ، يكون أفضل منهما . ولكن مثل هذه التحليلات السيكولوجية لأبطال التاريخ ، سخيفة إلى حد كبير . فهذا الرجل الذى لم يعزو آسيا ، ولم يتنصر على داريوس وبورس Darius; Porus كيف يتعالى على هذه البطولات التاريخية العظيمة ؟

حقاً إن هؤلاء الأبطال يسعون وراء أغراض خاصة ، ولكنهم في الحقيقة يعملون من أجل غاية عامة . وهذا هو خداع العقل الكلي ، الذى يستخدم الأفراد ، من أجل الغاية العامة والكلية .

ولا بد وأن تأتى مرحلة أخرى ، تتحد فيها إرادة الفرد مع المجموع في الدولة . وهي المرحلة التى يصبح فيها التاريخ الكلي ، تاريخاً للشعوب لا للأفراد المبرزين فيها .

والدولة هي بداية التاريخ الإنسانى ، إذ تتحقق فيها الحرية ، كغاية نهائية مطلقة ، وتتحقق بفضلها قيمة الإنسان وحقيقته الروحية^(١) .

(١) يقول هييجل : كل فرد هو ابن من أبناء شعبه ، وهو في دولته ، ابن عصره .

مسار التاريخ الكلي: إذا كان التطور هو بالنسبة للطبيعة ازدهاراً ونموً، وإنتاجاً هادئاً، فإنه بالنسبة للروح صراع عنيف مع ذاته وضدها. وهذا الصراع الذي لا ينهى، يستمر إلى ما لا نهاية. فتطور الروح، ليس تفتحاً وافتتاحاً، سيران بسهولة وبساطة، ولكنه صراع عنيف وعنيد. ونجد في تاريخ العالم عصوراً كبيرة انقضت دون أن تؤثر في هذا التطور، وهي على العكس قد وقفت عائقاً أمام مكاسب الثقافة، مما اضطر الإنسانية إلى بدايات جديدة في كل مرة. والتاريخ الكلي يجب أن يشمل هذه الصور وتلك. ومن الأفضل بالنسبة للتأمل الفلسفي، أن لا يبدأ التاريخ إلا مع ظهور العقل (Vernunftigkeit) في الوجود الكلي^(١).

إن العقل الكلي، يتمثل في الروح القوي للشعوب ومن هنا يكون التاريخ، تاريخاً للقوميات الشعبية. وأصالة الشعب هي التي يجب إدراكها تجريبياً، والاستدلال عليها تاريخياً. ويجب علينا أن نعرف بكل دقة الروح الواقع والمعنى لكل شعب من الشعوب؛ والروح لا يدرك إلا بالروح المفكر. والروح وحده هو الذي يتجلى في كل عمل من أعمال الشعوب، وعليه أن يدرك ذاته بذاته. وعندما يكتمل روح الشعب يفقد ذاته، ويظهر في التاريخ شعب آخر، يفتح روحه في عصر جديد من عصور التاريخ الكلي. وإذا ألقينا نظرة عامة على التاريخ الكلي، فإننا نجد مشهداً هائلاً من الشعوب المختلفة التي تتوالى في التاريخ.

والمقولة Categorie، أو الفكرة العامة، التي يخضع لها التاريخ الكلي، هي مقولة التحول transformation، بالنسبة للأفراد والشعوب التي تظهر وتختفي. ورؤية الآثار والأطلال تجعلنا ندرك ونفهم الجانب السلبي من هذا التحول. ذلك لأن الاندثار والموت، هو بداية حياة جديدة، وإذا كان الموت يخرج من الحياة، فالحياة أيضاً تخرج من الموت. . . ولقد أدرك الشرقيون عظيمة هذه الفكرة^(٢)، وعبروا عنها في ميثافيزيقاهم. وربما يكون التحول، في الصورة لا في المضمون، وقد يصير تحولاً في المضمون ذاته. ولكن الروح يفعل بماهيته، ويصبح موضوعاً وذاتاً في هذا الفعل. وتلك هي عبقرية الشعب، عبقرية تتحدد بالدين والمستور السيامي والمؤسسات والأحداث. ذلك هو الشعب، والشعوب بأعمالها. وكل مواطن إنجليزي يقول: نحن الذين نجوب المحيط بفلكننا، ونملك زمام التجارة في العالم، والمهند وثوراتها؛ ولنا برلمان ولجنة تحكيم. . . إلخ تلك هي كينونة الشعب التي يتسمى إليها كل فرد. إن روح الشعب هو جوهره الذي يجب أن يشارك فيه كل فرد من أفرادها. وبذلك يصبح الشعب قوياً وفاضلاً، يعمل في أوقات السلم والحرب.

ولكي تتجدد حركة الشعوب، يجب أن يتجدد الروح بتجدد مبادئه. فالشعوب مثل

(١) ومع ظهور الدولة.

(٢) هيجل: دروس في فلسفة التاريخ ص ٧٢.

الأفراد تحيا وتنمو وتشيخ وتموت وما يعجل بشيخوتها وموتها ، الاستكانة والخضوع العادة . أما إذا حاول الشعب أن يرتفع ويعلو على ذاته ، فإنه يحيا بروح جديد . ولن يموت الشعب موتاً طبيعياً ، ولكنه يموت حين يقتل ذاته ، وتموت فيه حياته الروحية Geistig . وقد يستمد الشعب من ذاته روحاً جديداً ، وعندئذ يبلغ اكتماله ونضجه .

ويلجأ هيجل إلى تشبيه جميل ليبين لنا دور العقل في التاريخ ، فيقول : إذا كانت الأهواء والرغبات هي وحدها التي تدفع الشعوب وتحركها إلى الأفعال ، لمرت كلها بدون أن تترك أى أثر أو بالأحرى ، لن تكون آثارها غير أطلال ودمار . فعندما لا تنطبع هذه الأفعال بطابع الأخلاقية ، فإن الزمان يلتهمها ، كما كان يلتهم كرونوس (الزمان) أبناءه . لكن عندما يحكم العقل التاريخ ، فإنه يقهر الزمان ، ويخعله خاضعاً لحكمه . وهذا ما حدث مع جوبتر (زيوس) ، الذى خرجت ميزفا^(١) من رأسه ، فسيطرت الحكمة على العالم والزمان .

إن قمة الحياة التاريخية والحضارية التى يمكن أن يبلغها شعب من الشعوب ، هى فى حياته الثقافية . والشعب عندما يدرك الفكرة التى تمثل حياته ، ويبلغ العلم بقوانينه وحقوقه وأخلاقه ، يصل إلى ذروة حياته الثقافية والحضارية . لذلك ، إذا أردنا أن نتعرف جيداً على الإغريق ، فلنتعرف عليهم من خلال سوفوكليس ، وأرسطوفان ، وثوكيديدس ، وأفلاطون ! فن خلال أولئك أدرك الروح الإغريق ذاته ، فى تمثله وفكره .

ولكن الماضى يندثر ، ويبقى الزمان العامل السلبي فى المحسوس : والفكر أيضاً نعى فى صورته اللانهائية ؛ إنه ينوب الفردى فى سبيل العام والكلى . ولا يسعنا إلا أن نقول ، إن العقل الكلى الذى يسيطر على التاريخ ، يظل كما هو برغم أحداث الزمان والتحلال للدول واندثارها . وهو يبقى كما يبقى النوع الإنسانى فى الوجود ، رغم فناء الأفراد والجماعات .

إن العقل الكلى روح ، والروح هو العنصر الأساسى فى التصور الفلسفى للتاريخ : والروح القوي هو البذرة التى تبدأ الشجرة منها ، وهو أيضاً ناتج حياة هذه الشجرة . ونستطيع أن نشبه فاعلية الشعب وتاجها بالثمرة . ولكن هذه الثمرة لا تسقط فى « حجرة »^(٢) الشعب الذى أنتجها وأنضجها ، بل تتحول إلى شراب مرّ ، يتجرعه الشعب الظمآن ، فيلحق به الخراب والدمار . ولكن نهاية شعب من الشعوب ، هى فى الوقت نفسه بداية جديدة ، وإشراقة لمبدأ جديد .

وفلسفة التاريخ التى تدرس الروح الكلى ، إنما تدرسه فى حاضره أو حضوره الأزل .

(١) إلهة الحكمة عند الإغريق .

(٢) والحجر فى اللغة العربية هو أيضاً المعقل .

ولا شيء يضيغ في الماضي، لأن « الفكرة » Esprit حاضرة على الدوام ، والروح Idée خالد ، لا يسرى عليه العدم ، ولا ينمحي وجوده في الماضي . إنه حاضر الآن بماهيته وجوهه : وصورته الحاضرة تشمل كل صورته السابقة ولقد ظهرت هذه الصور على التوالي في التاريخ ، على نحو مستقل ، ولكن الروح هو الآن كما هو في ذاته ، وكل لحظات التاريخ الماضية ، يملكها في حاضره العميق .

تلك هي علاقة الروح القوي بالروح الكلي ، روح الشعب بروح الإنسانية كلها . وهناك علاقات أخرى تقوم بين الشعوب بعضها وبعض ، ومنها علاقة التجاور . والشعوب المتجاورة يمكن أن تسود بينها حالة سلام ، ووافق . لكن نظراً لطبيعة كل شعب المستقلة والتميزة بفرديتها ، فإن السلام يتقلب بالضرورة في لحظة من لحظات التاريخ إلى حرب . ويعتقد هيجل أن الحرب هي التجربة العظمى في تاريخ وحياة الشعوب . فهي تظهر في الخارج ما عليه الشعب في الداخل ، كما أنها تؤكد حرية الشعب أو تسلبه إياها . كذلك فالحرب ترفع من الروح المعنوية للأفراد حين يشاركون في الدفاع عن وطنهم ، فيتجاوزون مصلحتهم الخاصة ، وأنانيتهم الشخصية، فيتحدون مع الكل . ويبحث المؤرخون عادة عن أسباب مختلفة هذه الحروب التي تنشب بين الشعوب بعضها وبعض . ولكنهم لا يؤكدون مثل هيجل ، ضرورة الحرب بصفة عامة . وإذا كان فلاسفة القرن الثامن عشر قد دافعوا عن ضرورة السلام بين الشعوب ، فإن هيجل لا يجد غضاضة في القول بأن الحرب حالة ضرورية بين الشعوب ، وأنها تلعب دوراً كبيراً في تاريخها .

ويجب أن نبين هنا وجهة النظر الفلسفية في تقييم الحرب في فلسفة التاريخ . فالحرب ليست في نظر هيجل ، نتيجة كراهية شعب لشعب آخر ، ولكنها تحرك حياة الشعوب ولا تجعلها تتكاسل وتستكين . إنها في نظره دليل على « الصحة وسلامة الأخلاق » في هذه الشعوب . وبدون الحرب ، تفقد الشعوب تدريجياً معنى الحرية ، وتتمسك بالحياة المادية وحدها . وإذا عاشت الشعوب في سلام زماً طويلاً ، فإنها تفقد حياتها وجودها . والرياح التي تهب فوق مياه البحيرة تحفظها من الركود والعفن .

وأياً كان تقييمنا لحكم هيجل عن الضرورة الروحية للحرب ، فإننا نقول مع « هيبوليت » ، أن هذا التفسير فيه تصور بطولي للحرية ، مستندين في ذلك إلى المقدمات السابقة لفلسفة هيجل . فلقد سبق لنا أن ذكرنا ، أن هيجل قد عاش عصرًا تاريخياً عظيماً ، ظهر فيه التاريخ بوصفه مصيراً حتمياً للشعوب والأفراد . وكانت الثورة التي اشتعلت في فرنسا ، يحيم عليها شبح المأساة والرعب والموت مع روبسبير . وتوالت الحروب في أوروبا ، وبدت كل مشاريع السلام الدائم ، مجرد خيالات وأوهام طوباوية . ولم تكن ألمانيا في ذلك الوقت دولة

بالمعنى الصحيح ، إذ كانت القوى المعادية تحول بينها وبين وحدتها الحقيقية والفعالية . وكانت تعاني من الحرب في داخل أراضيها في نفس الوقت الذي كانت تعاني فيه من التمزق الداخلي . ولم تكن لها أية وحدة سياسية أو حربية أو اقتصادية . وكانت فلسفة هيجل محاولة لفهم هذا التاريخ ، ومصالحة الفكر معه ، ومن أجل ذلك ، كان تصوره للحرية تصوراً بطولياً . تلك هي ملحمة التاريخ الحضارى للشعوب كما تصورهما هيجل ملحمة النضال والبطولة والشجاعة الإنسانية في مواجهة الموت والفناء ، وفي سبيل الحرية .

تعقيب على فلسفة التاريخ الكلى لهيجل :

ظل هيجل يعتقد أن الحقيقة التاريخية والفلسفية لا تأوى في القبور ويجب أن نحيا وتنمر حرة طليقة . ولا قيمة في الوجود إلا للحياة . وإذا كانت الحياة تعطينا صورة للميلاد والموت ، فإن حركة الحياة والموت تعطينا صورة لحقيقة الحياة . فالشعوب والدول يجب أن تكون في حركة مستمرة فإذا توقفت Statarish كما يقول ، أصبحت لا تستحق مجرد تسميتها . لذلك فإن هيجل في دراسته لتاريخ الحضارات ، يراقب تطوراتها وتحولاتها ، ولا تسهويه فترات السكون والتوقف . « فالأشياء الطيبة لا تدوم على حالها . وولمح الأرض لا يتبلور أبداً » .

قال بعض الثوار الفرنسيين : إن الموت سبات أبدي ، ورد هيجل : كل غفلة من النوم ، موت لنا^(١) . ويشبه هيجل الحالات السكونية في تاريخ الحضارات الإنسانية ، بأنها حالات خمول وملل ، وقصور ذاتي Inertie ، نحيلنا إلى جماد . وأحياناً تكون مثل حالات الشلل التي تصيب الأعضاء فتجعلها عاجزة عن القيام والسير والحركة . وكل شعب خامل ، يفقد طاقاته الخلاقة ويخف روحه وحياته .

والدوجماطيقية في نظر هيجل ، تحيل كل شيء إلى صور متشابهة ومتكررة ، لنفس الصيغة أو المخطط الأصلي . ولا نجد فيها أية علاقات فعلية بين الأفكار ، لأنها تعتمد على ثمة نظام ودليل هندسي . لكن الفلسفة الحقيقية هي التي تصور الحياة في حركتها المتواصلة . وهذه الحركة يجب أن تكون تابعة من روح الشعوب ذاتها ، حتى لا يتسر الموت الحقيقي وراءها .

ودورة الحياة تبدو واحدة بالنسبة لكل شيء في هذا الوجود ، بالنسبة للنبات والحيوان ، والإنسان ، والأمم والدول كذلك تخضع لهذه الدورة . ونحن نجد عند ابن خلدون عرضاً سابقاً لهذه الفكرة ، فهو يقول في مقدمته إن الدول لها أعمار طبيعية ، كما للأشخاص : اعلم أن العمر

(١) هونت : هيجل فيلسوف التاريخ الحى ص ١٨ .

الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنى العمر الكبرى عند المنجمين . ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه . . . أما أعمار الدول أيضاً ، وإن كانت تختلف بحسب القرانات ، إلا أن الدولة في الغالب لاتعدو أعمار ثلاثة أجيال . والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين . . . لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شطف العيش والبسالة والافتراس والاشترك في الجهد ، فلا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم ، فخدم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون . والجيل الثاني : تحول حالهم بالملك والرقعة ، من البداوة إلى الحضارة ، ومن الشظف إلى الترف والخصب ، ومن الاشتراك في الجهد إلى انفراد الواحد به ، وكسل الباقين عن السعي فيه . ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة ، فتتكسر سور العصبية بعض الشيء ، وتؤنس منهم المهانة والخضوع . ويبقى لهم الكثير من ذلك ، بما أدركوا الجيل الأول ، وباشروا أحوالهم ، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى الجهد ، ومراميمهم في الموافقة والحماية ، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية ، وإن ذهب منه ما ذهب ، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول ، أو على ظن من وجودها فيهم ، وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ، وينلغ فيهم الترف غايته بما عاشوه من النعم ونضارة العيش ، فيصيرون عيالاً على الدولة . . . وينسون الحماية والمدافعة وتسقط المطالبة ، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل ، وحسن الثقافة ، يموهون بها حتى يتأذن الله بانقراضها ، فتذهب الدولة بما حملت . . . (١)

وإذا كان ابن خلدون يفسر حياة الدول تفسيراً اجتماعياً ، فإن هيجل يفسرها تفسيراً فلسفياً روحياً . فالحياة الحقيقية للدولة يجب أن تكون خلقاً مستمراً . ولا يهتم هيجل بقياسها بالسنين والعصور ، بقدر ما يهتم بتحديد الطاقات الفعالة في هذه الحركة . ولا يسر هيجل أن يرى الشعوب تجمعا ، حياة آلية ، لا تجديد فيها ولا ابتكار . والروح الحقيقي والحى ، لا يهدأ أبداً :
er ist nie in Ruhe

وهيجل فيلسوف ، والتصميم على التفلسف ينطلق من الفكر الخالص ، وكأنه ينطلق في محيط لا شاطئ له . وانطفأت الأنوار واختفت الألوان المزرکشة ، ولا تبقى غير نجمة متلألئة براقه ، نجمة داخل الروح ، هي النجم القطبي . وهذا هو تصور هيجل للفلسفة . فعندما نتخني أمامنا معالم وحدود وألوان وأشكال الأشياء ، لا يبقى غير نور الفكر والروح الذى يضئ الوجود كله .

وهو يعتقد أن الحماسة هي التي تدفع الشعوب إلى الحركة والتقدم . والشعوب التاريخية هي

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٠ .

التي تخلق في جو من الحماسة « . والشعب يكون قوة فعالة في وقت الحرب والمعركة . وفي الثورة يجند الشعب نفسه . وتصبح كلمة الأمر هي الحرية . والعدو قوى الطغيان .

إن هيجل استطاع أن يقرب فكره من الحياة . بعد أن جمد الفكر النظري كل مظاهر الحياة وكان المثقفون في عصره يزلون أفكاراً وهمية مجردة . وكانت الثورة الفرنسية تكذبها في كل يوم . وإيجابية الفكر عنده . قد وجدت طريقها في إيجابية الحياة : التي انتصرت على كل الأفكار البالية .

وهيجل لا ينظر إلى التاريخ باعتباره سجلاً للشر في العالم . كما كان يفعل جورز Gorres المؤرخ الألماني المعاصر له . فتاريخ الشعوب يجب أن يكون للأخلاق التي تتمتع بها تلك الشعوب . والحق أن تفسير هيجل للفلسفة للتاريخ . يبرز وجود كل النظم السياسية السابقة مثل الإقطاع والملكية . ولا شك أنه كان محافظاً في تفكيره . وأقل ثورية من الفلاسفة الفرنسيين . إنه على الأقل لم يكشف أي تناقض في الأنظمة السياسية السابقة : ولم يرفض أي واحد منها . بصورة عقلية مطلقة .

هل كان ديمقراطياً ؟ هل كان جمهورياً أو ملكياً ؟ الحق أنه كان مثل جميع الألمان في عصره ، من أنصار الملكية الدستورية . وهو من هذه الناحية لم يكن تقدمياً ولا ليبرالياً .

وما فائدة القول بأن الديمقراطية كانت هي النظام السياسي الذي كان يناسب أمتنا قديماً ؟ وإن الإقطاع قد أدى دوره السياسي على خير وجه ؟ وفي نهاية القول ، إذا كان التاريخ هو ملحمة البطولة فإذا تنتظر بعد الانتصارات والبطولات ؟ إن السلام لا ينبغي أن يطول بحسب مفهوم هيجل ، لأنه يثبت الشعوب في وضع واحد Fexieren ، ويعزلها Isolieren ، ويجمدها Festwerden ، ويجعلها في حالة قصور ذاتي Tragheit ، وبذلك ينهى التاريخ بالمعنى الصحيح . لذلك سوف تشتعل نيران الحرب على الأرض دائماً .

أما عن الثورة السياسية فإن هيجل يصفها على النحو الآتي :

« تمثل شعباً يعيش تحت الأرض ، ومن فوقه توجد بحيرة . إنهم ينقلون الأحجار من أجل إقامة المباني ، وكل واحد منهم يعتقد أنه يعمل من أجل مصلحته الخاصة ، ومن أجل الجميع . ثم يتغير ضغط الهواء ، فيشعر الناس بالعطش ، ولكنهم لا يدركون في الحقيقة أنهم بحاجة إلى الماء . ثم يواصلون الحفر إلى أعلى من أجل تحسين أحوالهم داخل الأرض . ولا يبقى بينهم وبين البحيرة غير غلاف رقيق من الأرض . ويبصره واحد منهم ، فيصيح بأعلى صوته : الماء ، الماء . فيسابق الناس في نزع هذه الطبقة من الأرض ، فتغرقهم البحيرة وهم يشربون منها » (١) .

(١) نقلاً عن هونت : هيجل فيلسوف التاريخ الحى ص ٢٠٤ ، والنص مأخوذ من مؤلفات الشباب .

وهكذا كان يمثل هيغل الفكر الألماني في عصره أصدق تمثيل ، هذا الفكر الذي تهادى في المثالية ، ليعرض بها مافاته من إنجازات عملية وسياسية . ولا كان هيغل يعتقد أن هناك « أمواتاً يجب قتلهم » ، فنحن نتساءل : هل كان هيغل من بين الذين يصدق عليهم هذا القول ؟ إننا نرى أن فلسفة هيغل كان لها تأثير عظيم ، وبالذات فلسفة التاريخ ، أو تاريخه الفلسفي الذي فجر الروح القومية في شعوب أخرى من أوروبا ، وبصفة خاصة في روسيا^(١) .

ويعتقد بعض المفكرين مثل Flint ، أن فلسفة التاريخ عند هيغل ، قد فقدت الكثير بارتباطها بالجلد ، وبمنطق هذا الفيلسوف .

وهناك رأى آخر يدعو إلى تفسير فلسفة هيغل كلها من منظور التاريخ ، وباعتبارها منذ الظاهريات ، فلسفة الصيرورة التاريخية . هذا التاريخ العام Allgemeine ، أو الكلي Weltgeschichte ، لا يختلف في نظر البعض عن المفهوم المألوف عن التاريخ . لكن لماذا يكتب هيغل التاريخ ، أو فلسفة التاريخ ؟ أمن أجل درس أو دروس يعطيها للأمم والشعوب ؟ إن هيغل يؤكد في مرات عديدة الشخصية القومية والمستقلة لكل شعب من شعوب الأرض . كما أنه يؤكد عدم تكرار التاريخ ، وأنه لن يعيد التاريخ نفسه . إن هناك تفاوتاً بين الشعوب ، وتغيراً مستمراً للأحداث ، والتاريخ يتجاوز نفسه Aufhebung . ومعنى ذلك أنه لا أمل لنا ، في أن نتعلم شيئاً من التاريخ !

إننا التاريخ : بخطئ من يظن أن فلسفة التاريخ عند هيغل ، تقف عند حد الماضي البعيد ، وحاضره وعصره . ولكنها في الحقيقة فلسفة قبل كل شيء ، تذكرنا بحقيقة فلسفية دامعة لا تقبل الريب والشك ، وهي أن الشعب هو الحقيقة والحياة ، أيأ كان العصر الذي يعيش فيه . وعندما يتناول بفلسفته العميقة حقيقة الشعوب ، فهو يتناول في الوقت ذاته ، الحقيقة ذاتها . إننا الحقيقة ، إننا التاريخ . ونحن الواقع والحياة :

إن فلسفة التاريخ عنده هيغل ، هي فلسفة الإنسان في كل عصر في حقيقته الزمنية والتاريخية ، ومن حيث ارتباطه بالماضي والحاضر . من ذا الذي لا يذكر الماضي ولا يفكر في الحاضر ؟ ومن أي نوع إنساني هو ؟

إن أعظم درس يمكن أن نتلقنه من فلسفة التاريخ ، هو أن الحضارة هي القاعدة الصلبة التي ينطلق التاريخ منها . وكل العبارات الجميلة التي قالها هيغل عن التاريخ والحياة ، تدفعنا إلى أن نصنع من حياتنا تاريخاً ومن تاريخنا حياة .

(١) انظر ملحق (١) عن « هيغل في روسيا » ، وملحق (٢) عن « هرزنب وأيسار الهيغلي » في آخر الكتاب .

وتحتل الثقافة دوراً رئيسياً في تشكيل الحضارة . وإذا كانت فلسفة التاريخ تخلصه من سلطة السياسة ، فإن الثقافة تصبح البهجة الحقيقية للحضارة والتاريخ . وتمجيده للحضارة ، إنما هو تمجيد للعقل والفكر الإنساني .

إننا مثل هيجل ندعو إلى أن تكون الثقافة في عصرنا وفي كل عصر ، الوجه المشرق للحضارة الإنسانية . أما الاهتمام بالجانب السياسي وحده ، فإنه يبعدنا عن المقومات الأساسية لحضارة الإنسان في كل عصر من العصور .

يقول كارل بوبر ، إن ما نطلق عليه عادة اسم تاريخ الإنسانية . وما نتعلمه في المدارس تحت هذا الاسم ، هو تاريخ القوة السياسية وهو تاريخ الجرائم الدولية ، وقتل الكتل البترية . والذين يرتكبون الجرائم الكبرى . هم الذين نطلق عليهم اسم الأبطال^(١) .

لقد كانت عبادة القوة في حلال عصور التاريخ ، من أسوأ الأخطاء التي وقعت فيها الإنسانية ، وهي دليل على وحتية الإنسان وعبوديته . ولقد وقع الناس تحت تأثير القوة نتيجة الخوف والجبين . ولا غربة في أن يطلب الملوك والأباطرة الرؤساء والقادة ، من المؤرخين أن يسجلوا أعمالهم . ومن أجل ذلك . كانت كتب المؤرخين تستعرض الجانب السياسي . وتعطى له أهمية خاصة .

ويعتقد « بوبر » أن التاريخ لا معنى له *History has no meaning* أو على الأقل ، فإن التاريخ الذي يتحدث الناس عنه . لا وجود له . إن التاريخ يقف ويتوقف عند أحداث معينة ، ويستثنيها من بين آلاف من الأحداث الأخرى وهذه العملية التي يقوم بها المؤرخون . تفسد المعنى الحقيقي للتاريخ . والتاريخ السياسي الذي يحتل مكانة الصدارة هو تمثيلية ، تشبه في نظره تمثيلات شكسبير^(٢) . أما التفسير اللاهوتي للتاريخ ، الذي يستند إلى الاعتقاد المسيحي ، بأن الله يكشف عن ذاته في التاريخ ، فإنه أيضاً ، لا يعطى للتاريخ أى معنى . إن هذا الاعتقاد ؛ كما يقول . هو مجرد خرافة وعبادة للأصنام ، لا من وجهة النظر العقابية والإنسانية ، بل من وجهة النظر المسيحية ذاتها . أى خطأ في أن نعتقد أن التاريخ الذي سطره الدكاتوريون ، وكتبه المدرسون ، هو الذي أراده الله للإنسانية .

ولا يبكر المفكر الإنجليزي ، أننا نستطيع أن نعطي تفسيراً مسيحياً للتاريخ ، مثلما نفسره من أية وجهة نظر أخرى . ولكننا في كل مرة ، يجب أن نجعل أنفسنا مسئولين عن التاريخ . ومن الكفر بالله أن نجعله مسئولاً عن جرائم التاريخ . إن التاريخ ، كما اعتاد أن يكتبه المؤرخون ،

K. Popper : The open society ... Volume 2; p. 270.

(١)

(٢) نفس المرجع ص ٢٧١ .

هو مجرد كومبديا أو ملهاة ، تحركها يد الله . وما أبأس هذا التفسير للتاريخ ! إنه من الأفضل لنا جميعاً أن نتق في قول كارل بارث ^(١) Barth . اللاهوتي الألماني ، بأننا لا نستطيع أن نفهم طبيعة الألوهية ، وأنها تنسب إليه أوها مانا عن « الروح » و « الفكرة » . . .

وأيّاً كانت قيمة التفسير اللاهوتي للتاريخ - من وجهة النظر المسيحية - فإننا يجب أن نتحمل مسئوليتنا الأخلاقية تجاه التاريخ في هذا المجال ولا يسعنا إلى أن نشير هنا إلى نقد « بوبر » لهيجل ولفلسفته التاريخية ، باعتباره المؤسس الأصلي للنزعة القومية الجرمانية وما ترتب عليها من تفرقة عنصرية بين الشعوب .

نقد بوبر لهيجل : لقد أدخل هيجل مرة أخرى ، بعد أفلاطون وأسطو ، مبدأ الدولة القومية في النظرية السياسية . وكان الدولة القومية هي تعبير عن الفكر السياسي الشعبي . ويصرح بوبر أنه لا أحد يستطيع أن يعطينا المفهوم الصحيح . « للأمة » بحيث يصبح هذا المفهوم أساساً للسياسة العملية ^(٢) . ومن الممكن أن نقول إن الأمة هي مجموع الشعب الذي يولد ويعيش في دولة معينة . ولكن هذا التعريف ، هو في الحقيقة تعريف للدولة لا للأمة ، من حيث إن الأمة هي المبدأ الذي يحدد طبيعة الدولة القومية . أما النظريات الأخرى التي تفسر وحدة الأمة ، بالأصل المشترك ووحدة اللغة ، والتاريخ - فلا يمكن قبولها وتطبيقها عملياً . إنها أسطورة ، وحلم من الأحلام الرومنسية اللامعقولة ، أو الطوباوية عن الجماعة القبلية أو الطبيعية ^(٣) .

ويبدو أن دعوة هيجل إلى النزعة القومية كانت نتيجة للتورة الفرنسية ودعوها إلى الحرية ، وبالتالي نتيجة لاحتلال ألمانيا بالجيش القوي الفرنسي ، تحت قيادة نابليون ، وما أحدثته هذا الاحتلال من رد فعل في نفوس الألمان . إن النظرية القومية ، قد سادت لدى أكبر عدد من المفكرين الألمان ، في القرنين الثامن والتاسع عشر . فكان هردير المؤرخ الألماني J.G. Herder يقول في كتاب « الأفكار عن فلسفة لتاريخ الإنسانية » ١٧٨٥ ، إن الدولة الطبيعية ، هي دولة تتألف من شعب واحد له طابع قومي واحد . وكذلك ، فإن فيشته يعتبر من أكبر الدعاة إلى القومية الجرمانية . وربما كان هذا الفيلسوف ، من أنصار النزعة الإنسانية والدولية في وقت من الأوقات ، ولكنه أصبح بعد ذلك فيلسوفاً قومياً بكل معنى الكلمة ^(٤) . وكان فيشته ينسب

(١) كارل بارث ، ممثل الحركة البروتستنتية الجديدة في ألمانيا ، والتي ترفض كل تفسير لاهوتي

للتاريخ .

(٢) نفس المرجع ص ٥١ .

(٣) نفس المرجع ص ٥٢ .

(٤) يعتبر هذا الكلام من الوجهة النظرية البحتة ، لأننا لا ننسى أنه فر من برلين عند احتلال

الفرنسيين لها .

فلسفته إلى « كنت » الذي قال عنه : فليحفظني الله من الأصدقاء . أما الأعداء ، فأنا كفيل بم . لذلك ، فإن تفسير فيشته لتالية كنت ، هو تفسير غير سليم ، في نظر كنت على الأقل .

إن الدعوة إلى التعصب الجرمانى ، لأصول لها عند كنت ، ولكن أصولها عند فيشته وهيجل . ويذهب . « بوبر » في نقده لهيجل إلى أبعد الحدود ، فيتساءل ، كيف يمكن أن نضعه في نفس مستوى الرجال من أمثال ديموقريطس . بسكال ، ديكارت . اسپينوزا ، لوك ، هيوم ، كنت ، جون ستيروات ميل ، وبرتراند رسل ؟

الحق أن المفكر الإنجليزي ، يخلط بين أمرين ، بين فلسفة هيجل من ناحية ، والتطبيقات التي وجدتها هذه لدى المفكرين الألمان ، من ناحية أخرى . لم يكن هيجل داعياً إلى النازية والفاشية وإن كان النازيون والفاشيون ، ينسبون أنفسهم إلى هيجل . كذلك فهو لم يجاهر بالفرقة العنصرية بين الشعوب ، وإن كان أصحاب هذه النظريات ، يتلمسون أصولها عند هيجل^(١) . ويقول « زيغلر » Ziegler في كتابه الدولة الحديثة . The modern nation : إن الثورة الكوبرنيقية عند هيجل ، تتمثل في فلسفة الأمانة .

الحق أن حكم بوبر على هيجل ، كان قاسياً وعنيفاً . إنه يحكم عليه بعد نشوب الحروب العالمية ، وأعمال العنف التي قام بها النازيون في الحرب العالمية الأخيرة . لكن من قال إن هيجل ينظرياته الفلسفية ، هو الذي تسبب في مآسى وآلام الإنسانية ؟

إن فكرة هيجل عن الحرب ، وتفسيره لها ، كانت مجرد فكرة فلسفية نقلها عن الفيلسوف اليونانى القديم هيرقليطس . فالحركة والصيرورة في الوجود ، والعقل « لوجوس » Logos الذى يحكم الطبيعة ويتجلى فيها ، والحرب والسلام اللذان يتناوبان على الإنسانية ، كل هذه الأفكار نقلها هيجل عن هيرقليطس . ولا يسعنا إلا أن نقول ، إنه مهما تطاول بوبر على هيجل ، فإن هيجل سوف يظل - رغم أنه - من أعظم الفلاسفة الذين أنجبهم الإنسانية .

لقد أكد ابن خلدون أهمية العصبية في قيام الملك والدولة . وكان تفسيره للعصبية بشرف النسب وكما يقول : إن البيت والتشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية . ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه . والدولة التي تتخلى عن العصبية ، يكون مصيرها التلاشى من الوجود ، كما حدث لأهل الأندلس ، عندما تخلوا عن العصبية ، واستغنوا عن قوتها .

(١) مثل F. Haiser : Slavery : its biological foundation, and Moraljustification.

F. Lenz : The Race, as the principle of Value

E. Kriek : National-Political Education

Kolnai : Thus spake getmany.

ولقد قال فيهم الشاعر ابن شرف^(١) :

مما يزهلنى فى أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتصد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالمهر يحكى انتفاخاً صورة الأسد

فالعصبية فى نظر ابن خلدون ، هى التى تحمى الدولة ، وهى الأساس فى قيام الدول العامة . حتى إذا استعانت الدول بجند وجيوش تحميها ، فيجب مع ذلك ، أن تجمع الشعب وحدة الحمية والعصبية . والقول بالعصبية ربما يكون أصدق من القول بالترفة العنصرية التى ينادى بها بعض المحدثين ، على أساس من التفرقة البيولوجية ، والتطورية^(٢) التى يقول بها دارون .

(١) نقلا عن مقدمة ابن خلدون ص ١٨٣ .

(٢) Darwin : Evolutionism .

الفصل الثالث

ماركس وفلسفة الحضارة الصناعية

اكتشف هيجل حقيقة التناقض في الواقع ، والمنطق والتاريخ . ولا شك أن كارل ماركس الذي اكتشف المتناقضات التي يزخر بها المجتمع الصناعي الحديث قد تأثر بهيجل ، كما تأثر بغيره من المفكرين . ويعترف ماركس نفسه أن هناك دراسات عديدة قد سبقت فلسفته العقلية والعلمية ، في تفسير الواقع .

١ - هناك دراسات اقتصادية عديدة ظهرت في إنجلترا في نهاية القرن الثامن عشر ، وقام بها آدم سميث ، وريكاردو وبتي . وعرضت الكثير من المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع الصناعي الحديث .

٢ - الفلسفات المادية التي ظهرت في فرنسا خلال القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، والتي دعا إليها هولباخ ، وديدرو وهلفتيوس وفيورباخ في ألمانيا . وغيرهم من علماء الرياضة والطبيعة والحياة .

٣ - الدراسات التي قام بها المؤرخون الفرنسيون من أمثال تيري Thierry وجيزو Guizot عن الصراع بين الطبقات في المجتمعات وبخاصة أثناء الثورة الفرنسية .

٤ - نقد الحياة الاجتماعية كما عرضه روسو في مؤلفاته ، وآراء ملتوس Malthus في السكان .

٥ - نظريات دارون في التطور ، وما يستتبعه من نظريات مادية في تفسير وجود وتطور حياة الكائنات الحية .

٦ - انتشار الآراء الاشتراكية الفرنسية وبخاصة آراء سان سيمون St. Simon في الاقتصاد السياسي الحديث ، وبرودون Proudhon عن مشاكل الطبقة العاملة والمستقبل السياسي لطبقة البروليتاريا وفوريه Fourier عن مصير الإنسان في المجتمع الصناعي .

٧ - ولكن من المؤكد أن أكبر أثر يمكن أن نسجله في هذه الفلسفة ، هو أثر هيجل ، لأنه هو وحده الذي استطاع من قبل ، أن يكشف عن معنى التناقض في الطبيعة والإنسان والتاريخ . ولا شك أن عام ١٨١٣ ، عام ظاهريات الروح يعتبر عاماً تاريخياً في تصور الفكر

للعالم ، تصوراً جديداً^(١) .

وسوف نحاول أن نقدم هنا عرضاً لفلسفة ماركس ، بوصفها فلسفة للحضارة الصناعية .

١ - الثورة الصناعية ونشأة الرأسمالية

من العبث أن نحاول تفسير فلسفة ماركس ، بعيداً عن المجتمع الصناعي الذي نبعت منه وتأثرت بمشاكله وقضاياه . ومهما كان تأثير ماركس بالحدل الهيجلي ، فإن هذا التأثير الفلسفي ارتبط بتأثير ماركس بالحضارة الصناعية في عصره .

الثورة الصناعية: يعتقد علماء الاقتصاد، أن التقدم التجاري قد سبق التقدم الصناعي في إنجلترا وهولندا . ولقد ساعد توسع التجارة البحرية في إنجلترا على قيام الثورة الصناعية فيها . ويذكر مانتو Mantoux في كتابه . الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر ، « أن ميناء ليفربول الذي اشتهر بالتجارة مع المستعمرات البريطانية ، قد ساعد على تقدم الصناعة في منطقة لنكشير . ونظراً لاستيراده للقطن من هذه البلاد فإنه ساعد على ازدهار صناعة النسيج في ما نشستر . كذلك فإن كل تقدم في وسائل المواصلات ، يساعد على نهضة الصناعة في البلاد .

ولقد انفجرت الثورة الصناعية في إنجلترا بصورة مبكرة وتلقائية، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تسير في طريق الثورة الصناعية بخطوات بطيئة . ولقد دفعت الحكومة السياسية في فرنسا البلاد دفعا إلى حركة التصنيع الكبرى .

يقول هنري سي Henri See في كتابه : « أصول الرأسمالية الحديثة » ، إن التجارة كانت هي المصدر الأساسي للحركة الصناعية ، حتى إن هذه الكلمة كانت تشير في القرنين السابع والثامن عشر إلى الصناعة والتجارة معاً . كذلك فإن الكلمة الإنجليزية Trade تشير إلى نفس المعنيين . ويجب أن تشير هنا إلى أن تاجر الجملة ، كان في نفس الوقت هو المستورد للخامات الأولى اللازمة للصناعة ، وهو الذي يسوقها في الأسواق . وكانت عملية التصنيع تخضع للمواصفات التي يفرضها التاجر على المصنوعات ويجب أن تذكر أن التقدم الصناعي السريع كان يدفع البلاد إلى البحث عن أسواق تجارية ، كما حدث في إنجلترا . فلقد كان تقدم صناعة الأصواف دافعا قويا إلى البحث عن أسواق تجارية لها ، وهكذا ، ومن أجل تقدم الصناعة ، أصبحت إنجلترا دولة تجارية وبحرية عظمى .

وإذا كانت الصناعة قد اهتمت في بادئ الأمر بالمصنوعات الزراعية والمنزلية ، وإذا كانت مثل هذه الصناعة قد انتشرت في المقاطعات والقرى ، مثل صناعة الأصواف والسجاد

والأتيال والدانتيل ، فإن رأس المال بدأ ينتشر أيضاً في مختلف المدن الصناعية . ولقد تقدمت هذه الصناعات بفضل الصناع المهرة الذين كانوا يتقنون أعمالهم ، كما كان البعض منهم (في يوركشير) يستوردون بأنفسهم الخامات الأولى (خيوط النسيج) . وبدأ الصناع يستقل بعمله في القرن الثامن عشر ، وكان يبيع مصنوعاته في الأسواق . كذلك نجد في أيرلندا أن نفس التطور يحدث في صناعة التيل (في أولستر Ulster) ، فيستقل الصناع بصناعته ، ويتولى بيعها في أسواق المدن القريبة مثل دبلن وبلفاست . وهكذا يحتل التاجر - الصناع ، مكانته في الحركة الاقتصادية :

أما في فرنسا ، حيث كانت الحركة الصناعية بطيئة الخطى فلقد نشأت في بعض المدن ذات الموارد الزراعية الضعيفة مثل بريطانيا ، بعض الصناعات التي لم تقدم لتنافس صناعات المدن الأخرى . أما في مناطق الفلاندر وشمال نورماندى ، فقد كان الصناع يمثلون قوة أمام التجار ، ويستجعون على انتشار الصناعات الآلية . ولا يكفي أن تنشأ المصانع ، ليتحول إليها رأس المال فإنه كان في أغلب الأحيان ، في أيدي التجار . وتلك الحقيقة كان يجب أن تؤثر على أحوال الصناع وأصحاب العمل الذين كانوا يفتقرون إلى قوة رأس المال . ولذلك كان التجار ، هم الذين يفرضون القوانين على العمال ، وربما كان ذلك من أجل أسباب فنية تكنولوجية . إذ كانت الصناعة تتطلب سلسلة من الخطوات التي تتولاها مهارات مختلفة . فبالنسبة لصناعة الصوف مثلاً ، كان التاجر يشتري الصوف الخام ، ويسلمه إلى العمال الذين يتولون عملية تنظيفه ، ثم يعطيه بعد ذلك إلى العاملات لغزله . وعندما يستحضر الخيوط يسلمها إلى عمال النسيج ، حتى إذا ما تم نسجها ، فإنه يسلمها إلى فئة أخرى من العمال الذين يتولون تجهيزها .

وكما ذكرنا ، فإن وجود مراكز تجارية كبرى ، يمكن أن يساعد على وجود مراكز صناعية هامة . وفي المراكز الصناعية ، يتولى التاجر عمالية جمع العمال في مبنى واحد ، من أجل رقابة سير العمل ، والإقلال من النفقات . وهكذا تصبح مراكز الصناعة . مراكز تجمع للعمال الذين يتجاوز عددهم في بعض الأحيان ، بضعة آلاف عامل . هؤلاء هم عمال المانيفاتورا ، كما يقولون ، لأن كلمة الصناعة industrie كانت لا تستخدم إلا قليلاً في غضون القرن الثامن عشر .

ولقد اهتم كارل ماركس بدور المانيفاتورا وأسند إليها دوراً هاماً في كتاب رأس المال . ويجب أن نشير أن الحكومة الفرنسية أيام كولبير Colbert ، قد أنشأت مراكز للصناعات الملكية (مانيفاتورا) بجانب مراكز الصناعات الخاصة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت . وكانت هذه الصناعات الحكومية ، تستعين ببالغ ضخمة من الحكومة ، مما ساعد على تقدم أدائها وآلاتها .

ونستطيع أن نقول إن المانيفاتورا في فرنسا كانت من عمل الدولة في أغلب الأحيان ، مما ساعد بعد ذلك على ظهور الصناعة الضخمة والميكنة *Machinisme* . أما في إنجلترا فلم تكن تحظى بحماية الدولة لها ، ولقد منحت ثوره ١٦٨٨ في إنجلترا، حرية التجارة وحررت الاقتصاد في البلاد من كل نفوذ للدولة :

إن التطور التكنولوجي قد أدى إلى تطور الصناعة وتركيز رأس المال وتقسيم العمل : وكان يجب أن يتزايد رأس المال من أجل مواجهة التكاليف اللازمة لإقامة المصانع وشراء الآلات. وظهرت شركات جديدة، مثل شركة أوبركامف Oberkamph للحرير في سنة ١٧٨٩ ، بلغ رأسمالها تسعة ملايين من الجنيهات وأرباحها مليون ونصف من الجنيهات في سنة ١٧٩٢^(١) .

الميكنة والتصنيع : إن انتشار الصناعة الرأسمالية كظاهرة عامة قد حدث بفصل ظهور الميكنة . ولقد كان ظهور الميكنة في مجال صناعة النسيج مثلاً ذا أثر كبير في تطورها وتقدمها. وبدأت الميكنة في إنجلترا وكانت فرنسا تكتفي باستيراد الآلات منها ؛ وأحياناً العمال الذين يعملون عليها . ولم تنوع فرنسا في استخدام المكن إلا في عهد نابليون (الإمبراطورية الأولى) .

و جدير بالذكر أن هذه البلاد - إنجلترا وفرنسا - قد وجهت جلّ عنايتها إلى صناعة القطن ونسجه . ولم تتقدم صناعة الأصواف إلا بعد فترة . ولا شك أن انتشار زراعة القطن في المستعمرات ، قد دفع هذه البلاد إلى التقدم في صناعتها .

أما سائر الصناعات الأخرى ، مثل الورق والزجاج ، فإنها كانت تنتشر في نطاق ضيق وتخضع للاستثمارات الفردية . لكن صناعة الحديد، لم تظهر إلا مع القرن التاسع عشر ، وكان في فرنسا مصنع كروزو Creusot ، وكان صاحبه رأسمالياً من الدرجة الأولى . ولم تستخدم الموتورات الآلية إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، وبخاصة الآلات البخارية والمائية . وكان استخدامها أكثر انتشاراً في إنجلترا ، منه في فرنسا . وهي تعتبر تطبيقات للعلم الطبيعي والرياضي في مجال الصناعة . كما أدخلت الاكتشافات الأخيرة في علم الكيمياء ، العديد من الابتكارات الجديدة في مجال الصناعة .

ولم تكن الميكنة هي السبب المباشر في تضخم رأس المال ، بل الصناعات الثقيلة التي تتكلف نفقات باهظة مثل صناعة الفحم ، والتي تقوم عليها الشركات والمؤسسات الكبيرة . وكانت من أشهر وأكبر الشركات التي عرفها فرنسا في ذلك الوقت ، شركة أنزان Anzin لا استخراج الفحم ، والتي كانت أرباحها تصل إلى نسبة ١٠٠٪ من جملة المصروفات . وكان من أثر تطور الصناعة ، أن ازدادت كثافة السكان في المدن وقلت في القرى . على

الرغم من أن بلداً مثل فرنسا قد ظل مع ذلك بلداً زراعياً أكثر منه صناعياً .
والحق أن عبارة « الثورة الصناعية » التي اشتهرت مع تونبي (١) ، تشير إلى تطور سريع ،
وتقدم متواصل للصناعة في ذلك الوقت . وهذا التقدم الذي لحق بالصناعات الثقيلة ، هو الذي
أدى إلى ظهور بعض الصور من الرأسمالية المتضخمة .

أثر الرأسمالية الصناعية في تحرير الرقيق :

مع انطلاق الصناعة ، بدأ الرقيق من الفلاحين يتركون مجال الزراعة ليتجهوا نحو الصناعة .
وأصبح العائد من الأعمال الصناعية الحرة أوفر من العائد من الزراعة . كما أن الصانع كان
يتمتع بقدر أوفر من الحرية الشخصية . وكان من نتيجة انتشار الاقتصاد الرأسمالي ، أن تحرر
الرقيق . وقد يظن البعض أن هذه الحرية كانت من أثر الدعوة الفكرية إلى المساواة بين الناس ،
التي كانت تدعو إليها الثورة الفرنسية ولكن آدم سميث يؤكد غير ذلك في كتابه «ثروة الأمم»
إذا يقول : « لقد أثبتت التجربة في كل زمان ، وعند جميع الأمم ، أن أعمال الرقيق تكون
أعلى ثمناً من غيرها ، لأنهم يأكلون كثيراً ويعملون قليلاً » . من الواضح أن الدول التجارية
والصناعية في شمال الولايات المتحدة ، هي أول من دعت إلى تحرير الرقيق : وأكثر الكتاب
الذين دعوا إلى ذلك ، كانوا يقدمون الكثير من الأسانيد والمبررات الاقتصادية (٢) .

قضايا العمال :

كان من نتيجة انتشار الصناعة ، ظهور طبقة جديدة هي طبقة العمال ، وبدأت قضايا
جديدة تظهر في المجتمع الصناعي . وظهرت قوانين جديدة خاصة بتحديد ساعات وأجر العمل ،
بالنسبة للعمال من النساء والصغار . كما أن العمال أخذوا يعترضون على استخدام المكن ، وانتشرت
مظاهراتهم في فرنسا وإنجلترا . وبدأت الحركات العمالية تؤلف الاتحادات التي تتولى الدفاع
عن حقوقها .

ولم تكن طبقة العمال في ذلك الوقت ، ذات ميول ثورية ، بل كانت تتميز بأنها طبقة
محافظات تفكر أولاً في تدعيم مستقبلها ومستقبل أبنائها . أما أصحاب العمل ، فكانوا يمثلون الطبقة
التي تسعى وراء التجديد والتغيير والابتكار . وعندما ازدادت ثروة أصحاب العمل بزيادة
الإنتاج الصناعي ، بدأ العمال ينظمون الحركة ضدهم . كما ساندتهم في ذلك بعض المفكرين ،

Arnold Tonybec : Lectures on the industrial revolution, 2, Ed. 1908. (١)

Henry Wilson : The rise and fall of slavery. (٢)

الذين بدأوا يسحلون تقدمهم للمجتمع الرأسمالى .

لا شك أن تقدم الصناعة لم يخفف من آلام الطبقة العاملة ، التى عانت الكثير فى ظل الصناعة الصغيرة والصناعة الكبيرة على السواء . وفى البلاد الزراعية ، كانت مشاكل الزراع والفلاحين لا تقل عن مشاكل العمال الصناعيين . ولقد وجد أصحاب العمل . أنه لكى يزيد الدخل ، يجب أن تقل أجور العمال .

إن المجتمع الصناعى قد جعل التفرقة بين الطبقات . تفرقة اقتصادية من الدرجة الأولى . وربما كان الناس جميعاً فى هذه المجتمعات يتمتعون بنفس الحقوق السياسية والمدنية . ولكن الفروق الاقتصادية كانت هوى القانون . مما زاد الهوة بين السلاء والشعب . الرأسمالين والعمال . وفى القرن التاسع عشر . ازداد الوعي الطبقي لدى العمال فأحدوا يطالبون بحقوقهم . وانعدمت الوحدة بينهم وبين أصحاب العمل .

٢ - ألمانيا والثورة الصناعية

ولد كارل ماركس وفريدريش إنجلز فى مقاطعة الراين فى ألمانيا Rhénanie^(١) . وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت بعيدة عن الثورة الصناعية التى غيرت من صورة المجتمع الإنجليزى والفرنسى وفى عصر الملك فريدريك الثانى . كانت لا تزال تخضع لنظام الإقطاع :

(أ) فى الدول الراحية التى تقع فى شمال نرق ألمانيا : كانت قواعد الإقطاع

راسخة .

(ب) فى بروسيا . ظهرت الصناعة الرأسمالية . وقوى نفوذ الطبقة البورجوازية .

(ج) كانت الدول التى تقع فى وسط ألمانيا يشاها . مثل هاننور وفورتيمبرج وبفارىا . . .

إلخ ، زراعية ، لم تتأثر بعد بالحركة الصناعية .

(د) أما مقاطعة الراين . التى خضعت للنظام والحكم الفرنسى فترة طويلة^(٢) . فلقد

كانت دولة صناعية ، تأثر سكانها بالآراء الليبرالية الفرنسية . لذلك كانت هذه الدولة ذات طابع حديث ، مما جعلها تختلف عن سائر الدول الألمانية .

وبعد هزيمة نابليون سنة ١٨٠٨ . صدرت فى بروسيا قوانين إصلاحية منها التى تكفل حرية

التجارة والصناعة . ومنها التى تلغى الرقيق . لكن هذه القوانين وتلك قد زادت من نفوذ الطبقة

(١) ولد الأول فى مدينة Treves سنة ١٨١٨ ، والثانى فى مدينة Barmen . سنة ١٨٢٠

(٢) من ١٧٩٥ - ١٨١٥ .

البورجوازية . والنبلاء ، ولم تعط شيئاً للعمال والفلاحين : وما زاد من خطورة هذه الحالة ، أن الملك فريدريك الثالث كان لا يفكر في إصلاح أحوال البلاد . إذ اطمأن بعد هزيمة نابليون ، أنه لن يتنافس بعد أحد على الحكم ، ورفض أن يعلن الدستور الذي كان قد وعد الشعب به : وتحالفت ألمانيا مع روسيا القيصرية من أجل قهر الحركات التحررية التي انتشرت بفضل الثورة الفرنسية . حتى كانت فكرة توحيد الدول الألمانية – الوحدة – مرفوضة تماماً من الأمراء والحكام . وكان في ألمانيا . المثقفون الذين يدعون إلى وضع حدّ أسلطة ونفوذ الأمراء مثل آرت ، Arndt, Welcker, Gorres وفلكر وجورز ، وكانوا يتزعمون اتحاد الطلبة Burschenschaft

لكن هذه الحركات ، لم تكن تستطيع أن تحقق أية غاية سياسية ، وبخاصة وحدة ألمانيا الكبرى . فكانت الحركة الثقافية التي تدعو إلى وحدة الأمة الألمانية، وتمحرك الحماسة الجرمانية في النفوس ، في حاجة إلى أن تخرج من دائرة القول إلى العمل . ولقد حدث أن اجتمع الطلبة من كافة الدول الألمانية ، في دولة فارتبورج في أكتوبر ١٨١٧ ودعوا في المؤتمر العام ، إلى الوحدة القومية . وكانت النتيجة الوقوف في وجه هذه الحركة ، وقمع الدول لها :

أياً كان الحال في الولايات الألمانية المختلفة ، فلقد كانت دولة الراين متأثرة بآراء الثورة الفرنسية . ولقد حاول الملك فريدريك الثالث أن يخضعها للنظام الاقتصادي الألماني ، الذي كان يعتبر في نظرهم متخلفاً عن النظام الاقتصادي الفرنسي والإنجليزي . فأراد مثلاً أن يفرض عليهم التقسيم التقليدي للمجتمع إلى نبلاء وبورجوازيين وفلاحين . ولكن هذا التقسيم الذي أبعته الثورة الفرنسية من نظامها الاجتماعي ، كان يرفضه أيضاً الراينانيون . ولما كان النظام الألماني يسمح باستقلال المدن ويخضع القرى لسلطة النبلاء ، فلقد رفضت هذه الدولة أيضاً الخضوع لهذا النظام الألماني القديم ، وظلت ودية لمبادئ وأصول الثورة الفرنسية .

ويبدو أن التقدم الصناعي في هذه الدولة ، وتوسع التجارة ، قد ساعدا على وضع نهاية لحكم النبلاء وللنظام الإقطاعي . ولم تقاوم حكومة بروسيا هذه الأوضاع ، إذ اكتشفت أن نبلاء الراين أكثر تحالفاً مع النمسا، منهم مع ألمانيا . ومن الواضح أن سكان الراين كانوا بصفة عامة يرفضون كل تحالف مع ألمانيا، لا من أجل نظامها السياسي ، بل من أجل نظامها الاقتصادي الذي تركها في حالة من الفقر والتخلف . هذا عدا الضرائب الزائدة التي فرضتها ألمانيا على سكان تلك الدولة ، للتعويض عن خسائرها في الحرب :

كانت ألمانيا تعيش في أزمة اقتصادية عنيفة بسبب تخلفها الصناعي ، وفقير حياتها الزراعية واضطرت إلى فتح أبوابها لمنتجات صناعة الراين ، ومخصولاتها الزراعية (الكروم) . وهذه

الأسواق التجارية الجديدة: قد ساعدت على التقدم السريع للصناعة - في الراين - ومنافسة
المصنوعات الإنجليزية .

وكما أشرنا سابقاً ، فإن التقدم الصناعي يساعد على ظهور طبقتين متميزتين : طبقة
الرأسماليين ، وطبقة العمال الكادحين أو البروليتاريا . وبدأت هذه الدولة - الراين - تعاني
من مشاكل المجتمع الصناعي . وظهرت طبقة بورجوازية ثرية ، وازداد عدد العمال . وكانت
الأفكار الليبرالية ، تجد رواجاً بين أبناء الطبقة البورجوازية ، بينما بدأت الأفكار الاشتراكية
والشيوعية تنتشر بين جموع العمال . وتلك الملاحظة جديرة منا بكل عناية . فتواجد مثل هذه
الأفكار في نفس المجتمع (حوالي سنة ١٨٣٠) ، لا يعطى للأفكار الليبرالية أية قيمة ثورية كما
كان الحال في فرنسا . إذ أن الأفكار الاشتراكية والشيوعية التي أصبحت منتشرة ، كانت في
الحقيقة أكثر ثورية منها . وسارت البورجوازية الألمانية على نهج سيامي خاص ، فتخالفت
مع القوى الرجعية ضد العدو المشترك (طبقة العمال) . وذلك على عكس البورجوازية الفرنسية التي
كانت تقف صراحة ضد الرجعية .

وانشرت الآراء الليبرالية في ألمانيا بين ١٨٣٢ و ١٨٣٥ . وكانت جماعة « ألمانيا الفتية »
هي التي تنزع هذه الحركة ، وكانت تضم عدداً من الكتاب الشباب مثل جاتز كوف ولاويه
ومونت وورن وهابنه^(١) ، الذين قطعوا كل صلة بالآراء الرومانسية ، والاتجاهات الرجعية ،
وعبروا في أعمالهم عن الآمال الليبرالية والديموقراطية في عصرهم . وكان الأدب في نظرهم من أقوى
الوسائل التي يمكن التأثير بها في المجتمع من أجل تغيير أفكاره وبالتالي عاداته وتقاليده ،
نظمه ومؤسساته . لذلك كانت الليبرالية في ألمانيا ، ذات ميول ديموقراطية واشتراكية . ولم تكن
تتم بالنزعة الجرمانية القومية التقليدية .

ولابد من الإشارة هنا ، بموقف كاتبين مرموقين في ذلك الوقت ، هما « بورن » و« هاينه » .
كان بورن Borne كاتباً شجاعاً ومدافعاً مخلصاً عن الأفكار الديموقراطية . وكانت
كتاباتهِ تمتلئ حقدًا على استبداد الأمراء ، ودكتاتورية الحكام . وهو يعتبر أول من طالب
بإنشاء جمهورية ألمانية تضع حداً لهذا الطغيان وتحقق السعادة لجميع المواطنين . ولقد ترجم إلى
اللغة الألمانية كتاب لامنيه : أقوال مؤمن^(٢) ، داعياً بذلك إلى الآراء الاشتراكية الجديدة . وكان
الشعب الألماني ، يحب إعجاباً شديداً بأفكاره الديموقراطية . وبأسلوبه الجريء . الذي
يفيض حماسة وقوة .

Gutzkow, Laube, Mundt, Borne, Heine.

(١)

Lamenais : Paroles d'un croyant.

(٢)

وكان هنريش هاينه أكثر عمقاً في أفكاره من زميله السابق ولكنه غلب عليه أصله الأرسقراطى فكان يتاصر ما يسميه بالنظام الملكى الليبرالى . ولم يكن هاينه يهتم بالمسائل السياسية بقدر اهتمامه بالمسائل الاجتماعية . وكانت المسألة الرئيسية التى يشغل بها ، هى إلغاء ظاهرة الفقر والبؤس من المجتمع ^(١) . وكان متأثراً في آرائه الاشتراكية . بآراء سان سيمون التى تبشر بسعادة الإنسان في الأرض ، سعادة روحية ومادية . وكان يعتقد أن الثورة الفكرية ^(٢) والثورة السياسية - الثورة الفرنسية - يجب أن تتبعها ثورة اجتماعية . كما يؤكد ثمة قرابة فكرية بين حركة الإصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر - وحركة التحرير الفكرية التى كان يدعو إليها الفلاسفة الفرنسيون قبيل الثورة . فكلتا الحركتين تنادى بضرورة إخضاع الدين للعقل ، وعدم التصريط في حقوق العقل أمام الدين .

كل الأفكار الليبرالية والديموقراطية والاشتراكية، جاءت إلى ألمانيا من فرنسا، وعاش هاينه ويورن في باريس فترة طويلة . وكان وجودهما في فرنسا كافياً لكى تضعف الحركة الليبرالية في ألمانيا ، ولكى تنشأ حركة قوية مضادة يتزعمها كتاب مثل « هالر » و « مولر » ، ودافع عنها رجال القانون مثل « سافينى » و « ستال » ^(٣) . وليس المجال هنا لذكر ما لقيته حركة ألمانيا الفتاة من اضطهادات عنيفة ، ولكننا يجب أن نسجل أن النظريات الاشتراكية قد غزت ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر . ولكنها كانت في بداية الأمر ، مجرد نظريات طوباوية وأحلام ، تصور مجتمع المستقبل والمجتمع المثالى - الشيوعى - الذى تلغى فيه الملكية الخاصة ويتساوى فيه الجميع . ولم تظهر النظريات الاشتراكية الألمانية ، إلا في أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت أيضاً متأثرة بالثورين الاشتراكيين الفرنسيين من أمثال بابف ^(٤) Babeuf .

كانت الأفكار الاشتراكية التى ينادى بها سان سيمون أكثر اعتدالاً من أفكار بابف الثورية العنيفة . ولم يكن سان سيمون يفكر في إلغاء الطبقة البورجوازية من المجتمع بالإبادة والعنف ، بل كان يفكر في إعادة تنظيم عملية الإنتاج في المجتمع الصناعى . فالصناعة - لا الزراعة - هى المصدر الحقيقى للثروة ، وأساس المجتمع الحديث . وكان يعتقد أن الدولة الاشتراكية هى التى تعمل على تقدم الصناعة والعلوم ، مما يساعد على انتشار الرخاء المادى ، وإلغاء الفقر وبحو الجهل . فالدولة هى التى يجب أن تتولى عمليات الإصلاح في المجتمع وذلك بتنظيم الإنتاج ، لا على أساس الاشتراكية الشيوعية والمساواة المطلقة ، بل على أساس التنوع الاجتماعى الجديد مع المحافظة على الملكية الشخصية . إن الصناعيين والعلماء ، هم الذين

(١) انظر : H. Heine : Französische zuslande . الحالة في فرنسا (باريس ١٨٢٢) .

(٢) يشير بذلك إلى حركة التنوير

Haller, A. Muller; Sarigny; Stahl.

(٣)

(٤) صدر الأورباعدائه سنة ١٧٩٧ بعد فشله في مؤامرة سياسية .

يجب أن يقودوا المجتمع نحو حياة أفضل ، وأن يراعوا مصالح الطبقة الفقيرة ، لا الأقلية الغنية . لقد تضاربت الآراء حول مذهب سان سيمون الاشتراكي . فالبعض يرى أنه يحقق فيه أحلام الطبقة البورجوازية ، وأنه يعتبر في الحقيقة داعياً إلى الرأسمالية الصناعية ، ومناصراً لها . والبعض الآخر يرى فيه مفكراً اشتراكياً . يؤكد قيمة العمل والإنتاج ، ويعترف بجميع حقوق الطبقة العاملة . وكل ما نستطيع أن نقوله ، هو أنه كان معتدلاً في اشتراكيته ، ولم يكن بالتأكيد يجتهد قيام المجتمع الشيوعي .

وسار فوريه Fourier في الطريق الذي سار فيه سان سيمون ، طريق الاشتراكية ، والدفاع عن حقوق الطبقة الفقيرة . وكان يرى أن الدولة التي لا تفرض قيوداً على الثروة ، تجعلها نهياً وسلباً للذين لا يبذلون الجهد والعرق . فعملية ارتفاع الأسعار وخفضها التي يتلاعب بها التجار وأصحاب المصانع ، تؤدي حتماً إلى ظهور الأزمات الاقتصادية . وهكذا تنشأ طبقة أرستقراطية^(١) جديدة في المجتمع ، تمثل أرستقراطية المال ، لا الشرف والنسب . وهذه الطبقة تصبح قوة جديدة تحكم الدولة وتقهقر الشعب الفقير ، وتخضعه لنوع جديد من العبودية والرق . ويصبح العمل بالنسبة للكادحين عذاباً شاقاً بالأجر الضئيل . ولا يعتمد فوريه أن الدولة وحدها ، يمكن أن تقوم بعملية الإصلاح اللازمة . بل لابد من وجود اتحادات للعمال تفرض نظاماً جديداً للعمل ، يحقق الأجر العادل للعاملين . والربح العادل لأصحاب العمل . وربما كان يفكر في المجتمع الأفلاطوني ، الذي يؤدي فيه كل فرد عمله طبقاً لاستعداده الخاص وميوله الطبيعية .

لكن من الواضح أن فوريه لم يفكر إطلاقاً في الصراع بين الطبقات ، وفي الدور التاريخي لهذا الصراع في المجتمع الصناعي . ولقد تأثرت ألمانيا بأفكار سان سيمون وفوريه وبأبف . وتأكد كلام الاشتراكيين بمحقيقة البؤس والفقر الذي كانت تعاني منه الطبقات العاملة في ألمانيا . وبدأت حركة الإضرابات تنتشر في دولة الراين في مدن «سولنجن» و«كريفلد»^(٢) . كذلك ثار الفلاحون في مناطق أخرى (مثل Hesse) ، وقاد هذه الحركة القس «فايدج» و«جورج» بوختر^(٣) ، وكانا ضمن جماعة تطلق على نفسها اسم «اتحاد المدافعين عن الحق» ، وكان هذا الدفاع ، كله إصرار وعزم على عدم التفریط في هذه الحقوق (Bond der Unbedingten) كتب فايدج . «الأضواء والأنوار» ، التي كان يدعو فيها إلى وحدة ألمانيا ، وينشر فيها فكرة الصراع بين الطبقات . وكان في رأيه أن الحركة الثورية للجماهير ، هي وحدها القادرة على تغيير وجه المجتمع ، ووضع نهاية للفقر والبؤس المنتشرين بين الطبقات العاملة . فالثورة الحقيقية ،

(١) بالمعنى الاقتصادي .

Solingen (1823). Crefeld (1828).

(٢)

Weidig - G. Büchner.

(٣)

هي ثورة الشعب الذي يستغله الأغنياء . فيكتزون المال ويملاؤن بطوهم ، في الوقت الذي لا يجد فيه أبناء الشعب القوت والكساء .

ولكن الثورة التي كان يدعو إليها القس فايدج لم تلق نجاحاً بين الفلاحين . فقبص عليه ومات في السجن ، وفرّ صديقه بوختر إلى سويسرا ومع أد هذا الكاتب لم يستطع أن يكمل الحركة الثورية الألمانية في سويسرا^(١) . إلا أن بعض الألمان قد تحالفوا مع « جماعة حقوق الإنسان » التي تكونت . في فرنسا ، وانتشرت سرّياً في سويسرا . وظهرت مجلة « نور الشمال » في زيورخ ، يحررها الألمان . ويشرّون فيها المقالات والأشعار الثورية ومنها قصيدة « الحداد كيليان » المشهورة^(٢) .

أنا الحداد كيليان

سوف أصنع قفصاً من الحديد

أسجن فيه الأمراء

بعد سقوطهم من على العرش .

وكذلك « أغنية المساجين » :

إرفعي لواءك أيّها العدالة

فوق الأشلاء وللدماء .

أيها الشعب تأمل هذا العلم

الذي يرفرف بروح الانتقام .

وليسعد في هذا البلد

الأخوة الأشقاء . . .

لم يكن المفكرون الألمان يطالبون بقوانين الإصلاح ، بل كانوا يطالبون بالثورة : إذا كان جزء من المواطنين فقيراً وجاهلاً ، والجزء الآخر غنياً ومتعلماً ، فإن قوانين العالم كلها لا يمكن أن تمنع الجزء الأول من أن يكرنوا عبداً ، والجزء الثاني أسياداً . والزعيم بأن تكون الملايين في أيدي بعض الرجال ، والحرية للجميع ، فيه مغالطة كبيرة . وفي المجتمع الذي تكون فيه الثروة ورأس المال من نصيب البعض ، فإن البعض الآخر يفقد ثمره عمله وجهده وتضحياته . وعندما تتزايد الثروة ، يتزايد الفقر . وكل تقدم للصناعة الآلية ، معناه حرمان الناس من السعادة ومن الثقافة الإنسانية . وفي الثورة المقبلة يجب أن نقضى على أكبر الامتيازات كلها ، نعي الثورة^(٣)

(١) مات بعد فترة وجيزة قصاداً في سويسرا .

Cornu : Karl Marse Paris 1955, p. 29

(٢)

(٣) كورنو : كارل ماركس ص ٣٢ نغلا عن كتاب « كالر » E. Kaler .

ظهرت الأيديولوجية الألمانية واضحة في هذا العصر . فكان أنصار الرأسمالية يدافعون عن حرية الإنتاج ، وبالتالي يؤكدون على معنى الحرية الإنسانية . وكانت الأيديولوجية الاشتراكية تكشف عن التناقض في المجتمع الرأسمالي وعن مدى تقييد الإنسان بالبيئة . وبدأت الأيديولوجية المثالية تتراجع في المجتمع الصناعي ، وبدأ الوهم في الاعتقاد بروحانية الإنسان والطبيعة . كان الفلاسفة الألمان المثاليون ينظرون إلى العالم : بوصفه خاضعاً لقوى باطنة ومؤثرات داخلية ، وكانوا يعتبرون الروح ، المبدأ الخالق والمنظم للكائنات والأشياء . ولقد تميزت المثالية الألمانية بالمبادئ الآتية :

- ١- إن الروح مرتبط بالعالم ، والعالم هو تجل للروح .
- ٢- نظراً لاتصال الروح بالعالم ، أصبح تصور الوجود تصوراً جدلياً وتاريخياً .
- ٣- إن التصور الجليل للوجود يفترض أن الواقع الحى ، هو الذى يتطور ويخضع للضرورة والتغير .

٤- وهكذا يصبح التناقض هولب الوجود ، في الوقت الذى كانت الميتافيزيقا التقليدية تفترض هوية الوجود وثباته .

وأياً كانت الفروق بين المذاهب المثالية المختلفة ، فلقد كانت كلها تنفق في هذه المبادئ الرئيسية . وكانت فلسفة هيغل تتمتع بنفوذ خاص ، كما كانت فلسفة كنت تمثل عصر الحرية والعقل . ولقد جعل فيشته من ثورة العقل ، ثورة بديلة للثورة السياسية والاجتماعية .

تلك كانت المثالية الألمانية، التى عجزت عن إيجاد حلول فعلية وعملية ، للمشاكل والصراعات في داخل المجتمع الصناعي . وكانت فلسفة هيغل ، التى كشفت عن حقيقة التناقض في الوجود والحياة ، أقرب إلى الإنسان الحديث من أية فلسفة أخرى . حقاً ، كان المثاليون مثل فيشته ، يدعون إلى تغيير العالم بالإرادة الحرة والأخلاق . ولكن الفلسفة الهيغلية قد أوجت إلى الثوار من الشباب بتطبيق النظر في مجال العمل . وتكونت جماعة أطلقت على نفسها اسم « الشباب الهيغلي » ذات أفكار ثورية ، وتدعو إلى التفسير اليسارى للفلسفة الهيغلية .

لم يكن هيغل بطبيعة الحال ثورياً بالمعنى الصحيح ، بل كان أقرب إلى التصور المثالى للعالم منه إلى أى شئ آخر . إنما كان من حق الفكر الثورى أن يعيد تفسير هذه الفلسفة ، بالنسبة إلى المستقبل ، لا إلى الماضى . وإذا كان التاريخ هو تمثيل للماضى ، فهل يعجز العقل عن تمثيل المستقبل ؟ لقد فرض هيغل على العقل مهمة فهم الواقع ، باعتبار أن هذا الواقع يخضع للعقل : إن مهمة الفلسفة هى دراسة الواقع وما هو حاضر ، لا أن تضع ثمة مثال بعيد لا يعلمه غير الله . . . إنها يجب أن تفهم الواقع ، لأن الواقع يقوم بالعقل . . .

إن الصلة بين الواقع والعقل ، وبين المنطق والتاريخ ، في إطار الجدل والصورورة ، كانت تعطى للشباب الهيجلي آمالاً بعيدة في تغيير صورة الحاضر في المستقبل .

وكانت المسألة الرئيسية تتعلق بالحركة الديناميكية للمجتمع ، التي يمكن أن تخلصه من الصراعات العنيفة التي تميزه . وكان الصراع بالمفهوم الهيجلي ضرورة من ضروريات الوجود والحياة إذ بدونه ، تصبح الحياة راكدة وخاملة ، لكن التوسع الجدلي للأضداد ، يجعلها في نظر هيجل تتحد في وحدة كبرى ، فيزول التناقض من الوجود ، وينعدم التضاد الكيفي بين العناصر . وكذلك يفعل العقل عندما يريد أن يتجاوز التناقض ، فيفرض ثمة وحدة روحية ، تذوب فيها الأطراف المتناقضة . إن الوحدة التأليفية لا تكون بانتصار عنصر على عنصر آخر ، ولكن بإلغاء الأطراف المتناقضة التي تحمل محلها الوحدة الجديدة . ولكن هيجل كان لا يتصور الروح بعيداً عن الواقع ، وكان يؤكد سيطرته على العالم . وبذلك أحال المشاكل السياسية والاجتماعية ، إلى مسائل فلسفية نظرية تتعلق بصلة الإنسان بالروح وبالعالم . وقد يتساءل البعض : هل يمكن أن نجد في هذه الأيديولوجية حلاً للمشاكل الاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع الصناعي ؟ هل يمكن مثلاً أن تكون الملكية الخاصة ، وفقدان العامل لقيمة عمله ، مسائل داخلية في إطار علاقة الذات بالموضوع ؟ إن هيجل الذي استطاع أن يبين لنا في « ظاهريات الروح » ، مراحل الوعي وفي « المنطق » ، توسع التصورات ، لم يستطع أن يخرج في فلسفة من حدود الصلة بين الذات والموضوع . وكل الواقع يمكن رده إلى الصلة الجدلية بين التصورات بعضها وبعض . ولذلك اضطر هيجل أن يوقف حركة التاريخ ، عند الدولة البروسية ، التي كانت تمثل في نظره الحقيقة الكاملة للفكرة المطلقة . وكان دفاعه عن الدولة الألمانية ، نتيجة لتصوره للدولة كوحدة بين الإرادة العامة والإرادة الفردية .

إن الفلسفة الهيجلية التي كانت تمثل قمة المثالية الألمانية . كانت في نفس الوقت تمثل نهاية هذه المثالية . وظهرت واقعية هيجل أكثر نفعاً من مثاليته . فالواقع الذي يتغير ويتطور ، يمكن أن يغيره قوى الإنتاج وإرادة الإنسان .

كانت ألمانيا في حاجة إلى نظريات اقتصادية جديدة تعيد للواقع توازنه ، وتراجع الاقتصاد الرأسمالي كله . لقد انتهى الصراع عند هيجل ، وأزال التناقض من منطق الوجود . لكن هذه الحلول الهيجلية ، كانت مجرد حلول مثالية ونظرية .

ويكفي هذا الفيلسوف فخراً ، أن يكون هو الذي أوحى بتفسير فلسفته ، تفسيراً مثالياً من ناحية ، وتفسيراً واقعياً من ناحية أخرى :

ولقد استمد اليسار الهيجلي مبادئه من تفسيراته الواقعية ، كما استمد اليمين الهيجلي مبادئه

المثالية للروح والفكرة . وليس أدل على مدى تأثير ماركس هيجل من أنه كان ينتمي في شبابه إلى جماعة اليسار الهيجلي ، أو « الشباب الهيجلي » كما يسمون .

٣ - ماركس واليسار الهيجلي

كانت الحركة الثقافية مع « ألمانيا الفتية » ، حركة أدبية خالصة ، وقفت في وجه الرومانسية المتخاذلة والاتجاهات الرجعية في الدولة البروسية ، مدافعة عن مبادئ الثورة الفرنسية : الحرية والإخاء والمساواة . وكان من نتيجة القضاء على هذه الحركة ، أن نشأت حركة فلسفية جديدة أخذت على نفسها مهمة الدفاع عن الليبرالية السياسية ، مستندة في ذلك إلى الفلسفة الهيجلية . تلك هي حركة اليسار الهيجلي التي انتمى إليها كلا من كارل ماركس وفردريش أنجلز في بداية حياتهما الفكرية .

اتجه ماركس^(١) إلى دراسة الفلسفة منذ عام ١٨٣٨ ، ودرس في جامعة برلين المنطق تحت إشراف أحد تلاميذ هيجل المغمورين « جابلر »^(٢) ، والقانون مع جانز^(٣) . كما تابع محاضرات كارل ريتير في الجغرافيا العامة . وكان Ritter يدرس الجغرافيا بروح فلسفية ، تأثر فيها بشلنج ، فكان ينظر إلى أجزاء العالم المختلفة بوصفها وحدات منظمة ، تحدد حياة السكان وتاريخهم ، وتتأثر في سير الأحداث التاريخية الكبرى . ويمكن أن نقول إن هذا العالم الجغرافي ، كان مثالياً في تصويره للعالم والتاريخ ، حتى إنه كان يرى فيهما تعبيراً عن الإرادة والحكمة الإلهية .

ولتحق ماركس وهو في برلين بنادى « الدكاترة » Dokorklub الذي كان يضم صفوة من المفكرين الأحرار من أمثال برونو بوير وروتنبرج وكوبن^(٤) إلخ الذين درسوا الفلسفة والتاريخ واللاهوت . ولكنهم جميعاً اهتموا بدراسة فلسفة هيجل التي كانت قد أخذت صبغة رسمية في الجامعات الألمانية^(٥) . وكان الشباب الهيجلي يريد أن يفسر هذه الفلسفة تفسيراً جديداً يتلاءم مع التطور الاقتصادي والاجتماعي الحديث . وإذ لم تستطع الهيجلية التقليدية (اليمينية) أن تفسر التقدم الجليل للنظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في الحضارة الصناعية . فلقد وضع هيجل نهاية للتقدم ، فكيف يمكن تفسير حركة التاريخ من بعده ؟

(١) الذي أعنى من التجنيد العسكري بسبب مرض في القلب .

E. Gans. (٣)

Gable. (٢)

(٤) كان ماركس أصغر الأعضاء سناً .

(٥) قرر الوزير الألماني التنشئين (وزير التعليم) تدريس فلسفة هيجل في جميع الجامعات .

إن التفسير الجدلئ الثورى للتارىخ ، بعيداً عن التصور الهيجلى للعالم والروح ، هو الذى أعطى لليسار دفعة قوية إلى الأمام .

وكان « هاينه » ، هو أول من فرق بين تعاليم هيجل الظاهرة والباطنة . فكان فى نظره مفكراً ثورياً إذا ما أدركنا المعنى الحقيقى والباحث لفكره . كما تزعم « جانز » ، التفسير التقدى والثورى للفكرة المطلقة والتارىخ . فإذا كان الجدل قد توقف فى نظر هيجل عند مرحلة معينة (الدولة البروسية) فلا بدّ من القول بضرورة استمرار الجدل فى طريق التقدم . فالدولة البروسية ليست هى الصورة الكاملة والنهائية لفاعلية الروح الخلاقة . إنما هى صورة متأخرة ومتخلفة ، يجب أن يطرأ عليها التطور والتقدم . هذه الآراء التقدمية كانت تدعو إلى حركة إصلاح جذرية من أجل الشعب . وكان حب أولئك المفكرين للشعب عظيماً إلى الحد الذى أخذ يقرهم من الأفكار الاشتراكية الفرنسية بصفة خاصة . وانتشرت أفكار سان سيمون فى ألمانيا انتشاراً واسعاً ، حتى إن « جانز » كان يدعو إليها صراحة فى محاضراته فى برلين ، ولا شك أن ماركس الذى استمع إليه ، قد تأثر به إلى حد بعيد .

كانت الاشتراكية الفرنسية توضح الجوانب الآتية فى المجتمع الصناعى :

- ١ - استغلال أصحاب العمل للعمال ، حتى أصبحوا يمثلون فئة جديدة من الرقيق .
- ٢ - إن هذا الاستغلال يمثل امتهاً للإنسانية الإنسان الذى لم ترك له غير حرية الموت من الجوع .
- ٣ - ضرورة أن تعمل الدولة على رفع مستوى المعيشة للطبقات الفقيرة .
- ٤ - لا بدّ من الصراع بين الطبقات وبخاصة بين البورجوازية والبروليتاريا .
- ٥ - إن الاشتراكية ، هى وحدها القادرة على إيجاد حلول لمشاكل العمال فى المجتمع الصناعى .

ووجد ماركس نفسه مشدوداً إلى دراسة القانون ، تحت تأثير « جانز » ونشر فى سنة ١٨٣٧ مؤلفاً ضخماً فى « فلسفة القانون » . واكتشف فى خلال دراسته ، أن القانون لا يمكن تفسيره بالمبادئ المجردة ، بل بالعلاقات الاجتماعية القائمة فى مجتمع ما ، والتى تتغير فى صورتها وجوهرها من مجتمع إلى آخر .

ويجب أن نشير إلى أن ماركس قد تعرف على كنت ومثاليته ، قبل أن يتعرف على هيجل مع الهيجليين الشباب : إن كنت وفيشته يملو لهم أن يرتفعوا عالياً فى المناطق الأثرية ، باحثين عن البلد البعيد ، أما أنا فيحلولى أن أبى فى الشارع .

ولذا لا تقول أيضاً إن ماركس حين قرأ مؤلفات هيجل ، فإنها قد بدت له فى بداية

الأمر ، خشنة غليظة ، وكره النعمة الجدلية التي تسير عليها : لقد أزدت في هذه المرة أن أغوص في محيط التأمل مع هيجل ، ولكنني لن أرضى بالكلمات الجوفاء والاستعراضات السخيفة . . . إنني أريد أن أرى في الشمس اللؤلؤة الحقيقية في كامل بهاها .

لكن ماركس بعد ذلك ، وجد نفسه مبهوراً بالفلسفة الهيجلية ، واستراح للجدل الذي كان ينفر منه ، ووجد فيه النعمة الحقيقية للوجود .

وكان إنجلز مثل ماركس ، من أنصار الجدل الهيجلي : إن مذهب هيجل ففضاض واسع ، تختمى فيه نظريات الأحزاب المختلفة . فالذين يهتمون بمذهب هيجل في الدين والسياسة ، هم المحافظون . أما الذين يهتمون بمنهجه الجدل وحده ، فإنهم ينتمون إلى الحزب المضاد . . .

استخدم الهيجليون الشباب المنهج الجدلي في توجيه ضرباتهم الأولى ضد الدين ، كما فعل الموسوعيون الفرنسيون . إذ لم يكن من السهل عليهم أن تكون ضرباتهم الأولى ضد النظام السياسي في البلاد ، خاصة بعد فشل حركة ألمانيا الفتاة .

وبدأ اليسار يتساءل : هل ماهية الفلسفة تختلف عن ماهية الدين ، أو أنها من طبيعة مختلفة ؟

لقد كان هيجل يعتقد أن الفلسفة والدين لهما مضمون مشترك وغاية واحدة ، وحقيقة أزلية واحدة . وكل تفسير للدين ، لا بد أن يكون تفسيراً فلسفياً له . وكذلك ، فكل تفسير للفلسفة يجب أن يكون تفسيراً للدين ، لأن الله هو الحقيقة الأزلية . لقد أراد هيجل في فلسفته ، أن يتجاوز التفسير الصوفي للدين ، يجعله ديناً عقلياً ، مما آثار حوله الكثير من النقاد .

إن الدين لا يمكن رده إلى العقل ، لأنه حقيقة تاريخية ، يجب أن تفسر في إطار الواقع لا العقل . وظهر في سنة ١٨٣٥ ، كتاب شتراوز « حياة المسيح » الذي قدم لليسا ، الحجج القوية ضد الدين . « إن الأناجيل ليست رموزاً فلسفية ، ولكنها أساطير تعبر عن الآمال العميقة للشعب اليهودي » (١) .

والحق أن هذا الكتاب قد وجه ضربة قوية إلى الفلسفة الهيجلية فعندما انفكت أواصر الصلة بين الدين والفلسفة ، وانقطعت الرابطة بين التطور التاريخي ، والتوسع العقلي ، فقدت هذه الفلسفة كل قيمتها الروحية والميتافيزيقية . وأصبحت مجرد محاولة جدلية لتفسير بعض الظواهر المتناقضة في الحياة والوجود .

ويعتقد بعض المفكرين ، أن شتراوز قد فتح بذلك المجال واسماً أمام اليسار . فلقد جرد

(١) كورنو كارل ماركس ص ١٣٨ .

هذا المذهب الهيجلي من كل قوته المثالية والمتعالية . ولم تعد الهيجلية ملاذاً يحنى فيها المحافظون والمؤمنون .

لقد اعترض التتويون والبروتستنت للأرثوذكس على أفكار شتراوز ونظرياته ، ورفضوا جميعاً فكرة تفسير المعتقدات الدينية بالعلم والعقل . وجدير بالذكر ، أن اللاهوتيين الذين كانوا يدافعون عن المسيحية في فرنسا ، وفي ألمانيا ، كانوا هم أنفسهم الذين يناصرون ويساندون الأوضاع السياسية القائمة ، وبدا الدين هنا وهناك ، وكأنه الأساس الذى تستند إليه السلطة الملكية في هذين البلدين :

لذلك فنحن نعتقد أن كل الهجوم الذى لقيه الدين ورجاله في ذلك الوقت إنما كان بسبب مساندتهم لنظام الحكم . وكان النقد الموجه إليهم ، من أجل تفويض السلطة السياسية .

وانشر التفسير الجديد لفلسفة هيجل ، باعتبار أنها ليست فلسفة مسيحية خالصة . بل مذهب في وحدة الوجود . فالقول بحلول الروح في العالم ، وبأن العالم هو تجل حياة الروح ، معناه أنه لا وجود للروح خارج العالم . وهذه في نظرهم بداية الإلحاد . وقد يبدو هذا التفسير في نظر البعض ، تشويهاً لحقيقة هذه الفلسفة وإفساداً لروحها . وتصدى الهيجليون المخلصون للدفاع عن فلسفة الدين عند هيجل ؛ ورد عليهم اليساريون بأن شتراوز على حق في دعوته وبأن الدين يجب أن يخضع لتحليل العلم ونقد العقل .

ولكن الصراع بين اليمين واليسار ؛ ظل مجرد صراع نظري ، وبقى المجال السياسي والاجتماعي على حالهما . وهل تكني المذاهب والنظريات في تصحيح هذه الأوضاع ؟ بدأ المفكرون يطالبون بفلسفة للعمل Praxis ، تغير من صورة العالم وتاريخه . وكتب تشيزكوفسكى في « المقدمات لفلسفة التاريخ » : إننا نقف اليوم على عتبة عصر جديد ، سوف يحدد فيه الإنسان المسيرة العقلية للتاريخ .

ولا ينبغي أن ننظر إلى الماضي ، كصورة للعقل والفكر ، بل يجب أن ننظر إلى التاريخ كله ، كعمل من أعمال الإرادة الإنسانية .

إن فلسفة العمل ، تعطى الفرصة للإنسان لكي يشارك ويساهم بعمله في تاريخ العالم ، بدلاً من أن يكون مجرد أداة لاشعورية تحركها الروح . وكان من اليسير على كل فلسفة للعمل ، أن تجد في النظريات الاشتراكية تطبيق مبادئها . فلقد كانت هي الأخرى تسير نحو نفس الغاية ، وتسعى إلى نفس الهدف الذى يرسم للإنسان طريق المستقبل

وهكذا انتقل محور الفلسفة من النظر إلى عمل ، ومن رؤية الماضي ، إلى رؤية الحاضر ، وأصبح المستقبل هو المثل الأعلى الذى يجب على الإنسان تحقيقه . إن هيجل الذى ربط

بين الفكر والوجود، والروح والعالم، وجعل واجب الوجود يتحقق في الوجود، كان « حجماتياً » منذ اللحظة الأولى. أما فلسفة العمل التي تنطلق من الإرادة لا من الفكر، وتجعل من المستقبل الموضوع الأساسى للفلسفة الجديدة، فقد كانت فلسفة اجتماعية، ترى في النشاط الاجتماعى سيلة فعالة لتغيير وجه المجتمع والعالم.

إن مجرد عملية نقد الواقع، لم تكن كافية في حد ذاتها لتغييره. لذلك انضم الشباب الهيجلى إلى فلسفة العمل. ويجب أن نؤكد، أن هذا الشباب لم يكن يفكر في ذلك الوقت في مصير البروليتاريا بصورة واضحة. وربما كانت مشاكل الطبقة البورجوازية هي التي تستحوذ على تفكيره، وكان المطلب الأساسى هو القضاء على الإقطاع ونشر التحرر الفكرى. ومثل هيجل، كانوا يعتقدون بأن الدولة هي أساس كل حياة سياسية، وما على الدولة الألمانية إلا أن تواصل عملية الإصلاح والتنوير.

كانت النزعة القومية الألمانية هي التي تحرك الشباب الهيجلى، ومن هنا، فقد كانوا يختلفون عن جماعة ألمانيا الفتاة التي كانت تناصر فرنسا والليبرالية الفرنسية. ولقد استمد الشباب حماسهم وقوميتهم من فلسفة هيجل.

وتطور اليسار الهيجلى مع لودفيج فيورباخ، الذى درس اللاهوت في جامعة هاله، والفلسفة في برلين حيث تابع محاضرات هيجل. واضطر أن يترك كرسي الأستاذية في مدينة إرلنجن سنة ١٨٣٨، تحت النقد الشديد الذى أثاره كتابه عن « الموت والخلود ». وكان فيورباخ في بداية حياته مثالياً، يهتم بدراسة لينتس، وهيجل. ثم تطور في تفكيره وانتقل من ضد إلى آخر، من المثالية إلى المادية.

وإذا كانت الهيجلية قد قوبلت في هذه الفترة بالتأويلات المتعددة والمتنافرة، فإن فيورباخ لجأ إلى عملية قلب لهذه الفلسفة. إنها في نظره أكذوبة سواء بالنسبة للعقيدة أو الفلسفة. أما بالنسبة إلى الفلسفة، فذلك لأنها تريد أن تفسر بتصوراتها، العقيدة التي تناقضها. وبالنسبة للدين فلأنها تبرره بالتصورات التي هي نقي وسلب له. إن المعتقدات الدينية ليست مذاهب فلسفية، ولكنها حقائق إيمانية... ومن طبيعتها أن تناقض العقل.

أصبح من الواضح إذاً، أن فلسفة هيجل هي قمة الفلسفة النظرية السقوية. ولقد أحالت هذه الفلسفة الواقع إلى حقيقة مجردة، ولكن الأسرار العميقة، كما يقول فيورباخ، هي في الأشياء الطبيعية البسيطة، التي يحقرها العقل وهو يخلق ويحلم في الما وراء. والعودة إلى الطبيعة، هي المصدر الوحيد للنجاة. لذلك فإنه يقلب العلاقة بين الفكر والواقع، وبدلاً من أن يقول مع هيجل إن العقل يحكم الواقع، فإنه يقول إن الواقع هو الذى يحكم العقل.

ولقد أدت عملية القلب هذه ، إلى تأسيس الفلسفة المادية ، التي تجعل من العالم المحسوس والواقع الموضوعي ، المحرك الأول للفكر .

حاول ماركس في هذه الفترة ، دراسة الفلسفة الرومانية ، واهتم بصفة خاصة بدراسة المذاهب اللاحقة على الأرسطوطالية وهي الرواقية والأبيقورية والشكاكية . فهذه المذاهب التي ظهرت في عصر الانحلال ، حاولت أن تبحث عن سعادة الإنسان في حطام العالم القديم . وكانت رسالة الدكتوراه التي كتبها عن فلسفة الطبيعة عند ديموقريطس وأبيقور^(١) وتعرض فيها لفلسفة الطبيعة عند ديموقريطس ولوكريشيوس . وظهرت ميول ماركس المادية واضحة في هذه الرسالة ، إذ أنه امتدح إلهاد أبيقور ، وأشاد بتقدمه للتصورات الدينية في عصره . إن فلوتارخس قد أخطأ في نظره في رفضه لفلسفة أبيقور ، ذلك لأن القول باللذة ليس فيه إنكار لقيمة الإنسان . وكان تقدير ماركس للأبيقورية على أساس أن هذا المذهب يدعو إلى الاحتمية في الفلسفة ، والإلهاد في مجال الدين ، وعدم الانتهاء في المجال السياسي .

ورفض ماركس كل الأفكار الدينية التي قال بها فلوتارخس ، وكذلك مذهبه الأخلاقي ؛ ولم يقتنع بقوله بخلود النفس الإنسانية . وقال إن الخلود الحقيقي ، هو خلود الإنسان في الإنسانية ، وأزلية العالم هي في أزلية الذرات التي تستمر إلى ما لا نهاية .

وتابع ماركس آراء فيورباخ في الدين ، وخاصة تلك الأفكار التي نشرها في كتابه المشهور « ماهية المسيحية » ، والتي تجعل من الدين مجرد ظاهرة تكشف عن غربة الإنسان . فالله يمثل الماهية الإنسانية عندما يدركها الإنسان بوصفها غريبة عنه . إنه الآخر ، الذي هو في نفس الوقت ، الماهية الغريبة عن الإنسان .

ومهما كان موقف ماركس في ذلك الوقت ، فإنه كان خاضعاً لنفوذ هيغل ، وتصوره للصيرورة التاريخية . ولكنه أراد أن تكون هذه الصيرورة ، حركة تقدمية ثورية . ومعنى ذلك أنه افترض إمكان تجاوز الهيكلية المحافظة . واعتقد أيضاً ، أن الفلسفة ذاتها تخضع للصيرورة التاريخية . فهناك ضرورة تاريخية قد فرضت أن تأتي الرواقية بعد أرسطو!

وفي العصور الثورية ، لا تكون الفلسفة مشعلاً ، بل لهاً يلتهم الأفكار المجردة ، والتي فقدت كل سلطان لها على العالم . ويجب أن تتحول الفلسفة النظرية ، إلى فلسفة للعمل .

فريدريش إنجلز :

إننا لا نستطيع أن نفصل ماركس عن إنجلز ، فكلاهما مكمل للآخر . ولقد التحق

(١) قدمت هذه الرسالة إلى جامعة يينا في سنة ١٨٤١ .

إنجلترا وهو في التاسعة عشرة من عمره كصحفي في جريدة «التلغراف» التي كانت تصدر في هامبورج ، وفي جريدة «الصباح» التي كانت تصدر في شتجارت . ولا كان ينتمي إلى أسرة تقوية^(١) ، فإنه اختار لنفسه اسماً مستعاراً كان يوقع به هذه المقالات ، وهو «فريدرش أوزفالد» .

وكانت جريدة التلغراف ذات ميول ليبرالية واضحة ، أما جريدة الصباح التي كانت تقرأها الطبقات المثقفة ، فإنها كانت ذات ميول محافظة . ولقد اختلفت مقالات إنجلترا من حيث مضمونها وأسلوبها ، من جريدة إلى أخرى . فكان في التلغراف يتناول قضايا عامة ، وبخاصة قضايا العصر الأدبية والسياسية . أما في جريدة الصباح ، فلقد كان يتناول بالتحليل الأحداث المحلية .

كتب في التلغراف عن العمال وأصحاب العمل يقول : إن التقويين من أصحاب العمل ، هم الذين يسيئون معاملة العمال . فإنهم يفضون من أجورهم إلى أدنى حد . وإنه من المؤلم أن نرى هؤلاء العمال وهم يسرون في الشوارع وقد صففوا شعورهم على الموضة التقوية ، ظهورهم مقوسة وملابسهم رثة . أما في المصنع ، فصاحب العمل يجلس وقد وضع الكتاب المقدس على يمينه ، والشراب على يساره .

إن العمال لا يجنون عملاً منتظماً ليقفوا منه ، ولا مسكن يأوون إليه . إنهم يقضون الليل في الأجران والحظائر ، إن لم يكن في الطرقات وأمام المنازل . وهم يعملون في قاعات لا يدخلها النور ، ويتنفسون هواء فاسداً مشبعاً بالفحم والتراب . هذا العمل الذي يلتحقون به وهم في السادسة من عمرهم ، قد أفقدهم كل لذة للحياة وأنهاك قواهم . حتى عمال النسيج الذين يعملون في منازلهم ، قد انحنى ظهورهم طوال النهار والليل . لذلك فهم من يرتجى في أحضان الإيمان ، ومنهم من يلعن الشراب . ويموت من بين العمال عدد كبير من مرضى الدرن . أما الأولاد فإنهم يعملون بأصناف أجور . وقد بلغ من سعة ضمير أصحاب العمل الأغنياء ، أنهم يتسبون في موت هؤلاء الأطفال ، ويذهبون إلى الكنيسة مرتين في الأسبوع . . .

بهذا الأسلوب اللاذع كان إنجلترا يوجه نقده إلى رجال الأعمال الذين يتخذون من الدين ستاراً للجنح والظلم . وكان في شبابه يميل إلى الأدب ، ويقرأ جوته ، وشلي . وكانت كل كتاباته في السياسة والحريّة أدبية أكثر منها فلسفية : « إن شجرة الحرية تنشر في العالم كله ، الورود الذهبية التي تلمع ببريق الخلود . ولقد رأيت الأرض السعيدة غارقة في النور ، وكانت أمامي المدينة المشرقة والباسمة ، مدينة الحرية التي تتألق في نور الصباح » .

(١) شيعة برتوسنتية .

وكان يقول : « إنني طائر جصور أخلق فوق بحر الحرية . وإنني أفضل أن أكون عصفوراً صغيراً جداً ، على أن أكون كرواناً أغرد للأمير في قفص من الحديد . . . »

كان إنجلز يحلم بالفجر الحديد ، وبحرية الإنسان . كما كان يدعو إلى المساواة في توزيع الثروة بين الناس ، مما يحقق سعادة الجميع . فالثروة هي حصاد العمل الذي يجب أن يحقق سعادة الإنسانية . تلك كانت آمال إنجلز ؛ التي سوف تقربه من ماركس . ويجب أن نذكر أن ماركس قد استعان كثيراً بخيال إنجلز وأسلوبه الجميل .

٤ - فلسفة العمل السياسي

ظل ماركس متصلاً باليسار الميخيلي حتى سنة ١٨٤٢ ، ولكنه بدأ يتجه نحو القضايا السياسية والاجتماعية متجاوزاً مصالح الطبقة البورجوازية ، إلى مصالح الشعب نفسه . ولا كانت الفلسفة اليسارية تقف عند حد النقد النظري للمؤسسات السياسية ، فإن ماركس بدأ يفكر في تقويض هذه المؤسسات وإلغائها تماماً . وعندما عين رئيساً لتحرير « جازيت الراين » ، قطع كل صلته باليسار الميخيلي . وكذلك فعل إنجلز ، حين ترك ألمانيا إلى إنجلترا ، وبدأ يتصل بالأوساط الاقتصادية والاجتماعية ؛ فتغيرت أفكاره تغيراً جذرياً ، وابتعد تماماً عن الشباب الميخيلي .

كانت الحياة الاقتصادية في ألمانيا ، تتقدم بخطى سريعة ، وانتشر الصراع في المجتمع بين البورجوازية والدولة ، وبين البروليتاريا وبينهما . وكان من نتيجة تقدم صناعة النسيج ، وصناعة الحديد ، أن تزايد عدد العمال ، وكثرت مشاكلهم . ولم يكن يتجاوز الأجر في أفضل الأحوال ، ماركين أو ثلاثة ، في يوم العمل الطويل (ست عشرة ساعة) .

وأصبحت البورجوازية في ذلك الوقت قوة اقتصادية لا يستهان بها ، وزادت أطماعها السياسية ، فكانت تسعى إلى الحكم وتطالب بوحدة ألمانيا ، تأميناً لمصالحها الاقتصادية . فالوحدة الجمركية Zollverein ، لم تكن كافية لضمان سلامة المنافسة بين الدول الألمانية المختلفة . ونستطيع أن نوجز الأهداف السياسية للبورجوازية على النحو الآتي :

١ - إلغاء جميع الامتيازات .

٢ - المطالبة بال دستور ، وبالنظام البرلماني .

٣ - حرية الاجتماع وحرية الصحافة .

وفي ذلك الوقت بدأت الأهداف العمالية تبلور ، وبدأت الأفكار الاشتراكية والشيوعية تنتشر بينهم ، مما دفع الحكومة إلى قمع الدعاية الشيوعية .

وكانت جريدة « الجازيت » تتناول قضايا التجارة والصناعة في منطقة الراين . وتلك كانت مهمتها الأولى ، نغى الدفاع عن السياسة الصناعية ، ضد السياسة الزراعية . وظهرت الجريدة في مدينة « كولونيا » التي كانت من أكبر المراكز الاقتصادية في هذه المنطقة ، واتخذت لنفسها هذا العنوان : جازيت الراين في السياسة والتجارة والصناعة . ولقد أراد ماركس ، أن تصدر القضايا الاقتصادية ، كل القضايا الأخرى ، سواء كانت إجتماعية أو سياسية . وعاش الصراع بين الطبقات في صورته الكاملة ، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

ووقف منذ اللحظة الأولى مع الشعب ، يدافع عن حقوقه ضد البورجوازية : إن الجماعة السياسية لا تعين إلا في ظل الروح الشعبي ، وكل ما هو حي ، لا ينمو إلا في ظل هواء الحرية .

وكان بعض الساسة يزعمون أن الشعب لم ينضج بعد ، لتعطي له الحرية السياسية ، ويعترضون على حرية الصحافة . وردّ عليهم ماركس ، بأن حرية الصحافة هي وحدها الحرية الحقيقية التي تؤكد حرية الفكر والعقل . فحين تخضع الصحافة للرقابة ، تصبح خبيثة ماكرة ، رخيصة ومأجورة . ولا يمكن أن تنجح في هذه الحالة في الدفاع عن مصالح الدولة أو مصالح الشعب . وكان ماركس يقول : إن الماهية العقلية والأخلاقية للحرية ، هي أساس الصحافة الحرة . أما الصحافة الخاضعة للرقابة ، فهي كاريكاتور للحرية . . . الصحافة الحرة هي روح الشعب الواعي ، والتعبير الخالص عن ثقته في نفسه ، والعلاقة السايمة التي يمكن أن تربط الفرد بالدولة والمجتمع . إنها تجسد الحضارة التي تحيل الصراعات المادية ، إلى خلافات روحية . واعتراف الشعب اعترافاً صريحاً وطامقاً بقدرته ، وهي أيضاً المرآة الروحية التي يتأمل فيها ذاته ، وهي الحكمة بعينها . ولا يعتقد ماركس ، أن الرقابة يمكن أن تضع حداً لتعبير العقل ، إنما القانون وحده ، يمكن أن يضع حداً لمبالغاته .

وهنا ماركس يمجّد القانون في الدولة ، كما كان يفعل أفلاطون وهيكل . وكان يقول : إن القوانين ليست وسائل لقهر الحرية ، ولكنها تعطيها وجودها النظري والاشعصى ، وتعطي لإرادة الأفراد استقلالها . والدستور ، هو ميثاق حرية الشعب . وهكذا كان يرى في حرية الصحافة وسيلة لتحرير الشعب من نفوذ البورجوازية .

وأصبحت حرية الصحافة وسيلة لتحرير حرية التجارة ، وحرية الصناعة . ومعنى ذلك أن القضايا انتقلت من المجال النظري الخالص ، إلى الواقع العيني . فلقد ظلت فكرة الحرية ، خيالية وعاطفية ، ولم ترتبط بالواقع الفج الذي يعيشه الناس . ولكن من حق الكاتب والمفكر ، أن لا يترك الحرية نهباً في أيدي الواقع . فهي ليست وسيلة مادية ، ولكنها وسيلة عقلية قبل كل شيء . إنها يجب أن تعبر عن آمال الشعب الذي بلغ سن الرشد ، ولم يعد في حاجة إلى

وصاية . إن الرقابة تمنع أن نكتب ما يقال علناً بين الناس . والقانون يستطيع في كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي ، أن ينظم الأوضاع الجديدة للأشياء .

وعلى الرغم من أن ماركس ظل يدافع عن حرية الصحافة بصورة عقلية ، إلا أنه كان يثير النزعة القومية في نفوس الألمان فيقول : « إذا كان هناك شعب قد خلق من أجل حرية الصحافة ، فهو الشعب الألماني ، الهادي الأمين . . . » ووقف في الصحافة في جانب الشعب الألماني المقهور . إنه الشعب العامل الذي يجب أن يدافع عن حريته .

ولكن الصحافة أياً كانت ، لا تستطيع أن تغير من أحوال الشعب : فإذا كان التلسكوب لا يغير من حركة الكون والأفلاك ، فإن الصحافة أيضاً لا تغير من حركة التاريخ . إنما الإرادة الإنسانية وحدها ، هي التي يمكن أن تغير من أوضاع المجتمع .

وقد تساءل : ما دور الفلسفة في هذا الصراع ؟ إن الفلسفة يجب أن تترك الطريقة النظرية المجردة ، وتتجه نحو القضايا العملية للجموع الشعبية . وكانت الفلسفة الألمانية بصفة خاصة ، فلسفة انزالية ، تميل إلى التأملات المجردة والمذاهب النسقية ، وتفقد كل صلة بالمجتمع العام والشعب . فالفلسفة كانت حتى اليوم ، لا شعبية ، وكانت حياتها السرية خاصة بفتنة معينة ، كالسحر تماماً . ومن الخطأ أن نظن أن الفلسفة يجب أن تكون لازمنية ، لأنها في الحقيقة يجب أن تقدم صورة لحاجات العصر وميوله : إن الفلسفة يجب أن تغير رداءها الصوفي والكهنوتي ، وترتدي زي العصر . والفلاسفة لا يخرجون من الأرض ، كما يخرج النبات ، ولكنهم نتاج عصرهم ، وشعبهم . وهم يعبرون عن ماهية الشعب تعبيراً دقيقاً بالأفكار الفلسفية . ونفس الروح الشعبي الذي يدفع إلى بناء خطوط السكك الحديدية بواسطة الصناعة ، هو نفسه الذي يولد الأفكار في عقول الفلاسفة . إن الفلسفة موجودة في الرأس قبل أن تمتد جذورها إلى العالم ، مع أن هناك صوراً أخرى للحياة الإنسانية تجد جذورها في الأرض ، ويحیی من ثمارها قبل أن نتصور أن العقل المفكر هو أيضاً جزء من العالم ، وأن هذا العالم هو عالم الروح^(١) .

مثل هذه العبارات المتأثرة بهيجل وفلسفته المثالية . والتي تمثل الشعب كوحدة روحية لها ماهيتها ، وتعبّر عنها بالفكر كما تعبّر عنها بالعمل المثمر ، تدل إلى أي مدى كان ماركس متأثراً بالتصورات المثالية . ولكنه أضاف إلى المثالية النظرية ، واقعية العمل . إن عمل الفلسفة هو في العالم ، وذلك لكي تكون فلسفة العصر الحاضر . وعندما تتصل الفلسفة بالواقع ، فإنها تؤثر فيه إلى الحد الذي يجعل الأعداء يهاجمونها بشدة .

ومهمة الفلسفة هي أن تقود المسيرة العقلية للعالم ، ولذلك فهي أحق من الدين في توجيه

(١) كورنو : كارل ماركس ص ٢٦ .

الدولة في طريق العقل . فحكمة الدين تتعلق بالعالم الآخر ، أما حكمة الفلسفة فهي تتعلق بالعالم الذي نعيش فيه . وليست المسألة خاصة بمعرفة كيف يجب أن تفلسف من أجل الدولة ، بل كيف يجب أن تفلسف جيداً ، بطريقة عقلية . فالدولة إما أن تكون دولة مسيحية ، أو دولة عقلية لا مسيحية . ولقد آن الأوان كما يقول ماركس ، أن تتأسس الدولة على العقل ، وتصبح الفلسفة ، فلسفة العمل والتقدم .

إن هناك ضرورة تدفع الفلسفة إلى أن تنتقل إلى العمل السياسي ، على أساس الروابط التي تربطها بالحياة الاجتماعية . واستطاع ماركس أن يحدد علاقة الفكر بالحركة السياسية والاجتماعية . وعلى فرض أن الفلسفة ستظل ذات نزعة مثالية في تصورها العام للعالم ، فإن هناك صلة وثيقة بين التصور الأيديولوجي والتصور الاقتصادي والاجتماعي . ولقد وجد على سبيل المثال ، أن الدستور الذي وضعه نابليون في فرنسا ، مستمد من أفكار الموسوعيين وفلاسفة الثورة الفرنسية .

ولكننا نجد في فلسفة العمل السياسي التي ينادى بها ماركس بذور المادية الجديدة ، التي أصبح يدعمها مع فيورباخ ، ماكس شترنر Max Stirner . صاحب كتاب : الأوجد وملكيته الخاصة . ورأى البعض أن هذا الكتاب فوضوي النزعة ، يرفض كل صورة للملكية الخاصة ، كما أن فيه دعوة صريحة إلى الإلحاد . فكان يقول : إننا لا نريد أن نعرف شيئاً عن المسيحية ، إذ لم تكن دعوة إنسانية . لأننا نريد أن نتعلم دين الإنسانية . . . فالإنسان الحقيقي هو الذي يتشبه بالروح الأزل وبالله . والعصور الحديثة تطالبنا بما هو إنساني خالص ، والذي هو الإلهي في الحق . إنها لا تسألنا عن التقوى ، بل عن كل ما هو أخلاق وعقلي . إنها تريد منا أن نحس للعالم الحاضر حضوراً أزلياً ، حضور العمل لا حضور الأمل التامض في العالم الآخر .

ويجب أن نميز هنا بين الاتجاه الإنساني والعام في مادية فيورباخ ، والاتجاه الفردي والخاص عند شترنر . فالخضارة الصناعية في نظره يجب أن تقوم على الفرد . أما الدعوة إلى الإنسانية فهي دعوة كاذبة ولا يمكن أن تتفق مع الواقع . إننا يجب أن نعلم الفرد كيف يستقل بفكره وإرادته ، لكي يصير إنساناً حراً . وهو يرفض خضوع الفرد لأية سلطة دينية أو سياسية أو اجتماعية .

إن النزعة الإنسانية هي أثر من آثار حركة الإصلاح الديني التي استعبدت الإنسانية ، وسخرت الإنسان لسلطة الكنيسة . أما النزعة الواقعية فهي التي تستمد مبادئ الثورة الفرنسية ، وتطالب بثقافة عملية لا بالثقافة الأرستقراطية . فالمعرفة العملية تخلص الإنسان من

سيطرة العالم الخارجى وتجعله سيداً يسود الطبيعة .

كان هذا العصر يموج بالنظريات المتطرفة : اليمين المتطرف واليسار المتطرف . أما كل النظريات الأخرى التى تقع بينهما ، فهى فى نظر ماركس ، تافهة وردية ، تعبر عن الخوف والتردد .

وبدأت الدعوة صريحة ومكشوفة إلى الشيوعية ، التى تختلط فيها حياة الفرد مع حياة الجماعة : يجب أن نضحي بالحرية الفردية فى سبيل الحرية العامة . فالحرية الحقيقية هى حرية الجماعة ، والإنسان الحقيقى هو الذى يحيا حياة النوع ، ولا يفصل بين وجوده الخاص ، ووجود الجماعة المشتركة . ووظيفة الدولة أن تحافظ على الحرية ، وعلى الثقافة الإنسانية وذلك بفرض القانون الذى يحمى المجتمع من الاتجاهات المضادة . والدولة المثالية - الشيوعية - لم تتحقق بالثورة الفرنسية ولا بالنظام الملكى الدستورى . فكلاهما كان قائماً على أساس الليبرالية ، ولم يخلص الإنسان تماماً من العبودية .

إن ماركس يطالب بالدولة الشيوعية : لأنها وحدها التى يمكن أن تعطى للطبقات العاملة والفقيرة كافة حقوقها . فلم تعد الإصلاحات السياسية والاجتماعية كافية لحلّ الأزمات الاقتصادية والصراع بين الطبقات : أرستقراطية المال ، والطبقات الفقيرة . فحماية تركيز الثروة فى أيدي الأغنياء سيؤدى حتماً إلى الثورة الاجتماعية . وكتب ماركس : كل الإصلاحات السياسية ليست إلا مسكنات للمرض الذى هو من طبيعة اجتماعية ، لا سياسية . ولا اعتقد أن أى نظام للحكم ، قد تسبب فى هذا المرض ، ولا أى واحد قادر على علاجه . والحقيقة التى يجب أن نوجهها هى أن الأغنياء والفقراء قد وجدوا تحت كل حكم سياسى . وكل الأسباب الموضوعية التى تتبى بوقوع الكارثة فى إنجلترا ، ليست أسباباً سياسية . فالصناعة التى انتقلت من أيدي الشعب إلى أيدي الرأسماليين ، والتجارة التى احتكرها كبار التجار والمغامرون وأصحاب السوق السوداء ، والملكية الزراعية التى أصبحت فى أيدي الأرستقراطيين ، ورؤوس الأموال الكبيرة التى أصبحت ملكاً لبضعة أفراد . . . كل هذه الظروف التى نجدها فى كل مكان ، وبصورة خاصة فى إنجلترا ، هى ظروف اجتماعية وليس لها أى طابع سياسى . وكان ماركس يتنبأ بأن إنجلترا هى البلد الذى سيؤدى فيه الصراع بين الطبقات إلى الثورة حتماً . ولسنا بحاجة إلى القول بأن إنجلترا كانت سياسياً واجتماعياً أبعد البلاد عن الثورة ، وقد ظلت على نظامها السياسى التقليدى حتى يومنا هذا !

كان ماركس يرى أن الشعب بدأ يهدد أعداءه ، ويفرق صفوفهم ، ويطالب بحقوقه التى صار الجميع يعترفون بها . ونفس الشعور كان يخامر زميله الروسى باكونين وهو يقول : الشعب والتاريخ

كل الشعوب وكل الرجال يتطلعون اليوم إلى الغد الذي سينطق بكلمة التحرير. وإن الفرحة الهدامة، لا تقل عن الفرحة الخلاقة .

لقد انبثقت فلسفة ماركس من المادية الألمانية وحاولت من خلالها أن تفسر الحركة السياسية والاجتماعية في عصره . وإذا كان فيورباخ قد نجح في نقده للدين واللاهوت المسيحي ، فإنه لم يستطع أن يستخلص من ماديته فلسفة للعمل كما فعل ماركس . ولقد عاش فيورباخ في قرينته بعيداً عن الصراع الاجتماعي والسياسي . حتى إنه لم يفكر في توجيه النقد إلى مبدأ الملكية الخاصة ، الذي كان أساس المجتمع البورجوازي . أما ماركس فإنه انطلق في الحركة الثائرة ، وفي الصراع السياسي والاجتماعي في عصره . لقد حاول البعض أن يجدوا حلولاً نظرية لهذا الصراع مثل هس 'Moses Hess' ، الذي دافع عن الشيوعية لا من وجهة النظر الاجتماعية فحسب ، إنما أيضاً من وجهة النظر الاقتصادية . ولكنه كان يتصور الإنسان في صورته النظرية المجردة ، لا في صورته الواقعية ، التي تخضع للجدل التاريخي . كان مثالياً ، طوباوياً ، شيوعياً بالكلمة لا بالعمل . ويبدو أن « هس » كان متأثراً بأفكار « برودون » Proudhon الذي لم يناد في اشتراكيته بالمساواة المطلقة ، ولم يكن يعبر عن آماني البروليتاريا ، بل عن آمال الطبقات المتوسطة .

إن الشيوعية الألمانية بدأت فعلاً مع فايتلنج Weitling الذي كان يعمل تزيياً^(١)، والذي انضم في باريس إلى الجماعات الشيوعية . وهناك قرأ كتاب « بلو » Pillot عن « المسألة الاجتماعية في سنة ١٨٤٠ » ، كما قرأ الصحف الشيوعية الفرنسية مثل جريدة « العقل » و « المساواة » و « جريدة الشعب » و « منبر الشعب » . وما يذكر عنه ، أنه كان خطيباً مصقماً في الجماعات الشيوعية . وكتب أول بيان شيوعي بعنوان : « الإنسانية كما هي وكما ينبغي أن تكون » . وكان في الحقيقة عدواً للحركات الإصلاحية ، وداعياً إلى الثورة الاجتماعية ، واشتراكية الثروة والملكية ، والمساواة الاجتماعية ، والإخاء بين الناس .

كان فايتلنج يمثل الطبقة العاملة فكراً وعملاً . وتأثر بكتابات فورييه ، ولامنيه الذي ترجم له مؤلفه : « كتاب الشعب » . وكان لامنيه يحاول في هذا الكتاب أن يوفق بين المسيحية

(١) ولد في الخامس من أكتوبر سنة ١٨٠٥ ، وكان ابناً طبيعياً ؛ عاش طفولة بائسة ، وذاق في شبابه أنواع الظلم الاجتماعي . وكان يعمل تزيياً . ثم سافر إلى ليبنج حيث شارك في الحركات الإضرابية . ثم انتقل إلى فينا وباريس حيث قضى فيها عاماً من ٣٥ - ١٨٣٦ ، ثم أربعة أعوام أخرى من ٣٧ - ١٨٤١ .

والشيوعية ، وكان يرى أن المسيحية الأولى هي الصورة الأولى للشيوعية ، وأن تعالم المسيح تنفق تماماً مع المبادئ الشيوعية .

لعب فايتلنج دوراً هاماً في الحركة العمالية في ألمانيا ، وكون جماعة شيوعية (١) تضم صانع الأحذية « هنريش باور » ، وصانع الساعات « مل » Moll ، وعامل من عمال المطابع « شابر » . . . إلخ . وفي سنة ١٨٤١ ، سافر مؤسس الرابطة إلى سويسرا لكي ينضم إليها أعضاء آخرون . ولقد وجد هناك الثائر « بوختر » و « أوغسط بيكر » ، وكانا من الألمان الذين يعملون في سويسرا . وأنشأت الرابطة جريدة تتكلم باسمها وتدافع عن حقوقها . إنها جريدة « النداء » (٢) إلى الشباب الألماني ، التي كانت تدعو العمال إلى الدفاع عن حقوقهم .

وكان فايتلنج يدافع في كتاباته عن حرية الصناع والعمال ، والمساواة بينهم وبين أصحاب العمل . ولكنه لم يتصور أن ينتقل المجتمع البورجوازي إلى الشيوعية انتقالاً جدياً ، إنما نتصور الانتقال السريع والمباشر إلى الشيوعية : لا خير في أن نتصور أن الانتقال إلى النظام الجديد سوف يتم على المدى الطويل . إنما يجب أن نسحق رأس الأفعى ، ولا نعاهد الأعداء ، أو نتفاوض معهم ونثق في وعودهم ، لأنهم لا يفهمون لغة العقل . . . وكان يظن أنه المسيح الجديد الذي جاء ليشر بالشيوعية .

إن المجتمع البورجوازي يجب أن يزول ليأخذ مكانه المجتمع الشيوعي . وفي هذا المجتمع الجديد ، الذي يتناسب فيه الإنتاج مع الاستهلاك ، والذي يضمن للناس جميعاً إشباع حاجاتهم ، تلغى الملكية الخاصة . وهو يعطى مكانة واسعة للعلم الذي يساعد على التقدم الاقتصادي والاجتماعي . ولما كان الناس مختلفين في ميولهم واستعداداتهم ، فإنه لا بد من توزيع العمل على هذا الأساس حتى يزيد الإنتاج . كما أنه يعلن المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة :

وجه فايتلنج النداء الثوري إلى العمال في كل مكان في ألمانيا ، وأيقظ الوعي بينهم . وبما ساعد على انتشار هذه الأفكار الثورية ، أن الصراع بدأ يحدد بين الرأسماليين ، والعمال . وهذا يفسر لنا الدور الكبير الذي قام به في الحركة العمالية . حتى إن فيورباخ كان يراه نبياً للعمال ، وكان هاينه يعجب بشوريته ، وكان ماركس يقدر ثقافته باعتبارها نموذجاً للثقافة العمالية . حتى إن مؤلفاته قد ترجمت إلى اللغات الأخرى وبخاصة كتاب « الضمانات للانسجام والحرية » (٣) .

ولكننا لا يجب أن نغالي في قيمة هذه الثقافة ، التي كانت ترى في الثقافة السابقة ، مجرد لغو

(١) أطلقوا عليها اسم جماعة رجال العدل .

(٢) لم يظهر منها غير أربعة أعداد .

(٣)

وكلام غير مفهوم ، ونظريات تدافع عن البورجوازية ضد البوليتاريا . والحقيقة أن العمال كانوا لا يميلون بطبيعتها في ذلك الوقت إلى الإلحاد ، وكانت هناك روابط تربطهم بالمسيحية وبالروحانية . ولا نستطيع أن نقول إن انتشار الشيوعية كان يمتزج بالإلحاد . بل من الواضح أن الشيوعية كانت تستند إلى المسيحية في نفوس العمال .

وظهرت مؤلفات كثيرة تنقد الشيوعية ودعوتها إلى المساواة المطلقة . وكذب البعض يقول : إن الشيوعيين تفهمهم الثقة في أنفسهم ، والشيوعية تعبر عن نقص قدرتهم . إنهم يرون الصورة البغيضة للمساواة على الأرض ، ولكنهم ينظرون إليها من خلال منظارهم الباهت ، والوعي البروليتارى . إنهم يصورون الأوضاع الراهنة ، ولا يحاولون تفسيرها ، إذ ليست لديهم الصراحة الكافية لكي ينسبوا إلى الناس أخطأهم . وكل الأسباب في نظهم خارجة عن إرادة البروليتاريا . ولذلك يمكن اعتبار الشيوعية ، نوعاً جديداً من اللاهوت الاجتماعى ، له كته المقدسة وأنبياؤه ، ورسله ، وحثته (١) .

ويعتبر كتاب ماركس في « نقد فلسفة القانون لهيجل (٢) » محاولة جادة في نشر مبادئ الثورة السياسية والاجتماعية . وسوف تكون هذه الثورة من عمل المثقفين والعمال . أما لماذا جمع بين رجال الفكر ورجال العمل ، فذلك لأنهم في نظره قد عانوا جميعاً من الظلم والاستغلال . إن عليهم اليوم أن يصنعوا العالم الجديد .

لقد تابع ماركس في هذا الكتاب هيجل في كل خطوة من خطوات فكره ، تماماً كما فعل مع « باور » في كتاب « العائلة المقدسة » ، ومع شتيرنر في « الأيديولوجية الألمانية » . إنه ناقد دقيق ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويتناولها بالدراسة والبحث .

نقد ماركس في هذا الكتاب نظريات هيجل في الدولة والملكية الخاصة . لقد أخضع هيجل المجتمع بأغنيائه وفقراءه لنظام الدولة .

ولا كان الهدف من هذا النظام هو القضاء على الصراع بين الطبقات ؛ فإن هيجل قد تصور أن الدولة هي تجسيد للإرادة العقلية والأخلاق الموضوعية ، كما أنها تعبر عن الانسجام بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة .

هذه الدولة في نظر ماركس ليست دولة ديموقراطية ، لأنها لم تنظر إلى مصلحة الشعب ، واهتمت فقط بمصالح الطبقة البورجوازية . بل إننا إذا دققنا النظر لوجدنا أن هذه الدولة توفق بين الإقطاع والبورجوازية . كما أنه من الخطأ أن نجعل الدولة صاحبة السلطة على المجتمع

(١) كورنو : كارل ماركس . هامش ص ١٥٨ .

(٢) لم ينشر ماركس هذا الكتاب ، ولكنه آتمه في سنة ١٨٤٣ .

والأسرة . إن ماركس يريد أن يقاب هذه العلاقة ، لكي تكون الدولة هي الخاضعة للمجتمع ، الذى هو العنصر الحقيقي والحرك للدولة . لقد حدد هيجل الدولة ومؤسساتها على نحو منطقي خالص ، وإذا كان قد نجح في إعطاء السياسة طابعاً منطقياً ، فإنه لم ينجح في تفسير السياسة منطقياً . ونستطيع أن نقول إن ماركس حاول أن يقلب كل نظريات هيجل في القانون والسياسة والدولة . وباختصار ، فإنه قد جعل الحياة الاجتماعية هي الأساس في قيام الدولة الحديثة : على عكس نظرية هيجل في قيام الدولة على أسس سياسية مجتة . ذلك لأنه في المجتمعات الحديثة ، تخلصت الصناعة والتجارة من سلطة الدولة . ولابد وأن تمثل الدولة الحديثة الأوضاع الاجتماعية الراهنة . والدولة المثلى في نظره ، هي الدولة الشيوعية التي لا تفصل بين الدولة والمجتمع ، وبين الحياة السياسية والحياة الاجتماعية . وهكذا تصبح الدولة تعبيراً عن الحياة الجماعية . ولن يتحقق ذلك إلا بإلغاء الملكية الخاصة :

أما هيجل فلقد جعل الملكية الخاصة ، أساس الحياة الاجتماعية في دولته . ويعتقد ماركس أن الفرق بين الدولة السياسية والمجتمع البورجوازي ، هو كالفارق بين السماء والأرض : فالسياسة عند هيجل هي العالم السامى والمجتمع هو العالم الأرضى . وإذا كان هيجل قد اعتقد أن الدولة تجسد الماهية الحقيقية والكلية للإنسان ، فإن ماركس على العقل يعتقد أن الدولة هي جسم غريب عن الإنسان ، يفقده ماهيته ويسلبه إياها . أما إذا عبرت الدولة عن سلطة الجماهير ، وإرادة الشعب ، أى إذا أصبحت الدولة ديمقراطية بكل معنى الكلمة ، فإنها ترد للإنسان ماهيته المفقودة . إن الديمقراطية الحقيقية هي مزيج بين حياة الشعب وحياة الفرد ، بين المبدأ الصورى والمبدأ المادى .

وربما كان ماركس لا يظن أن الانتقال إلى الديمقراطية والشيوعية يستوجب الثورة في كتاباته الأولى . ولكنه مع التجربة أصبح على يقين من ذلك . فجعل العمل الثورى في المكانة الأولى ، فالثورة هي التي تعطى للجدل حقيقته التاريخية .

هذا هو تصور ماركس للجدل المادى ، وللمادية التاريخية . لقد تحول جدل هيجل إلى صراع مادى بين الطبقات ، وأضاف ماركس إلى مادية فيورباخ بعداً تاريخياً أخذه من هيجل . وفي إطار هذا البعد التاريخى ، ومن خلال المادية ، تصور ماركس الحركة الثورية .

وأهم ماركس « بالمسألة اليهودية » ، وأراد أن يجد لها حلا في فلسفته . ذلك لأن هذه المسألة تدخل في صميم المجتمع الألماني . وكان ماركس يهودى الأصل ، دخل في الدين المسيحي لكي يكتسب جواز مرور في الحضارة الغربية . فعندما صدر القانون الألماني في سنة ١٨١٦ ، الذى يحرم على اليهود العمل في الوظائف العامة ، وجد ماركس أنه لا بدّ من أن تطالب الصحافة الحرة بالمساواة في الحقوق المدنية والسياسية بين المسيحيين واليهود . ولقد أيقن أن

الحلّ الصحيح لهذه المسألة التي كان مثاراً لنزاع بين الألمان ، إنما يكون بتطبيق الشيوعية في الدولة . وكان ذلك رداً على « باور » Bauer الذي كان يقول بأنه يستحيل على اليهود أن يحصلوا على الحرية السياسية في الدولة البروتستنتية القائمة على أساس الدين . وفي كل دولة تأخذ الصبغة الدينية لا مجال للحرية بالنسبة لليهود ، اللهم إذا تنازل اليهود عن صبغتهم الدينية ، وتنازلت الدولة عن الجانب الديني وذلك لن يتحقق إلا مع الشيوعية . وفي هذا كان ماركس يقول : إن المسيحيين واليهود يجب أن يتخلصوا من الدين ، ويتحرروا من العقيدة .

وعملت الشيوعية على تيسير الأمر بالنسبة للمسيحيين بزعمها أن المسيحية دعوة إنسانية ، قد عودت الإنسان على أن يتجرد من أنانيته ، ولم يعد أمامها غير خطوة واحدة لكي تنتقل إلى المعنى الكلي للإنسانية . وسوف يكون الأمر أصعب بالنسبة لليهود الذين عليهم أن يتجردوا من الأنانية . ولكن ماركس يجيب عن ذلك بقوله إن التحرر المطلوب ليس تحرراً دينياً ، ولكنه تحرر سياسي واجتماعي ويجب أن نبدأ به أولاً ، لأنه من الواضح أن اليهودى يقف دينياً في الجانب المضاد للدولة !

هكذا تقف القضايا السياسية والاجتماعية في الصف الأول - لسبب أو لآخر - ويقول ماركس : الدولة المسيحية الكاملة ليست الدولة التي تعرف بالمسيحية كأساس لها ، وكدين للدولة ، والتي تأخذ بالتالي موقفاً متحيزاً بالنسبة للأديان الأخرى . أما الدولة العلمانية ، اللادينية والملمحة هي الدولة الديمقراطية التي ترفض الدين كعنصر من عناصر البورجوازية . . . الدولة المسيحية هي نقي للدولة الديمقراطية .

إن ماركس يرفض أن يعرف طبيعة اليهودى تعريفاً دينياً ، ولكنه يريد أن يعرف الديانة اليهودية بالظروف الخاصة التي تخضع لها حياة اليهود . كان « باور » يعتقد أن الديانة اليهودية قد طبعت أصحابها بحب المال ، وأن هذا الحب قد أثر حتى في المجتمع المسيحي الذي يعيش بينه اليهود ، إنهم قد جعلوا من المال قوة دولية ، وكل تقديس للمال هو في نهاية الأمر تقديس للروح اليهودى .

وجواب ماركس أن المال لا يفقد الإنسان ماهيته إلا في المجتمع البورجوازي . أما في المجتمع الشيوعي ، فإن المال يفقد كل قيمة في تحديد الفوارق الاجتماعية : المال هو إله إسرائيل الغيور . والمال يحيل كل الآلة الإنسانية إلى سلع ، وهو القيمة العامة والمطلقة لكل شيء . لقد جرد العالم كله من قيمته الحقيقية ، عالم الإنسان وعالم الطبيعة . وهو الماهية المفقودة للعمل والحياة الإنسانية ، التي تحكم الإنسان الذي يعبدها^(١) .

إن اليهود قد تحرروا على الطريقة اليهودية ، وبالقدر الذي أصبح فيه المسيحيون يهوداً !
ومعنى ذلك في نظر ماركس أن اليهودية قد أثرت في ماهية المسيحية ، حتى أصبح الروح
التجاري هوروج المجتمع المسيحي البورجوازي .

إن أحداً لا يستطيع أن يقول إن « نقد فلسفة القانون لهيجل » يمكن أن يعتبر فلسفة
جديدة ، مبتكرة وأصلية . وليس من السهل علينا أن نعرف بأن الذي يقبل فلسفة أفلاطون
وأرسطو وهيجل ، هو فيلسوف من نفس درجتهم ومرتبهم . لذلك يجب أن نجعل من هذا
الكتاب ، كتاباً نقدياً ، لا يفهم إلا من خلال هيجل وبفضل هيجل . إن ماركس قد أخذ
عن هيجل منهجه ومقولاته ومنطقه الذي عكسه في كل خطوة من خطواته . وإذا أضفنا أنه قد
أخذ عن فيورباخ المادية التي أضافها إلى منطق هيجل المعكوس ، فإذا أعطى للفكر
الإنساني ؟

إن الجدل الماركسي الذي يتلخص في الحالات الثلاثة :

١ - الانتقال من الكم إلى الكيف والعكس (الدعوى أو القضية) .

٢ - التناقض (نقيض الدعوى أو نقض القضية) .

٣ - نغى النفي (التأليف) .

يستند أصلاً إلى أصول فكرية هيجلية . وأياً كان تفسير ماركس لها ، على أساس
المادية أو العلم الذي يحيل الكيف إلى كم ، فإن هذا التفسير قائم على بديهيات التفكير العلمي
ذاته . فلا جديد في القول بأن العلم يحيل الكيف إلى كم ، فنذ بداية العصور الحديثة وهذه
القضية مسلم بها . لقد كان علم الطبيعة مع أرسطو علماً كيفياً ، ثم أصبح في العصر الحديث ،
وبفضل تطبيق الرياضة على الطبيعة ، علماً كميّاً .

أما عن قانون التضاد أو التناقض في الوجود ، فلقد أشار إليه هيرقليطس بكل دقة
ووضوح . الوجود تضاد بين الليل والنهار . الحرب والسلام ، الحار والبارد ، الجميل والقبيح ،
الخير والشر . . . إلخ . كما أن القول بالتأليف في الجدل ، يجب أن يرد إلى هيجل أولاً وأخيراً .
من أجل ذلك . يجدر بنا أن نقدم الملاحظات الآتية :

١ - إن ماركس لا يقدم لنا فلسفة أصيلة ذات جذور فكرية جديدة . ولكنه يمزج بين

أفكار مألوفة لدى الفلاسفة السابقين .

٢ - إن دعوة المفكرين إلى التحالف مع البروليتاريا ، ونيل الثقافة السابقة بدعوى أنها
بورجوازية ، أمر لا يتفق مع الموضوعية المطلوبة من المفكرين في كل مكان وفي كل زمان ؛
ولا يعترض أحد على أن تتناول الفلسفة بالبحث والدراسة المشاكل الاجتماعية وبخاصة تلك

التي تتعلق بالطبقات العاملة والفقيرة . لكن من يقول إن الفكر يجب أن يتوقف عند حدّ هذه المشاكل ؟ أليس من حق العقل الإنساني أن يسير في تفكيره إلى أبعد من ذلك ؟ لقد أحس ماركس أن الفلسفة التي سوف تتكلم بلسان البروليتاريا ، سوف تفقد جانباً هاماً من مقوماتها ، وركناً أساسياً من أركانها ، ألا وهو « الثقافة » التي جعلها هيجل عماد الحضارة وسندها . مادورها في المجتمع الذي تحكمه الطبقات العاملة ؟ تلك مسألة بالغة الأهمية . فإذا كان الغرض أن تخرج الثقافة من هذه الطبقات ، فليس معنى ذلك إلغاء الثقافات الأخرى . وسوف تمتل كل ثقافة نوعية المجتمع الذي خرجت منه ، بلا تمييز أو تفرقة . والصراع الزمّي بين البورجوازية والبروليتاريا ، لا ينبغي أن يتحول إلى صراع أبدي بين الإنسان وأخيه . إننا نقبل من ماركس أن يحدد فكره لخدمة الطبقات الكادحة ، ولكننا لا نقبل منه أن يقيد الفكر الإنساني كله بهذه الخدمة .

٣- والملاحظة الثالثة التي يجب أن نوليها كل عناية ودقة ، هي ربط ماركس بين المسألة اليهودية والدولة الشيوعية . إن هذه العلاقة التي أفصح عنها ماركس ووضحها ، لا يجب أن تخفى عن أبصارنا . وكما فعل ماركس مع هيجل ، حين عكس القضايا الفكرية كلها ، فإننا نستطيع أيضاً في هذه المرة أن نعكس هذه القضية على النحو الآتي :

إن الدولة الشيوعية يجب أن توجد من أجل حلّ المسألة اليهودية ولا يمكن أن تقول إن الشيوعية فيها حلّ للمسألة اليهودية .

٤- إن مطالبة ماركس بحق الفقراء ، مطالبة مشروطة للغاية وعرضه للحلول في صيغة إقتصادية عملية ، يكشف عن مدى اهتمامه بقيمة العمل في الحياة الإنسانية . وهناك مطالب إنسانية حيوية . لا تستقيم الحياة بدونها . ومنذ أقدم العصور والفلاسفة يطالبون بعدالة توزيع الثروة ، وعدم استغلال الشعب والطبقات الفقيرة . ألم يقل بذلك أفلاطون ؟ ألم يناد فلاسفة الثورة الفرنسية (التنوير) ، بهذه المبادئ ؟ ولقد قال الإمام الغزالي في كتاب « الاقتصاد في الاعتقاد »^(١) مانصه : نظام الدين بالمعرفة والعبادة ، ولا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن .

ولعمري من أصبح آناً في سربه ، معافاً في بدنه ، وله قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بمخافيرها . وليس يأمن الإنسان على روحه وبدنه وماله ومسكنه وقوته في جميع الأحوال ، بل في بعضها ، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على إلهذه المهمات الضرورية . وإلا فن

كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه عن سيرف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يتفرغ للعلم والعمل ؟ وهما وسيلتاها إلى سعادة الآخرة . فإذا بان نظام الدنيا ، أعنى مقادير الحاجة شرط لنظام الدين .

وهكذا يتضح لنا أن الدولة التي ترعى حاجات الشعب الضرورية وتضع نظاماً سليماً للحياة الدنيا ، لا ينبغي بالضرورة أن تكون الدولة الشيوعية .

رأى إنجلز : أهم إنجلز بالأسس الاقتصادية للحياة السياسية والاجتماعية في الدولة . واعتمد في دراساته الاقتصادية على النظام الرأسمالي الذي كان سائداً في إنجلترا والذي أدى إلى زيادة الإنتاج وتركيز الثروة وتزايد الفقيرين الطبقات العاملة . ولقد وجد أن نظام الملكية الخاصة في المجتمع البورجوازي ، وتقدم الوسائل التكنولوجية في الصناعة ، لم يصلحاً من حالة الطبقة العاملة . كانت إنجلترا في نظره بلداً يموت تحت وطأة الثروة المتضخمة تحت نظام التجارة الحرة . ووجد إنجلز الفرصة أمامه لرفض الاقتصاد السياسي البورجوازي برمته . وكان منهجه في ذلك الكشف عن متناقضات النظام الرأسمالي لا من الناحية الأخلاقية والتاريخية ، بل من الناحية الاقتصادية وحدها . ولقد تنبأ مثل ماركس بضرورة الثورة الاجتماعية ، على أساس علمي وشيوعي .

فقد إنجلز كل أمل في إصلاح النظام الرأسمالي القائم . وصرح بأن الثورة الاجتماعية التي تقضى تماماً على هذا النظام ، هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تعطى للمجتمع العدالة والاستقرار . إن النظم الاقتصادية السابقة كانت كلها فاسدة لأنها لم تعمل حساباً للإسهلاك ، كما عملت حساب الإنتاج . ولقد أدى الاقتصاد الحر إلى تدعيم الملكية الخاصة ، وساعد على تأكيد الاحتكارات التي كان ينبغي إلغاؤها . وإذا كان آدم سميث يرى أن هذا النظام الاقتصادي يساعد على تحرير الفرد ونشر الحضارة ، وتقريب الشعوب بعضها وبعض ، فإن إنجلز على العكس يرى أنه أوجد صورة جديدة للرق وزاد من قوة المال في قيام الحروب بين الأمم .

وإذا كان الاقتصاد الرأسمالي يقوم على مقولات أساسية مثل : التجارة ، القيمة ، السعر ، تكاليف الإنتاج ، فإن إنجلز يكشف عن التناقض في علاقة هذه المقولات بعضها وبعض ، ونظر إلى هذه المقولات نظرة تاريخية جدلية ، وفسر الاقتصاد السياسي على أساس هذا التناقض التاريخي فصاحب العمل الرأسمالي الذي يحاول أن يطور الآلات ويزيد الإنتاج ، إنما يفعل ذلك من أجل زيادة دخله وكل تقدم للصناعة بالتالي إلى استغلال اليد العاملة ، والإقلال من تشغيل العمال . وفي ظل هذا التناقض ظهرت الأفكار الشيوعية .

٥ - الماركسية

يعتبر « البيان الشيوعي » لماركس وإنجلز ، الوثيقة الأساسية في الدعوة الشيوعية . ولقد ظهر هذا البيان للمرة الأولى في ديسمبر عام ١٨٤٧ . والغريب أن هذا البيان الذي كان يوجه إلى الشيوعيين في كل أنحاء العالم ، لم يرد فيه ذكر روسيا ولا الولايات المتحدة . إذ كانت روسيا في نظرها معقلاً للرجعية الأوروبية في ذلك الوقت .

ولبيان الشيوعي يقوم على فكرة رئيسية . وهي « أن الإنتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي الذي ينشأ بالضرورة عنه ، يؤلفان في كل عهد تاريخي أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد ، ولذا فالتاريخ بأسره كان تاريخ نضال بين الطبقات : الطبقات المستثمرة والطبقات المستثمرة ، الطبقات المسودة والطبقات السائدة ، في مختلف مراحل التطور الاجتماعي . ولكن هذا النضال قد وصل في الوقت الحاضر إلى مرحلة أصبحت فيها طبقة البروليتاريا لا تستطيع أبداً أن تتحرر من نير الطبقة التي ترهقها وتستثمرها وهي البورجوازية دون أن تحور في الوقت نفسه وإلى الأبد المجتمع بأسره من الاستتار والإرهاق ومن نضال الطبقات »^(١) .

إن البيان في نظر الشيوعيين هو المقياس الذي يدل على تطور الصناعة الكبيرة في القارة الأوروبية وفضلاً عن ذلك ، « فإنه يمكن قياس درجة تطور الصناعة الكبيرة بدقة كافية في كل بلد بعدد النسخ المتداولة من البيان بلغة هذا البلد »^(٢) .

ولقد وضع ماركس- وإنجلز- في هذا البيان حالة المجتمع في عصور التاريخ المختلفة ، وأشاروا بصفة خاصة إلى الصراع بين الطبقات : خلال العهود التاريخية السابقة نجد المجتمع في كل مكان تقريباً ، منظماً تنظيمياً متسلسلاً والأوضاع الاجتماعية على مراتب ودرجات متفاوتة . ففي روما القديمة نجد النبلاء ، ثم الفرسان ، ثم العامة ثم الأرقاء . وفي القرون الوسطى نجد الإقطاعيين والأسياد ، ثم الإقطاعيين الأتباع ، ثم المعلمين ، ثم الصناع ، ونجد تقريباً داخل كل طبقة من هذه الطبقات مراتب ودرجات خاصة »^(٣) .

ولقد بلغ هذا الصراع أشده في الحضارة الصناعية الحديثة ، التي أوجدت العداء المباشرين البورجوازية والبروليتاريا . أما البورجوازية فإنها حينما تستول على السلطة ، تسحق تحت أقدامها

(١) بيان الحزب الشيوعي : الترجمة العربية ، دار التقدم ص ١١ - ١٢ ، موسكو ١٩٧٠ .

(٢) ص ٣١ .

(٣) ص ٤٠ .

جميع العلاقات الإقطاعية ، والبطيريركية والعاطفية ، ولم تبق إلا على صلة المصلحة الخافتة والدفء الخافت (نقداً وعداً^(١))

وليس من بين جميع الطبقات التي تقف الآن أمام البورجوازية وجهاً لوجه إلا طبقة واحدة ثورية حقاً ، هي البروليتاريا . فإن جميع الطبقات الأخرى تنحط وتهلك مع نمو الصناعة الكبرى ، أما البروليتاريا فهي على العكس من ذلك ، أخص منتجات هذه الصناعة . والعمل الصناعي الحديث قد جرد العامل سواء في إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا أو ألمانيا من كل صبغة وطنية . وما القوانين والقواعد الأخلاقية والأديان بالنسبة إليه إلا أوهام بورجوازية تستر خلفها مصالحها^(٢) .

وما الشيوعية إلا وحدة الأحزاب البروليتارية ، ومفهومات الشيوعيين النظرية لا ترتكز مطلقاً على أفكار أو مبادئ أكتشفها أو اخترعها مصلح من مصلحي العالم .

ويدافع البيان عن ثلاثة مبادئ أساسية :

١ - محو الملكية الخاصة .

٢ - هدم الأسرة .

٣ - إلغاء الوطن والقومية^(٣) .

أما ما يمكن أن يوجه إلى الشيوعية من تهم من وجهات نظر دينية وفلسفية ، وبوجه عام ، من وجهات نظر فكرية فهونى نظر ماركس ، لا يستحق بحثاً عميقاً مستفيضاً^(٤) . وعلى كل ، فإن الثورة الشيوعية تقطع من الأساس كل رابطة مع الأفكار والآراء التقليدية^(٥) .

ولما كان من الواجب علينا أن نشير هنا إلى مدى اهتمام هذه الحركة بالثقافة بما تشمله من دراسات أدبية وفلسفية ، فتكفي تلك الملاحظة التي أوردها ماركس نفسه مع زميله إنجلز عن الشيوعية التي تقطع من الأساس كل رابطة مع الأفكار والآراء التقليدية . حتى الدراسات الاشتراكية التي ظهرت في فرنسا ، والتي أثرت بكل تأكيد على الفكر الاشتراكي والشيوعي الألماني ، يرفضها ماركس وهو يقول : إن الآداب الاشتراكية والشيوعية الفرنسية ، وقد نشأت تحت ضغط البورجوازية الحاكمة المسيطرة وكانت التعبير الأدبي عن التمرد على هذه السيطرة ،

(١) ص ٤٣ .

(٢) ص ٥٥ .

(٣) ص ٥٩ .

(٤) ص ٦٧ .

(٥) ص ٦٨ .

دخلت ألمانيا حين كانت البورجوازية الألمانية في بدء نضالها ضد الاستبداد الإقطاعي المطلق . وقد تهافت الفلاسفة وأنصاف الفلاسفة ، والمتأدبون الألمان بشراة ونهم هذه الآداب ، ولكن سبها عن بالهم أن استيراد الآداب الفرنسية إلى ألمانيا ، لم يرافقه في الوقت نفسه استيراد الآداب والأوضاع الاجتماعية الفرنسية إليها . فقد فقدت هذه الآداب الفرنسية كل دلالة عملية مباشرة بالنسبة للظروف الاجتماعية الألمانية واتخذت صبغة أدبية محضة^(١) .

ويعترض ماركس على الاشتراكيين ، والفلاسفة الألمان دون أن يشير إلى أسماهم ، ولكننا نستطيع أن نتعرف عليهم . فعندما يقول : نادى متاديبها بأن الأمة الألمانية هي الأمة النموذجية ، وأن التافة ، الضيق الأفق الألماني هو الإنسان النموذجي . . . إلخ^(٢) ، فإننا نفهم أنه يقصد هيجل^(٣) .

والحق أنه مهما كانت قيمة الماركسية كحركة سياسية ، فإن فيها الكثير من جوانب الضعف من الناحية الفلسفية والفكرية ولقد وضحتنا الاتجاهات التي سبقت هذه الحركة في الحضارة الصناعية . وعلى هذا الأساس ، فالماركسية اتجاه من بين عدة اتجاهات أخرى ظهرت في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا . وكل هذه الاتجاهات الفكرية ومن بينها الماركسية ، قد خضعت لظروف اجتماعية معينة ، اختلفت من بلد إلى آخر - من فرنسا إلى ألمانيا - كما يقول ماركس نفسه .

لذلك فإن فكرة فلسفة واحدة لجميع الشعوب ، على الطريقة الألمانية ، سواء عند ماركس أو هيجل ، تفرض على الفكر الإنساني نوعاً جديداً من الدكاتورية المرفوضة .

(١) ص ٧٦ - أما عن أهمية الثقافة ودورها ، فلا نجد في الحديث عن البروليتاريا وهمومها بما يمكن أن يرتفع بالفكر الإنساني . ويقول ماركس على سبيل المثال في هذا البيان : أما رعايا المدن ، هذه الحشرات الجمادة ، حثالة أدنى جماعات المجتمع القديم ، فقد تجرهم ثورة البروليتاريا إلى الحركة ، ولكن ظروف معيشتهم ، وأوضاع حياتهم تجعلهم أكثر اعتماداً لبيع أنفسهم إلى المكائد الرجعية . (البيان . . . ص ٥٤) .

(٢) ص ٨٠ .

(٣) ص ٧٩ . كما قال ماركس : لقد صنع الاشتراكيون الألمان من شغوف نظرياتهم المهلهمة ، ثوباً فضفاضاً زركشاً بأزهار دقيقة من فصاحتهم ، وميللاً بأنداء المواطنين الرقيقة الحارة ، وأسبلوه على الهيكل العظمى لحقائقهم الأبدية ، الأمر الذي ما كان إلا ليزيد في رواج بضاعتهم بين جمهور كهذا .

الباب الخامس

مصر

الشعب والتاريخ

مصر... هي الحقيقة

أم الحضارة وأم الدنيا

جنتها خضراء ، سماؤها زرقاء ، ومائها حمراء ، رجالها الجنود زرعوا الحياة ، حصلوا

الخلود

شعبها العريق صنع المجد ، صنع التاريخ :

من أعماق الوجود المصري ، ومن قلب مصر بتاريخها الطويل ، نحاول أن نرسم صورة لمصر

والحقيقة... حقيقة الفكر والضمير والحياة :

الفصل الأول :

اسم مصر (للمقريزي)

الفصل الثاني :

الأساس الجغرافي للحضارة المصرية .

الفصل الثالث :

التاريخ

الفصل الرابع :

فلسفة الحضارة المصرية أو مصر الحضارة :

الفصل الخامس :

الروح المصري .

إذا علم الإنسان أخبار من مضى ،

توهمته قد عاش من أول الدهر

وتحسبه قد عاش آخر عمره

إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر

فقد عاش كل الدهر من كان عالمًا

حليماً كريماً فاغتم أطول العمر

نقلا عن السخاوي

« الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ »

الفصل الأول

اسم مصر

يقول المقرئزي في كتاب الخطط المقرئزية : اختلف أهل العلم في المعنى الذى من أجله سميت هذه الأرض بمصر .

فقال قوم سميت بمصر بن مركابيل بن دواييل بن عرياب بن آدم وهو مصر الأول .

وقيل بل سميت بمصر الثانى وهو مصرام بن يعراوش الجبار بن مصر يم الأول :

وقيل بل سميت بمصر الثالث وهو مصر بن بنصر بن حام بن نوح وهو اسم أعجمى لا ينصرف ، وقال آخرون هو اسم عربى مشتق (كل مصر من الأمصار المعمورة . . .)

ويقال إن مصرايم غرس الأشجار بيده ، وكانت ثمارها عظيمة ، ويقال إنه أول من صنع السفن بالنيل ، وأن أول سفينة كانت ثلثمائة ذراع طولاً . وكان لمصرايم أربعة أبناء : قبطيم ، أشمون ، أتريب ، صا ، وعندما حضرته الوفاة عهد إلى ابنه قبطيم من قفط إلى أسوان ، وإلى أشمون من أشهون إلى منف ، ولا تريب الحوف كله ، ولصا من ناحية صا البحرية إلى قرب برقة .

وقال لأخيه « فارق » لك من برقة إلى المغرب ، فهو صاحب أفريقية . . ومات مصرايم بعد سبعمائتم عام مضت من أيام الطوفان كان موحداً من أبناء نوح ولم يعبد الأصنام .

قال البكرى ومصر مؤنثة : قال تعالى « أليس لى ملك مصر » ، وقال « ادخلوا مصر » : أما قوله تعالى « اهبطوا مصرأ » ، فإنه أراد مصرأ من الأمصار .

أما المصر فى كلام العرب فهو الحدّ بين الأرضين . وكان العرب يقولون : اشترت الدار بمصورها ، أى بحدودها . وقال الجاحظ فى كتابه « ملح مصر » ، إنما سميت مصر بمصر ، لمصير الناس إليها واجتماعهم بها . وقال الجوهري فى كتاب « الصحاح » مصر هى المدينة المعروفة ، تذكر وتؤنث . وقال الحافظ أبو الخطاب مصر أنصب للبلاد ، وسميت مصر لكثرة ما فيها من الخير مما ليس فى غيرها ، فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها كالشاة التى ينتفع بلبنها وصفوها . وقال ابن الأعرابى : المصر الوعاء ، وكذلك هى خزائن الأرض من قول يوسف عليه السلام لملك مصر « اجعلنى على خزائن الأرض » .

وقال البكرى ، مصر أم خنور (بفتح أوله ، وتشديد ثانيه وبالراء المهملة) ، وأم خنور

هي النعمة ، ولذلك سميت مصر لكثرة خيرها .

وقد سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن الكريم قال تعالى : تريد أن تكون جباراً في الأرض (سورة يوسف) « وإن فرعون علا في الأرض » يعنى في أرض مصر .

وقد جاء في فضل مصر أحاديث . فمن حديث عمرو بن العاص أنه قال : حدثني عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا فتح الله عليكم بعدى مصر ، فاتخذوا فيها جنداً كثيراً فذلك الجنود خير أجناد الأرض . وقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله : قال صلى الله عليه وسلم : لأنهم في رباط إلى يوم القيامة . ويقول المقرئى : من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا ، فليتنظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها ، وتنور ثمارها .

وقال البعض عنها : نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وخيرها جلب ، وملكها سلب وملها رغب ، وفي أهلها صخب ، وطاعتهم رهب ، وسلامهم شعب ، وحرهم حرب وهي لمن غلب .

وقد دعا آدم عليه السلام في النيل بالبركة ، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك في نيلها وقال :

يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز ، ولك البر والثروة . وسال نهرك علماً . كثر الله زرعك ، ودرضرك ، وزكى نباتك وعظمت بركتك ، وخصبت ، ولا زال فيك خير مالم تتجربى وتتكبرى .

وقال ابن إياس في كتابه : « بدائع الزهور في وقائع الدهور » : أعلم وفقك الله أن مصر من أجل البلاد قدراً . ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم قسمت البركة عشرة أجزاء ، فجعل الله تعالى تسعة منها في مصر وجزءاً في سائر الأمصار .

ومن محاسن مصر أيضاً السبع زهرات التي تجتمع في وقت واحد في أواخر فصل الشتاء ، ولم يكن هذا ببلد غيرها ، وهي الارجس ، والبنفسج ، والبان ، والورد والزهر وهوزهر النارج والياسمين والورد الجورى ويعرف أيضاً بالقحاني . أما النسرين ، وإن كان من أعظم الزهور رائحة ، فإنه غير معدود في جملة الزهور السبع التي تجتمع في وقت واحد ، لأنه يأتي في آخر أيام الورد ، فلا يلحق الارجس .

يا طيب وقت بمصر قد جمعت سبع من الزهر تحويها البساتين
بنفسج نرجس زهر وبان لنا ورد نصيبى وجورى وياسمين

الفصل الثاني

الأساس الجغرافي للحضارة المصرية

يقول المقرئى : فى كتاب هردوشيش (هيرودوت) بلد مصر الأذى شرقه فلسطين ، وغربه ليبيا . وأرض مصر الأعلى تمتد إلى ناحية الشرق ، وحدته فى الشمال الغرب وفى الجنوب البحر المحيط وفى الغرب مصر الأذى ، وفى الشرق بحر القلزم ، وفىه من الأجناس ثمانية وعشرون جنساً :

النيل

لا شك أن النيل هو الأصل فى الحضارة المصرية ، ولولاه لضاعت مصر فى جوف الصحراء . إنه من أعظم أنهار الدنيا ، يتق الوادى من الجنوب إلى الشمال ليهبه الخير والحياة . وعلى ضفافه قامت أعظم الحضارات الإنسانية وأروعها .

يقول ابن خلدون عن هذا النهر العظيم : إن مخرج هذا النيل من جبل القمر الذى فوق خط الاستواء ، بست عشر درجة واختلفوا فى ضبط هذه اللفظة ، فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوءه ، وفى كتاب المشرك لياقوت ، بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد ، فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها فى بحيرة ، وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها فى بطيحة واحدة فى أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ، وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربى منه إلى بلاد السودان ، مغرباً حتى يصب فى البحر المحيط ، ويخرج الشرق منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهم وينقسم فى أعلى أرض مصر ، فيصب ثلاثة من جداوله فى البحر الرومى عند الإسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ويصب واحد فى بحيرة ملحقة قبل أن يصل بالبحر فى وسط هذا الإقليم الأول وعلى هذا النيل ، بلاد النوبة ، والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان .

والحق أن النيل هو المعلم الأول للحضارة فى مصر . فهو يختلف بطبيعته عن سائر أنهار الدنيا ، برفائه ونظامه وفيضانه الذى يأتى فى نفس الموعد من كل عام . وعندما كان يأتى

الفيضان كانت تكتسى الأرض خضرة زاهية .

وانتظمت حياة المصريين على نظام النهر العظيم ، وهذا النظام كان الأصل في قيام الحضارة الزراعية في مصر كذلك علم النيل المصريين معنى الوحدة والاتحاد. فهذا النهر الواحد ، كان لا بدّ وأن يوحد بين القبائل المختلفة التي تعيش على شاطئيه .

والنيل يمثل عظمة الطبيعة وقدرتها . ولا شك أنه في العصور البعيدة لم يكن بهذه القوة ، ولكنه صارح الأرض والجبال ليشق لنفسه هذا المجرى العظيم .

رأى الإنسان المصرى هذا النهر ، فقدسه وألهه ، وعبده ، وكان لا يفرط في مائه ، ويعدل في توزيعه دون ظلم أو جور .

الأرض

إن أرض مصر التي تحيط بالنيل المبارك، حدودها مفتوحة سواء في الغرب أو في الجنوب أو في الشرق . ولا تملك مصر حدوداً طبيعية تحميها من غزو الغزاة وأطماع الطامعين. ولذلك كان يجب على هذه البلاد أن تكون إمبراطورية عظيمة قوية تحمي ذاتها بذاتها. فإذا ما ضعفت قوتها ، أصبحت نهياً وملكاً لغيرها .

وقال ابن يونس : كانت الجنات بحافى النيل من أوله إلى آخره من الجانبين ما بين أسوان إلى رشيد وسبعة خلج : خليج الإسكندرية - سخا - دمياط - سردوس - منف - الفيوم - وخليج المنى ، وكلها متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء وزرع ما بين الجانبين كله من أول مصر إلى آخرها .

الفصل الثالث

التاريخ

'مل السؤال الذى يجب أن يتبادر إلى الأذهان هو : من الذى كتب تاريخ مصر ، هل هم المصريون الذين كتبوا تاريخهم فيكون تاريخاً أصلياً بتعبير هيجل ، أم كتبه غير المصريين من الأجناس الأخرى ؟ وإذا كتبه غير المصريين ، فهل صدقوا في وصف أحوالهم وحياتهم ؟

من الواضح أن تاريخ مصر في العصور المختلفة من التاريخ ، تنازعه المصريون وغير المصريين ؛ وكان الذين يكتبون عن مصر من غير المصريين ، يكتبون في أغلب الأحيان بدوافع شخصية ، الغرض منها الإقناص من قدر الحضارة المصرية ومكانتها .

التاريخ القديم

١ - التاريخ غير الأصلي

(١) هيرودوت :

مهما كان القول بأن هيرودوت قد كتب تاريخ مصر من خلال وجوده فيها وزيارته لها في القرن الخامس قبل الميلاد ، فإننا لا يجب أن ننسى ما كان بين الحضارة المصرية والحضارة الإغريقية من تنافس عظيم . كانت الحضارة المصرية من أعرق الحضارات الإنسانية ، وكان علماء الإغريق وحكماؤهم يفتنون إلى مصر لمشاهدة مظاهر حضارتها ، وتقديم علومها وفنونها .

وإذا كان هيرودوت لم يشاهد مصر في أزهى عصور تاريخها ، فإنه مع ذلك لم يحاول أن يتعرف على أصول علومها وفنونها . إنما اكتفى بوصف سريع لأحوال البلاد في هذا العصر من عصور الانحلال السياسى ، وليس المجال هنا لسرد القصص والروايات التى حكاها هذا المؤرخ الإغريقى عن سكان مصر . فن المعروف لدى علماء الاجتماع أن العادات والتقاليد تختلف من شعب إلى آخر ، ومن زمن إلى آخر . ولا ينبغي أن تكون عادات الإغريق

وتقاليدهم هي وحدها المعيار الصحيح للتقدم الحضارى للبلاد . إنما تلك نظرة إغريقية معروفة ، جعلتهم يظنون بحق أو بغير حق ، لأنهم من خيرة الشعوب وأرقاهم ، وما سواهم لا يدانيهم .

ويذكر المؤرخون أن هناك مؤرخاً آخر قد زار مصر قبل هيرودوت وهو هكايتة الملطي الذى إعاش فى القرن السادس قبل الميلاد : وزار مصر حوالى عام ٥٢٠ . ولكن يبدو أن ما كتبه هكايتة لم يصل إلينا . كما وصلت كتابات هيرودوت .

يقول الأستاذ الدكتور أحمد بدوى : إن هيرودوت زار مدينة « منف » و « هيلوبوليس » بعد أن أقام فى الدلتا ، ثم ركب النيل مصعداً حتى بلغ جزيرة فيلة ؛ ولا هبط من صعيد البلاد عرج على واحة الفيوم ، ثم غادرها إلى الدلتا ، وأقام فيها أياماً أخرى ليعاودها بعد ذلك إلى غير رجعة (١) .

ويذكر هيرودوت أنه اتصل بكهان مصر فى عواصمها الدينية المختلفة ، وأنه استطاع أن يتعرف منهم على جانب كبير من العقائد المصرية . كما جمع المعلومات عن تاريخها السياسى ، وقرر أن أول ملوك مصر هو « منا » وعد من الأسماء أربعين وثلاثمائة ملك .

(ب) هكايتة الأبلدى Hécatée d'Abdère

عاش هذا المؤرخ فى أوائل حكم البطالمة أى فى القرن الرابع قبل الميلاد، وهو ينسب إلى مدينة أبديرا من بلاد اليونان . ولقد وضع عن مصر كتاباً ضاع أكثره (٢) ، وما نعرفه عنه ، قد وصلنا عن طريق « ديودور الصقلى » . وكان الغرض من كتابة تاريخ مصر ، هو بيان فضل وأثر الحضارة الإغريقية عليها . ومن هذه الناحية ، فلا يمكن اعتبار هذا التاريخ ، تاريخاً موضوعياً ومحايلاً عن مصر . وإن كنا نستطيع أن نكشف من خلاله عن بعض ملامح للحياة المصرية .

ومن الواضح أن الإغريقين - هيرودوت وهكايتة - قد ركزا بالذات على جانبين من جوانب الحضارة المصرية : العادات والتقاليد من جانب ، والديانة والأساطير المصرية من جانب آخر .

(١) فى موكب الشمس ص ٦٣ .

(٢) فى موكب الشمس ص ٦٤ .

يوسف اليهودى (١) :

عاش في مصر في القرن الأول قبل الميلاد . وكان المصريون في ذلك الوقت على علم بأخلاق اليهود وطبايعهم . وحاول المصريون إخراجهم من مصر لما وجدوا فيهم من ألوان العداوة والبغضاء لهم . وحاول هذا الرجل اليهودى أن يكتب فصولاً من تاريخ مصر مستنداً فيه إلى آراء مانيتون المؤرخ المصرى ، لعله يجد أمامه فرصة سانحة للدفاع عن اليهود وموقفهم من هذه البلاد . وتحت ستار العلم والتاريخ حاول « يوسف اليهودى » أن يكتب تاريخاً غير أصلى لمصر ولأهلها .

سكتوس يوليوس أفريقانون ويوسوبوس :

كتب هذان الرومانيان عن مصر في القرن الثالث قبل الميلاد . وجاء من بعدهما جورج (٢) « وكان يختم بطريق الإسكندرية . وكتب تاريخاً للملك مصر وقسم الملك إلى أسر ، ونسب هذه الأسر إلى بعض الأقاليم المصرية . فأسرة طينية نسبة إلى إقليم « طينة » ، وهو الإقليم الثامن من أقاليم الصعيد ، وأسرة « منفية » نسبة إلى « منف » الإقليم الأول من أقاليم الصعيد ، وأسرة أسوان نسبة إلى الإقليم الأول من أقاليم الصعيد ، وغيرها « لإهناسية » نسبة إلى إقليم العشرين من أقاليم الصعيد . والذي يقوم حول عاصمته « أهناسيا المدينة » عند مدخل واحة الفيوم . ثم أسرة طينية نسبة إلى « طيبة » الأقصر الحالية وعاصمة الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد . ثم عاصمة الثورة المصرية في القرن السادس عشر ، وعاصمة الإمبراطورية المصرية من بعد ذلك ، ثم عاصمة الدنيا بأسرها يومئذ . ثم بين « جورج » أن مانيتون قد ترك لنا المختصر لتاريخ مصر ، وهو ملخص بأسماء الملوك الذين حكموا مصر ، والجامع الذى يعطينا صورة كاملة لتاريخ مصر السياسى (٣) . »

ديودور الصقلي : Diodore de Sicile

كان فيلسوفاً في الأصل ، زار مصر عام ٦٠ قبل الميلاد . ويذكر المؤرخ المصرى الكبير الأستاذ الدكتور أحمد بدوى ، أن كتابه عن مصر ما زال باقياً . ويذكر ليون رويان في كتابه « الفكر الإغريقى » أن لوكريسيوس قد نقل الكثير من معلوماته في الإنسان والفن والصناعة والحضارة من ديودوروس الصقلي (٤) .

(١) نفس المرجع ص ٦٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٦ .

(٣) نقلاً عن المرجع السابق ص ٦٦ .

(٤) ليون رويان : الفكر الإغريقى ص ٤٠٠ .

استرابون :

زار مصر في القرن الأول الميلادي ، فركب النيل مصعداً حتى وصل إلى شلاله الأول ،
 وهو يعرف الكثير من مظاهر الحياة في مصر ، في الجنوب والشمال ، ولكن هذه الصورة لا تتجاوز
 العصر الذي عرفه ، وهو عصر البطالة .

بلوتارخوس :

زار مصر في القرن الثاني الميلادي ، وأقام فيها طويلاً ، وألف كتاباً في الديانة المصرية
 القديمة وأطلق على كتابه اسم « إيزيس وأوزوريس » .

٢ - هل يوجد تاريخ أصلي لمصر القديمة ؟

مانيتون السمودي :

ظهر هذا المؤرخ في عصر بطليموس الثاني (بطليموس فيلادلفس) في القرن الثالث
 قبل الميلاد ، ويقال إنه كان مصري الجنس والوطن ، وكان من كهان الدولة المعروفين ، ومن
 أشهر أهل زمانه علماً بتاريخ بلاده وأيامها . وكان واسع العلم باللغة المصرية القديمة ، وباللغة
 الإغريقية . ولقد كلفه بطليموس بكتابة تاريخ لمصر سجل فيه أسماء الملوك المصريين من عهد
 « منا » إلى أيام الفتح الفارسي الأخير على يد « أجزسيس الثالث » حوالي ٣٤٣ قبل الميلاد .
 ويذكر الدكتور أحمد بدوي ، أن ما كتبه المؤرخ المصري قد وصل إلينا مختصراً ضئيلاً ،
 فقد بره ذلك المؤرخ اليهودي المسمى يوسف ،^(١)

كل ذلك يؤكد أن المعلومات التي وصلتنا عن تاريخ مصر وحضارتها القديمة ، لم تكن
 بالقدر الذي كنا نتمناه من الدقة والصدق . ولذلك فكل معرفة بهذه الحضارة إنما يجب .
 أن نعتد فيها على الآثار الباقية من هذه الحضارة ، لا على الأقوال التي قيلت عنها . ولقد
 كان لدراسة الآثار المصرية في العصور الحديثة أثر بالغ في معرفة وتقييم هذه الحضارة على
 النحو الذي يجب أن تكون عليه معرفتنا بها . ولا أعتقد أن المصريين القدماء الذين كانوا أول
 من عرف أصول الكتابة ، لم يفكروا في كتابة تاريخهم ، ووصف وتسجيل أحداث حياتهم
 بكل ما فيها من أعجاب وكفاح . ولكن أغلب الظن أن شدة المحافظة عليها وعلى أصولها وعدم

(١) نفس المرجع ص ٦٥ .

الإعلان عنها في المناسبات وغير المناسبات لم يسمح بانتشارها ومعرفتها . والحق أن هناك حلقات كثيرة مفقودة من تاريخ مصر ، وكلنا أمل في المستقبل بما يتيح لنا من القرص من أجل الكشف عن حقيقة علومها وفنونها .

٣ - التاريخ المصري الوسيط

كتب أبو سعيد بن يونس ، تاريخاً لمصر في العصر الإسلامي ، وذيله عليه أبو القاسم ابن الصحان :

كذلك كتب ابن عبد الحكم عن « فتوحات مصر » .

وألف أبو إسحق إبراهيم بن إسماعيل الهاشمي « البغية والاعتباط فيمن ولي مصر الفسطاط » . كذلك كتب ابن زولاق عن أخبار مصر وفضائلها .

ومن أشهر وألمع الكتب في مصر ، كتاب المقرئ ، المسمى بالمواظع والاعتبار بدكر الخطوط والآثار ، وهو يختص بأخبار إقليم مصر والنيل ، وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها .

وكتاب المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس المشهور « بدائع الزهور في وقائع الدهور » .

وكل هذه المؤلفات يمكن أن تعطينا فكرة صادقة عن حال مصر في هذه العصور . ومثل هذه المؤلفات تعتبر كلها من التاريخ الأصلي . وليس أدل على ذلك من قول المقرئ : كانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي وجميع ناسي ومعنى عشيرتي وحامتي . وموطن خاصتي وعامتي ، وجوؤي الذي ربي جناحي في وكرة وعش ماري ، ولا تهوى الأنفوس إلا ذكره . لا رلت منذ شذوت العلم وآتاني ربي الفطانة والعلم ، أرغب في معرفة أخبارها .

وكان الغرض من هذا الكتاب هو جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر وأحوال سكانها ، كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر ؛ ومنفعة هذا الكتاب ، هو أن يشرف المرء في زمن قصير على ما كان في أرض مصر من الحوادث والتغيرات في الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة فهذب بتدبير ذلك نفسه ، وترناض أخلاقه ، فيحب الخير ويفعله ، ويكره الشر ويتجنبه ، ويعرف فناء الدنيا ، فيحظى بالإعراض عنها ، والإقبال على ما يبقى .

وكما يقول المقرئ ، فلقد سلك في هذا الكتاب ثلاثة أنحاء : وهي النقل من الكتب المصنفة في العلوم ، والرواية عن أدركت من شبيخة العلم وجلة الناس ، والمشاهدة لما عاينت ورأيت ؛

٤ - تاريخ مصر الحديث

يبدأ تاريخ مصر الحديث من الحملة الفرنسية ، ونحن نجد في العصور الحديثة الكثير من المؤرخين الأصليين الذين كتبوا وأرخوا تاريخ مصر في هذه الفترة . كذلك نجد من الغربيين من تناول هذا التاريخ السياسي بالبحث والدراسة . ولا شك أن المقارنة بين ما كتبه المصريون وغيرهم سوف تكون مفيدة لكل باحث ، من أجل الكشف عن وجهات النظر والنوايا المختلفة .

ونذكر المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتي في كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » . وهذا الكتاب أشبه بالذكريات اليومية التي يدون فيها المؤرخ الأحداث التاريخية اليومية . ولقد ظهرت طباعات عديدة لهذا الكتاب . وبجانب كتابات الجبرتي فذكر رفاعة الطهطاوي ، وأحمد فارض الشدياق .

وبالنسبة لتاريخ مصر المعاصر ، يجب أن نذكر عبد الرحمن الراضي وكتابه عن « عصر إسماعيل » في جزأين . و « الثورة العربية » . و « الاحتلال البريطاني » و « مصطنعي كامل » و « محمد فريد » .

ولا غرابة في أن يكتب شخص مثل اللورد كرومر صفحات عن « مصر الحديثة » ، فمصر كانت من الأهمية بالنسبة للعالم الغربي وخاصة بالنسبة لإنجلترا بلداً ذات أهمية سياسية واقتصادية كبرى .

إن بعض الفرنسيين الذين حضروا إلى مصر مع الحملة الفرنسية لم يفهموا أن يكتبوا عن مصر : ولا اعتقد أن التاريخ الذي كتبه الغربيون كان مجرد سرد للأحداث السياسية . إنما كان الغرض منه هو بيان جوانب الحضارة الشرقية ، والعقلية المصرية ، والحياة الاجتماعية فيها .

إن كل ما يكتب عن مصر من ١٩٥٢ حتى يومنا هذا هو تاريخ لمصر الثورة . ويجب علينا أن نعطي للشعب المصري دوره في هذا التاريخ فهو صانع هذا التاريخ ، وصانع أمجاد مصر في الماضي والحاضر .

الفصل الرابع

فلسفة الحضارة المصرية

مصر الحضارة

ظهرت الحضارة في أرض مصر منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ . ووجدت آثار العصر الحجري الأول Paléolithique الذي يرجع إلى اثنين وأربعين ألف عام قبل الميلاد ، في « جبل القرية » غرب النيل من تجاه الأقصر ، وكذلك في صحراء العباسية من شمال القاهرة ، وكان الإنسان في تلك العصور الغابرة يستخدم الحجر الصوان في صنع الأدوات التي يستخدمها في الصيد وفي الدفاع عن نفسه . وفي هذا العصر «الموسرى» ، كانت تنتشر الحضارة ما قبل التاريخية في أفريقيا والشرق الأدنى وجنوب غرب أوروبا ، أى حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط . وكان إنسان العصر الحجري يعيش في الكهوف وتحت الصخور ، ويعتمد في غذائه على القنص والصيد . ووجدت آثار العصر الحجري المتوسط في « حلوان » ، وفي أماكن عديدة من الصعيد (كوم امبو) وفي الفيوم .

وانشرت بعض العقائد الدينية المقرونة بالسيحرواهتم الإنسان بالمولق وبطريقة دفنهم ، فكان يضع معهم التماثيل والحلى وبعض الأدوات والهدايا . وفي العصر الحجري الحديث néolithique تطورت الحضارة الحجرية في الشرق الميديترانى وانتقلت إلى جنوب أوروبا (١) . وكانت حضارة العصر الحجري الحديث الموجودة في جبال القوقاز وفي البلاد الشمالية ، أقل تطوراً منها . وتعلم الإنسان الرعى وبدأ يستصلح الأرض ويبنى الأكواخ ويرتبط بالأرض ، ويؤلف الجماعات التي تنتظم في العمل وفي الدفاع . ووجدت آثار هذا العصر في مصر في نواحي « نقادة » و « البلاص » و « العمرة » و « بيدوس » و « الكاب » وبلاد البوابة الصغرى ، وسُميت باسم حضارة نقادة . وكشف الآثاريون في الآونة الأخيرة عن حضارات تسبق حضارة نقادة في ثلاثة أماكن وهي (٢) :

١ - قرية « البدارى » عند أسيوط و « ديرطاسا » على مقربة منها .

(١) التاريخ العام للحضارات ص ٢-٣ .

Histoire générale des civilisations : publiée sous la direction de Maurice Crouzet. Paris 1955, Tome I p. 2-3.

(٢) موكب الشمس . الجزء الأول ص ٧٨ .

٢ - الفيوم وسواحل بركة قارون .

٣ - حلوان ومدخل وادى حوف فى المكان المعروف باسم قرية « العُمري » .

وفى الدلتا ، وجدت آثار الحضارة فى « مرمدا بنى سلامة » ، على بعد خمسين كيلومتراً من شمال القاهرة ، وكذلك فى منطقة المعادى بين القاهرة وحلوان .

وفى أواخر العصر الحجري الحديث بدأ الإنسان يستخدم المعادن الطبيعية مثل النحاس والذهب . ويرى علماء التاريخ أن ظهور الحديد وصنع العجلات قد نقل الإنسان إلى عصر جديد تقدمت فيه الحضارة تقدماً سريعاً وملحوظاً . ولقد استخدم الحديد فى الشرق (فى مصر والعراق) على الرغم من ندرة وجوده فى هذه الأماكن ، مما يدل على أن هذه الحضارة اتصلت بحضارات أخرى فى التركستان والقوقاز والبلقان (١) .

ويعتقد بعض الآثاريين أن حضارة العصور الحجرية كانت كحضارة واحدة ، حتى إننا نجد بعض مقاطع اللغة التى تتكرر بصورة شبيهة مثل « كار » ومعناه الحجر ومنه كراو وكارسو وكاريات وكراونكن (٢) ، وبعض الكلمات التى تفيد معنى القلعة فى اللغة العربية والتركية والليتوانية . كما أن هناك وجه شبه بين هذه الحضارات فى جنوب أوروبا ومصر والعراق والمند . ثم ظهر الاختلاف والتباين بينها على مر العصور ، وتعقدت جوانب الحياة المادية والذهنية ، وكأن البذرة الأولى من الحضارة قد أنبتت زرعاً قوياً ومتنوعاً .

١ - مصر أصل الحضارة

إن الحضارة نتيجة تفاعل بين الإنسان والبيئة . فقد تكون البيئة صالحة لحياة الإنسان ، فيعمل على استصلاحها واستثمارها . وقد تقهره هذه البيئة ، فلا يبقى له وجود فيها . وكانت الظروف الطبيعية تكاد أن تتشابه فى مصر والعراق ، على ضفتى النيل وعلى شواطئ دجلة والفرات . ولقد أدى التشابه بين مظاهر الحضارتين القديمتين المصرية السومرية ، إلى كثير من التساؤلات من جانب العلماء : هل كانت حضارة مصر أسبق من حضارة سومر ؟ وأى حضارة أثرت فى الأخرى ؟

كان البلدان يمتازان بالسهول والوديان ، كما أن المناخ الجوى كان يساعد على نمو الزراعة وانتشارها ، وكان وادى النيل يمتد وسط الصحراء ليمنح الإنسان الرزق والحياة . وامتاز الوادى

(١) التاريخ العام للحضارات - ص ٣ ذ

(٢) نفس المرجع ص ٥ ذ

في منطقة ما بين النهرين Mésopotamie بنفس الظروف الجوية والطبيعة التي تسمح باستمرار الحياة الإنسانية .

ونستطيع أن نقول إن الحضارة المصرية القديمة والحضارة العراقية قد ظهرت بصورتها المتميزة قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام ، حتى إنه يكاد يكون من المستحيل في نظر بعض المؤرخين أن نجزم أيتهما كانت أقدم وأسبق من الأخرى . فالآثار التي اكتشفت في « أور » بالعراق تدل على أن حضارة سومر كانت حضارة متقدمة ، اخترع أصحابها الخط الأسفني أو المساري ، وجعلوا وحدة العدد ٦٠ وهذه الوحدة هي التي مازلنا نعمل بها في قياس الساعة ؛ وهم أصحاب برج بابل . وهؤلاء السومريون لم يكونوا ساميين ، ومن الحقائق المعروفة عنهم ، أنهم تعلموا الزراعة من مصر . وقال برستد : « وكان قد جاءهم من مصر الشعير ونوع من الحنطة الذي تنشق حبوبه : ولذلك دعوه باسمه المصري »^(١) . وهذه العبارة وحدها تكفي للإشارة بأن مصر هي أصل الحضارة الزراعية التي عرفتها قبل المسيح بأربعة آلاف عام ولما كان المصريون يتنقلون بحثاً عن المعادن فإنهم وصلوا إلى هذه المنطقة وعلموا أهلها الزراعة كما نقلوا إليها الحبوب والبنود من مصر .

ومن الواضح أن آثار أور في العراق وآنارسوسة مدينة العيلاميين في إيران لم تكن في عظمة الآثار المصرية القديمة حتى وإن كانت تشبه الآثار القديمة قبل عهد الأسر الفرعونية . ويقول سلامة موسى نقلاً عن اليرت سميث في ضوء التاريخ المصري القديم وبالمقابلة بينه وبين تاريخ العراق نستطيع أن نقول إنه في عصر قديم سبق الدولة الأولى في مصر خرجت السفن المصرية من النيل تقصد إلى الشرق وتنشد هذه المواد التي تطيل الحياة كالجواهر والمعادن والمقايير قطععت البحر الأحمر ثم جازت السواحل العربية إلى أن دخلت فارس والعراق . وهناك كانت النواة للحضارة المصرية الأولى . فحضارة سوسة هي حضارة مصرية أجنبية ، ولذلك سرعان ما انحطت لأن الذين أقاموها انقضوا واندمغوا فيمن حولهم من الشعوب فتنصبت الثقافة التي جلبوها من مصر . ولو كانت حضارة سوسة أصيلة فيها لوجدناها ترتقي بدلاً من أن تنحط^(٢)

كذلك إذا نظرنا إلى عادات الدفن لوجدنا أنها تطورت في مصر وانحطت في هذه البلاد ، مما يدل على أن مصر هي الأصل في هذه العادات . ويمكن أن نقول بكل ثقة « إن الحضارة الأولى في سومر كانت تعاصر الجزء الأخير من عصر الأسرة الثانية في مصر (حوالي ٣٠٠٠ ق. م) ، وإن الحضارة كانت اختراعاً مصرياً ، ولم تكن عيلام وسورسوى مستعمرات مصرية

(١) مصر أصل الحضارة : تأليف سلامة موسى . مطبعة المهلة الجديدة ص-٢٦ ، والسومريون

شعب ينتمي إلى سلالة غير معروفة وكانوا يحلقون رؤوسهم ويرسبون لحامهم .

(٢) نفس المرجع ص ٢٨ .

نقل إليها المصريون خميرة الثقافة ، ولكن ما نقل لم يكن كل الحضارة لأن قسماً فقط من هذه الثقافة تأصل ونبت ونما^(١) .

٢ - خصائص الحضارة المصرية

كانت الحضارة المصرية القديمة حضارة زراعية أصيلة ، لم يعرف التاريخ لها مثيلاً . وفكرة استمرارها وثباتها ودوامها ، إنما ترجع إلى طبيعتها الزراعية . والنيل هو المعلم الأول لهذه الحضارة لا لأنه يجلب الماء والطمى إلى هذه الأرض بل لأنه لقن المصريين الدرس الأول في الحياة وهو النظام . كان النيل رسول الحضارة الوفي الذي يفيض على الناس بمائه وخيره مرة في كل عام ؛ وكان لا يخلف الميعاد ! ومن معجزة وفاء النهر الخالد أن تعلم المصريون نظام الدورات الزراعية . ولقد اهتم علماء الإغريق القدامى بهذه الظاهرة الطبيعية العجيبة التي تجعل النهر العظيم يفيض في فصل الصيف من كل عام (أغسطس) . وكتب في ذلك أرسطو ، وألكساغوراس ، وديموقريطس ثم سنيكا ، ولوكريشيوس . وكان السؤال الذي يتردد بينهم عن علة هذا الفيضان ، كيف أن الثلوج المتركة على جبال ألبانيا لا تذوب إلا في فصل الصيف ، ثم كيف يمكن أن تذوب كلها في مرة واحدة علماً بأن البحر في ألبانيا دافئ وحرار في أكثر فصول السنة ؟ وقال البعض بأن هناك رياحا تهب في هذا الوقت من كل عام . فالنيل لا يفيض في فصل الشتاء ولكنه يفيض في الصيف لترتوي الأرض بمائه .

ويقدر ما تعجب العلماء القدماء من أمر هذا الفيضان ، تعجبوا أيضاً من عذوبة مياهه وحلاوته . فمياه النيل لا تأتي من مياه البحر المالحة ، ولكنها تأتي من مياه الثلوج والأمطار . ومع ذلك ، فكيف يمكن أن تكون عذبة إلى هذا الحد ؟

لم يكن المصريون وحدهم هم الذين أعجبوا بهذا النهر الرائع حتى قدسوه وعبدوه لأنه هو مصدر الحياة والحضارة . بل ما أكثر العلماء الذين سجلوا إعجابهم به ، بنظامه ووفائه ! وكما علم النيل المصريين النظام ، علمهم أيضاً الوحدة والاتحاد ، فوحد بين القبائل المختلفة وهو يخترق الأرض من أقصى الجنوب إلى الشمال . كانت هذه القبائل تعيش فوق الجبال التي تحده مجرى النيل ، ثم نزلت إلى الوادى طلباً للاستقرار في الحياة . وكانت قد جاءت من صحراء الغرب والشرق ومن الجنوب ، ومنها من جاء من صحراء فلسطين . وبفضل النيل وسهولة الاتصال اتحدت وتقاربت . ويجب أن نضيف إلى ذلك أن هذه القبائل كانت تنتمي أصلاً إلى سلالة بشرية واحدة ، هي السلالة الميديترانية . التي انشرت في شمال أفريقيا وفي إيطاليا واليونان وجنوب فرنسا وأسبانيا .

(١) نفس المرجع ص ٣٠ .

كانت الحضارة الزراعية وسوف تكون رمزاً للحياة ولبقاء الإنسان على الأرض . إنها لم تتغير في مظهرها وإن كانت قد تغيرت في طبيعتها ، فلم تعد هي المصدر الوحيد لحياة الإنسان في العصور الحديثة . إننا نرى اليوم الحضارة الزراعية في مصر كما كانت منذ آلاف السنين ، تسير على نفس النظام والوتيرة ، وكأن شيئاً لم يتغير في حياة المصريين ، ولم يطرأ عليها جديد . والإحساس بعدم التغير هو الذى يعطينا نفس الإحساس بالتخلف عن ركب الحضارة وتقدمها . والحضارة الزراعية هي أصل الحضارة الإنسانية كلها ، بكافة صورها وألوانها . فلا معنى لوجود الإنسان وبقائه ، إلا إذا كان هناك ضمان لهذا الوجود بواسطة الزراعة ، ولا نظن أن التقدم الحضارى يمكن أن يكون معناه إلغاء الحياة الزراعية من أجل أن تحل محلها الحياة الصناعية . ولكن الأمر الذى يجب أن نؤكد أنه كليتها في حاجة إلى الأخرى . وكل المشاكل التى لحقت بالحضارة الصناعية في البلاد الغربية ، إنما كانت نتيجة الفقر في حياتها الزراعية . وكل التأخر الذى تعاني منه الشعوب النامية ، إنما مصدره الافتقار إلى الصناعة ، التى أصبحت لا تستقيم الحياة الحديثة بدونها .

لقد ازدهرت الحياة الزراعية في مصر وتقدمت منذ أقدم عصور التاريخ ، بفضل خاصيتين أساسيتين هما : النظام والاتحاد . ولا يشك أحد في أن تقدم الحياة الصناعية يحتاج أيضاً إلى نظام واتحاد .

وجددير بالذكر أن الحضارة الزراعية لم تقم على الأرباح ، ولكنها قامت على دقة التخطيط وضبط القياس . ولا أعتقد أن أية حضارة زراعية أخرى قد بلغت ما بلغته الحضارة المصرية من دقة التخطيط . فنظام الري في مصر ، نظام بارع دقيق عرفه المصريون مع بداية التاريخ ، فكانوا يحفرون الترغ وبينون السدود .

إن الحضارة المصرية الزراعية التى لم تتغير في مظهرها طوال آلاف السنين تبدو راكدة ساكنة وقد أثقلت الأيام والسنون . ولكنها ما زالت تحمل في أعماقها معنى الحياة ، ومصالحه الإنسان مع الوجود . وكل الغربة التى يشعر بها الإنسان الغربى في مواجهة الوجود لا يمكن أن يشعر بها إلا الإنسان المصرى الذى يضمه الوجود بين أطرافه .

٣ - مقومات الحضارة المصرية (١) السياسة

كل حدود مصر مفتوحة سواء في الغرب أو الجنوب أو الشرق . لذلك كانت الوحدة الداخلية في البلاد وحدة ضرورية من أجل حماية تلك الحدود والدفاع عنها . وكل الفكاك في هذه الوحدة كان يساعد على ضعف مستوى الحياة الاقتصادية والسياسية ويجعل البلاد فريسة للأعداء . فالحياة الزراعية حياة جماعية لاتستقيم بدون الاتحاد والتعاون . والزرع والحصاد والدراس ليسوا من عمل فرد واحد بل من عمل الجماعة . وعندما تتوحد البلاد ، يعم الرخاء في أرجائها وتزداد قوتها فيرهبها العدو ويخشها . وقال بعض المؤرخين عن مصر التي لاتحميها حدودها ، إنها يجب أن تكون إمبراطورية .

كانت حدود مصر الطبيعية حدود غير آمنة ، وإن كان العزو من الشرق والغرب يبدو دائماً أكثر احتمالاً من العزو من الجنوب . ولقد عانت مصر كثيراً في تاريخها من شر هذه الغزوات ، ولم تكن حياتها حياة سهلة ناعمة ، بل كانت حياة كفاح ونضال .
ويجب أن نشير هنا إلى الصلة الوثيقة التي تربط الحياة الاقتصادية بالحياة السياسية . إذ كانت الحالة الاقتصادية هي معيار قوة وصلابة الحياة السياسية ، فإذا ساءت الأولى ضعفت الثانية والعكس صحيح .

بدأ اتحاد القطرين الشمالي والجنوبي مع الملك « نعرمر » أو « منا » الذي أسس الأسرة الأولى . ومن آثاره اللوح المحفوظ بمتحف القاهرة والذي يمثل انتصاره على أهل الشمال . وذكر المؤرخون القدامى (هيرودوت) اسم « منا » باعتباره مؤسس « منف » أول عاصمة لمصر الموحدة . « على أن الأبحاث التاريخية التي اضطلع بها العلماء في الأعوام الأخيرة قد أظهرتنا على أن « منا » لم يكن أول ملوك مصر . ولم يكن أول من عرف الحكومة المتحددة فيها ، فقد سبقه إلى ذلك كثير من ملوك ، وتقدمت أسرته كثير من الأسر . فعرفت مصر قناه حكومات الاتحاد كما قدمنا . وإنما ظهر « منا » والأيام لتدليل من حكومة الانقسام إلى حكومة الاتحاد .^(١)

والحق أن الذي يعيننا هو حقيقة الاتحاد كضرورة سياسية للبلاد ، سواء بدأ مع « منا » أو قبله . وكانت آثار هذا الاتحاد عظيمة من الناحية الزراعية والسياسية . فكان الملك هو الذي يهتم بحياة البلاد الزراعية وينتظم وسائل الري فيها . كما يهتم بتنظيم الجيش من أجل الدفاع عن

سلامة الدولة . « وكان اختياره للعاصمة منف على أساس حرى وجعل منها قلعة حربية بعد أن ضرب من حولها بخنادق الماء : فالأء من غربها ومن شمالها والنيل يجرى من شرقها فيحميها . وكان منا قد أسأها « القلعة البيضاء » (١) .

ولا ينبغي أن نردد هنا ما يقوله الغربيون عن النزعة الاستبدادية فى الشرق . ذلك لأن الظروف الطبيعية التى كانت تحيط بهذه البلاد ، كانت تفرض عليها هذا النظام من الحكم . ولا يعقل أحد أن مصر كان بإمكانها أن تستمر على حالة الانقسام والتفكك كما كان الحال فى بلاد اليونان . وليس أمامنا غير مثل أسبرطه نفسها ، تلك المدينة اليونانية الزراعية التى اختارت لنفسها نظام السلطة الواحدة وجعلت من نفسها قلعة حربية قوية . فكل الأطماع كانت تجوم حول البلاد الزراعية . وحتى فى العصور الحديثة فإن الهدف من الاستعمار هو استغلال الموارد الاقتصادية فى البلاد .

ولقد أشاد المؤرخون بحسن الإدارة ونظامها فى العصور القديمة . فكانت الأقاليم المختلفة تخضع لنظم إدارية خاصة تساعد على فرض النظام وسيادة الحق . ولم تكن هناك فروق ولا امتيازات بين الناس ، بل كان الحكم يعمل على أن يكون عادلا ومنصفا . وامتازت عصور القوة والازدهار بالعدالة ، بعكس عصور الضعف التى كان يسود فيها الفساد والظلم .

وتاريخ مصر فى أروع الأمثلة عن عدالة الحكم ، كما أن فيه أسوأ الأمثلة عن الظلم والفساد . وعرفت البلاد عصوراً مظلمة حالكة استعبد فيها الغزاة المصريين الآمنين . كما حدث مع الهكسوس . ولم يكن الشعب يرضى بالذل والهوان دائماً ، بل كان يقوم بالثورات عندما يشتد به الفقر والبؤس .

والمصريون هم أول من ثار ضد الإقطاع وقد أطاحت هذه الثورة بالدولة القديمة . وكانت هناك ظروف عديدة ساعدت على ظهور الإقطاع منها خمول الفراعة وسوء الإدارة وعدم انتشار الثقافة والتعليم ومحاولة استقلال حكام الأقاليم . وأحس الشعب المصرى بوطأة الفقر فلم يذعن ولم يرضخ ، إنما ثار لنفسه ولكرامته . وخرجت مصر من هذه المحنة بفضل أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، الذى أعاد إلى البلاد الاستقرار والعدل .

لكن من أسوأ المحن التى عرفتها مصر ، تلك التى عانتها أيام الهكسوس . وكل من يحكم مصر من الأجانب فهو من الهكسوس . إذ يرجع هذا الاسم إلى الكلمة المصرية « حقا خاصوت » بمعنى حاكم البلاد الأجنبية (٢) . نزحت هذه القبائل من الشرق فى الثلث الأول من القرن السادس عشر

(١) نفس المرجع ص ٩٩ .

(٢) موكب الشمس : الجزء الثانى ص ٢٩٦ .

قبل المسيح ، وجاءت بخيولها وعجلاتها الحربية ، واتخذت من « أواريس » (صان الحجر) في شرق الدلتا ، عاصمة لها . وعانى المصريون كثيراً من فظاعة الهكسوس وأعمال الإرهاب من إحراق المدن والقرى وخراب العمائر والمعابد^(١) . وامتد سلطانهم إلى سوريا وفلسطين وبلاد النهرين وجزيرة كريت^(٢) .

وظهرت بوادر الثورة على هذا الحكم الظالم رغم جبروته وعنقه منذ أيام « سقن رع » حاكم طيبة (ثالث الحكام) . وقامت تحت راية الدين وباسم آمون معبود طيبة ، وذلك ضد « أبوفيس » ملك الهكسوس ومعبوده « ست بعل » إله الآفة . لكن البطل المصرى الثائر أتى مصرعه في ساحة الرغى وفي أرض القتال . فحمل لواء الثورة من بعده « كاموسى » : ألا فليعلم أهل طيبة أن « كاموسى » سوف يتقدم مصر ويحفظها من مهاوى الهلاك . لسوف يخرج إلى العدو بأمر آمون ، فهو وحده القادى سبيل الرشاد^(٣) . واستطاع هذا البطل أن يخلص مصر الوسطى من نير الهكسوس الذين ارتدوا فارين إلى الشمال . وعندما عاجلته المنية ، رفع راية الكفاح « حموسى » . الذى لاشك فيه أن الفزاة الغاصبين قد غادروا مصر إلى غير رجعة في عهد حموسى الأول الذى يعده التاريخ رأس الأسرة الثامنة عشرة .

وكم توالى على أرض مصر من الفزاة الظالمين والمستعمرين الطامعين فكان الشعب يضيق ذرعا بالظلم والإرهاب . وظل الشعب المصرى طوال تاريخه هو البطل الحقيقى الذى يدافع عن وطنه وأرضه وراء المخلصين من أبنائه .

والحق أن من يتأمل فى تاريخ مصر الطويل لا يسعه إلا أن يشعر بالتفاؤل مع هذا الشعب الذى ذاق الكثير من الحزن واستطاع أن يتخلص منها بأصائلته المصرية الريقة . وليس أبغض على النفس المصرية من أن يحتل الأجانب هذه الأرض ويصيرون فيها حكاما . وقد يبلغ بهم الحزن والأسى مبلغا عظيماً ، حتى نظن أنهم قد فقدوا كل قدرة على الحركة والمقاومة . ولكن سرعان ما يلب الأمل فى نفوسهم : فتقوى عزيمتهم ويربصون بالعدو العار ، فيقضون عاياه بأمر الله . وعندما تفيض الوطنية على هذا الشعب الكريم ، فإنه يصبح قوياً عظيماً .

(ب) الدين

تعتبر الحضارة المصرية حضارة دينية ، وكل مظهر من مظاهر الحياة فيها إنما يصطبغ بالصبغة الدينية . فالسياسة والفن والأخلاق وحتى العلم ، تأثروا بالدين وارتبطوا به ارتباطاً وثيقاً .

(١) موكب الشمس : الجزء الثانى ص ٣٠٧ .

(٢) موكب الشمس : الجزء الثانى ص ٣٠٦ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٥٦ .

الديانة المصرية القديمة :

تطورت الديانة المصرية القديمة تطوراً ملحوظاً من مرحلة الأسطورة إلى التوحيد . وكان هذا التطور نابعاً من الوجدان الدينى المصرى الذى كان يعلى من أمر الآلهة ويرفع من قدرهم . ولا شك أن كل من يحاول أن يقارن بين الأساطير المصرية وبخاصة تلك الأسطورة الرائعة المعنى والمغزى ونعنى بها أسطورة إيزيس وأوزوريس ، والأساطير الإغريقية القديمة ، فإنه يدهش من تصور الإغريق لآختهم . كان الإله فى نظر المصريين إله الخير والبركة ، أما آلهة الإغريق فكانت تتنافس على الشر والحقد والكراهية . ومن العجب فعلاً أن تصبح حياة الآلهة سلسلة من المغامرات التى تحط من قدر البشر قبل أن تحط من قدر الآلهة . أما الأسطورة المصرية فكانت تفيض بأسمى معانى الحب وأنبها .

كان الإحساس الدينى المصرى إحساساً رفيعاً عالياً ، وكأن الوجود الذى تجلى له فى أجمل مظاهر الطبيعة والحياة هو صورة شفاقة للألوهية . ولا أعتقد أن الديانة المصرية القديمة كانت خرافة ومحض خيال ولكنها كانت تعبيراً صادقاً عن وعى الإنسان بسر الوجود .

أحب الإنسان المصرى الوجود وقدمس الحياة . وأحس أنه جزء من هذا الوجود العظيم ، فارتبط بالكائنات كلها كما ارتبط بالأرض التى يعيش عليها وكان الشعور الدينى الذى يملأ نفسه شعوراً طبيعياً فطرياً وربانياً فكل مظاهر الحياة بدت لعينه ولأول وهلة مظاهر للنعمة الإلهية ولكل طبيعة إنسانها ، وللطبيعة المصرية إنسان يفهم معناها ويدرك حقيقتها . لم يكن الإنسان المصرى بحاجة إلى مناقشة هذه الحقيقة التى ملأت قلبه ونفسه كما ملأت عقله وذمته ، لأنها بدت له بديهية واضحة ، وجلية .

كانت العقائد المصرية القديمة ترفع الإنسان إلى درجة عالية من الروحانية ، ويجب أن تفسر بها ولا تفسر إلا بها . وكل المزاعم التى يزعمها الغربيون عن حسية هذه العقائد ، إنما فيه الكثير من التجنى على الحقيقة والواقع . فالروحانية المصرية روحانية شرقية عالية انتشرت تفحاتها ، وانطلقت نسباتها فى أرجاء الوجود . إن النيل والشمس يكوّنان بالنسبة للمصرى ألفباء الوجود . (هيجل) . ولكن المصرى قد أعطى لهما معانى سامية هى معانى الحياة والخلود . وحين قال هيجل إن الفكرة الأساسية لتصور المصريين القدماء للوجود تقوم بطبيعة الحال على العلم المتحقق الذى يعيشون فيه ، وبعبارة أدق على الدائرة الطبيعية المغلقة التى يحددها النيل والشمس ، فإنه لم يدرك فى الحقيقة المعنى الروحانى للعميق الذى كان يحيط بهذه المظاهر الطبيعية لدى المصريين . « إن مصر هى فى الحبل الأول ، بحر واسع من الرمال ثم بحر من المياه العذبة ثم بحر واسع من الزهور . ولا تسقط فيها الأمطار . وفى نهاية شهر يوليو تسقط قطرات الندى . ثم يبدأ فيضان الشعب والتاريخ

النيل فتبدو مصر كجموعة من الجزر ، وكما يقول هيرودوت كجزر بحر إيجة . ويترك النيل وراعه عدداً كبيراً من الزواحف ، وبعد ذلك يزرع الفلاح ويحصد حصداً وفيراً . والوجود المصري لا يتوقف على نور الشمس وماء المطر ، بل على الشروط البسيطة التي تسهل طريقة حياته ونشاطه الحيوي . هذه الحياة هي عبارة عن دور طبيعي ينظمه النيل ويرتبط بحركة الشمس . إنها تشرق وتغرب ، وكذلك يفعل النيل^(١) . ويؤكد هيجل أن الديانة المصرية قد تأثرت بهذه المظاهر الطبيعية ، وأنها كانت دائماً موضع تساؤل من المفكرين عن معناها وقيمتها . وكان المفكر الرواقى « خيريمون » الذى زار مصر يقول عن هذه الديانة إنها ديانة مادية محضة^(٢) . أما الأفلاطونيون المحدثون فكانوا ينظرون إلى الأشياء كلها كرموز لها قيمة روحية عالية ، ولقد جعلوا من هذا الدين ، دينا مثالياً خالصاً .

وكان من الطبيعي أن يحاول هيجل التوفيق بين النظريتين وأن يطبق الجدل على التقيضتين فيقول إن الديانة المصرية القديمة لم تكن مثالية خالصة ولا مادية محضة ، ولكنها كانت تجمع بين الاثنين ، ووسطا بينهما . فالإنسان المصرى قد تمثل النيل والشمس فى صورة إلهين ، واختلط سير الطبيعة بتاريخ الآلهة . فأوزوريس يقتله أخوه وعده « طيفون » (ست) ، ربح الصحراء اللافحة . وليزيس هي الأرض التي يرويها النيل وتهبها اشمس الحياة . لذلك فهي تجمع أشلاء أوزيريس وترثيه ومصر كلها تنشده معها لحن الموت والألم . ويصبح أوزيريس إله الموتى ويحكم عالم الخلود . ثم تنشده مصر لحن الحياة عندما تلد ليزيس حوريس الذى حملت به من روح أوزيريس . فيعود الخير إلى الدنيا ، ويكبر حوريس ويتنقم لأبيه بقتل ست وسحق الشر من الوجود . وهكذا ينتهى الصراع الألم بين الخير والشر ، بين الحياة والموت . فلقد أنبت الخير خيراً وأعطت الحياة حياة وخلوداً . وكان الشمس بشروقها وغروبها رمز للحياة والموت . وكان النيل بفيضه وجذبه رمز لتوالى الموت والحياة ، الخير والشر . ويرى هيجل أن الشمس هي الرمز الذى نعرف به على أوزيريس والذى يمكى لنا قصة حياته فى كل يوم . كذلك تمكى الأسطورة أن أوزيريس هو الذى علم المصريين أصول الزراعة ، وهو رمز المصوبة فى الحياة . وبذلك يكون رمزاً وتمثلاً للنيل والشمس معاً .

وربما يشير المؤرخون إلى ظاهرة تعدد الآلهة لدى المصريين ، وما كان لهذا التعدد من أثر على الحياة السياسية ، بحيث كان كل إقليم يستقل بعبادة إله معين . ولكننا لا يجب أن ننسى أن الوحدة كانت وراء هذا التعدد الذى لم يكن خافياً على المصريين فى أسطورة أوزيريس فكل إقليم

(١) هيجل : دروس فى فلسفة التاريخ ص ١٨٨ وهو يقول إنه يذكر هنا الكلام الذى كتبه القائد العربى الذى فتح مصر - أى عمرو بن العاص - إلى الخليفة عمر بن الخطاب .
(٢) نفس المرجع ص ١٨٩ عاش فى عصر الإمبراطور الرومانى Tiberius

من أقاليم مصر كان فيه جزء من الجسد الواحد . وكل الآلهة اتحدت في أوزيريس .
 ويقول هيجل إن بعض الآلهة المصرية كانت تمثل الروحانية ، مثل هرمس المصري ، إله
 الكتابة والعلم الذي علم الإنسانية علوم اللغة والفلك والقياس والطب . ولقد أطلق « إراتستين »
 اسم هرمس على كتابه الذي عرض فيه أصول العلم المصري القديم . كذلك كان أنوبيس صديقاً
 ورفيقاً لأوزيريس ؛ قسم ساعات النهار إلى اثني عشرة ساعة ، وكان المشرع الأول والمعلم
 الأول للطبوس الدينية . ولقد اكتشف شجرة الزيتون^(١) . ومع ذلك فلم يكن أنوبيس إله الفكر -
 وصوره المصريون برأس كلب وظهر في صورة حيوان . وعبادة الحيوان Zoolatrie تخرج بين
 العنصر الروحاني والطبيعي . ومن الممكن أن نقول إن المصريين الذين تصوروا النيل والشمس في
 صورة آلهة ، قد تصوروا الحيوان أيضاً بنفس الصورة وعلى نفس النحو . إننا نكره عبادة الحيوان
 كراهية شديدة ، ومن الممكن لنا أن نتصور إمكان عبادة الشمس والنيل ، ولا نتصور إمكان
 عبادة الحيوان . ولكن المصريين قد أدركوا حكمة الحيوان ، حيويته وحركته وخضوعه لغاية الحياة
 مع الصمت والحزن . إننا لا ندرى في الحقيقة ماذا يعنى الحيوان عنا ، ولا نستطيع أن نتق فيه
 ونسلم إليه . إن عالم الحيوان هو عالم اللامعقول ، ومهما حاول خيال الإنسان أن يفسر هذا العالم ،
 فسيظل على الدوام غريباً عنه . ثم كيف يمكن للإنسان أن يفهم عالم الحيوان ؟ هل بالعقل والروح
 إذا كان ذلك كذلك ، فلا بد أن يكون المصريون قد اكتشفوا روحانية الحيوان في صورتها
 البسيطة والخالصة ، فالروح لا يدرك غير الروح . وعبادة الحيوان لا نظير لها إلا عند المنود
 والمغول .

ويجب أن نشير إلى أن هيجل قد توقف عند مظهر واحد من مظاهر الديانة المصرية ،
 وأنه لم يتابع حركة تقدمها وتطورها . وكانت فكرة التناقض والجدل تسيطر على فكره سيطرة تامة ،
 حتى إنه لم يكن يفسر الحقائق بمعناها المباشرة والسليم . إن الروحانية المصرية قد خرجت من ظلام
 الليل إلى وضوح النهار واستطاعت أن تتعالى وتسمو حتى بلغت أرفع درجات التوحيد التي كان من
 الممكن أن يصل إليها الفكر الإنساني في ذلك الوقت . وكانت ديانة أختاتون أول ديانة توحيد
 بالمعنى الصحيح . حتى ديانة «رع» يمكن أن تعتبر أيضاً شكلاً من أشكال التوحيد . وأياً كانت
 الصلة بين التوحيد في الدين والوحدة السياسية ، فلا ينبغي أن نرد الواحدة إلى الأخرى :

ليس هناك واحد آخر يعرفك إلا ابنتك أختاتون

لقد جعلته علياً بمقاصدك وقوتك^(٢) .

(١) نفس المرجع ص ٩١ .

(٢) الأدب المصري القديم : تأليف سليم حسن الجزء الثاني ص ١١٧ .

وتصوير أختاتون للإله الواحد ، هو تصوير لسيادته على الكون ، منذ الأزل وإلى الأبد :

مذكري بالأبدية

وحجتي بالأشياء الأبدية

وهو الذى سوى نفسه بنفسه بيده هو

والذى لا يعرفه صانع (١) .

ومن دعاء المصريين :

ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت

ملآنة الأرض من غناك (٢) .

تلك كانت الروحانية المصرية ، ترى فى الوجود كله إلهاً واحداً أحد ، وخالقه منذ الأزل .
ولذا كانت الروح المصرية التى رأت نور الوجود الأزلى ، روحاً صافية شفافة .

اهتم القرن التاسع عشر بالأسطورة القديمة وظهرت تفسيرات عديدة ومدارس مختلفة تحاول أن تكشف عن مفهومها ومكوناتها . ففنها من جعلت الأسطورة ظاهرة اجتماعية ، وتمثلاً جماعياً .
وتلك المدرسة الاجتماعية (لينى برول) ترى أن الدين كله هو مجرد حصيلة لظروف اجتماعية معينة وأنه وسيلة من وسائل تنظيم الحياة . ولقد ذهب الأستاذ « دوميزيل » (٣) فى أيامنا هذه إلى القول بأن الأسطورة ليست فقط صورة لبناء اجتماعى معين ، ولكنها أيضاً التخطيط لهذا البناء نفسه .
وإذا كان ذلك صحيحاً ، فإن توزيع العمل واختلاف الطبقات والطوائف فى المجتمع قد أدى إلى اختلاف وظائف ومهام الآلهة . فإذا نظرنا إلى المجتمع المصرى القديم لوجدنا أنه يحوى سبعة طوائف كما يقول هيرودوت وهى : الكهنة ، والهند ، والرعاة ، والتجار ، والصناع ، والبجارة ، والمعلمون . ولذا تعددت الآلهة وتتنوعت .

ونفس الشيء فى الهند ، حيث انقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : هى الكهنة (براهمانا) ، والهند ، والزراع . ولكن الهند قد تميزت بالتمفرقة الحاسمة بين هذه الطبقات ، الأمر الذى لم يكن له وجود فى مصر . وقد تجد المدرسة الجدلية المادية مادة خصبة فى دراسة الأساطير على هذا النحو ...
أما برجسون فكان يرى فى الأسطورة صورة لبناء البيرواجى فى المجتمعات المغلقة . فالدين يربط الفرد بالمجتمع والإنسان بالحياة رباطاً حيويّاً وتكون الطقوس الدينية نوحاً من العمل الجماعى .

(١) نفس المرجع ص ١٢٢ .

(٢) ص ١١٥ .

Dumezil : Jupiter, Mars, Quirinus. Paris, 2, Ed. 1941, p. 15.

(٣)

ولم يكن الدين وبخاصة الأسطورة في نظر ألكسندر كراب A. Krappe تعبيراً عن الإيمان والعقيدة بل عن روح العمل الجماعي (١) .

وانتشرت مدارس التحليل النفسى لتفسير الأساطير ونذكر « ديل » (٢) ، وكارل يونج G. Yung وهذه المدارس التحليلية ترد الدين إلى اللاوعى واللاشعور . بينما يعتقد ماركس مولر أن اللغة هي الأصل في الأسطورة ، وأن كلمة الألوهية وجدت في جميع اللغات السنسكريتية (ديان) والإغريقية (زيوس) واللاتينية (يوفس) والجرمانية (تيو) والكلدانية (ياهو) والصينية (تين) والعربية (الله) والعبرية (إلهون) و (يافة) وفي اللغة الحير وغليفية كان يرمز إليه بثلاثة حروف (ن ت ر) أو (ن ف ر) (٣) .

والحق أن كل النظريات العلمية التي جعلت همها تفسير الأسطورة ، قد غفلت الجانب الهام من ضمير الشعوب ، نعنى الجانب الروحى والمتعالى ، هل يمكن أن يرد الوعى الدينى للشعوب إلى اللاشعور ونظام المجتمع واللغة ؟ إننا بذلك نخط من قدر الإنسان ومن وعيه بعمققة الوجود وجماله . إن الشعور الدينى يجب أن يظل كما هو شعور بالعلو وبأسمى معانى الحق والخير والجمال . إنه شعور الإنسان بالله .

ولقد كانت الروحانية المصرية شفاقة إلى بعد الحدود ، حتى تأثر بها أفلاطون نفسه في الجوانب الإثراقية من فلسفته . وأمدت هذه الروحانية المسيحية بالشهداء والتقيدين . واكشف المصريون قبل غيرهم الجوانب الروحانية في المسيحية واعتنقوها قبل أن يعتنقها الأوربيون والرومان . فكانت لإمبراطورية الرومانية العظيمة تدين بالوثنية حتى اعترف الإمبراطور تسططين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) بالدين المسيحى وجعل المسيحية على قدم المساواة مع الأديان الأخرى ، إلى أن جاء الإمبراطور تيودوسيس (٣٧٨ - ٣٩٥) وجعل المسيحية الدين الرسمى للدولة سنة ٣٨١ م .

واضطهد الرومان المسيحيين من المصريين اضطهاداً شديداً حتى كانوا يسمونهم أشد ألوان العذاب ، فيلقونهم إلى الوحوش المفترسة أو يحرقونهم أحياء . وكان هذا هو عصر الشهداء الذى انتشرت فيه الرهبنة وفر فيه المسيحيون إلى الصحراء حيث أقاموا الأديرة . ولقد أدت المسيحية دورها السياسى فى مصر ، فكانت تقاوم الحكم الرومانى . وبعد اعتناق روما للمسيحية ، انفصلت الكنيسة الشرقية المصرية عن الكنيسة الغربية والمذهب الأورثوذكسى عن المذهب الكاثوليكى . وكان هذا الاختلاف سبباً فى إيقاع البؤس والشقاء بالمصريين .

ثم جاء الفتح الإسلامى المبارك وتألقت الروحانية المصرية وشعشت بنور الإيمان الجديد .

Diel (Paul) : La divinité, Paris 1950.

(١)

A. Krappe : La Genese des mythes. Paris 1938, p. 23-24.

(٢)

Erman A : Worterbuch der Aegyptischen Sprache. Leipzig 1928, p. 358.

(٣)

وكان القائد العربي العظيم عمرو بن العاص قد طلب من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن يأذن له بالسير إلى مصر لأنها أكثر الأرض أموالاً وأهلها أعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم وقال له : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم . ولقد تردد الخليفة في بادئ الأمر وأشفق على المسلمين أن يصيبهم الفشل . ولكن عمرو بن العاص كان يهون عليه فتحها ويعظم أمرها طمعاً فيها ورعة في بحيراتها لأنه وقف بنفسه على أحوالها زمن الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة ، وعرف مدى خصوبة أرضها ووفرة خيراتها . وعندما أذن له بالرحيل ، سار عمرو ويحمله محترقاً ومال سينا حتى وصل إلى العريش سنة ١٨ هـ ، وفتحها من غير مقاومة ، ثم « سلك الطريق الذي كان يسلكه المهاجرون والفتاحون والتجار والحجاج والسائحون منذ أقدم العصور . وهو طريق يوسف عندما سار من الشام إلى مصر زمن الفراعنة وطريق قبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر والإسكندر المقدوني الذي مد فتوحاته إلى الهند » (١) .

ونصر الله المسلمين على الروم نصراً قوياً عزيزاً ، وتم له فتح القسطنطينة والإسكندرية ، وأبرم القوقس نفسه الصلح بين العرب والروم . وفرح المصريون بخلصهم من الروم وحكمهم الطالم ، ودانت مصر للعرب قاصبها وداذيها ، وجمعت على محبتهم .

وإذا أردنا أن نبين دور الإسلام في الحضارة المصرية فإننا نكون بحاجة إلى مجلدات ومجلدات . ولكننا يجب أن نقدم هنا ملاحظتين بالغتين في الأهمية .

١ - لقد تألفت الروحانية المصرية مع الإسلام .

٢ - لقد رد الإسلام إلى مصر استقلالها السياسي .

ولا نعتقد أننا نستطيع أن نفيد شيئاً من المنهج الجدلي في تفسير دور الدين وأهميته في الحضارة المصرية . إن الانتقال من توحيد أختاتون إلى توحيد المسيحية ثم إلى التوحيد في الإسلام كان يسير في طريق واحد ، لا في طرق متناقضة ومتنافرة

يقول هيجل (٢) عن الإسلام إنه « كان ثورة الشرق التي كسرت قيود التبعية والخصومية وطهرت النفس وشعشتها بحمل الواحد المجرد وحدة الموضوع المطلق للوعي الخالص ، وبأن يكون العلم بهذا الواحد هو الغاية النهائية للوجود » . ولقد تميزت النفس العربية برفعها عن الصغائر والضعف والمسكنة ، واتحدت فيها كل فضائل الشجاعة والمروءة مع عظمة النفس وكبرياتها (٣)

وكلما ظهرت هذه النفس النبيلة أمامنا كما يرتفع الموج فوق سطح البحر ، نراها تنطلق في طريق

(١) تاريخ الإسلام السياسي : تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن - القاهرة ١٩٣٥ ، الجزء الأول ص ٣٠٤ .

(٢) دروس في فلسفة التاريخ - ص ٣٢٧ .

(٣) دروس في فلسفة التاريخ - ص ٣٢٩ .

الحرية فلا نجد شيئاً أنزل وأكرم وأشجع ولا أكثر تواكلاً منها^(١). إننا لم نر في التاريخ مثل هذه الحماسة العربية التي صدرت عنها كل هذه الأعمال العظيمة . وكان الإسلام دين المساواة الذي يؤاخي بين الناس ، « فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى » .

٣ - الثقافة والعلم والفن

العلم :

يجلو للمؤرخين والعلماء أن يرددوا ان العلوم كلها قد تأسست في بلد آخر غير مصر نعى في اليونان حيث وضع إقليدس أصول علم الهندسة ، وأرخميدس صول الفيزياء وبقراط أصول الطب وميرودوت أصول التاريخ ... إلخ . كما يؤكد الغريون أن الهندسة والطب والكيمياء وغيرها من سائر العلوم المعروفة ، كانت كلها عند المصريين القدماء فنزوا لا علوماً أى أنهم كانوا يعتمدون على الخبرة والممارسة الشخصية أكثر من اعتمادهم على النظريات العامة . ومعنى ذلك أن العقلية المصرية كانت في نظرهم عقلية فنية تقنية أكثر منها عقلية علمية .

والحق أن هذه الأحكام كلها يجب أن ننظر إليها نظرة دقيقة فاحصة . ويجب أن نؤكد منذ البداية أن المعلومات التي لدينا عن العلم المصرى القديم مازالت حتى اليوم قليلة وغير وافية . ذلك لأن المصريين القدماء قد أحاطوا علمهم بالسرية والكتمان الشديد .

لكن النتائج التي توصل إليها المصريون في مجال الكيمياء والطب والتحنيط والهندسة ، تؤكد أنهم لا بد أن يكونوا قد توصلوا إلى أصول علمية نظرية ساعدتهم في مجال التطبيق العملي . ولقد أظهرت الاكتشافات الأخيرة وبعض أوراق البردى مثل ورقة « إديوين سميث » وورقة « إبرز » Ebrez أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى نتائج هامة في علم الكيمياء . ونحن نساءل كيف يمكن أن تكون كلمة كيمياء معناها العلم المصرى (من خبأ أى مصر) ، ولا نعرف بجهود المصريين في هذا العلم ؟ كذلك في علم الهندسة ، يجب أن نؤكد أنهم توصلوا إلى حساب المثلثات والدوائر . واكتشفت بردية « رند » Rhind وفيها بعض المعلومات التي تفيد ذلك . كذلك في علم الفلك لا ينبغي أن نشك في معرفتهم ببعض أصوله . ولا شك أن بطليموس قد أفاد كثيراً من العلم المصرى القديم .

ولقد أدت مدرسة الإسكندرية دوراً هاماً في تاريخ العلم نتيجة للتفاعل مع الحضارة الإغريقية . ولكننا يجب أن نسجل هنا أن قضية العلم لم تعد في نظرنا اليوم قضية الماضي ، بل هي

قضية الحاضر والمستقبل . فلقد أفاد القدماء من علمهم وسادوا في عصرهم ، وعلينا أن نؤدى نفس الدور بالنسبة لحضارة اليوم والغد .

الثقافة :

أول من عرف أصول الكتابة هم المصريون وكانت لهم ثقافتهم وآدابهم التي يمكن أن نحكم على أصالتها وجمالها . وكانت هذه الثقافة ترتبط بفن الحياة وآدابها . ويجب أن نذكر هنا قصة الفلاح الفصيح في عصر الدولة القديمة إذ أجمع المؤرخون بأنها قطعة فنية رائعة . وهذه القصة تسجل حال المصريين في ذلك العهد وجرأة المواطن المصرى في مواجهة الحاكم إذ يقول له الفلاح رأيت راعيا يجب الموت لرعيته ؟ ... ليتك تتروى فتبلغ العدل ، وإياك أن تقسوا بقدر ما تحس لنفسك من قوة فينا لك الأذى ؛ ليتك تكبج جماح السارق وتدافع عن المحروم ، ولا تثورن على الشاكي . ألا فاحذر لقاء الآخرة ، لقد وقفت لتسمع الشكاية وتفصل بين المتخاصمين ، وتمسك اللص ، والمرء يضع ثقته فيك ، فما لك غدوت معتديا . إنك لتعين السارق ولسوف يضللك خمولاك ويخدعك شرهك ... ليس الخوف منك أيها الحاكم هو الذى يدفعنى إلى أن أشكو إليك ، فأنت لا تبصر ما في قلبى ... اجعل شعارك فعل الخير لمن أحسن إليك ... أما بعد فلنى قد شكوت إليك فلم تستمع لشكواى ولسوف أذهب وأشكوك إلى أنوبيس^(١) .

وكما عبرت الثقافة القديمة عن أسس القيم وأرفعها ، وعن الغايات النبيلة للعقل الإنسانى يتبعى أن تكون الثقافة في الوقت الحاضر صورة رائعة للإنسان المصرى الجديد .

الفن :

يعتبر الفن المصرى القديم من أكبر وأعظم مظاهر حضارتنا الأولى . ويبلغ الفن المعمارى درجة رفيعة عالية ، وعدت الآثار المصرية التي لن يحورها الزمن من عجائب العالم . ويقف الفن المصرى القديم عاليا شامخا مثل « المسلة » التي انبهر العالم بها فوضعها في مكان الصدارة في أوسع الميادين في أكبر العواصم . كما يبدو عظيما مهيبا مثل الأهرامات . وذكر هيجل من بين الصور التي تمثلها المصريون القدماء صورة أبي الهول . وكان لهذا التمثال شأن عظيم لدى القدماء . فكانوا يقدرونه ويتخيلون فيه رمزا لإله الشمس المعروف « حورس » صاحب الأقن . ويحكى أن قناتا مصرية لم يستطع أن يزِيل هذا الصخر من طريق فرعون فتحته على هذا الشكل . أما عن تسميته « فن الراجح أن يكون الكتعايون من الأسرى قد أقاموا حول منطقة أبي الهول يعبدون إلههم حورون (حور-حول) وكان على هيئة صقر . ثم يتطلعون إلى أبى الهول فلا يجدون حرجا في خلق الصلة بين معبودهم وبين إله الشمس الذى عبد في صنم

(١) موكب الشمس : الجزء الأول ص ٧٦ .

أبى الهول والذي دعاه المصريون حور صاحب الأفق : وكان يصور على هيئة صقر أيضاً .
 خلعوا عليه اسم حور وأصبح المصريون والساميون على السواء يقدمون الإله حور : حول في ذلك
 الصنم المصرى القديم . والغالب أن يكونوا قد أسموا المكان من حول الصنم بوحول (بى حول)
 بمعنى بيت حول وأن يكون ذلك الاسم قد حُرف مع الزمن إلى كلمة « أبو الهول » التى يحملها
 التمثال اليوم علماً عليه ^(١) .

وأشار هيجل إلى أن هذا الصنم إنما يرمز إلى الروح المصرية التى تمزج بين المحسوس
 والمعقول ، فنصفه حيوان ونصفه الآخر إنسان . حتى الكتابة المصرية كان أساسها الشكل المحسوس .
 ولكن العجب حقاً أن يرمز المصرى إلى المحسوس بضمخامة الأسد ؟ ويقينى أن التفسير
 بالمحسوس فيه ضعف لا يتناسب مع ما نعرفه عن قوة وشجاعة الإنسان المصرى التى بلغت منذ أقدم
 العصور قوة وشجاعة الأسود . فالأسد يرمز إلى القوة أولاً . ولا أجد لهذا الشكل تفسيراً أقوى
 من قول القدماء أنفسهم : امسكوا أنتم واستولوا أنتم يا أرباب القوة . اشربوا أنتم دماء
 أعدائكم ... إن أجسامكم أجسام أسود فى الدر الخفى .

(١) نفس المرجع ص ٢٤٣ .

الفصل الخامس

الروح المصرى

يرجع الفضل إلى هيجل في الحديث عن الروح المصرى . فهو في نظره يعبر عن ذاته بالمحسوس . ولقد عبر المصريون القدماء عن أفكارهم وتصوراتهم بالرسم والنحت والكتابة المبرر وغيلية ويمكن أن نقول عن هذه اللغة ، إنها تعبر عن روح الفن عند الشعب كله . وكان الروح المصرى وثابا مستقلا عن الروح الإفریقی ، وانتشرت نفعاته على البحر الأبيض . محل التقاء الشعوب والحضارات . . إنها تجد فيه صلابة أفريقيا المكثفة وقد اتحدت بنفحة لانهاية نحو الذاتية الموضوعية . ولكن الروح المصرى لم ينطلق وظلت جبهته محاطة برباط من حديد فلم يستطع أن يصل في تفكيره إلى الوعى الحر والكامل بوجوده . وحاول الروح المصرى أن يتحرر بصعوبة من صور الطبيعة وأشكالها . ولم يتوصل إلا إلى الإحساس الخارجى بذاته الذى عبر عنه بواسطة الفن .

والحق أننا يجب أن نشير هنا إلى بعض جوانب الروح المصرى كما يتمثل في العقلية المصرية وشخصيتها . فالعقلية المصرية عقلية متحضرة خلقت الحضارة وصنعتها وصارعت الوجود وانتصرت عليه . تلك العقلية التى فرضت ذاتها على الوجود جعلت منه آية وخلوداً . وما من أحد يستطيع أن ينكر أصالة الشخصية المصرية التى لم تذب في أية حضارة أخرى .

وجدير بالذكر أن العقلية المصرية كان لها تصور خاص بالعلم وغايته . إذ كانت العقلية الإغريقية تتأمل من أجل لذة التأمل . وكان المفكر الإغريق يهيم بالأفكار حتى تتجسد في عقله فيضعها في عالم آخر يكون هو عالم الحقيقة عنده . أما العقلية المصرية فكانت تتجه نحو العلم النافع للإنسان . كان الإغريق لا يقبلون أن يختلط العلم النظرى بالعلم العملى والتطبيقي : تماماً كما كانوا يرفضون أن يختلط السادة بالعبيد وكانت لهم كراهية شديدة لكل ما هو عملى وتقديس عجيب لكل ما هو نظرى بحت .

أما العقلية المصرية فكانت تقدس العمل كما تقدس النظر . وكان العالم المصرى يتأمل . ويفكر من أجل العمل الذى هو غاية الحياة والوجود . وكان ولا شك تقديره للعلم النافع أى للعلم العملى لا يقل عن تقديره للعلم النظرى البحت . ولا أتصور عالماً مصرياً يقع في الحفرة كما وقع فيها طاليس الإغريق . ومن أجل ذلك كان رصيدنا من العمل كبيراً وعظيماً .

والعقلية المصرية عقلية هندسية . بنى المصريون الأهرامات فكانت معجزة الإنسان على سر العصور . وسرت روح الهندسة في كل مظهر من مظاهر حياتهم الاقتصادية والفنية . وكان المصري يكدّ من أجل العمل ونجاحه .

وما يزيد من قدر هذه العقلية رفعة وسموا ارتباط العقل المصري بالروح والضمير فالخير يملأ قلب المصري ، وكلم قرأنا في الأدب المصري القديم عن الإنسان المصري الذي كان يمتاز رحلة الحياة بقلب سليم وطاهر نقي . وتمضي أجيال وأجيال ويحدث ما يحدث في التاريخ ، ويبقى قلب المصري سليماً نقياً طاهراً .

ولكننا نعود إلى هيجل لتعرف معه : أن القلب وحده لم يعد اليوم كافياً للسير في ركب الحضارة الإنسانية . والروح المصري في حاجة إلى الوعي الكامل والحرب بوجوده .

• • •

ملحق (١)

هيجل في روسيا

حتماً لم يسافر هيجل إلى روسيا يوماً من الأيام! فلم تكن لهذه البلاد شهرة علمية تدفع أهل العلم إلى زيارتها في ذلك الوقت. ولكن الحق أن فلسفة هيجل قد انتشرت في روسيا في حياته وبعد وفاته انتشاراً واسعاً، لا في الأوساط الجامعية فحسب، بل في الأندية الأدبية التي كان يجتمع فيها المثقفون من الشباب والشيوخ.

وقد ظلت فلسفة هيجل حية في روسيا منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر حتى الخمسينات منه، وكان استقبال الروس لهذه الفلسفة طوال هذه السنوات استقبالا حافلاً يفوق في حده استقبال الألمان لها. كانت بالنسبة إلى الأدباء والمفكرين مدرسة الفكر التي تخرجوا فيها، وكانت بالنسبة إلى الشعب المتطلع إلى المعرفة أملاً ونوراً.

ولابد أن نتأمل في هذا الموقف الرائع الذي جمع الشعب والمفكرين وراء نفس الأهداف الفكرية والروحية. إنه يؤكد نهضة الأمة الروسية التي هبت عن بكرة أبيها، لا فرق فيها بين الخاصة والعامة، لتسير في موكب العلم والمعرفة، ولا شك أن روسيا القيصرية قد عانت كثيراً من ظلمات الجهالة والعبودية، ولكن على الرغم من ذلك فهي الأمة الروسية تنهض من سباتها وتكسر قيودها وأغلالها، وتخرج من كهفها تطالب ببعث جديد. وقبل كل شيء، فإن هذا الموقف الرائع كان إيذاناً بالثورة الفكرية والروحية قبل الثورة السياسية في روسيا! كان الشعب يتطلع إلى معرفة الحقيقة والعدالة والحق، والحرية والجمال والتاريخ! كان الشعب يطالب بمعرفة كل شيء على حقيقته، ويطلب بمعرفة نصيبه من العدالة والحق والحرية. ويطلب أيضاً بمعرفة تاريخه الماضي ليقننهم به تاريخه الحاضر. هذا ومع انتشار الحركة الرومنسية، كان يريد أن يرى مثل غيره من الشعوب الجمال متألقاً في الطبيعة!

فلسفة مفتوحة

وكان من حسن الحظ أن فلسفة هيجل لم تكن فلسفة مغلقة، تبحث فقط في المعاني الفلسفية التي لا يفهمها غير المتخصصين من الفلاسفة. إنما كانت فلسفة مفتوحة تبحث أيضاً في القضايا التي يهتم الشعب عادة بها. فبجانب ظاهريات الروح والمنطق، كتب هيجل فلسفة التاريخ وعلم الجمال وفلسفة القانون! وما التاريخ في مفهوم هيجل إلا تاريخ الشعب نفسها!

وما الجمال إلا في الصلة بين العمل الفنى وروح الشعب وماهيته ! وما القانون إلا التشريع الذى يكفل للشعب العدالة والحرية ! ومن هنا كان رواج هذه الفلسفة بين صفوف الشعب في روسيا . ومن الآثار الطيبة التى كانت لانتشار هذه الفلسفة في روسيا أنها بصرت الأمة الروسية بحقيقة ذاتها وكشفت لها عن دلالة وجودها وتاريخها . وساعد انتشارها على نشأة فلسفة قومية وطنية لروسيا . وانتقل الحماس لهيجل إلى حماس لروسيا نفسها . وهكذا أنارت هذه الفلسفة للأمة الروسية طريق الحياة .

بدأ الاهتمام بدراسة أثر هيجل في روسيا في ثلاثينات هذا القرن وبالتحديد منذ سنة ١٩٣١ عندما أتى م . د . تشيخفسكى بجنا عن هيجل « في الشعوب السلافية » في المؤتمر الذى عقده جمعية الدراسات الهيجلية في لاهاي ونشر ضمن أعمال هذا المؤتمر (هرلم سنة ١٩٣١) . ثم تلاه بحث آخر نشره م . جنسيكوف في المجلة الفلسفة المدرسية الجديدة ، في العدد الخاص الصادر في ميلانو سنة ١٩٣٢ . وكان موضوعه « الهيجلية في روسيا » . ثم نشر م . ج . جانيف مقالة عن « هيجل في روسيا » سنة ١٩٣٢ في مجلة الدراسات الأدبية وتاريخ الفكر ، التى كانت تظهر في برلين بصفة دورية كل ثلاثة شهور . أما عن تصنيف المؤلفات التى ظهرت في هذا الموضوع فنجد أولاً تصنيفاً في مجلة الفكر الروسى (براج ١٩٣٢) وقد نشره ب . ياكوفنكو ، وتصنيفاً ثانياً في كتاب الرائد الأول لهذه الدراسات نعى به م . د . تشيخفسكى الذى كتبه باللغة الروسية عن « هيجل في روسيا » ، ونشره في سنة ١٩٣٤ ، ثم نشره مرة أخرى في باريس سنة ١٩٣٩ . وهذا فضلاً عن المجلد الخم الذى ظهر في مجموعة تاريخ الهيجلية في روسيا في براج سنة ١٩٣٨ . ومن الممكن بل ويكاد يكون من المؤكد ، أن هناك دراسات أخرى في هذا الموضوع لم تصل إلينا .

لماذا . . هيجل ؟

وقد نتساءل ، ما هى الأسباب التى دعت إلى اهتمام الروس بفلسفة هيجل في ثلاثينات القرن التاسع عشر؟ وجوابنا أن هناك آراء عديدة في هذا الموضوع .

يعتقد الأديب المذكور كيريفسكى مثلاً أن انتشار فلسفة هيجل يرجع أولاً إلى إلمام الروس باللغة الألمانية . وكان يقول نحن نقرأ الفكر الألمانى باللغة الألمانية ، كذلك فإن الأفكار الفلسفية (الألمانية) قد انتشرت عندنا بصورة واسعة . . حقاً ، لقد ساعدت معرفة الروس باللغة الألمانية ، على انتشار الفلسفة الألمانية بعامة والهيجلية بخاصة . ولكن هذه المعرفة وإن كانت شرطاً من الشروط الضرورية لفهم هذه الفلسفة ، إلا أنها ليست هى الشرط الوحيد . وقد ظلت مؤلفات هيجل مجهولة في روسيا طوال عشرين عاماً بعد ظهورها على الرغم من معرفة الروس باللغة الألمانية .

هناك رأى آخر يقول بأن تاريخ انتشار فلسفة هيغل يرجع أولاً إلى تاريخ نشر مجموع مؤلفات هيغل في روسيا سنة ١٨٣١ . وهذا التاريخ فعلاً قد اتفق عليه المؤرخون والفلاسفة بوصفه بداية انتشار الميغيلية في روسيا . حقاً من الممكن أن تكون مؤلفات هيغل قد عرفت قبل ذلك بين المتخصصين من الفلاسفة ؛ ولكن لا شك أن نشر فلسفة التاريخ وعلم الجمال وفلسفة الدين وفلسفة القانون قد ساعد أكثر الناس على فهم هيغل . وهذا الرأى وإن كان يبدو صحيحاً ، إلا أنه لا ينسر لنا تماماً مدى اهتمام الروس بفلسفة هيغل . فلماذا كان كل هذا الاهتمام بفلسفة هيغل ؟

يعتقد بعض المؤرخين أنه كان من الطبيعي أن ينتقل اهتمام الروس إلى فلسفة هيغل بعد اهتمامهم بفلسفة شلنج في عشرينات القرن التاسع عشر . وما حدث ، في ألمانيا ، كان لا بد أن يحدث في روسيا أيضاً . فهيجل في نظرهم يكمل الحركة الفكرية التي بدأها شلنج . ولكن هذا الرأى ليس صحيحاً تماماً . فنحن لا نجد أحداً من المفكرين الذين اهتموا بشلنج من أصبح هيجلياً بعد ذلك . ولقد انتشرت فلسفة شلنج في روسيا على أيدي علماء الطبيعة والأطباء مثل فلننسكى وبافلوف بينما انتشرت فلسفة هيغل على أيدي رجال القانون والأدباء من أمثال ريديكين وكرييوف وكيريفسكى .

كل هذه الأسباب في الواقع قد تكون هي الأسباب الخارجية التي هيأت الجو لانتشار فلسفة هيغل . ولكن وراءها يكمن السبب الرئيسي الجوهرى الذى دفع الشعب الروسى إلى الاهتمام بفلسفة هيغل إلى حد كبير . هذا السبب هو في اعتقادنا رغبة الشعب نفسه في المعرفة وتطالعها إلى الفلسفة كصدر للمعرفة التي ينشدها . وهذا الحساس الفاسفة هو الذى جعل الأمة الروسية تتلطف فلسفة هيغل وكأنها قد وجدت فيها ضالتها المنشودة . كان الشعب الروسى لا يريد فلسفة تبحث في تفسير الكون وأصله ونشأته إنما كان يريد فلسفة تفسر له التاريخ وبعبارة أدق تفسر له تاريخ روسيا نفسها ، تفسر له ماضيه ووجوده الحاضر . ولقد وجد الشعب الروسى في فلسفة هيغل العظيمة صورة مكتملة للمعرفة التي ينشدها ويتطلع إليها .

ومع رغبة الشعب في المعرفة كان هناك مفكرون ينقلون إليه أفكار هيغل . وأول رائد نشر أفكار هيغل في روسيا هو بيتر جريجيو ريفتش ريديكين (١٨٠٨ - ١٨٩١) . ولقد لعب ريديكين دوراً كبيراً في الحياة الفكرية في روسيا حتى قال عنه «أبلون جريجوف» إن جامعة موسكو قد أصبحت بفضل ريديكين جامعة هيغلية . وقال أيضاً في مسرحيته المشهورة «الأنانية نوعان» : «إننا لا نجد في موسكو غير الميغيلين . وقد يكون في كلامه الذى جاء في هذه المسرحية الهزلية شيء من السخرية ، ولكنه يعبر عن حقيقة ما جرى في موسكو حيث أصبح فيها كل فرد هيجلياً .

كان ذلك في سنة ١٨٢٩ ، عندما سافر الطالب بيتر ريدكين في بعثة علمية إلى ألمانيا من أجل الحصول على شهادة عليا تؤهله التدريس بالجامعة . وعندما حضر ريدكين إلى برلين أو كعبة العلم كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت ، كان هيجل في أوج شهرته . فاستمع إلى محاضراته في فلسفة القانون ، كما استمع إلى محاضرات جانس وسافينيبي - ولكن منذ اللحظة الأولى انطبعت روحه بالهيجلية ، ونذر نفسه لنشر هذه الفلسفة في بلاده . وعاد ريدكين إلى موسكو في سنة ١٨٣٤ ، وعين مدرسا محاضراً ثم أستاذاً في كلية الحقوق سنة ١٨٣٥ .

عاد إذاً إلى موسكو الرجل الذي عرف هيجل واستمع إليه وتحمس له . عاد ليتقل الهيجلية بصورتها ومضمونها . ومع أن ريدكين كان أستاذاً في كلية الحقوق إلا إنه قد تعلم من هيجل كيف يعطى الصدارة للمسائل الفلسفية والأخلاقية . فكان يلقي على طلبة السنة الرابعة محاضرات في فلسفة القانون وتاريخ هذه الفلسفة وكان يتعمق كثيراً في هذه الدراسات ، غير أنه كان عادة لا يتجاوز دراسة التاريخ القديم عند أفلاطون وأرسطو وشيشرون .

ويقول عنه تلميذه أختانسييف في كتابه عن جامعة موسكو بين سنة ١٨٤٣ ، ١٨٤٩ ، إنه كان يلقي محاضراته بلهجة حمزسية خطابية . وهو مازال يذكر أول درس ألقاه ريدكين عليه وعلى طلبة السنة الأولى بالجامعة . إذ بدأه بسؤال وجهه إلى الطلبة الحاضرين فقال : أيها السادة ، لماذا جئتم إلى هنا ؟ ثم تولى هو الإجابة عن هذا السؤال بقوله : إنكم جئتم إلى الجامعة من أجل معرفة الحقيقة ولكي تتولوا في بلدكم مهمة الدفاع عن العدالة .. إنكم أنتم رسل الحقيقة وحماة العدالة واختتم ريدكين درسه بكلمته المأثورة . كل شيء زائل إلا وجه الحقيقة .

وجه الحقيقة

كان ريدكين هيجلياً معني بكل الكلمة . كان هيجل في نظره أعظم فلاسفة الألمان جهيمهم . وقد وضع محاضراته طبقاً لأصول فلسفة هيجل ومبادئها . فكل درس من دروسه كان ينقسم إلى ثلاثة أجزاء ، ثم ينقسم بعد ذلك كل جزء إلى ثلاثة أقسام فرعية وهكذا دواليك ، وكل مبدأ من مبادئ القانون كان يمر بثلاثة مراحل . فهو يصور أولاً بصورة غامضة ولاشعورية من عادات الشعب وتقاليده . ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية التي يصدر فيها القانون عن الشخصية المشرعة الواعية . ثم تأتي أخيراً المرحلة الثالثة من التشريع التي يتم فيها التأليف بين المرحلتين السابقتين ، وهي ثمرة جهود المشرعين والقضاة من أبناء الشعب الذين يعبرون جيداً عن حاجاته وآماله . ويرد للقانون إلى أصوله الشعبية تنتهي حلقة تطوره .

وإذا كان أخانسييف قد أحسن وفاء وتقديراً لأستاذه ، فإن هناك تلميذاً آخر لريدكين هو تشيتشرين ينفي كل أصالة فلسفية لأستاذه ويعيب عليه تمسكه الصوري والشكلي بمراحل التطور الثلاث عند هيجل . وما يذكر أن تشيتشرين قد أوجد قسمة رباعية لحالات التطور تحمل محل القسمة الثلاثية التي ينادى بها هيجل وأتباعه . وهو يقول عن ريدكين في كتابه الذكريات « فوسيومينائية » : كنت أبحث في كلامه عن مضمون حي لقتضيات العلم ، فلم أجد إلا عرضاً صورياً ولغوياً من الكلام .

ويبدو أن تشيتشرين لم يعجب لا بتفكير ريدكين ولا بأسلوبه . فريدكين في نظره لا يتمتع بأية موهوبة ، وهو ينقل أفكار هيجل نقلاً من غير تعديل أو تجديد . وكان بأسلوبه السطحي الجفاف لا يعرف يعبر بوضوح عن أفكاره . ولكننا نلاحظ أيضاً أن تشيتشرين قد تناقض في كلامه بعد ذلك فاعترف بأن أستاذه كان يعرض كل علم من علومه القانون في صورة منسقة ، وأنه كان يربط بين التصورات الفلسفية والتصورات القانونية ربطاً منسقا . ثم إنه يعرف أيضاً بفضلته في إدخال المعاني الفلسفية مثل العدالة والحرية في تدريس علم القانون . وقد نجح في بيان الهدف من وجود القانون في الدولة ، ألا وهو تحقيق الخير المشترك ، والغرض من وجود الدولة ألا وهو تحقيق الوحدة بين العدالة والحرية من أجل الصالح العام .

كما أضاف تشيتشرين بأن أستاذه كان دائماً أبدأ متحمساً لقضية العدالة ، وأنه كان ينقل حماسه إلى مستمعيه من الطلبة فيدفعهم إلى التفكير الفلسفي ، ويدفعهم إلى حب الأفكار الخالدة مثل الحقيقة والخير .

هذا هو ريدكين الأستاذ الذي ألهم بحماسة لقضية العدالة حماس الجيل الناهض من الشباب في روسيا ، فعلمهم أن رسالتهم في هذه الحياة هي خلعمة العدالة والحقيقة والحرية .

ولكن ماذا ترك لنا ريدكين من مؤلفات ؟

نشر ريدكين مجموع محاضراته في « تاريخ فلسفة القانون » في أواخر أيامه في سبعة أجزاء (١٨٩٠) . وهذا التاريخ يتميز بلغة مصادره في التاريخ القديم ، كما أن فيه ترجمة شافية للنصوص القديمة . ويبدو أن ريدكين في هذه الفترة الأخيرة من حياته بدأ يشق لنفسه طريقاً جديداً للتفكير وبدأ يتحرر من سلطان هيجل عليه . ولكن هذه مسألة أخرى . فنحن لا نستطيع أن نمجد فعلاً إلى أي مدى استطاع ريدكين أن ينحرف من نفوذ هيجل المطلق عليه . أنه ولا شك لم يغير شيئاً من مبادئ هيجل الرئيسية .

وفي الوقت الذي كان يلقي فيه محاضراته ، وقبل أن يفكر في نشرها ، كان قد كتب في سنة ١٨٤٠ ملخصاً واضحاً لمنطق هيجل نشرته له مجلة « الموسكو فيتانين » . وفيه يبين كيف تقابل

مبادئ التفكير النظرى مبادئ التفكير التحليلى عند هيغل ، وكيف تنقلب التطورات إلى أصدادها . كما أكد أهمية الجدل ، لا فى التفكير النظرى وحده ، بل فى الوجود العيى أيضاً . أن موضوع المنطق هو الفكر ، ولكن ينبغى لنا أن نفهم الفكر بمعنيين مختلفين تماما . بمعناه الذاتى الخالص بوصفه عملية معينة للتفكير الإنسانى ومعناه الموضوعى بوصفه نشاطا متعلقا بموضوع ما ، أى بوصفه تفكيراً أو تأملاً فى شىء ما . ولما كانت الحقيقة لا تعطى لنا على نحو مباشر لأنه ليس عندنا أى شعور مباشر بها فإنه لابد من أن نلجأ إلى التأمل من أجل الكشف عن الماهية الحقيقية للموضوع . ومن ثم فنحن لا نبلغ المعنى الحقيقى للموضوع إلا بواسطة التأمل . ولذلك ينبغى لنا أن نميز بين الحقيقة الموضوعية التى نصل إليها بالتأمل والتي يجب أن تتميز عن الحقيقة الذاتية التى تأتينا عن طريق تمثلائنا الحسية للعبة السماوية . فوظيفة التأمل هى الارتفاع بالمعطيات الحسية إلى الكلية والموضوعية . وعلى ذلك فالتأمل هو فى الوقت نفسه نشاط ذاتى للفكر بوصفه ملكة من ملكات الذات ونشاط موضوعى يبلغ الحقيقة الموضوعية للشيء .

وإذا كان المنطق يهتم بدراسة الفكر منظوراً إليه فى ذاته ، فهذا لا يعنى على الإطلاق أن المنطق يقتصر على دراسة الصورة الخالصة والمجردة للفكر . بل على العكس ، يجب أن يكون المنطق مادياً وصورياً معاً ، لأن شكل المعرفة لا يتعارض مع مضمونها ولا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر . والحقيقة الموضوعية التى يهتم المنطق بدراستها هى فى اتفاق الفكر (الصورة) مع الموضوع المفكر فيه (المضمون) . وهذا هو التفكير النظرى . ولكن الفكر يظهر فى ثلاث صور مختلفة : الفكر المجرد أو الذهن ، والفكر الجدل ، والفكر النظرى .

منطق هيغل

فالذهن (رازدوك) يبحث فى العمومية ولكنه لا يصادف غير العمومية المجردة التى لا تتجلى بالجزئيات والمستقلة عنها . والفكر المجرد الذى يتجه فى اتجاه واحد يعد ناقصاً . وقد يكون ضرورياً ولازماً فى ذاته ، ولكنه يصبح باطلاً عندما تقف عند حده . فلا بد إذاً من أن نتجاوز حدود الذهن . ذلك لأنه إذا وقفنا عند حد التفكير المجرد ، فإن الفكر يتناقض مع نفسه وينقلب الفكر المجرد بالضرورة إلى نقي لذاته . وهذه المرحلة الثانية للفكر ، نعى بها مرحلة الجدل . وأنا كأن الجدل ليس ضرباً من الشك ، فإن النقي لا يمكن أن يكون هو المرحلة الأخيرة فيه . إنما الفرض من النقي والجدل أن يرتفع الفكر إلى درجة الفكر الوضعى بوصفه الوجه الثالث والأخير للفكر . وبذلك يصبح النقي لحظة من لحظات الجدل التى يتجاوزها الفكر ذاته لى يبلغ الحقيقة .

ويتهى عرض ريديكين الموجز لمنطق هيغل ، بتأكيد الرابطة الضرورية بين المنطق وسائر

العلوم الأخرى . فيقول أن المنطق لن يبلغ قيمته الحقيقية إلا عندما يتجلى لنا كنتيجة للتجربة والمعارف المكتسبة في العلوم الأخرى ، وعندما يتبدى لنا لا كعلم جزئي ، بل بوصفه الحقيقة العامة ويوصفه ماهية كل علم .

هذا العرض البسيط والموجز الذي يقلمه لنا ريدكين عن منطق هيغل ، وإن كان لا يدل بالطبع على دراسة متعمقة لهذا المنطق ، إلا أنه يدل على اهتمام خاص بتعريف الحقيقة وبيان مضمونها . وفضلاً عن ذلك فهو يدل على رغبة أكيدة . نشر هذا التعريف على الملأ . إن الحقيقة الموضوعية هي في اتفاق الفكر مع الواقع وبهذا الاتفاق ينتهي التفكير المجرد وتتبنى الآراء الذاتية .

إن إيمان ريدكين بفلسفة هيغل هو إيمان بالحقيقة التي يقول عنها كل شيء زائل إلا وجهها! هذا هو ريدكين أول من رفع لواء الهيغلية في جامعة موسكو . ولقد ساندته في دعوته د. كريوكوف الذي تعلم مثله أصول الهيغلية . برلين . ولكن كريوكوف قد وصل إلى برلين في سنة ١٨٣٢ أى بعد وفاة هيغل . ومع ذلك فقد ظل وافياً مخلصاً لفلسفته .

كان كريوكوف أستاذاً بارزاً للغة اللاتينية وشخصية مرموقة في جامعة موسكو . حتى إن تشيتشرين الذي لم يعجب بتفكير ريدكين ولا بأسلوبه ، قد امتدح ذكاه اللامع ومعرفته العميقة بالدراسات القديمة . وقال عنه هرزن : كان لامعاً ، ذكياً ، عالماً . وقال سلوفيف المؤرخ عنه : كان كريوكوف يثير دهشتنا ، وكان عقله يمتليء دائماً بالأفكار الجديدة .. كان يغرس فينا البذور الطيبة وكان يعلمنا كيف نفكر . وما يذكر أن سواروفيف اهتم بالفلسفة بعد استماعه إلى محاضرات كريوكوف .

ولقد لمعت شخصية كريوكوف خارج الجامعة في الأندية الأدبية في صالونات « موسكو . وفي وجوده كم من مناقشة اشتعلت حول الوجود والعلم ! وكان دائماً يدافع عن هيغل وخاصة عن منطق هيغل ويعترض على هجوم خومياكوف عليه .

والآن نتساءل ، ما هي مؤلفات كريوكوف ؟

لقد أثر كريوكوف بشخصيته أولاً . لم يترك لنا مؤلفاً واحداً ، ولم يفكر حتى في نشر محاضراته كما فعل ريدكين في أواخر أيامه . إنما ترك لنا مقالتين جميلتين في مجلة « الموسكوفيتانيين » الأولى عن « طابع المأساة عند طاسيت » مؤلف تاريخ الرومان (٥٥ - ١٢٠ ميلادية) ، والثانية عنوانها « بضع كلمات في الفن المسرحي » . وفي هاتين المقاليتين يتكلم كريوكوف عن التاريخ والفن ، يتكلم عنهما كما يتكلم كل أديب رومنتي . ويتكلم عنهما أيضاً بروح وبنسجة هيغلية صادقة .

يرى هذا المفكر ، أن الفن تعبير رائع وضروري عن حياة الشعب الروحية مثل الفلسفة والقانون تماما . وكل عمل فني إنما هو تعبير عن حياة الشعب وفي حالة ازدهارها ، يصبح العمل الفني تعبيراً صادقا عن ماهية الروحية . وفي هذه الهوية بين الضمير الباطن للشعب والعمل الفني الخاص يحيا الضمير القوي في سلام . وهنا تنشأ الفضائل العالية ويتم الأعمال العظيمة في التاريخ . ولكن كثيراً ما يحدث أن يعيش بعض الأفراد النابهين من أبناء الأمة في عزلة بعيدة عن رغبات الشعب وآماله . وقد يحدث ذلك ، لأنهم لم يجدوا في تراثهم القوي ما يشقى غليلهم وترتوى به نفوسهم . ويقول كريبتوكوف لقد حدث أن عاش المفكرون في بلاد اليونان في حالة من العزلة الفكرية في وقت من الأوقات ، فاحتموا في ذاتهم عندما لم يجدوا في دينهم الشعبي الحسي شيئاً ترتضى به نفوسهم . فكان أفلاطون يبحث عن ديانة روحية تحل محل الديانة الشعبية التي بدأت تنهار تحت نقد السوفسطائيين لها . وحين انفصلت حياة الشعب تماما عن حياة الطبقة المفكرة ظهرت دعوة جديدة إلى الفلسفة الذاتية عند أنكساغوراس وسقراط . فعندما لا يرضى المفكر بالواقع الذي يعيش فيه ، يخلق لنفسه عالماً خاصاً .

ويعتقد كريبتوكوف أنه إذا عاش المفكرون في حالة من العزلة : لا ينظرون إلى حاضرهم ويفرون عن واقعهم ، فإنهم يشعرون بعذاب النفس والضمير ، كما أن انفصال الطبقة المفكرة عن الشعب يؤذن بهلاك الأمم وصوت الشعوب .

الطبقة المفكرة والشعب

ولقد حدث هذا التعارض بين الطبقة المفكرة والشعب في عصر الانحلال الروماني أي في العصر الذي عاش فيه طاسيت . ولقد أخذ هذا الصراع صورة عنيفة في مأساة الأمة التي وقعت ضحية الصراع بين إرادة الأفراد وإرادة العامة والحطية هنا مشتركة تقع على عاتق الخاصة والعامة معا ، وإرادة الخاصة . كانت ظالمة ، وإرادة العامة كانت ظالمة أيضاً ، ومن أجل هذا حق عليهما الموت ، وبالتالي موت الحضارة الرومانية نفسها . ولقد عاش طاسيت مأساة الأمة الرومانية حين تكلم ضميره الإنساني . إنه روماني كتب عليه أن يشهد موت الحضارة الرومانية وأن يحيا مولد الحضارة الجرمانية .

كان كريبتوكوف يريد في الحقيقة ما يريده هيجل ، كان يريد من أبناء الشعب أن يعبروا عن أمانيه أو كما يقول عن ماهيته الروحية .

وهناك مفكر آخر عرف هيجل جيداً ، ولكنه لم يصبح هيجلياً على الرغم من إعجاباه

الشديد بهيجل ودعوته إلى قراءة مؤلفاته . هذا المفكر هو كيريفسكى . قرأ لهيجل في برلين ، قرأ له موسوعة العلوم الفلسفية وقرأ له المتلق . والحق أننا لا نجد عنده حماس ريدكين وكريوكوف ، إنما نجد عنده دراسة فاحصة وناقلة لفلسفة هيجل . فإعجابه بهيجل لم يأخذ بعقله أو بقلبه حتى ينسى أن الفلسفة التي ينبغي أن تغرس بجذورها في روسيا لا يمكن أن تكون الفلسفة الألمانية بل الفلسفة الروسية . كان كيريفسكى في الحق أكثر المفكرين الروس حكمة واتزاناً .

عاش كيريفسكى من أجل أمل واحد وهو أن يرى لروسيا فلسفة قومية تعبر عن حياة شعبها وتاريخه ، عن آماله وعن روحه . هذا الأمل الذي لم يستطع أن يحققه قد ساعده على الأقل في فهم هيجل من غير أن ينقله نقلاً . فإذا كان هيجل قد قال كل ما يمكن أن تقوله الفلسفة الغربية فلي الروس الآن أن يقولوا كلمتهم . إن الفلسفة الحقة في روسيا لا يمكن أن تكون هي الفلسفة التي تنقل عن شلنج أو هيجل . إنما الفلسفة الروسية الأصلية هي التي تتبع من ضمير روسيا نفسها حتى تصبح الفلسفة الروحية للشعب الروسي نفسه .

وفي سنة ١٨٣٠ سافر كيريفسكى إلى برلين وهو شاب في الرابعة والعشرين من عمره ، وقد قص علينا حياته في برلين في رسائله التي تركها لنا وخاصة في المجموعة الخاصة من رسائله التي تعرف باسم الرسائل البرلينية . وهو يقول لنا إنه كان لا يفوته حضور محاضرات شلايماخر في الساعة الثامنة صباحاً ، وأنه كان يفضل الاستماع إلى دروس ريتز في الجغرافيا على دروس هيجل نفسها . ذلك لأن هيجل كان من عاداته أن يتكلم بصوت خافت هادئ ، وكانت كلماته لا تصل إلي حتى يحدث ما لم يكن يتوقعه كيريفسكى نفسه ألا وهو زيارته لهيجل والتعرف به . ولقد أحسن هيجل لقاء الشاب الروسي الذي أعجب من جانبهِ ببساطته وعمقه .

ولم يكن إعجاب كيريفسكى بشخصية هيجل وحدها ، بل أعجب أكثر وأكثر بمذهبه وفلسفته . فهو يسلم بلا جدال بأن مذهب هيجل يمثل قمة بناء الفلسفة الغربية ، وهو كلمتها الأخيرة لامن الناحية الزمنية ، بل من الناحية الفكرية . ولن يوجد بعد هيجل إلا من يردد هيجل . فهو نهاية تطور الفكر الغربي وبه تنتهي حلقة تطوره . إن هيجل قد وضع مذهباً فلسفياً كاملاً ، ومعه تنتهي قصة الروح الذي وصل إلى المعرفة التامة والكاملة .

فلسفة مجردة ونظرية

يسلم كيريفسكى بذلك ولكنه يرفض أن يكون هيجلياً . إنه ينقد هيجل قدراً نحن جميعاً في حاجة إلى معرفته . إن فلسفة هيجل هي في نظره فلسفة مجردة ونظرية . إنها مبنية على سلطة وتفوق الفكر المجرد الخالص . وهذه الفلسفة المجردة قد فصلت بين عقل الإنسان ووجدانه ،

بين مشاعره وإرادته . حقاً إن هيجل نفسه ينقد الفكر المجرد ، ولكنه في نقده هذا لم يستطع أن يتحرر تماماً من سلطان العقل النظري عليه .

إن هيجل يمثل في نظره المذهب العقلي . فهو متأثر بالتراث الأرسطي والمدرسي . وهو يقارن بين أرسطو وهيجل فيقول : إن المبادئ التي نستخلصها من مؤلفات أرسطو - لا المبادئ التي يقتنع هيجل بها هي نفس المبادئ التي فرضها الشراح عليهم .. والتفكير اللبلى الذي يجرى اكتشافه إلى هيجل كان موجوداً قبل أرسطو نفسه عند الإيليين . حتى إننا حين نقرأ برمينليس لأفلاطون إنما نشعر بأن تلميذ برمينليس هو الذي يتكلم . وهذا معناه أن هيجل ليس أول من رأى في الجدل المهمة الرئيسية للفلسفة . إن الأستاذ البرليني يرى في الجدل قوة سحرية قلب كل فكرة معينة إلى ضلها ويخرج منها نبعا جديداً ، ويضع تصورات الوجود واللاوجود والسيورة بوصفها عمليات الفكر التي تشمل كل الوجود وكل المعرفة . ولكن ليس هو أول من رأى ذلك . إن الفرق ، بل وكل الفرق بين الفلاسفة القدماء والمحدثين هو تنسيق الأفكار والتوسع فيها وإثرائها بالعلوم المكتسبة طوال مئات من السنين (نيف وألفين) . أما المبادئ والأصول التي ارتفع العقل إليها فهي تظل كما هي . إن العقل الإنساني يقف دائماً في نفس مستواه ولا يصل إلى مستوى أعلى منه . إنه يرى دائماً نفس الحقيقة ولا يرى أبداً أبعد منها . وكل ما هنالك أنه كلما تقدم العلم والزمن به رأى هذه الحقيقة في أفق أكثر وضوحاً .

ويعتقد المفكر الروسي أن هناك قرابة قوية بين عقلية الرجل الغربي وعقلية أرسطو . ولقد قامت الحضارة الأوربية الغربية على أساس المشاركة الوجدانية بين الرجل الغربي وأرسطو .

وهيجل في نظره قد انتهى إلى نفس النتائج التي انتهى إليها أرسطو في فلسفته : هذا على الرغم من أن أرسطو قد بدأ من نقطة أخرى غير التي بدأ منها هيجل . حتى إن أرسطو لو بحث حياً في عصر هيجل لبني مذهبه بالصورة نفسها التي بنى بها هيجل . حقاً ، إن صوت العالم الغربي الجديد إنما هو صدى لصوت العالم القديم !

وهناك نقد آخر يوجهه كيرتفسكي إلى هيجل ، وهو نظره إلى الإنسان ككائن مجرد . هذا الإنسان الذي أصبح عقلاً مجرداً قد فقد إحساسه بالجمال وشعوره بالواجب . إن هيجل قد وقع في نفس الخطيئة التي وقع فيها أرسطو ، وهي الفصل بين عقل الإنسان ووجدانه . وهكذا ضاعت وحدة الإنسان ! إن كيرتفسكي يبحث عن هذه الوحدة ، إنه يريد إنساناً كاملاً لا إنساناً مشوهاً قد فصلت رأسه عن جسده . إن الإنسان الحي ليس عقلاً مجرداً . وهذا ما يبعد كيرتفسكي عن الحضارة الغربية كلها . حتى أنه في الحقيقة حين يوجه نقده إلى هيجل وأرسطو الذي يخفى من ورائه ، إنما هو يوجه نقده إلى الفاسقة الغربية كلها .

ولم يجد كيرينفسكى فى فلسفة هيجل شيئاً يمكن أن يرضى ميوله الدينية القوية. فإنه هيجل
المجرد لا يستمع إلى دعاء أحد، ولكن من يتوجه بالدعاء إليه ؟ هل هو الإنسان المجرد ؟ إن
العقل المجرد لا قدرة له على الصلاة والدعاء .

هذا هو كيرينفسكى المفكر الأديب الروسى الذى عرف هيجل ونقد فلسفته ورفض أن يصبح
هيجليةً . إنه روسى أولاً ، والدعاء التى تجرى فى عروقه دماء روسية شرقية. إنه برغم إعجابه
بالحضارة الغربية يرفض أن يصبح أوروبياً ، ألمانياً أو فرنسياً ؟ إنه يتطلع إلى فلسفة قومية تعبر
عن آماني أمته وآمالها .

ملحق (٢)

هرزن واليسار الهيجلي

الفلسفة كالبحر تتحرك فيه الأشياء وتحيا في أعماقه . والشئ المتجمد والمتحجر حين يسرى في تيارها الذي لا أول له ولا آخر ينصهر كما ينصهر في نار حمئة . ويبقى دائما سطحها اللامحدود كسطح البحر ، مصقولا ، هادئا ، وشفافا ، يعكس نور السماء .

اهرزن

هرزن مفكر ثائر ، دفعته الحياة إلى الثورة : والثورة إلى الفكر والعمل . وهو كسائر المفكرين الروس الذين عاشوا في أربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر ، قد تأثر بهيجل إلى حد كبير . ولكنه لم يتأثر به كما تأثر ريديكين وكرييوكوف وكيريسفكي ، فهناك التزام فكري كانت تفرسه الثورة عليه ، وهو أن يكون يسارياً . فلا يحق لثائر أن يكون يمينياً . ولقد كان هرزن أول وأكبر ممثل اليسار الهيجلي في روسيا ، وقد يكون من بين الهيجليين الروس : اليساري الوحيد الذي مازلنا نذكره حتى الآن .

وإذا كان اليمينيون لا يهتمون إلا بالآراء النظرية وحدها ، فإن اليساريين هم الذين يربطون الفكر بالعمل . فما فائدة النظر الذي لا يهدى إلى العمل ؟ وما الغرض من الفلسفة التي لا ترجع إلى عمل ؟ الفكر سلاح ونور للحياة ، ولكن هل من الممكن أن يكون الفكر غاية في ذاته ؟ إن النظر لا يبرره غير العمل ، ولا ينبغي أن ينفصل الفكر عن الحياة . إن الفكر اليميني الذي لا يهتم إلا بالآراء النظرية وحدها ، إنما هو يوجه نظره نحو الماضي المتجمد والمتحجر . أما المفكر اليساري فهو ينظر دائما إلى الحاضر الحي . وكان هرزن يقول : نحن مسئولون عن الحاضر . ولماذا نعيش على ذكريات الماضي ونترك الحياة تمضي من غير أن نلتفت إليها ؟ إن المفكر اليساري يجد نفسه ملتزما بأن يصنع التاريخ ، وأن يعمل في الحاضر من أجل الإنسان والمجتمع . ولقد كان المجتمع الروسي يبحث في ذلك الوقت عن معنى وجود الذات ، عن معنى حاضره ومستقبله . كان يبحث عن فلسفة التاريخ وفي فلسفة الفن وفلسفة الدين عن ماهيته القومية الخالصة فسار هرزن في هذه الحركة ، سار مع جموع هذه الأمة التي كانت تدق على أبواب عالم جديد .

هرزن . . . الثائر

لكن من هو ألكسندر إيفانوفيتش هرزن ؟

إذا أردنا أن نفهم شخصية هرزن الثائرة فلا بد أن نذكر شيئاً عن نشأته الأولى . فقد شاء القدر أن يولد ابناً غير شرعي لسيدة ألمانية من مدينة شنتجارت ، ولسيد نبيل من أعرق الأسر الأرستقراطية في روسيا هو إيفان ألكسيفيتش هرزن . وهكذا وهبه القدر الحياة ليصارع الحياة . وقد تأثر الطفل الذي امتزجت فيه اللغمة الروسية باللغمة الألمانية في نشأته الأولى بمحضرتين مختلفتين ، الحضارة الروسية الشرقية والحضارة الألمانية الغربية . فقد عهد أبوه بتعليمه إلى سيدة ألمانية هي « فراو برفو » لتلقنه أصول اللغة الألمانية ، وقامت على تربيته مربية (نيانيا) روسية هي « فيرا أرتمنوفا » ، فعلمته اللغة الروسية ، وملأت قلبه وروحه بحب روسيا . ونشأ ألكسندر هرزن في بيت أبيه يتلقى أصول العلم والتربية مثل سائر أبناء الطبقة الأرستقراطية . ولكنه في الحقيقة كان يختلف عنهم من ناحيتين ، الأولى : هي إتقانه للغة الألمانية منذ حداثة ، مما ساعد على قراءته روائع الفكر الألماني في وقت مبكر . والثانية : أنه لم يكن للتربية الدينية أي أثر في حياته الأولى . فكان أبوه يعتقد أن الغرض من الدين هو السيطرة على الشعب ، وأنه لا ينبغي أن يؤثر على عقول وقلوب أبناء الطبقة الأرستقراطية . لذلك ففي الوقت الذي كانت تدين فيه روسيا كلها بالأرثوذكسية كان هرزن بعيداً كل البعد عن روح الدين . ولم تحاول أمه من جانبها أن تجعل منه بروتستانتياً لوثرياً مثلاً . وكل ما فعلته أنها قرأت معه الإنجيل والتوراة .

ومع ذلك ، فهناك شيء واحد جعل هرزن شبيهاً بأقرانه الأطفال على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية . هذا الشيء هو شغفهم جميعاً بسماع تاريخ روسيا الحاضر . فلم يكن تستهويهم حكايات السحرة والساحرات (بابا ياجا) بقدر ما كانت تستهويهم حكايات حرب نابليون وحصار موسكو ومعركة بورودينو ومعااهدة باريس وانتصار الروس . وكانت مربيته فيرا أرتمنوفا هي التي تنشده له هذه الملحمة الرائعة كأنها الإلياذة أو الأوديسا . وهكذا كان تاريخ روسيا الحاضر هو الذي ملأ قلبه وعقله وخياله .

وفي التاسعة من عمره ، تعلم اللغة الفرنسية مع مدرس فرنسي هو « بوشو » وقد إلى موسكو من مدينة منتر . ولقد ساعدته معرفته لهذه اللغة على الاطلاع على الكتب الفرنسية التي كانت تزخر بها مكتبة أبيه ، وكان أكثرها من روايات القرن الثامن عشر مثل : لولوت وفانفان : جالك ، وجورجيت : ألكسيس ، أو بيت الغابة الصغير ... إلخ . كما قرأ أيضاً لافونتين وبورشيه (زواج فيجارو) وكان في الوقت نفسه يقرأ بالألمانية كتب الجغرافيا والتاريخ الطبيعي . وهكذا نشأ

هذا المفكر الحى الحر شغوفا بمعرفة العلوم الطبيعية وأكثر ميلاً إلى الواقع منه إلى الخيال . وبدأت ثورة هرزن على الحياة حين تكشف له زيف الحياة التى يجيئها بدأت يقظة الناظر حين شعر بمرارة الظلم الذى تفرضه المجتمع عليه وعلى أمه . وكان حينئذ فى الثانية عشرة من عمره . فتحرك وجدانه وضميره نحو الشعب الذى عاهد نفسه أن يكون دائماً معه لا عليه ثم بدأت الآراء الديمقراطية والآراء التحررية أو الليبرالية تصل إليه . فسمع كما سمع الناس جميعهم عن ثورة ١٤ ديسمبر وعن موت الأحرار أمثال ريليف ، وباستل . وتوطدت عرى الصداقة بينه وبين طالب من كلية الطب هو « برتويوبوف » . وكان الصديق ينقل إليه الأفكار الثورية التى كانت تجرى تحت الستار بين طلبة الجامعة . وكان يقرأ معه القصائد والكُتب التى كانت تمنعها الرقابة ، مثل قصيدة بوشكين « إلى الحرية » و « الخنجر » وغيرها ، وقصائد ريليف « دوى » ، و « فوينا روفسكى » كما قرأ معه كذلك مؤلفات بلوتارك وقطاع الطرق لشيلر . ونضجت عقلية الشاب الثورية تحت تأثير هذه القراءات كما تنضج الثمرة تحت أشعة الشمس . وفتح عقله للأدب والفلسفة كما تفتح الزهرة لنور الصباح .

وقرأ هرزن مع صديق آخر هو أوجاريف ، الرسائل الفلسفية لشيلر كما قرأ جوته . وتأثر بهما إلى الحد الذى جعله يقول : كنت أستلنى أحياناً فوق التل وأقرأ شيلر بصوت عال فكان يخيل لى أن هذا الامتداد اللانهائى هو امتداد لذاتى أنا ، وأن جسمى هو هذا التل مع كل ما يحيط به . وكان يبدو لى أن الحياة تنبض فيه كما تنبض فى أى جسم حى . وأحياناً كنت أشعر بضياعى فى هذا اللانهائى كورقة فى مهيب الريح . وكأن الحياة التى ترفع الجبال وتشف الوديان تنفصل عن الأرض وتتأمل ذاتها فى ذاتى أنا ..

إن هرزن الذى تأثر برومانسية شيلر قد تأثر أيضاً بروحانية جان جاك روسو . فقرأه مع صديقه باسك الاعترافات ، والعقد الاجتماعى وهلويزا الجديدة . واستطاع أن يجمع بين أفكار شيلر الإنسانية ونظرية المساواة الطبيعية عند روسو .

ثم بدأ التيار الرومانسى يتحول فى روسيا تحت تأثير شلنج إلى المثالية المتعالية . ويذكر أن آراء شلنج فى فلسفة الطبيعة انتشرت أولاً فى الأوساط العلمية وبخاصة بين الأطباء من أمثال فلنسكى وبافلوف وأصبح شلنج رسول الفكر فى روسيا . وكان من الطبيعى أن يتأثر بفلسفة شلنج بعد أن عرفها عن طريق أحد أساتذة كلية الطب ، ونفى به أبولنسكى . وقد أعجب بقول شلنج : الفن يشير إلى أسرار الطبيعة ، ولكن العلم وحده هو الذى يكشف لنا عن حقيقة هذه الأسرار . إن العلم والفن شقيقان والفلسفة المتعالية هى نتيجة اتحادهما معا .

ولكن فى الوقت الذى كانت تنتشر فيه فلسفة شلنج المتعالية كانت تنتشر أيضاً آراء الماديين الشعب والتاريخ

والحسين من فلاسفة القرن الثامن عشر من أمثال هولباخ وكونديلياك . وفكر هرزن في دراسة هذه الآراء على حقيقتها ، فكر في دراستها علمياً حتى يمكنه الرد عليها ، ولذلك التحق بكلية العلوم بجامعة موسكو في سنة ١٨٢٩ . وتعد مرحلة التعليم الجامعي مرحلة جديدة في حياة هرزن العقلية . فقد كانت الجامعة ديمقراطية بروحها وكيانها ، يتساوى فيها أبناء الطبقة الفقيرة مع أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة الأرستقراطية . كانت الجامعة تفتح أبوابها أمام كل طالب يجتاز فيها امتحان القبول بنجاح . وكان طلبة الجامعة على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية من أنصار الآراء الثورية الحرة .

حياة داخل الفلسفة

ومن حسن الحظ أن إدارة الجامعة كانت قد تغيرت . فقد كان على رأسها قائد عسكري هو الجنرال بيسارييف ، ألغى الفلسفة من برامج التعلم ، كما فرض على مدرسي التاريخ برنامجاً خاصاً أخذ عن جامعة قازان والقديس بطرس . ونص في لأئحة الجامعة على أن الغرض من التعليم هو تفنيد كذب السوفسطائيين ، والرد على سخيف المدرسين ، وتقويض شك الفلاسفة الزائعين (فلاسفة القرن الثامن عشر) . فعين الأمير جولسين الذي اشتهر بميله إلى الآداب والفنون مديراً للجامعة خلفاً لبيسارييف في سنة ١٨٢٨ . واستطاع فعلاً أن يغير النظام العسكري الذي كان قد فرضه زميله السابق على الجامعة . ولكنه لم يستطع أن يعيد الفلسفة إلى برامج التعليم . وعلى الرغم من ذلك كانت الفلسفة تدرس في الواقع مع علم الفيزياء . وكان القائمون بتدريس هذه المادة يشيرون دائماً إلى فلسفة الطبيعة عند شالنج . ولا عجب ، فقد كانت الفيزياء التي تدرس عندئذ في جامعة موسكو هي الفيزياء النظرية البحتة . أما الفيزياء التجريبية فكانت تأتي في المرتبة الثانية لتأكيد النظريات العلمية وتحققها . ولذلك كان أساتذة العلوم يتمتعون بقدر كبير من الثقافة الفلسفية .

ويعتقد لابرى في كتابه (ألكسندر هرزن - باريس ١٩٢٩) ، أن هرزن قد تأثر في ذلك الوقت بمفكر آخر غير شلنج أو أوكني وهو فيكتور كوزران الذي بدأ ت آراؤه تنتشر في روسيا بصورة شعبية . ولكن الحق أن التأثير الذي لم يقنع تماماً بآراء شلنج في المثالية المتعالية ، لم يقنع تماماً بآراء كوزران في فلسفة التاريخ للحاضر أنه كان يبحث عن شيء آخر غير المعنى التاريخي أو الماضي ، كان يبحث عن فلسفة للتاريخ تحدد مصير الإنسان في هذا التاريخ .

ثم بدأ يقرأ لسان سيمون ولكنه نظر إلى الفلسفة السانسيمونية الجديدة على أنها امتداد وتوسع للفلسفة الألمانية . وعرف آراء سان سيمون في فلسفة التاريخ ومنهجه في العلوم الإنسانية ، ونظريته الاشتراكية ، وبدأت فكرة الصراع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة تتضح أمامه - فقرأ لفيكو

ولنتسيكو ولهردر ، وتبين له منذ ذلك الوقت أن المشكلة الرئيسية في المجتمع الحاضر هي عدم توافر الحرية السياسية التي تطالب بها الاشتراكية .

ولم يكمل هرزن دراسته الجامعية في كلية العلوم . فقد حكم عليه بالسجن بتهمة التآمر على سلامة الدولة . وقبض عليه في ٢١ من يوليو سنة ١٨٣٤ وأودع في سجن برم في ٣١ من مارس سنة ١٨٣٥ ، وتعلم هرزن في السجن اللغة الإيطالية وكتب في أول بحثه له « الأمل المسافر » . اتجه إلى قراءة الكتب الدينية : الإنجيل وحياة القديسين . وقرأ داني بلغته الأصلية . وبدأ هرزن يفكر في فكرة خلاص الإنسانية من آلامها . فكتب قصة « القديسة تيودورا » وفيها يبشر بملكوت الله . ولكنه ملكوت تحكمه الآراء السانسيمونية ، فلا يتحقق فيه الإخاء والسلام إلا بتحقيق الحرية السياسية في المجتمع . إن هرزن لم تكن تعنه مشكلة الألوهية بقدر ما كانت تعنيه مشكلة الإنسان وحرية .

وفي العاشر من أبريل سنة ١٨٣٥ ، نقل هرزن إلى المعتقل السياسي في فياتكا ، بالقرب من حدود سيبيريا . وكان هرزن يمضي أيامه يقرأ مؤلفات فترج الصوفي (تلميذ يعقوب بهمه) .

الحاضر هو الحياة

وكانت الليالي تمضي في فياتكا ، وهرزن يترقب لحظة الحرية . وفي ديسمبر سنة ١٨٣٧ ، نقل إلى مدينة فلاديمير بالقرب من موسكو في انتظار الإفراج عنه . وأصبح هرزن يفكر ويتأمل في حاضر روسيا . إن الماضي لا يجيأ من جديد ، أما الحاضر وجهه فهو الحياة . إنه يفكر في روسيا كما هي في الواقع ، لا كما بصورتها في كتب التاريخ . ومن أجل روسيا أصبح يتطلع إلى حياة حرة للتفكير والعمل ، يتطلع إلى نور الحرية المشرق البسام .

وأخذ هرزن ينشغل بالمسألة التي شغلت أذهان أكثر المفكرين في عصره ، وهي أهمية القرن التاسع عشر في التطور التاريخي للإنسانية بين الحاضر والمستقبل . وظهر كتاب سيروفسكي « مقامة في فلسفة التاريخ » (برلين سنة ١٨٣٨) ، فبادر بقراءته . إن هذا الكتاب الذي يعد نقطة التحول الثوري في التفسير السياسي لهيجل ، كان له أكبر الأثر في توجيه هرزن نحو اليسار الهيجلي قبل أن يقرأ مؤلفات هيجل ذاتها .

وكانت الآراء اليسارية قد بدأت تنتشر في ألمانيا ، ولكنها كانت تدور كلها حول التفسير الثوري للدين . فصدر كتاب هنريشر عن « الدين من حيث علاقته مع العلم » في سنة ١٨٣٢ ، وكان هنجشتنبرج يوجه إلى فلسفة الدين نقداً عنيفاً في جريدة الكنيسة الإنجيلية التي أسسها في سنة

١٨٢٧ . ولكن كتاب شتراوس عن حياة المسيح (برلين ١٨٣٥ - ١٨٣٦) هو الذى حدد ورسم طريق اليسار الهيجلى ، مع أنه لم يرسمه ولم يحدد ه إلا فى اتجاه واحد ، هو اتجاه الدين لا غير . لذلك فكر الشباب الهيجلى فى تطبيق التفسير الثورى الجديد للهيجلية على السياسة . كان هيجل يقول : « إن طائر منيرفا لا يصحوا إلا عندما يسدل الليل ستاره » (تصدير فلسفة القانون) . ومعنى ذلك أن الغرض من الفلسفة هو فهم الواقع وتسجيل ما حققه العقل فى التاريخ . ولكن التاريخ ليس الماضى والحاضر ، إنه المستقبل أيضاً ، مستقبل الإنسانية الحرة . لذلك كان لابد من نقل حركة الجدل من الحاضر إلى المستقبل حتى يكون الجدل أداة للعمل السياسى . وكان سيزففسكى أول مفكر استطاع أن يستخلص من فلسفة هيجل نظرية للعمل السياسى تتفق مع الأهداف الثورية التحررية .

نظرية ثورية جديدة

ولكن ما هو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه هذه النظرية الثورية الجديدة ؟ يقول سيزففسكى إن العقل القادر على تصور المطلق ، قادر أيضاً على تصور تجليه فى الزمان ، وعلى تصور نمو الفكرة . فى المستقبل . لقد استطاع هيجل أن يستخلص من الماضى قوانين التاريخ ولكن فى استطاعتنا نحن أن نغير العالم بواسطة هذه القوانين .

إن تاريخ العالم يعبر عن نمو الفكرة أو الروح ، ولكن هذا التعبير لم يكن حتى الآن تعبيراً كاملاً عن النشاط الشعورى للإنسان وعن إرادته العاقلة . إن فلسفة هيجل النظرية لا يمكن أن يكون لها أى أثر على مصير الإنسانية ، ولذلك فإن سيزففسكى يريد فلسفة تحدد السير العقلى للتاريخ فى المستقبل . إن معرفة المستقبل ليس نبوءة بل تنبؤ . وفى إمكاننا أن نضع تخطيطاً عاماً للتاريخ فى المستقبل .

ولكن هذه الفلسفة الجديدة التى يطالب بها سيزففسكى هى فلسفة للعمل (براكسيس) ، فلسفة تحمل الإنسان على صنع المستقبل بدلا من أن يكون أداة لاشعورية أو ألعوبة فى يد التاريخ وكان يقول إن الفلسفة بإمكانها أن ترسم هيكل التاريخ وبذلك تصبح فلسفة تطبيقية .

إن هيجل قد وقف فى منتصف الطريق ، ولكن لابد من السير قدما فى طريق الجدل لنحدد المستقبل . ولذلك فإن سيزففسكى لا ينظر إلى الماضى أو إلى الحاضر إلا من أجل تحديد صورة المستقبل . ولكن كيف يمكن أن يتم هذا التحديد القبلى للمستقبل ؟ لا شك أن سيزففسكى يؤمن بدور العقل فى التطور التاريخى ، ولكنه لا يؤمن به كما آمن به المصلحون فى عهد الإصلاح أو الفلاسفة فى عصر الأنوار . إنه لا يسلم حتى بدور العقل الذى حدده هيجل . فالفكر عند هيجل لا يعنى إلا بالواقع ، واقع العالم والواقع السياسى والاجتماعى . ما الفكر عند سيزففسكى

فهو يحدد برنامج العمل في المستقبل . ويمكننا أن نقول إن هذه هي مهمة الرئيسية للفلسة في نظره .
والحق أن كتاب سيز فسكى قد دفع هرزن إلى قراءة هيغل . ولكنه كما ذكرنا كان هيغلياً
قبل أن يقرأ حتى مؤلفات هيغل في سنة ١٨٤١ .

التبرير العقلي للواقع

وأراد هرزن أن يفسر في ضوء اليسار الميغلي ، عبارة هيغل المشهورة : كل ما هو واقع
فهو عقل ، وذلك بالنظر إلى الوجود القوي لروسيا . فكان يتساءل : هل الواقع الروسي واقع
عقلي ؟ وما هو التبرير العقلي لهذا الواقع ؟ إن المفكر الذي يؤكد أن هذا الواقع عقلي - وهو
المفكر اليميني - قد لا يعرف معنى العقل ، أو قد ينمخر من الناس . إن هذا الواقع هو واقع
الأضداد ، ولا بد من الثورة للتأليف بين الأضداد ، إن الجدل لا بد أن يتحقق في المستقبل
ثما في الماضي ، إنه ليس رياضة منطقية بل هو نمو الحقيقة وتطورها . وهو يبحث في مؤلفات
هيغل عن « شفرة الثورة » ثما فعل بكونين من قبل . إن الحقيقة لا تستنبط من المبادئ لأنها
عندئذ ستصبح كاملة جوفاء لا معنى لها . ولسنا في حاجة إلى إخفاء الحقيقة وراء الأساطير . إن
الحقيقة التي تتضح في الواقع ، هي التي تصبح أكثر تألقاً وإشراقاً . حقاً إن منطق هيغل يعبر
عن قمة الفكر الألماني . ولكن هذا المنطق لا يمكن أن يعبر عن الحركة والحياة ، أو عن الوجود
الذي يمتلي بالحياة . إن المنطق يبدأ حين تخمد الحركة والحياة في الوجود . قد يكون فوق الوجود
ولكنه ليس الوجود ذاته . إن التاريخ حركة مد وجذر بين النهائي واللا نهائي ، ولكن هذه الحركة
لا يمكن أن تتوقف في الحاضر أبداً : إن هيغل يبدأ من المجرد إلى العيني : ولكن المجرد يفرض
العيني الذي تجرد عنه . ثم يقول هل يعبر التجريد حقاً عن الوجود ؟ هل هناك وحدة بين
الوجود وفكرة ؟ إن فلسفة الطبيعة وفلسفة التاريخ كانتا تمثلان عند هيغل المنطق التطبيقي .
ولكن لم يكن من الأفضل أن يجعل المنطق الصورة المجردة للطبيعة والتاريخ ؟ إن الخطيئة الأولى
التي لازمت المفكرين حتى الآن ، هي الفصل بين الفكر والوجود العلمي المتحرك . إن العالم المادي
يكون وجوده الخاص والوضعي والمتعين خارج الفكر الإنساني . ولكن لا بد من فهم هذا الوجود
المتعين بالعقل . والفكرة وحدها هي التي تعبر عن هذه المعقولة . إذاً فهناك تناقض بين الوجود
المادي والفكر المجرد . ولكن هذا التناقض لا بد أن يكون تناقضاً نسبياً !

وطالما أن التناقض بين الفكر والوجود المادي هو تناقض نسبي فإنه بإمكان الإنسان أن يفهم
الطبيعة . لقد أراد البعض أن يضعوا حاجزاً فاصلاً بين عالم الإنسان وعالم الطبيعة . ولكن هذا
التعارض بين الإنسان والطبيعة هو كالتعارض بين الطين الموجب والسالب في المغناطيسية . فكلاهما
يجذب الآخر

إن الطبيعة تقف أمامنا كالتمثال الإغريقي ، فصورتها الخارجية هي وسيلته في التعبير عن ذاته . ولكن الإنسان يحاول أن يبحث عن معنى الطبيعة وراء صورتها الخارجية . أما هرزن فيقول : إن كل من يحمل الطبيعة موضوعاً لبحثه فهو ميتافيزيقي بهذا المعنى .

الكلمة والإنسان

إن الطبيعة حركة دأمة وتيار جارف ، ولا يمكن أن تتوقف حركة الطبيعة أمام أى إنسان كما توقفت الشمس أمام يوشع . ومع ذلك فإن الإنسان هو الذى بارك الطبيعة حين أطلق عليها اسمها وحين كشف عن معنى وجودها . فالإنسان هو هذا الكائن الرائع الذى استطاع أن ينظر إلى الطبيعة وأن يتكلم عنها . وبالكلمة استطاع أن ينقذ من العدم كل ما صادفه في طريق الحياة . ولكن هل الكلمة وحدها تكفى لرفع التناقض بين الأضداد ؟ هل الفكر وحده ، أو هل الفلسفة وحدها هي التى يمكن أن ترفع نظرياً هذا التضاد ؟

كلا ، إن العمل وحده أو الحياة وحدها هي التى يمكن أن تؤلف بين الأضداد ، إن الإنسان بالعمل يتحقق في واقع الحياة ويبلغ الأبدية في الزمان ويصبح اللانهائى ، فيمثل بذلك ذاته والجنس الإنسانى كله . وهكذا يكون عضواً حياً وواعياً في زمانه . إن هيجل قد وضع المبادئ ولكنه لم يستخلص منها جميع النتائج الممكنة . وقد يكون هيجل قد أشار إلى العمل ، ولكنه مع ذلك لم يعط للعمل كل أهميته في الحياة . ذلك لأنه ربط بين الفكر والواقع . فكان يقول إن مهمة الفلسفة هي فهم ما هو موجود لأن ما هو موجود هو العقل وكما أن كل شخصية هي نتاج عصرها ، فإن الفلسفة هي عصرنا مدركاً بالفكر ، وإنه لمن غير المعقول أن تتجاوز الفلسفة العالم المعاصر لها . إذاً فالفلسفة النظرية عند هيجل هي التعبير الكامل عن حاضرنا ، هي صورة الواقع الذى لا حيلة لنا فيه . ولكن لا بد من أن يعود الفيلسوف إلى الواقع الحى وإلى الحياة . وكما أن الحياة لا تتوقف فكذلك الفكر لا ينبغي له أن يتوقف عند أية فلسفة !

ويقول هرزن ، أن التاريخ هو الذى يربط بين الطبيعة والمنطق . فالتاريخ وحده هو الذى يجعل الانتقال من الطبيعة إلى المنطق أمراً ممكناً . وقد يكون المنطق أكثر عقلاً من التاريخ ، ولكن التاريخ كثر إنسانية من المنطق : والإنسان وحده لا الطبيعة ، هو الذى يدخل في حياة التاريخ وكان هرزن يقول : إن الروح اللانهائى يحيا في صدر الإنسان ، ولذلك فرض الإنسان قوته وعقله على الطبيعة .

والإنسان الكامل في نظر هرزن هو الإنسان الذى يتكلم باسم الحقيقة . نعم لا بد أن تعلق كلمة

الحق ، لأن الحق لا يلفظ تحت الثلوج . ولقد أهدى هرزن كلمته الحرة إلى الأمة الروسية . فدافع عن الشعب الروسي في رسالة رائعة وجهها إلى ميشيليه المؤرخ الفرنسي الذي كان يتهم الروس بأنهم قد فقدوا إحساسهم بالخير والشر ، والذي قال أن الروسي بطبيعته يكذب دائماً . ويسرق دائماً . . وكان رد هرزن دفاعاً جيداً عن أصالة الشعب الروسي .

فأكد له في العصر الثوري لم يعد لكلمة الخير أى معنى مطلق . فالمفهوم القديم للعدالة ليس هو المفهوم الجديد لها . ولقد عاشت أوروبا قديماً في ليل مظلم لا عدالة ولا مساواة فيها . ولكنها اليوم عرفت معنى العدالة والمساواة .

وإذا نظرنا إلى الشعب الروسي لوجدنا أنه ظل طوال قرنين من الزمان في صراع صامت مع السلطة الحاكمة . وكانت غاية القيصرية هي الدفاع عن حقوق قيصر . أما الفلاح فكانت لا تحميه العدالة ولا القانون . . ولذلك كان لا يثق في عدالة قضائه . وكان يفهم جيداً أن الغرض من « العدالة » هو تسخيره في العمل وابتزازه ماله . فهو في نظر العدالة القائمة سارق إذا أخفى جزءاً من إنتاج عمله . وهو كاذب إذا أنكر حق الأغنياء عليه . وهكذا عاش للفلاح الروسي دليلاً لا يسعد ببراءته ولا يشقى باتهامه لأنه يعلم جيداً أنه في كلتا الحالتين لا حول له ولا قوة له أمام القانون .

إن الفلاح الروسي لا يكذب إلا إذا شعر بالظلم والجور . وكان هرزن يقول : لا بد أن تكون قد رأيت بعينك هذا الفلاح وهو مائل أمام القضاة . إنه يقف صامتا كالأبله وفي عينيه نظرة باهتة حزينة . إنه يشعر وكأنه مسافر قد وقع في أيدي عصابة من قطاع الطرق . . إن الفلاح لا يسرق من فلاح مثله ، ولا يكذب على فلاح آخر . بل إن بينهم ثقة ومودة لا حد لهما . وسوف يكون الفلاح الروسي هو إنسان المستقبل في روسيا .

انتفاضة الشعب الروسي

وكان هرزن يؤمن بانتفاضة الشعب الروسي ويقظته ، وكان يؤمن بالثورة التي ستعطى للفلاح حقه في الحياة . وكان يقول إن الاشتراكية سوف تتحقق في روسيا الجديدة . إن الاشتراكية هي الغاية ولكنها غاية من أجل الحرية . وبذلك يكون إيماننا بالمستقبل أكبر من إيماننا بالحاضر .

ولقد غادر هرزن روسيا في سنة ١٨٤٧ إلى باريس . وظل يدافع فيها سبعة عشر عاماً عن الاشتراكية . وكان يريد الاشتراكية التي تحقق الحرية والسيادة للفرد في المجتمع . ذلك لأن إيمانه بالثورة كان يقترن دائماً بالإيمان بالإنسان وبقيمة الحياة الإنسانية .

ولقد أسس في باريس مجلة « النجم القطبي » دفاعا عن حق شعبه : وعن حقوق شعوب الإنسانية جمعاء وكان شعار هذه المجلة هو أن الاشتراكية لا ينبغي أن تلغى الحرية للفرد في المجتمع هذا هو ألكسندر هرزن المفكر الثائر . لم يكن صاحب مذهب فلسفي منسق ولكنه كان صاحب رسالة إنسانية . لم يعيش من أجل فكرة مجردة ولكنه عاش من أجل الفكرة التي تضيء طريق الحياة .

Georg Wilhelm Friedrich Hegel
(1770 — 1831)

هيجل

- درس في معهد توينجن الديني وكان زميلاً لشلنج وللشاعر هولدران .
- انتقل إلى ميينا سنة ١٨٠٦ وعمل مدرسا مع شلنج .
- عين أستاذاً في جامعة برلين سنة ١٨١٨ حتى وفاته في سنة ١٨٣١ .

مؤلفاته :

- ١٧٨٨ : كتب بحثاً عن الكتاب الرومان والإغريق .
- ١٧٨٩ : ترجم رسائل الكاتب الثائر كارت J. J. Cart .
- ١٧٩٠ : حياة المسيح .
- روح المسيحية ومصيرها .
- ١٨٠٧ - ظاهريات الروح .
- ١٨١٢ - علم المنطق .
- ١٨١٧ - دائرة المعارف للعلوم الفلسفية .
- ١٨٢١ - مبادئ فلسفة القانون
- ١٨٢٠ - ١٨٢٩ : محاضرات في برلين عن فلسفة الجمال .
- ١٨٢١ - ١٨٣١ : في فلسفة الدين
- ١٨١٩ - ١٨٢٨ : في تاريخ الفلسفة .
- ١٨٢٢ - ١٨٣١ : في فلسفة التاريخ .

ملحوظة: رجعت إلى الترجمات الفرنسية لهذه الأعمال كما بينت في الهوامش .

أهم المراجع الأجنبية

- Cornu (A) : Karl Marx et Engels. Paris 1955.
- D'Hondt : Hegel philosophe de l'histoire vivante Paris 1966.
Hegel Secret Paris 1968.
- Hugh : Theethical theory of Hegel. Oxford 1921.
- Hyppolite : Genese et structure de la phenoméologie de l'esprit de Hegel Paris.
- Marsx : Oeuvres complètes. Trad. fr. J. Molitor.
- Platon : Oeuvres complètes. Ed. La Pleiade.
- Popper (Korl) : The open society and its enemies. London 1966.
- Schilling (Kurt) : Histoire des idéessociales Trad. fr. Paris 1962.
- Séc (Henri) : Les origines du capitalisme moderne, Paris 1946.

أهم المراجع العربية

- دكتور أحمد بدوى : فى موكب الشمس ، الجزء الأول سنة ١٩٤٦ - الثانى ١٩٥٠ .
- ابن لياس : تاريخ مصر المشهور ببداية الظهور فى وقائع الدهور - مصر سنة ١٣١١ هـ .
- سليم حسن : تاريخ مصر القديمة ، مطبعة الكوثر - مصر ١٩٤٠ (٩ أجزاء)
الأدب المصرى القديم مصر ١٩٤٥
- ابن قتيبة : الإمامة والسياسة مصر ١٩٠٤ .
- السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دمشق ١٣٤٩ هـ .
- المقرئى : الخطط المقرئية مصر ١٣٢٤ هـ .

للمؤلفة

I. L'Acte et les sources de la philosophie de Louis Lavelle.

Thèse principale pour le Doctorat ésLettres.Sorbonne-Paris.1956.

II La diale ctique

Thèse complémentaire pourleDoctorat és Lettres. Sorbonne-Paris
1956.

- ١ - مقدمة لكل ميتافيزيقا مقابلة- ا. كنت (كنط) ترجمة نشرت في الدار القومية للطباعة والنشر، تحت إشراف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب - المكتبة العربية ١٩٦٨،
مراجعة : الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي .
- ٢ - تأملات ديكارتيّة : إدموند هوسرل
المدخل إلى الظاهريات - ترجمة نشرت في دار المعارف ١٩٧٠ .
- ٣ - النقد في عصر التنوير : ا. كنت (كنط)
تأليف - نشر في دار النهضة العربية ١٩٧٢ .
- ٤ - الشعب والتاريخ : هيجل
تأليف - دار المعارف ١٩٧٥ .
- و مجموعة من البحوث نشرت في حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس من
١٩٥٨ - ١٩٦٤ .
- في الإعداد :
- فلسفة القيم .

المفهرست

صفحة	
٥	مقدمة
الباب الأول	
٩	أفلاطون : شعب بلا تاريخ
١١	الفصل الأول : صراع في المدينة
١٧	الفصل الثاني : الكلمة والشعب
٣٥	الفصل الثالث : مأساة الحكيم
٤٠	الفصل الرابع : الدولة المدينة
٥٠	الفصل الخامس : الفيلسوف المتوج
الباب الثاني	
٧٧	هيجل في عصر الثورة
٧٩	الفصل الأول : رأى هيجل في الثورة
٨٥	الفصل الثاني : الثورة الفكرية في فرنسا
١٠٤	الفصل الثالث : هيجل والفكر الفرنسي
١١٠	الفصل الرابع : هيجل والتنوير
الباب الثالث	
١١٥	أصالة الحضارة والتاريخ
١١٧	الفصل الأول : الروح والتاريخ
١٢٦	الفصل الثاني : الحضارة ومقوماتها
١٥٩	الفصل الثالث : أصالة التاريخ
الباب الرابع	
١٧٣	فلسفة لكل الشعوب
١٧٥	الفصل الأول : التاريخ التأمل

صفحة	
١٨١	الفصل الثاني : التاريخ الفلسفي أو فلسفة التاريخ
٢٠١	الفصل الثالث : ماركس وفلسفة الحضارة الصناعية

الباب الخامس

٢٣٧

مصر : الشعب والتاريخ

٢٣٩	الفصل الأول : اسم مصر - المقريزي
٢٤١	الفصل الثاني : تاريخ مصر
٢٤٣	الفصل الثالث : فلسفة الحضارة المصرية أو مصر الحضارة
٢٤٩	الفصل الرابع : فلسفة الحضارة المصرية
٢٦٦	الفصل الخامس : الروح المصري
٢٦٨	ملحق (١) : هيجل في روسيا
٢٧٩	ملحق (٢) : هرزن واليساراهيجل
٢٩٠	أهم المراجع

رقم الإيداع	١٩٧٦/١٨٣٧
الترقيم الدول	ISBN ٩٧٧-٢٤٦-٠٨٧-٤

مطابع دار المنار، بمصر
١٩٧٦

